

الحضارة العربية

تأليف

ج. هـ. س. ريس

ترجمة : غنيم عبدون
مراجعة : د. أحمد فتّار الأهواني



دار المصرية للتأليف والترجمة

الحضارة الغربية

تأليف
جاك س. ريسلر

أستاذ بالمعهد الاسلامي بباريس

مراجعة
الدكتور أحمد فؤاد الأهواني

ترجمة
غنىم عبدون

الدار المصرية للتأليف والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

يتخذ المؤلف الحضارة العربية موضوعاً لكتابه ويبقى عايم - كما كثيراً من الأضواء المنصفة ويؤكد أنها كانت صاحبة السبق بين حضارات العالم أجمع وأنها أم الحضارات جميعاً وعنها أخذت الحضارة الأوروبية وتأثرت بها وتفاعلت معها ، وما زال تأثيرها باقياً وخالداً في شتى الحضارات .

وقد تناول المؤلف الحضارة العربية بكل ما تحتويه هذه الكلمة الكبيرة من معان ، بل وكل ما يتصل بها من قريب ومن بعيد لذلك فقد نقل المؤلف نصوصاً كثيرة متباينة عن مختلف أعلام العرب الذين كان لهم شرف إرساء أسس الحضارة الإسلامية .

وقد أفرد المؤلف فصولاً قيمة عن الرسول عليه الصلاة والسلام بوصفه باعث هذه الحضارة وتناول حياته من مولده حتى مماته ، كما تحدث عن القرآن الكريم ونقل عنه كثيراً من النصوص الدينية .

والنصوص الكثيرة التي نقلها المؤلف من القرآن الكريم وأحاديث الرسول وأعلام العرب وقصائد الشعراء والأدباء وأهل الحكمة والفلسفة والمتصوفة والمؤرخين . . كل ذلك قد تطلب منا القيام بعملية تحقيق واسعة ومضنية . . واسعة لشمول نصوصها وتباينها من دين إلى طب إلى فن إلى صناعة إلى فلسفة . . الخ . . ومضنية للبحث عن الأسماء التي نقل عنها المؤلف والتي كثيراً ما كانت ترد محرفة تحريفاً شديداً ، أو النصوص التي لم يذكر أصحابها أو مصادرها ، أو نقله عن تراجم المستشرقين الذين كثيراً ما كانوا يترجمون الأسماء العربية بطريقة تبعدها عن أصلها الحقيقي . . هذا فضلاً عن الأخطاء المطبعية الكثيرة والمتناثرة في صفحات الكتاب . . كل هذا تطلب منا جهداً شاقاً ووقتاً كبيراً في عملية البحث عن مصادر هذه النصوص وتحقيقها من مصادرها العربية وترجمتها

كما رجعنا إلى دواوين الشعراء وسيرهم للتنقيب في قصائدهم عن الأبيات التي استشهد بها المؤلف وكذلك الحال مع رجال الدين وأهل الحكمة والفلاسفة والعلماء وغيرهم .

والذى دفعنا إلى ذلك هو تقديرنا للحضارة العربية بخاصة ، وتقديرنا منا لقيمة هذا الكتاب وما تضمنه من معلومات تشرف العرب وتعالى من شأن حضارتهم . .

هذا ، ونجدلزاماً علينا إحقاقاً للحق ، وإنصافاً للمؤلف الكتاب ، أن نزن ما تضمنه الكتاب من معلومات طريفة وشائقة بيزان العدل والمنطق . وقد لاحظنا أن المؤلف لم يكن موفقاً في بعض نقاط قليلة بادرنا بالرد عليها في حاشية الكتاب ، وإن كانت هذه النقاط التي لم يحالفه التوفيق فيها لم تقلل من قيمة الكتاب لما فيه من حقائق وأدلة ساطعة أوردها المؤلف في هذا العرض الجليل البديع عن بلوغ العرب لحضارتهم مبلغاً لم يدانهم فيه أى شعب آخر ، والذي أثبت فيه حججاً قوية كانت ولا تزال مصدر إلهام روحى لكل شعب يبغي التقدم والرقى .

ولا ريب في أن المؤلف قد أنصف الحضارة العربية وأبرز مكائدها ودورها الكبير في تاريخ الإنسانية وكيف تأثرت شتى الحضارات بها نظراً لأصالتها وعمقها وشمولها وسعة آفاقها الرحبة وذلك كله بطريقة موضوعية وتحليل دقيق وتركيز رائع على الجوانب المضيئة فيها . .

وكنا نعتقد أن المؤلف بنزاهته وحيدته وموضوعيته سيستمر في مؤلفه حتى نهايته إلا أنه في خاتمة الكتاب تطرق بالحديث إلى الدول العربية ووصفها بأن الضعف قد دب في كيانهما في القرن التاسع عشر وأصابتهما حال من الركود والاضمحلال كما أنها وقعت فريسة للفقر والكساد الأمر الذى جعلها عاجزة عن اللحاق بركب الحضارات الحديثة . .

ولا شك أن هذا رأى إنمائي صدر عن نزعة استعمارية وتمصب أوربى كما أنه مردود عليه بأن ما أصابها لم يكن ليصيبها لولا الاستعمار نفسه الذى كان جيل هدفه وغاية مساهمة أن يقبض على زمام الأمور فيها ويخمد أنفاسها ويثبسط همته ويضعف من

(هـ)

قدراتها الإنتاجية حتى تكون له السيادة والمنعة وليطمئن جانبه . . ومن الواضح أن جذوة القوة والقدرة والكفاية لم تنطفئ تماماً وإنما اشتعلت ثانية في أوائل هذا القرن وعندما اندلعت الثورات الانتفاضية البطولية والحركات التحررية لتزيج عن نفسها هذا الكابوس الثقيل ولتبعث من جديد عوامل الحيوية والخلق والبناء حتى أصبحنا ندرك — وكذلك المؤلف نفسه — تلك النهضة المباركة التي أخذت تعم سائر الدول العربية من المحيط حتى الخليج وأشرقت شمس حضارتها بعد ليل قصير واستطاعت أن تكون كما كانت قوة عظيمة لها ثقلها ومكانتها التي يحسب حسابها في الميدان الدولي

المترجم

مقدمة

إن أمنيته المخلصة أشد الإخلاص تقوم على أن هذا الكتاب يمكن أن يتيح لمن يتصفحونه أن يدركوا على أفضل وجه ما الروح الإسلامية ، وكيف صيغت هذه الروح على عر العصور . لقد وقف الرجل العربي تجاه العالم العربي في حيرة وكأنه أمام سر غامض ، فلم يك مألوفاً له رد أى فعل من ردود الفعل الإسلامية ، ولم يدرك كل نهج في وجود هذه الروح وفي الاحساس بها وفي قوتها الدافقة .

وثمة هوة عميقة في الحقيقة تفرق بين هذين النمطين من الأفراد ، إذ يتميز النمط الأول منهما بالفطرة والصوفية^(١) ، والآخر بالعقل المنطقي . وبينما يحاول الغربي أن يدرك الحقيقة عن طريق القياس الديكارتي ، إذا بالعربي يترقبها من الله وحده . ويلتزم أحدهما ، دون التشكك في ذلك ، بما ينتهي إليه حكمه الذي قد يخطئ فيه أحياناً ، وينقاد الآخر دون مناقشة لأوامر القرآن والسنة^(٢) .

ويتيح هذا التقرير البسيط معرفة مدى المسافة الشاسعة التي تفصل بين الشرق والغربي . الحق أن الشرق لا يخلو من الافتنان بتقديم أية حضارة مشرقة ، ولكنه يعرف أن مستقبل المعرفة محدود وأن مصير الإنسان قائم بين يدي الله .

(١) . . . وإذا اقتصرت أوربا على العلم المادى ، فإن الإسلام لا يقف عند ذلك ، وإنما يوجه الإنسانية إلى مصدر آخر للعلم والمعرفة ، هو القلب أو هو الروح والبصيرة . إن الإسلام يوجه الإنسانية إلى المعرفة الإشرافية ، أو الكشفية ، أو الإلهامية ، ويجمع الإسلام الاتجاه العلمى الحديث إلى الاتجاه البصيرى في قوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » [عن المكتبة الثقافية — الرسول صلى الله عليه وسلم — لمحات من حياته ، ونفحات من هديه — تأليف الدكتور عبد الحلیم محمود — ص ٨٠] . (المترجم)

(٢) . . دون مناقشة . لأنها أوامر موحى بها من عند الله ، وتنزيل من رب العالمين ، ثم كان الرسول بسنته مبيناً لهذا القرآن بالتفسير والإيضاح ، ولهذا يقول الله تعالى في سورة النحل : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » . (المترجم)

(م)

إن هذا الكتاب الذى يحكى تطور العالم العربى نسجت معالمه . ودقائقه مع صديق
المعيد بيركالفيه (Pierre Calvet) إذ أن تبحره فى الثقافة ومعرفته الوثيقة
بالأمكنة التى قامت فيها مواطن الحضارة العربية كانا ضروريين لإحضار هذا المؤلف ،
ضرورة المواجهة الدقيقة لأفكارنا .

ونترك الآن سطور هذا الكتاب لتقدير القارئ . . .

وأرجو أن يكون فيما أدرجته من بعض قصائد من أجمل القصائد العربية المقتبسة
من كتاب أميل درمنجم (Emile Dermenghem) سبيل إلى إضفاء شيء من
الطلاوة والإيضاح على عرض جاف للغاية فى بعض الأحيان .

ج . ريس

الباب الأول

الأسس

(١)

في عصور ما قبل الاسلام

إطار الشرق الجغرافي

الشرق منطقة مترامية الأطراف من السهوب ومن الصحارى تمتد إلى جنوب البحر المتوسط وإلى شرقه ، فالبلاد التي جرت العادة أن ندل عليها بتلك التسمية العامة ، والمتأثرة في الوقت الحاضر أشد التأثير بالحضارة الإسلامية وبالدين الإسلامي ، قد اشتهرت عادة باسم «الدول الإسلامية» ، وعلى امتداد هذه الرقعة من الأرض يتحدث الناس باللغة العربية ويكتبونها ، هذه اللغة التي ظلت منذ ظهور النبي (ﷺ) الدعامية الأساسية للحضارة مشرقة .

إن ما يشهده العالم الإسلامي في خيال الرجل الغربي ، صور شقي لأراض مشمسة ، واتساع مهوش جاف لا حدود له ، وقمل تحت سماء لازوردية ذات ضوء وضوء متلائي ، بنجوم لا حصر لها أثناء ليال شفة وغامضة . ويشاهد هنا وهناك واحات ذات نسيم ، وخضرة وسط طبيعة رملية وصحراوية وكأنها جزر مبعثرة على مساحة واسعة رملية .

هذا العالم الذي قدر له أن يكون معبر الوصول من الغرب إلى الشرق يحتل وضعاً جغرافياً خاصاً ، كانت نتيجته الأولى تقسيم المواطن الرئيسية للجنس البشري في الشرق . ولقد شطرت طبيعة التربة وطبيعة الجو شعوب الشرق إلى بدو وحضر ، محددة بلا قصد مصير هؤلاء الحضر في الواحات دافعة — على العكس — الببدو للبحث عن سهوب ذات أعشاب ومراع .

والجزيرة العربية التي يبدو أن أسلاف جميع الشعوب السامية تنسب إليها هي أكبر

شبه جزيرة في الكرة الأرضية وتمتد على مساحة ٢٨٠٠ كيلو متر طولاً و ٢٠٠٠ كيلومتر عرضاً في جزئها الجنوبي . وهي جيولوجيا السلسلة الطبيعية للصحراء التي تمتد من وسط هضبة إيران حتى صحراء جوبي . فهي إذن جزء من « المنطقة الحرام » الهائلة تلك التي كانت تشكل قديماً سداً يصعب اختراقه بين المجموعات البشرية الكبرى الثلاث ، الجنس الأبيض والجنس الأسود والجنس الأصفر . وفي وسط الجزيرة العربية ، ترتفع الهضبة فجأة إلى ارتفاع ٣٠٠٠ متر بمحاذاة البحر الأحمر وتهبط بعد ذلك في منحدرات سهلة تجاه الخليج الفارسي .

تشتهر الجزيرة العربية بمحافظها ودرجة حرارتها الشديدة ، ولم يساعد البحران المحيطان بها من الشرق ومن الغرب ، على تلطيف الجو (المناخ) الاستوائي لهذه الرقعة الشاسعة المتصلة من الصحراء ، بل إن الرياح الموسمية لا تكاد تبلغ الشاطئ حتى تفقد كل قوتها . وفي داخل الهضبة إلى الشمال ، تسود السهب مع صحراء كبيرة تسمى النفود ، وفي الجزء الجنوبي تمتد صحراء أخرى هي الربع الخالي ، والشريط الساحلي هو الوحيد الملائم للسكنى على عرض رفيع ، وتتخلله واحات مثورة متباعدة بمئات كثيرة من الكيلومترات .

وفي الحقيقة لا ينبت في هذه الأرض الجذباء إلا أشجار النخيل ، والكروم ، وبعض الحبوب . وبعض أشجار الفواكه . ومن عجائب الأمور أن الإسلام نشأ على ضفاف البحر الأحمر ، وشواطئه ، وفي الحجاز وسط الهضاب الصخرية التي تعبرها وديان ضيقة ، والتي تشرف عليها جبال جرداء ، على حين أنه في أقصى الجنوب توجد اليمن وهي إقليم خصب نسبياً وحظه من الثروة أعظم فهي بلاد البن والبخور ، والصبر ، ونباتات ذات رائحة ذكية ، وزيت لاغنى عنها . ومع أن هذه الثروة المتواضعة جعلت من اليمن موطن الممالك القديمة للعرب ، فكانت بذلك مهداً أكثر استعداداً لتلقي الدين الجديد ، إلا أن القدر أراد أن تقوم المدن المقدسة في الحجاز على الرغم من محاربة الطبيعة لها .

ونلاحظ بنفس الدهشة أن نقطة الانطلاق الجغرافية لأعظم الانقلابات الدينية لا تبعد كثيراً في هذا الجزء المختار من الجزيرة العربية التي ثبتت في الشمال كأنها رقعة مستديرة في بلد الحضارات القديمة إلا أن هناك تحت شكلي قوس دائري يطلق عليه

الهلال الخصيب تنبسط من الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر بلاد الكلدانيين ، وبلاد ما بين النهرين وسوريا وفلسطين ، ومن الشمال إلى الجنوب ، وعلى ضفاف البحر المتوسط ، يمتد الشاطئ الفينيقي . وبغوازة هذا الشاطئ ، تمتد مجموعة من الجبال يبلغ بعض قممها ٢٠٠٠ متر ، وتفصل البحر عن بقية هذا القطر . وتشق وديان طرابلس والناصرية هذه المجموعة من الجبال التي تحيط ببلدان . ويؤدي منفذ طرابلس إلى منعطف الفرات وإلى ما بين النهرين وإلى بلاد الكلدانيين التي تربط أوروبا بآسيا ، وهذا هو الطريق الكبير للهجرات كما أنه في الوقت نفسه طريق الغزوات ، ويؤدي منفذ الناصرية من الجنوب ذو الأهمية القليلة الاستراتيجية ، إلى فلسطين وإلى سوريا وإلى الصحراء . وبين هذين البابين الوحيدين المطين على مؤخرة الإقليم ، كانت تتدرج قديماً كبريات الدواني الفينيقية مثل صور وصيدا وجبيل وأرجوس وقد زال بعضها في الوقت الحاضر .

ومن الجانب الآخر من الهلال الخصيب بين صحراء سوريا ومدرجات إيران في سهل طوله ٢٠٠٠ كيلومتر وعرضه ٤٠٠ كيلومتر ، يجري في نفس الاتجاه نهرا دجلة والفرات اللذان ينحدران بشدة من سلسلة جبال طوروس ثم يأخذان في الانسياب عند وصولهما إلى السهل الذي يحق لنا أن نصفه بأنه « هبة هذين النهرين » فعلى غرار نهر النيل تعمر مياه هذين النهرين القرى المجاورة في فصل الربيع . وكانت تمنح فيضاناتهما التي كانت تتجمع مياهها — قديماً — بطريقة منتظمة إلى البلد ، خصباً لا مثيل له . كما كانت تصنع من بلاد ما بين النهرين إقليماً من أراض زراعية فريدة في نوعها . وعلى نهر دجلة ، تقوم بالتوالي : سلوقيا والمدائن — التي تقع مكانها اليوم بغداد — ثم نينوى بالقرب من الموقع الحالي للعوصل . وكان النهران في سالف الزمان يصبان منفصلين في الخليج الفارسي^(١) ، وعند ما تراجع البحر رويداً رويداً على مر العصور ، تجمعا تحت اسم شط العرب في هذا الفضاء الجديد الذي يشكل إقليم البصرة الذي لم يكن له وجود في العصور القديمة .

كانت بلاد الآشوريين الشمالية وبلاد الكلدانيين الجنوبية تتدرج تماماً بين النهرين ، وعلى الشاطئ الأيسر عند منتصف نهر دجلة كانت تتنافس بلاد عيلام في ثروتها مع

بلاد ما بين النهرين . وهناك عند مصب هذين النهرين وفي باطن سهول من الطمي ، ازدهرت الحضارات القديمة ، التي صعدت بعد ذلك إلى منابع النهرين ، حضارات أوروسيرتلا على شاطئ البحر ، وبابل ثم نينوى تشير إلى مراحل هذه الحضارات القديمة المتعاقبة . وفي وسط قطر غنى ، كانت بابل على اتصال مع آسيا العليا والمحيط الهندي عن طريق نهري دجلة والفرات ، ومع الفرس والعالم العربي من الشرق والغرب بواسطة طرق القوافل . وكان المرء يلاقي في هذا المركز من الأسواق المهمة ، ملاحين وتجاراً قادمين من أفريقية ، ومن الجزيرة العربية ، أو من الصين النائية . وهناك ، كانت القوافل التي تزيد القافلة منها على أكثر من ألف جمل ، تتوالى الواحدة بعد الأخرى رابطة الهند وفارس مع آسيا الصغرى والبحر الأسود من جهة ، ومع سوريا وفينيقية ومصر من جهة أخرى .

كل ذلك في سالف العصور ، أما اليوم فمن الصعب علينا أن نتصور أن هذه البلاد المليئة بالمستنقعات^(١) والتي تلفها الصحراء والأخاديد كانت أكثر الأقطار خصياً في العالم ، وفردوس العصور الماضية ، كما أن فيها النهر ذا الشواطئ الغنية التي حشد لديها الرومان — يوما ما — أسطولا من ألف سفينة محملة بالرجال المستعدين للاتقاض على فارس .

ولعلنا لا نستطيع البحث في مشكلة الشرق المتشعبة دون التحدث عن مصر .

عملك مصر القديمة كثيراً من الخصائص التي تقرّبها من بلاد السكديانيين وبلاد الآشوريين ، فكما أن هذين القطرين الأخيرين يتمتعان بثمرات الأنهار التي ترويهما ، فإن مصر هي كذلك «هبة النيل» . وجملة القول عن هذا القطر الصحراوي من شمال أفريقية أنه واحة طولها ألف من الكيلومترات وعرضها ١٢٠ كيلومتر . وهناك أيضاً نشأت الحضارة في دلتا النهر وصعدت بعد ذلك نحو منابعه ، لكن ، مطاوعة إلى

(١) من الانصاف أن نبادر فنقرر أن هذه البلاد بعد أن رحل عنها الاستعمار ، أخذت تسترجع ماضيها الزاهر وحضارتها القديمة ، واستخدمت أساليب التقدم والعمران الحديثة فقدمت المستنقعات وعمرت صحاريها . (المترجم)

الاتجاه الذى قدرته الطبيعة فى هذه البلاد التى تعد معجزة النهر ، قد امتدت الحضارة من الشمال إلى الجنوب . ونشأت منفيس واتسع نطاقها أولاً ، ثم ظهرت بعد ذلك حضارة طيبة . ثم شيئاً فشيئاً أخذت التربة العضوية الغزيرة الممنوحة من العناية الإلهية والتي جلبتها فيضانات النيل ، تملأ أرض مصر بثرواتها ، وتحيلها بلداً يثير الإعجاب لا يضارعها فى خصبها إلا بلاد الكلدانيين . ولما كانت أقل تعرضاً من الأخيرة للأخطار ، ومحمية من كل جانب بوساطة البحر والصحارى التى تحيط بها فقد أمكنها أن تتطور فى مأمن من الغزوات الأجنبية .

مهده الديانات وأصلها ومبدؤها

إن التاريخ الأساسى للشرق إنما يتجلى قبل كل شيء فى تطور الأديان التى بزغت فى هذا الجزء الفريد من الكوكب الأرضى . وقد انتشر الإسلام على الأرض التى سبق لها أن مهدت لنشأة اليهودية والمسيحية . ومن ثم فإن الديانات الثلاث الكبار التى قدر أن تقاسم العالم المتحضر فيما بينها ، قد ازدهرت بالتوالى على نفس التربة القاحلة . إذ يقع بيت المقدس على مسيرة بضعة أيام من جبل سيناء ، والمسافة من هذا الجبل المقدس حتى مكة لا تكاد تكون أكثر طولاً . ويزداد عجبنا فى بيت المقدس حيث تختلط آثار الأماكن المقدسة فعلى بضع خطوات من قبر السيد المسيح أقيم جامع عمرو فوق أساس معبد سليمان ، قدس أقداس الإسرائيليين . وفى وسط هذا الجامع المحاط بسور من حديد أقامه الجنود الصليبيون ، توجد الصخرة التى استعد إبراهيم أن يذبح إسحاق (١) عليها . وقد استخدمت هذه الصخرة كمذبح للقرايين خلال ألف من السنوات ، وهنالك وهب للعذراء الابن يسوع ، ومن هذا الحجر ذاته عرج محمد عليه السلام فى رحلته الروحانية . ولقد قدر لهذا الركن الركين للوحدانية الذى نشأ مع داود وسليمان ، أن تلبث منه آلام المسيح وأنوار محمد ﷺ ، وهكذا تتجلى أعظم الذكريات لتاريخ البشر فى بقعة لا تزيد مساحتها عن بضع أقدام مربعة .

ومهما يكن الإطار الجغرافى للأماكن المقدسة الوارد ذكرها فى « القرآن »

(١) الذى يمتدحه المسلمون — كما جاء فى القرآن — أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق .
(المترجم)

مثيراً للدهشة ، فإننا ندهش أكثر من تبيان أن ظهور الأديان المنزلة في تلك الأماكن المقدسة كان متأخراً جداً . والحق أننا أمطنا اللثام عن البوادر الأولى لما أضحي فيما بعد مجموعة الأفكار الدينية قبل ظهور الديانات المنزلة بكثير ، خلال أكثر عصور تاريخ البشرية إيفالاً في القدم .

وقد ارتبطت رويداً رويداً هذه الفكرة البدائية والغامضة لأي دين بقوى خفية خيرة أو شريرة . وبآلهة من الواجب خشيتها أو تعجيبها والتي لعلها اقترنت لدى الإنسان بفكرة أخرى ، فكرة بعث الإنسان بعد الموت . وكانت فكرة بعث الإنسان بعد الموت تقتضى سلامة جسم الإنسان في الدنيا ، وكانت هذه الفكرة منشأ الطقوس الدينية الأولى والشعائر التي كان هدفها حفظ الأجساد بعد الموت . ولما كان القرين هو الذي يبعث المرء ويمد في عمره ، فلا جرم أن يحافظ على هذا القرين في حالة جثمانية كاملة . ومن أجل ذلك أعدت الأديان القديمة القبر أو الثابوت لكي تتوفر جميع فرص بقاء الصور البشرية القابلة للفناء .

أخذت فكرة عالم أفضل وفقاً للعدالة ترتبط في ذهن البشر رويداً رويداً بفكرة البعث بعد الموت . وفي « كتاب (١) الموتى » وهو كتاب طقوس مصرية ينظر إليه على أنه من أصل إلهي ، يدافع الميت عن قضيته أمام المحكمة التي تقف بباب الجنة قائلاً . « يارب الصدق والعدالة إنى لم أغش الناس ، ولم أعذب الأرملة ، ولم أكذب قط » . ومن أجل هذا فقد ظهر رويداً رويداً بالنسبة للإنسان ضرورة الامتثال لقانون إلهي أو إنساني ، ولنظام مرضى عنه إلى حد الرضا بالجزاء ، أعنى الرضا بالعقاب أو الثواب

(١) ذلك اسم حديث أطلقه ليسيوس على نحو ألفي ملف من ورق البردى وجدت في عدة قبور ، وتمتاز عن غيرها من الأوراق باحتوائها صيغاً لإرشاد الموتى . واسمها المصري هو : الخروج (من الموت) بالنهار . ويرجع تاريخها إلى عهد الأهرام ، ولكن بعضها أقدم منها . ويعتقد المصريون الأقدمون أن هذه النصوص من تأليف تحوت إله . وقد جاء في الفصل الرابع والخمسين منها أن هذا الكتاب قد عثر عليه في عين شمس وأنه كان « بخط الإله نفسه » . [عن قصر الحضارة . الشرق الأدنى — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٦٣] . (المترجم)

وفقاً لنوع الأفعال التي أدت عن طريق الفرد في أثناء حياته الدنيوية . وهكذا فإن الإنسانية سبقت إلى تصور ما ستكون عليه الديانات بعد نزولها ، وما سيكون عليه القانون ، هذا القانون الإلهي الذي كانت تنتظره الإنسانية بحماسة وشوق شديدين .

إن الكتابات المسطورة في أوراق البردي القديمة وفي النحت والرسم المعاصرين للعصرات التي اختفت ، تشير إلى جهود الإنسانية في الشرق وهي تحمل في أحشائها فلسفة ميتافيزيقية لاغنى للإنسان عنها كي تمنحه قوة الحياة . ويشير تصوير بدن الميت ، والتماثيل المجنحة أو ذات الريش إلى أن الإنسان قد تخلص من نقائصه الفانية ، على حين أن وفرة تصوير محكمة توزن أمامها الأعمال الحيرة أو الشريرة في كفتي ميزان ، تؤكد عقيدة خلود الروح التي يمكن أن تكون سعيدة أو شقية تبعاً لدرجة سمو الأخلاق للفرد .

وفي الحقيقة ، لقد كشف المستشرقون معتقدات وشعائر هي علامات على طريق مذاهب ستظهر فيما بعد ، قبل ظهور الأديان الثلاثة المنزلة ديناً بعد آخر . وتعرض الآثار وأوراق البردي قضايا العدل الإلهي ، والجنة ، والنار ، وشجرة الحياة والمعرفة ، والمرأة والأفعى ، والطوفان . ويؤكد « كتاب الموتى » أنه بعد العصيان والقصاص يتحمل الإنسان وذريته وزر خطيئته حياتهم تكفيراً عنها وفي كل لحظة ، يمكن أن نلاحظ أن الفن المصري والأشوري والسكنداني ، وكذلك الأدب المصري أو الأدب الفيلسوفسي في « زندافستا » كان مشبعاً بالاهتمام الدائم بقضاء الإنسان المستمر بعد الموت .

أجل ، لقد قيل كل شيء منذ وقت طويل . فهذا أفلاطون في محاوره طيباوس يلقي على لسان المتحاور المصري هذا القول المدهش : « أنتم أيها الاغريق الآخرون ، أنتم لستم إلا أطفالاً ، ولا شيء لديكم يحمل طابع حضارة موعلة في القدم » .

لكن ، يجب الاعتراف بأن أية عشيرة من العشائر الدينية في أي وقت من العصور القديمة لم تكن قد أكدت إيمانها بالدستور الأخلاقي للعالم نحو نهاية عادلة ونبيلة على يد إله متعال ، مما يعد نقصاً كبيراً أخذت الديانات المنزلة تتلافاه .

وفي سعي الإسلام إلى « المطلق » ، نبذ لشدة عنايته بوحدة الله ووحدانيته ، عقيدة

الثالوث المقدس، مبتعداً في ذلك عن المسيحية التي كان يتهمها بنوع من الشرك لاعتقادها في ألوهية ثلاثة أشخاص . ولقد احترم الإسلام احتراماً نادر المثال تاريخ الأديان فاعترف بأن الكتب المقدسة لليهود والنصارى منزلة ، وسلم^(١) بما جاء في الكتاب المقدس من روايات يهودية نصرانية . وقد أشار النبي عليه السلام للدلالة على صدق رسالته إلى ما بين القرآن والكتاب المقدس من توافق ، وكان على غرار المسيحية يحفل بالعقيدة أكثر من اهتمامه بالسلوك ذاته للفرد .

وإذا بحثنا عن رأى عام فيما يختص بأصل الأديان المنزلة ، نلاحظ أن الأديان الثلاثة قد تأثرت بمفاهيم معينة كانت موجودة من قبل في الشرق عن طريق مفاهيم أكثر شرقية ، خذ مثلاً لذلك فكرة حساب الأرواح بعد الموت تجد أنها تمت بصلة إلى المذاهب الفارسية لزرادشت تلك التي أسهمت من وجهة أخرى إسهاماً معيناً في الأديان الأخوية الثلاثة . وفيما يختص بتلك الأديان الثلاث ، وبصرف النظر عن بعض الخلافات بينها ، يجدر بنا أن نلبي إلى أن التشابه بينها جوهري متعدد الجوانب . وقد حث محمد (صلى الله عليه وسلم) — بكل تسامح وقوة إدراك في الوقت نفسه — اليهود على إطاعة شريعتهم ، والمسيحيين على إطاعة أنجيلهم ؛ وعلى أن يرتضوا القرآن خاتم الكتب المقدسة والدين والإسلامي خاتم الأديان المنزلة .

وصفوة القول : تلك هي على الجملة المظهر العام لنشأة الأديان وأول مبدأ للحضارة . ستحاول هذه القوى الروحانية الثلاث ، التوراة ، والتلمود ، والقرآن ، وبعد انهيار الأمبراطورية الرومانية في العالم الذي أصبح بربرياً ، ستحاول إعادة تنظيم الشعوب والنفوس ، وغزوها كذلك . وتتركز مأساة التاريخ الغربي للعصر الوسيط في الصراع الدامي غالباً بين هذه الأديان الأخوية الثلاثة

(١) القرآن لم يسلم بالتوراة والإنجيل تسليماً مطلقاً ، بل قرر أنها محرقات .
(المترجم)

شعوب الشرق

(٢)

نشأت المواطن الحضارية العربية الأولى على الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية في المناطق الحصينة نسبياً من الحجاز وبخاصة من اليمن ، وفي هذا القطر الأخير يصادف المرء آثار مملكة سبأ التي اتصلت ملكتها بسلطان قبل الميلاد بألف سنة . وكان لازماً على الحميريين — وهم شعب اليمن الذي كان يهيمن على العلاقات التجارية البحرية بين الهند ومصر — أن يغزوا سكان سبأ قبل العصر الميلادي بقليل .

وبصرف النظر عن هذه التجمعات البشرية التي نشأت في موقع جغرافي لا مثيل له على أطراف مساحة شاسعة من الصحراء ، كان العرب لا يرتضون أية تبعية ولا إجبار على الإخلاص والخضوع ، اللهم إلا أن يكون ذلك لقبيلتهم .

العرب البدو :

وكان الجزء الأكبر من السكان في الجزيرة العربية لا يزال بدوياً . فان رعاة الغنم من البدو الذين يشكلون حتى اليوم هذه الأقوام الرحل من أفريقية الشمالية ومن الجزيرة العربية ذاتها يعيشون في الخيام كأسلافهم منذ عصور موعلة في القدم ، ويتجولون بقطعانهم بحثاً عن مراعى تبعاً لفصول السنة والأمطار . وبدأوتهم أو بعبارة أخرى ، هذه الخاصية للانتجاع هي التكيف الوحيد الممكن للإنسان وفقاً لطبيعة جسدباء تحت شمس لا يخمد أوارها .

في عصر ما قبل الإسلام ، كانت كل أسرة عربية تملك خيامها ، ويشكل مجموع هذه الخيام ، عشيرة ، وتتجمع العشائر ذوى القربى تتألف القبيلة . وكان التضامن مطلقاً بين أعضاء القبيلة الواحدة ، بينما نجد موقفها مع القبيلة المجاورة مختلفاً تماماً تماثل الاختلاف إذ تصبح الأخيرة فريسة ترصدها للهجوم عليها ونهبها . ويتولى الرئيس (السيد ، القائد) قيادة التشكيل القبلي ، وينتخبه مجلس القبيلة (الجماعة) مراعاة لثروته أو لصلواته الحربية .

والجمل والحصان هما عنصران لا غنى عنهما للبداوة القبلية ، ذلك أن الجمل في حياة الصحراء يلعب دوراً رئيسياً لأن صبره واحتماله يتجاوزان الخيال ، وليست هاتان الصفتان الوحيدتين لهذا الحيوان الخارق للعادة لأنه ليس « سفينة الصحراء » فقط ولكنه ضروري أيضاً للاقتصاد المنزلي : يشرب لبنه ، ويستخدم « بوله » كدواء مقو عجيب ، وروثة السليووزي يكون قابلاً للاحتراق بشدة ، وأخيراً ، يذبح بعد أن يذرع المساحات الشاسعة من الصحراء حلاً وترحالاً دون ضعف ولا وهن ، ويؤكل لحمه ، وتصنع من وبره وجلده الملابس والخيام .

وينافسه الحصان ، وهو حيوان كريم جافل ، وقد اشتهر من أجل ذلك لكن العناية به أصعب . ويتخذ البدوي صديقاً له ، وقد سجل الشعراء في قصائدهم كثيراً من القصص التي تروى عنه ، وتربو الكلمات التي تشير إلى الحصان في مفردات اللغة العربية على الألف ، ولا عجب فقد كان لسرعته ونشاطه أعظم الفضل في كسب غارات لا تحصى كانت القبائل تنهض بها حفظاً لحياتها .

يستطيع البدوي المولع بالخلاء الفسيح والأفاق الشاسعة ، الصبور بكمله ، النشيط لخصانه ، أن يعيش على تمر ولبن ، وأن يقضى شطراً من حياته في حرب ، وهجوم ، وغزوات . وهذه هي الشواغل الوحيدة الخليقة به ، لكن غريزته كرجل صيد ، كثير السلب والنهب ، محب للقتال ، مفتون بالنساء عاشق لمن ، عشقه لخصانه . هذه الغريزة يعوضها إلى حد ما كرمه ونبل خلقه وإحساسه السامي بكرم الضيافة والشرف .

هذه الصورة تمثل الشخصية الرئيسية للعربي بطل صحراء الجزيرة العربية قبل محمد صلى الله عليه وسلم بكثير ، ومنذ العصور القديمة حتى أيامنا هذه ، ودون أن يعرف المرء من أى مكان تقبل هذه الشخصية يراها تنقض فجأة وهي تعدو على ظهر حصانها تجاه أماكن مختارة من الهلال الخصيب ، وعلى قوافل تسلبها أو تفرض عليها فدية ، ثم تعود إلى نجعها الذي يصعب الوصول إليه حاملة غنيحتها وهي تركض في أقصى سرعة .

وكانت المنطقة الأكثر تعرضاً على الدوام لضربات قطاع الطرق في الصحراء هي بلاد الكلدانيين وسوريا .

الكلدانيون والآشوريون

يعد الكلدانيون من الساميين الذين نجهل ماضيهم السحيق على الرغم من أحدث الكشف ، ذلك أن سفر التكوين قد وضع مهد الإنسانية في بلاد الكلدانيين فيما بين نهري دجلة والفرات ، والأساطير الكلدانية غنية بالأحداث التي تسترجع بطريقة عجيبة قصة الطوفان ، و برج بابل ، ومغامرات نوح وتشتت اليهود .

لم تكن هناك فروق رئيسية بين الشعبين الآشوري والكلداني اللذين كانا يعيشان جنباً إلى جنب . وتكشف النصوص السامرية أنه إذا كانت السيادة تراوحت طيلة ١٠٠٠ عام بين بابل ونيينوى ، فإن الحضارة والطبائع واللغة والمعتقدات ظلت مشتركة بين الشعبين .

ومنذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، اشتغل الذين استقروا في بلاد الكلدانيين بالزراعة وبناء المدن . ومن أجل هذا أنشؤا أورو سيرا وبابل . وإذا كانوا يعتازون بالشاط والمهارة فقد شقوا قنوات وأقاموا سدوداً على طول الأنهار وأصلحوا الأرض وأعدوها للرى . وبمجرد أن أنجز الكلدانيون هذا العمل التمهيدى بأشروا بعد ذلك استعمار المنطقة الجبلية ، وأسسوا مدن آشور ، وسنجار ، وكلخ ، ونيينوى ، وبعد أن أخضع المصريون فيما بعد بلاد الكلدانيين إخضاعاً مؤقتاً ، هب الآشوريون ، وهم سكان الجبل الذين تدفقوا على الأفطار المجاورة ، يشددون من سيطرتهم على بقية الشرق .

وتتابعت خلال ألف سنة على هذه المنطقة الغزوات والخراب والمذابح بين كر المنتصرين وفر المغلوبين . هكذا بدأت الشعوب الشرقية تلك السلسلة الطويلة من الحروب التي يقتل فيها الأخ مع أخيه والتي انقضت دون هوادة على هذا الجزء من العالم . وقد ظهر الميديون والأسكيديون^(١) والفرس بدورهم على مسرح هذه الأحداث . وكان

(١) قبائل همجية قديمة ، كان أكثرهم بدواً يقطنون الشمال الشرقى من أوربا ، والشمال الغربى من آسيا ، لقد جاء ذكرهم على لسان المؤرخ اليونانى هيرودوت ،

هذا إذ ذاك سباقا إلى الأعمال الوحشية . وكانت قد سيطرت سلفاً البراعة والتفان والمبالغة في التدمير على إنسانية يافعة . فلم يبق من سوسا ونيينوى وبابل التي غرقت في الدمار والنار عدة مرات ثم أعيد بناؤها ودمرت من جديد ، لم يبق منها غير أطلال لا تدل على شيء .

وصفوة القول أن لا شيء يستحق الذكر أو يستوقف النظر من ذلك العصر ، غير اسم مختصر الذي دمر دون شك أورشليم ، لكن اسمه سيظل مع ذلك دليلاً على أنه ملثيء عظيم ، وسيخلف وراءه آثاراً من نشاطه العمراني .

بقي أن نتحدث في بضعة أسطر عن منزلة هذه الحضارة الناشئة .

كان الجيش والطبقة الكهنوتية يشغلان مكاناً مرموقاً في هذه الأمم التي كانت لا تزال في مرحلة التنظيم ، ثم يأتي بعد ذلك الكتّاب الذين كان يعهد إليهم بالمناصب الإدارية . وكان الاشتغال بالزراعة والتجارة يهد شرفاً في منطقة تجود عليهم الطبيعة وتمتاز بموقعها الجغرافي . وكان لا بد أن تنشأ في هذه المنطقة كذلك صناعة الأقمشة والسجاد والأثاث ، والجلود ، والأسلحة التي بلغت في مدة وجيزة ، درجة عظيمة من الترف . وانتشر التعليم بدرجة سريعة عند الكلدانيين والآشوريين الذين كانوا بعامة يعزفون القراءة والكتابة . وقد وجدت النصوص المكشوفة مكتوبة على ألواح من الخشب والجلد والآجر ، كما نسخت قبل ذلك على ورق البردي .

ولقد درست هذه الشعوب ، وهي شعوب تواقفة لاستكناه أمور السماء والعالم العلوي ، علم الفلك . واخترعوا وهم حسبة مهرة نظاماً للقياس ونحن مدينون لهؤلاء المتكبرين بتقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة وتقسيم السنة إلى أشهر وأسابيع وأيام وساعات ودقائق وثوان .

غزوا بلاد ما بين النهرين في القرن السابع قبل الميلاد ، وانتصروا على قورش ، وقهروا دارا في عام ٥١٣ ق م ، ثم اختفوا من التاريخ حوالى القرن الأول الميلادي ، ولقد عثر الحفاريون منذ سنوات قريبة على أثر لأحد الملوك الاسكيديين على مقربة من مدينة « ساكين » في جنوبي بحيرة أورجيا في الكرديستان . (المترجم)

كانت الفكرة الديلية عند هذه الشعوب القديمة لا تزال مبهمه . ففي الوقت الذي كان السلطان فيه في يد الملوك ، كان أيضاً في يد كبار رجال الدين ، وكانت آلهتهم لا يحصيها العد . وكانت العقول مضطربة بسبب ما توحى به خرافة القوى الخفية الشريرة من رعب وفزع . كما أنه كان للساحر والراقى قدرة على إدخال الذعر على أشد الناس قوة . ومهما يكن من غرابة في انتشار هذه الخرافات ؛ فإن الأكثر غرابة أن تجمها هذه الخرافات على مر الأيام وتنتقل حتى تصل إلينا . وفي الحق أن سر الطبيعة وقواها الخفية مازالا يستميلان الفكر البشري .

ومهما يكن من أمر ذلك ، وعلى الرغم من تقلبات مصير السكلدانيين والآشوريين ، فقد شغلوا مكاناً مرموقاً في أصول الحضارة . وقد وضعوا أسس المبادئ الأولى للتنظيم الاجتماعي ، ولكن ظهر أن هذه المحاولة كانت شاقة وعسيرة .

صحيح أنه لم يبق شيء بعد من حضارتهم الأولية ، لكن عناصرها التي نشرتها هذه الشعوب تفرقت في أنحاء العالم ، حتى ليحق للمرء أن يقول إن «الرياح حملت بذوراً أخرى كثيرة غير الحبة المقدسة من القمح لتثرها على أراضى الغرب» من هذه القرى الحصبة التي ذهب العرف إلى أنها مكان جنة عدن . ولا تتجاوز الواقع إذا أضفنا إلى ذلك أن «هذين الشعبين بذرا في الأمم الحاملة أيضاً بذور جميع الفنون المفيدة وبواعث الفكر» .

الفرس

كان أثر الفرس أعمق في هذه المجموعة من الشعوب وهذه البدايات من الحضارات . وكانت الأمبراطورية الفارسية تمتد من نهر دجلة إلى الهند ، ومن بحر قزوين إلى المحيط الهندي على هضبة شاسعة منفصلة عن البلاد المجاورة بوساطة مدرجات عالية ، ووسط الهضبة التي يوجد فيها بعض الواحات القليلة المنتشرة التي تتميز بطبيعة صحراوية بينما يهبط جنوبها على شاطئ شديد الحرارة غير صحي .

وهناك عدد وافر من القرى والمدن المنشأة على شواطئ عدد كبير من الأنهار التي تروى ودياناً خصبة كانت تتوارى حول الهضبة وفي متعرجات منطقة التسلال . وظلت الحياة ووفرة الأقوات مركزيتين في هذا الموضع الذي كانت ترعى فيه قطعان الغنم ،

والذى استطاعت الحبوب فيه أن تنمو بسرعة فائقة ، على حين كانت هناك حداثق غناء تشرف قواكه لذيذة الطعم . وكانت الضرائب فى هذه الأرض الخصبية أقل عبثاً منها فى الامبراطورية الرومانية ، ومع ذلك كانت الخزانة الفارسية أكثر ثراء من خزانة الأباطرة . ومن أجل ذلك أفضى كمال هذا الجهاز الإدارى إلى أن يأخذ به العرب منذ انتصارهم على الفرس دون تغيير .

وتاريخ بلاد فارس خاضع كذلك لموقعها الجغرافى الذى حملها على الدفاع عن نفسها دفاعاً مستمراً . فمن جهة آسيا ضد العصابات البربرية ، ومن جهة أوروبا ضد الاغريق والرومان . وفى القرن السادس قبل الميلاد كان ملكها قورش^(١) قد فتح العالم القديم وفى القرن التالى اجتاز دارا^(٢) سيد الشرق فى ذلك الزمان البوسفور وتوغل غرباً حتى عبر الدانوب . لكن بعد موت دارا انهزم ابنه اكسركسيس فى سلامين ، وفى مدينة بلاتيه^(٣) ، وسقط خلفاؤه تحت ضربات الاسكندر فى سنة ٣٣٠ . ثم إن ماقامت به فارس من حروب مستمرة ، ومعارك وجب أن تخوضها مع الرومان ، إلى جانب ألوان النزاع الداخلى فى بلادها ، كل ذلك أسرع بها إلى الفوضى .

لهذا السبب ، استطاع الحاكم العربى فى سوريا سنة ٦٣٤ أن يشير على الخليفة عمر بأن هذه الامبراطورية ثمرة يسهل غزوها . وهذا وقد خلف الفرس تراثاً عظيماً للحضارات المتتابعة .

(١) مؤسس الامبراطورية الفارسية (٥٦٠ — ٥٢٩ ق . م) ، هزم ملك الميديين ، واستولى على ليدبا فى آسيا الصغرى ، وبابل ، وبذلك أصبح حاكم آسيا الغربية كلها ، واستمرت امبراطوريته قرنين من الزمان . (المترجم)

(٢) ملك الفرس من عام ٥٢١ إلى عام ٤٨٦ ق . م ، غزا الهند ، وأخضع تحت سلطانه إقليمى طراقيا ومقدونيا ، لكنه هزم على أيدي اليونانيين . (المترجم)

(٣) مدينة قديمة من مدن مقاطعة بثوسى فى بلاد اليونان القديمة ، تقع على المنحدر الشمالى لجبل سيتيرون ، شهيرة بالموقعة التى انهزم فيها الفرس على أيدي اليونانيين . (المترجم)

كان دين الفرس من أنقى الأديان في العصور القديمة ، بشر به زرادشت في الأفاستا قبل الميلاد بزمان طويل ، وجاء في ذلك الكتاب أن العالم من خلق إله قادر وحكيم خير ، ولكن روح الشر نازعت باستمرار ملكوته وقامت على أساس هذا الدين أخلاق تستحق الإعجاب لسموها ، أخلاق تأمر الإنسان أن يفعل الخير في كل مناسبة ، كما تمجد العمل وتكرم الأسرة ، وتنادى بالمساواة بين الناس .

وقد توعرت الفنون والآداب والعلوم في ظل الساسانيين الذين تولوا رعايتها رعاية مستنيرة وكانوا سعداء بلشر القنون . وفي ظل حكمهم بنيت في برسبوليس وسوسا قصور لا مثيل لها في الترف لا تزال آثارها شاهدة عليها . وتدل الرسوم والنقوش البارزة المنحوتة في الصخور على عبقرية ملحوظة في الفن كما تدل على الأصالة ، ومن بين الفنون التكتيكية التي بلغت درجة عالية من الكمال صناعة الخزف . وقد احتفظت الألوان الفارسية على الرغم من مرور زمن طويل عليها بألوان وبهاء يفوقان الخيال . وكذلك تعد الأقمشة والسجاجيد الساسانية أئمن المنسوجات في العالم . ثم نشأت بعد الفتح الإسلامي نهضة فارسية بازعة بتأثير العرب القوي :

المصريون

في غرب العالم القديم ، كانت الحضارة المصرية تتطور بانتظام وبدون جهد بفضل عزلة هذا القطر . وعلى حين ظلت بقية سكان الكرة الأرضية غارقة في البربرية ، كانت شواطئ النيل ترعى « ملسكية قوية مستندة إلى تنظيم رائع » . وعلى رأس المراتب الاجتماعية كان يحكم فرعون وهو ظل الله في الأرض ، ويتلو فرعون الكهنة والجيش ويشكلان الصفوة الحاكمة . ثم يأتي بعد ذلك الكتّاب وموظفو الدولة المكلفون شغل الوظائف الإدارية . وأخيراً نجد الشعب الذي يضم التجار والعمال مقسمين طوائف والفلاحين المرتبطين بالأرض الزراعية .

كانت طبائع المصريين حميدة وحياتهم يملؤها الود والبهجة والتسامح حتى مع الأرقاء . وكانت قوانينهم المدنية حكيمة تخضع العلاقات بين الأفراد إلى قانون العقود . وكانت تمتد آثار لاهصر لها غرباً على طول السلسلة الليبية من أجل الحياة الآخرة . هذه الآثار ربعة الشكل منخفضة متكئة على غرار هذه السلسلة . وأمكن الفن الديني

وكذا الفنون الزخرفية والصناعة المليئة بالواقعية والصدق أن تبلغ رشاقة وكمالاً يتيح للفن الحديث أن يستلهم في هذه الآثار رشاقته وكماله .

وانتهت الغزوات النادرة التي اقتحمت برزخ السويس مثل غزو الهكسوس وغزوة الأشوريين إلى الامتصاص والدوبان . وكتب لمصر تحت حكم البطالسة ، وبخاصة الاسكندرية أن تظهر بحياة فكرية قوية . وعلى الرغم من الفتح الروماني الذي حمل إلى مصر ضربات شديدة الوقع ، فإن تقدم مصر كان مقدراً عليه في مجموعه ، أن يهيء هذا البلد لدور قيادي في العالم الإسلامي .

الفينيقيون

على حين كانت بلاد فارس وبلاد السكديانيين ومصر دول تقع في الغرب من آسيا ، فإن فينيقية — وهي شريط ضيق من الأرض يقع بين لبنان والبحر — كانت امبراطورية بحرية . ومع ذلك فإن شاطئها رديء وغير متعرج وخال من مصبات الأنهار ، ومن المرافق ، ومن الموانئ الطبيعية . وفي الحق أن الوسائل الضرورية لأية حياة بحرية لا وجود لها في فينيقية ، وقد يكون في خلق مثل هذه الوسائل بطريقة مصنوعة ما يتنافى مع العقل السليم لولا أنها نشأت عن حاجة ملجئة .

هذا ولأن المنفذين المحيطين بفينيقية من الشمال والجنوب — وهما الطريقان الوحيدان لدخول آسيا — لم تسكن فينيقية مستقلة عن الأقاليم الداخلية من ورائها وكان لها من مرافئها الحصينة وأسطولها البحري ما أمكنها أن تفرض نفسها على مدخل هذه المضائق وعلى طول هذا الشاطئ وعلى الطريق الذي تتبعه الجيوش دائماً في اتجاه أو في آخر . هذا الطريق الذي ظل حتى أيامنا هذه أكبر طريق دولي . وهناك عند مصب نهر السكلب ، قريباً من طرابلس كتابات هيروغليفية وأخرى منقوشة على المباني ، ونصوص لاتينية وإغريقية محفورة في صخور على الشاطئ تحكي أبداً ذلك العبور الظافر لمسيس الثاني ولسته ملوك أشوريين وجليوش إغريقية وكتائب رومانية .

ولعل الفينيقيين كانوا بحارة لأنهم لم يكن لديهم منفذ آخر غير البحر ، عندما كانوا محاصرون في الجبال وسواء أكان هذا بحكم الضرورة أم على سبيل الهواية فإن المعروف عنهم أنهم كانوا بحارة مهرة ومفاوضين من الطراز الأول . ومن ثم ، فقد أمسوا أضخم

قوة بحرية وتجارية في المصور القديمة فسقط حوض البحر المتوسط ، والبحر الأسود ، والبحر الأحمر بين أيديهم . ولما كانوا أول من مارسوا الملاحة البحرية بين الشعوب ، فقد داروا حول إفريقيا ورأوا « الشمس عن يمينهم » وهذا ما بدا لهيودوت وهو غير معقول ، لكنه يؤكد صحة الرحلة . واختفت مع ذلك امبراطوريتهم بعد تدمير طروادة (١) وصيدا ، وصور وقرطاجنة التي لم يبق منها غير أطلال مشوهة .

لم يكن عند الفينيقيين فن أصيل . فقد كانت نزعات مواهبهم تجارية ، ومما كان مثار دهشة كبيرة لحرفائهم البرابرة معرفتهم المحافظة على عرض أمين لجميع أعمالهم التجارية بوساطة تواليهم من الرموز تمثل مخارج الصوت . وكان هذا هو النواة الأولى للحروف الأبجدية .

ويقتضينا الانصاف أن نعترف للفينيقيين باستحداث طريقة ماهرة في تبسيط الأعمال التجارية بوساطة اختراع قطع معدنية تحمل علامة كبار التجار وذلك في عصر كان الانسان لا يمارس فيه غير المقايضة ولا يتبادل بضاعة إلا ببضاعة أخرى . وقد خطت حضارتهم خطوة حاسمة بفضل عبقريتهم التجارية ، واختراع النقد (العملة)

الآغريق والرومان

قد لا يكون هذا السرد المختصر لشعوب الشرق مكتملا ، لو أغفل هذا السرد ذكر ما قام به على التوالي الآغريق والرومان الذين كان عليهم القيام بعبء إنشاء الروابط الأولى بين الشرق والغرب .

في سنة ٣١٢ قبل الميلاد أسس الآغريق في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية مملكة سلوقيا ، ونشروا فيها الثقافة والحضارة اليونانيتين وخضعوا بدورهم لتأثير الفكر

(١) لم يفرق هيودوت في كتابه « التاريخ » بين الطرواديين والفينيقيين .

والتقاليد وعبقورية الحضارات السابقة من سومرية ومصرية وإيجية وحثية وكلدانية ، كما تشهد بذلك الأشياء التي يجدها المرء في أثناء التنقيب عن الآثار . وذلك أنه قد ظهر بوضوح في سوريا إلى أقصى حد اندماج جميع هذه الظواهر لبعقورية شعوب الشرق ، وتقدم انطاكية والسويداء واللاذقية يوماً بعد يوم إلى أيدي الباحثين ، عجائب هي في نهاية الأمر ذات طابع سوري . . هذا الخط أخذ ينضم بعد زمن قليل إلى تراث الحضارة العربية .

لقد رحل الاسكندر الأكبر (٣٥٦ — ٣٢٣ قبل الميلاد) الذي عين قائداً عاماً لقوات الجيوش الاغريقية لغزو الشرق وتحت قيادته ٣٥٠.٠٠٠ ألف جندي منهم ٥٠٠٠ فارس ، وقد استطاع الانتصار على قوات تفوق عدد قواته بعشرين أو ثلاثين مرة في نهر جرانيك وفي مدينة اكسوس وفي مدينة اربل ، وأخضعت بسرعة هذه التبريرية الحاربة آسيا كلها حتى تركستان والسند فيما بين عامي ٣٣٥ ، ٣٢٣ ، ولكن في اللحظة التي كان يحلم فيها بجمع الفرس والاغريق وهما الخصمان اللدودان في وطن واحد ، فاجأه الموت في الثالثة والثلاثين من عمره .

كان الاسكندر بالنسبة للشرق بداية المرحلة الهلنستية التي مارست تأثيرها العميق طيلة ألف سنة وأكثر . وكانت اليونانية حينئذ هي اللغة الرسمية ، ثم صبغت المدن الشرقية بالصبغة اليونانية . واصبحت الاسكندرية وانطاكية وسالوقيا أمصاراً عظيمة ومراكز لحركة تجارية شديدة . وامتد الفكر المتسامح والشكي للحضارة اليونانية حتى بلغ الأرض المقدسة في مملكة يهوذا .

يبد أن الاندماج الذي حلم به الاسكندر يوماً ما لم يكتمل ، ولم تستطع الحضارة اليونانية المحصورة في المدن أن تستقر في القرى . وظلت هاتان الحضارتان متقابلتين وجهاً لوجه ، ثابتتين ومتميزتين ، ففي سوريا كانت سلوقيا وانطاكية تكونان ولايتين منعزلتين ومتعاضدتين . وفي مصر كان مواطنو وادي النيل يعارضون يوناني الاسكندرية . وارتأى الرومان أن الساعة قد حانت للتدخل في الشرق من جانبهم .

إن الفتح الذي بدأه سيبو الأفريقي سنة ١٨٩ قد أكمله بومبي في سنة ٦٣ .

وقد كان نصيب الامبراطورية الرومانية في التأثير على الشرق ضعيفاً لأن كل ما حظيت به واجهة إدارية سطحية ، وظلت الأفكار مقتبسة من الثقافة اليونانية . وقد غالت روما في احتفاظها بغريبتها أكثر من اليونان فلم تستطع أن تتفهم الشرق ويفهمها الشرق . ولعل الامبراطورية الرومانية نجحت فقط في إهمال تطور الحضارة اليونانية وبذلك تكون قد ساعدت على إخفاقها الذي سيكون إخفاقاً تاماً أمام ظهور الإسلام .

(٣)

المصادر المادية والأدبية

كان العبرانيون أقرب الجيران للغرب كما كانوا أقرب أقربائهم من ناحية الجنس ، وقد روى تاريخهم في سفر التكوين واندمج مع التاريخ الأسطوري للإنسانية .

وعندما أقبلت القبائل العبرانية من الجزيرة العربية — مثل جميع الطوائف السامية — أقامت أولاً في بلاد السكديانيين حول أور التي كانت ترعى فيها قطعانهم ثم صعدوا تحت قيادة إبراهيم ، مجرى الفرات حتى منعطفه ، وساروا حتى وصلوا شواطئ نهر الأردن وهم متجهون على الدوام نحو الغرب . هذا الطريق هو الذي يدور حول صحراء سوريا ، وهو أقصر طريق يؤدي من بلاد السكديانيين إلى مصر ، وهو الطريق الذي اتبعته الهجرات والجيوش الفاتحة . وحوض نهر الأردن هو الأرض « الموعودة » أكثر من مرة وهي بلاد كنعان التي أصبحت فيما بعد مملكة يهودا ثم فلسطين . وكان هذا البلد أرضاً جذباء بالسبب لشعب راع . وقد ترك عليها إبراهيم ابن أخيه لوط ، ثم تابع السير حتى بلغ مصر .

ووفقاً لما ورد في التوراة ، كان لإبراهيم ولدان : اسحق الذي خرجت منه الاثنتا عشرة قبيلة لإسرائيل ، واسماعيل أبو الأرومة العربية التي يجعلها محمد صلى الله عليه وسلم أصلاً لنسب العرب .

عندما تسكثر عدد اليهود بمصر أخذوا في الخروج نحو « الأرض الموعودة » وسار الشعب العبراني بقيادة موسى تأهلاً زمنياً طويلاً عبر المناطق الصحراوية للجزيرة العربية من صحراء النفود تصادفهم في أثناء ذلك معارك مع القبائل البدوية المستوطنة . وفي سفح جبل سيناء ، منح موسى اليهود « ألواح العهد » ثم السريعة التي حكمتهم قروناً عدة . ولم تستطع القبائل اليهودية والقبائل البدوية في المناطق الصحراوية أن تتجنب الصدام بعضها ببعض . ويقال إن موسى كان سيتزوج ابنة كاهن من نسل الأرباب في أرض مدين ، وهذا الرب المسمى يعقوب لم يكن سوى الذي أطلق عليه العبرانيون اسم يهو . بيد أن مدين تمحاذي الحجاز التي كانت قد جمعت فيها القبائل البدوية أو ثنائها .

وهكذا ، تمت المبادلات بين قوم رحل وبين بدو من أصل واحد ومن بلاد مجاورة .

ومن جهة أخرى خرج العبرانيون مع إبراهيم من بلاد السككديين ، ومع موسى من مصر ، ولم يكن هذا الخروج هذه المرة بين جيران مارسوا التأثيرات المتبادلة فيما بينهم فحسب ، بل كانت كذلك من أقصى طرف في العالم الشرقي إلى الطرف الآخر .

إن مفهوم الإله الواحد الذي أشاعه اليهود ، وتبادل الأفكار ، كان لهما الفضل شيئاً فشيئاً في تغلغل اليهود ، حتى إن العرب أنفسهم — على الرغم من عزلتهم وانطلاقهم الجامعة لم يستطيعوا أن يفلتوا من هذا التأثير . وعند ما أقبلوا فيما بعد على توحيد الشرق في ظل إيمانهم الديني والسياسي ، وجدوا الأرض مهيأة .

وكانت شعة أمتداد أخرى تنتظرهم . .

وإذا تذكرنا أن الفينيقيين وهؤلاء السككديين سكان الشاطئ كانوا قد أخضعوا مع قرطاجنة شمال أفريقية وأسبانيا اتضح لنا سرعة غزوهم لهذه البلاد .

إن التغلغل الختامي الذي هو ثمرة للموقع الجغرافي ، والعنصر العربي والعنصر اليهودي من قبل الإسلام بوقت طويل إنما هو نتيجة عنصرية . وهذا التغلغل يجلو كثيراً من الحقائق التاريخية القليلة الأهمية إن لم تكن أسطورية . فالملوك الذين تحدث عنهم أرميا^(١) ربما كانوا بعض شيوخ الجزيرة العربية الشمالية ، وسالومي التي خلدها كتاب « نشيد الأناشيد » أميرة عربية من قبيلة خيضر ، وأيوب ، مؤلف أحسن شعر سامي عربي . بل لعل « حكماء الشرق » الذين اهتموا بالنجم حتى أورشليم لم يكونوا غير رؤساء بدو لا كهنة قادمين من فارس البعيدة . وهكذا نرى أنه من اليسير تتبع مثل هذه المواقفات مع تلك الواردة في التوراة .

(١) أحد أربعة أنبياء من بني إسرائيل ظهروا فيما بين سنتي ٦٥٠ تقريباً ، ٦٣٠ قبل الميلاد .
(المترجم)

لقد وجدت الديانة اليهودية فلسطين في « دولة كهنوتية » ، وكانت قد اصطفت الارستقراطية الدينية بعض الشيء بالصيغة اليونانية تدريجاً تحت ظل حكام متسامحين كالبطالة وبعض السالوقيين ، وزعم بعض المؤرخين أن تيتوس (١) قضى فيما بعد على الشكل القديم لليهودية بتدميره أورشليم ، وخلق بذلك شكلها الجديد على الرغم منه بخير شك . لكن هجرات الماضي التي لم يكن إلا كراه باعثاً عليها دائماً كانت قد رسمت الخطوط الكبرى لمصير اليهودية المشتتة .

يبد أنه عند ما تفرق اليهود ، لم تعد الديانة اليهودية شرقية خالصة لأن روما قد استمدت هذا المثال الشرقي للفكر الديني .

لقد تساءل الناس عن كراهية اليهود للرومان ألا تشكل الانعكاس العميق لشعور الشرق تجاه الامبراطورية . ومن الواضح أن ضماير الشرقيين وكذلك ضماير اليهود لم يكن في استطاعة أن تناصر عقيدة الامبراطورية أو الوثنية ولم تجد تلك الضماير كذلك ما يشبع تطلعاتها الغامضة في المسيحية التي لم تستطع أن تظل حبيسة مهدها في الشرق . وعند ما انطلقت المسيحية إلى غزو الجموع الشعبية للامبراطورية ، وبعد أن صبغت نفسها بقوة بالصيغة القريية ، هزت الامبراطورية من أساسها . وعند ما أصبحت المسيحية في نهاية تطورها العقيدة الرسمية للرومان ، لم يعد في استطاعة الشرق معرفة نفسه في هذا الدين الذي كان قد رحل من وطنه ، ويلاحظ ذلك بوضوح عند ما أمر الملك شابور الساساني في سنة ٣٤١ بدمج مسيحي مملكته في نفس الوقت الذي كانت فيه المسيحية معترفاً بها على أنها عقيدة رسمية لبلاد اليونان وروما . وهما عدوتان من قديم الزمان لبلاد فارس ، وهكذا فإن كلا من اليهودية والمسيحية قد طردتا بصورة منبث الصور من الشرق . وإذا كان رينان قد استطاع حقاً أن يسخر من « عدم كفاية رجال الغرب الدينية » فإن المدافعين عن الأديان الجديدة في هذا القطر لم يستكينوا إلى اليأس طيلة القرون الأولى من عصرنا الميلادي ، ومن جهة أخرى فإن الغريزة الدينية في الشرق لا يمكن إنكارها .

(١) ابن الامبراطور فيسباسيان ، تولى حكم روما بعد أبيه من سنة ٧٩ إلى ٨١ م .
(المترجم)

هذه الحال الذهنية وهذا الاستعداد للتأمل الميتافيزيقي لا يمكن تصورهما بغير حدود أو بغير إفراط ، ذلك أن انطواء نفوس الشرقيين على القلق ظل تربة صالحة لمرطقات في وسعها أن تشر علماء روحانيين كباراً على غرار صانعي المعجزات المتعصبين الذين يستميلون معهم جموعاً من المرتدين ومن طلاب التعميد . أنه لإغراء لا يدوم طويلاً : فالسأوية التي هي مثال على ذلك ، كان لها شهداء لم ينبت دمهم أي فوز مشر . وماني الذي أعلن أنه رسول إلهي ومحِب للسلام وتابع لمذهب التصوف ، صلبه الهوسيون المجاهدون والقوميون . وفي فورة المرطقات ، من ذا الذي لا يتذكر دين مترا وهو يمثل النور الإلهي ، وإله الشمس الشعبي عند البارتيين^(١) وفي القرن الثالث ، انتصر دين مترا على الامبراطورية ، وبلاد اليونان الآسيوية ، ثم انتهاز أخيراً أمام المسيحية .

من الضروري بلا شك أن نبيء مكاناً على حدة لجوليان المرتد^(٢) الذي وضع الجيش الروماني في خدمة نزعاته الصوفية . وعند ما غلب على أمره كذلك ، أورد مؤرخو حياته أنه عند ما سقطت تحت أسوار المدائن ، لم تكن كلماته الأخيرة موجهة ضد الفرس — خصومه — بل كانت موجهة إلى المسيح : « إنك انتصرت ، أيها السيد المسيح » .

إذن ، لقد جاء اليوم الذي لم يعد فيه الشرق الذي كان يحكم حكماً إلهياً يملك روحانية على طريقته . وفي ربوع الشرق التي فيها العاطفة المسيطرة هي الدين الذي يعلو الروح

(١) قبائل الاسكنديين القدماء ، أقاموا في الجنوب من مقاطعة هيرافانيا التي تقع في الجنوب والجنوب الشرقي من بحر قزوين ، قد أخذوا عن الفرس لغتهم وحضارتهم ، في القرن الثالث قبل الميلاد ، وشنوا حرباً ضد السلوقيين ، وأقاموا أحد حكامهم ويطلق عليه إرسكيس في عام ٢٥٥ ق . م مملكة قوية استمرت حتى عام ٢٢٦ بعد الميلاد . وبعد عام ٢٢٦ ، ضمت هذه المملكة إلى امبراطورية الساسانيين الفارسية الجديدة ، وكان يطلق على عاصمتهم اسم بارتيا وهي الاسم القديم لمدينة خوراسان . (الترجم)

(٢) امبراطور روماني حكم من ٢٣١ إلى ٣٦٣ ، ابن أخت قسطنطين ، نشأ مسيحياً ثم ألحد ، ومن هنا جاء اسمه المرتد . (الترجم)

ولا شيء غير الروح ، والذي لا يدع اهتمامه خارج شريعته الخاصة . . في هذا الشرق وجدت النفوس نفسها فجأة دون مثل أعلى ، ودون إيمان ، ودون قانون أخلاقي ، ودون وازع ديني أي أنها وجدت نفسها ضالة ، وهو موضوع لا بد من الإشارة إليه . لذا كانت الحياة العامة بأكملها غير منظمة . ولم يستطع أصحاب الإيمان من الأولياء إعفاء أنفسهم من إيمان خاص بهم يستجيب للحاجات العميقة للروح الشعبية .

وفي الجزيرة العربية ، يبدو أن وثنية القبائل الموروثة عن الأجداد لم تعد تحقق ميول البدو التي كانت شديدة الغموض . وكانت الانتجعات والحوافل بل الغزوات ، مناسبات للاتصال والتبادل مع أصحاب الأديان المنزلة . وكانت هذه المناسبات تسير بالعقول برويدا رويداً إلى وحدانية غامضة أيضاً ، من غير شك . لكن كان لازماً على هذه الوحدانية أن تتخذ شكلاً في يوم ما . ومن الوجهة السياسية كانت الجزيرة العربية دائماً لا حياة فيها ومن غير قوانين . وظل الشرق غارقاً في الفوضى بسبب انهيار الامبراطورية الرومانية ولم يعد هناك شيء يستطيع أن يسد الطريق أمام رئيس وطني وديني . وقد تحقق الجو الانالي لظهور دين جديد وامبراطورية جديدة .

أجل ، لقد دقت الساعة معلنة ظهور الإسلام . .

(٤)

محمد والقرآن

في منتصف الطريق بين شمال الجزيرة العربية وجنوبها ، كانت المحطة الرئيسية للقوافل التي كانت تحقق الملاقات التجارية بين الهند ومصر . كما كانت بداية ونهاية للحركة التجارية مع فلسطين وسوريا وكلدنيا . وكان التجار الأغنياء في مكة أصحاب الكلمة العليا على سوق عكاظ مجتمع التجار والخطباء والشعراء والكهان كل عام . وكان من اختصاص هؤلاء التجار كذلك الاشراف على رسوم شعائر الحج التي كانت تدر دخولا كبيرة والتي كانت تمارس في نفس المناسبة . وتتوقف المشاحنات والسرقات والحروب طوال أربعة أشهر حتى تتمكن القبائل والقوافل في شبه الجزيرة العربية كلها من المشاركة في هذه الأعياد . وكانت تعقد في هذه الأسواق مباريات شعرية ، يتنافس فيها كبار شعراء القبائل ، ومن ثم كانت مسابقات عكاظ تتابع بكثير من الاهتمام ، وكان الشاعر الفائز يتردد اسمه في جنبات الجزيرة كلها ، مما يرفع من قدر قبيلته . ولا يوجد قوم يحبون الشعر كما يحبه البدوي ، لأنه يتغنى فيه بالجمال والشجاعة والمتعة . وكان الأميون أنفسهم — كان الشعراء كلهم تقريبا على هذه الحال — ينتشون بالفصاحة وباللغة الجميلة . ولذا ، كانت القافية والوزن تحدث فيهم سحرا صادقا .

ومن وجهة النظر الدينية ، كان البدوي لا يحترمون إلا بعض شعائر متعارف عليها أملاها استعداد غامض للتطبع بتقاليد القبيلة . وهذا يفسر لنا عبادتهم لعدد كبير من الآلهة أقاموها في الكواكب كما أقاموها في الأرض . فساكن هناك الإله بعل الذي يمثل الشمس ، وعشتروت وهي فيض إلهي عن القمر ، وأدونيس لوتاموس إله كلدنيا ، أو خورس إله مصر أو مولوخ مردوك إله كلدنيا ، أو آمون إله مصر ، وكان خيالهم يملأ الصحراء بعوالم من الجن ، وهي كائنات بعضها تمت بصلة إلى الملائكة وبعضها إلى الشياطين بحسب مودتها أو عداوتها . ولم يكن بينهم إلا قليلا أمر الحياة الآخرة لأنها عندهم غير مؤكدة ، ولذلك كانوا يترددون عن خرافة أكثر مما كانوا يترددون عن إيمان على معابد بشق أرفعها مكانة معبد الكعبة في مكة على بعد ثلاث مراحل قصيرة من سوق عكاظ الكبير .

اشتهرت الكعبة ، وهي معبد صغير ذو شكل تكعبي ، بأن إبراهيم وولده اسماعيل — جدى جميع العرب — قاما ببنائها ، ويقال إن جبريل أحضر إلى اسماعيل وإلى أمه هاجر حين بقيا وحدهما ، حجراً ناصع البياض يسندان رأسيهما إليه ، ولما اسود لونه على مر الزمن بسبب آثام البشر أصبح « الحجر الأسود » . وقد ثبت في أحد جدران هذا البنى على ارتفاع يسير تقبيله . وعلى بعد بضعة خطوات من هناك ، فجر جبريل نبماً عجيباً هو بئر زمزم الذى تشفى مياهه جميع المرضى .

وفي هذا المكان أيضاً حوالى منتصف القرن الخامس ، أسست قبيلة قريش وهي سادة الكعبة (١) حول المعبد الأصيل مدينة مكة المكرمة . وكان الحجاز الذى بنيت فيه مكة يقر بوجود إله أكبر يتشفع به المرء فى الأخطار الشديدة . وهذا الإله المسيطر الأعلى لأصنام الوثنيين والجان ثم لهذه الأصنام الستين بعد الثلاثمائة التى كان قد جمعها العرب فى صحن الكعبة هو الله تعالى ، إله اسماعيل وإبراهيم وبنوع من التوفيق بين هذه العقيدة الخاصة بوحداية غامضة وبين العقائد القديمة الخاصة بالوثنية التى كانت تعظم اللات والعزى ومناة ، أصبحت الكعبة مقر الآلهة وبيت الله . لذلك كانت قريش تقوم بخدمة الكعبة والإشراف على مواردها فى الوقت نفسه .

ولد محمد ﷺ بمكة فى الثلاثين من أبريل عام ٥٧١ هـ ، وهو ينتمى إلى بنى هاشم من قبيلة قريش . وقد مات أبوه قبل أن يولد وماتت أمه وهو فى السادسة . وترك له والده قطيعاً من الماعز وخمسة جمال ، وبيتاً وجارية اهتمت به ، وقامت على تربيته عند جده عبد المطلب ، ثم عند عمه أبى طالب وعلى الرغم من آلاف المؤلفات التى كتبت حول هذا الموضوع ، لا يملك كثيراً من الشواهد المؤكدة عن حياته طفلاً أو شاباً . وكانت قبيلته تطلق عليه لقب الأمين ، ويطلق عليها القرآن لقب محمد الذى يعنى عظم الحمد والثناء عليه ، وتزوج محمد راعى الإبل وقائد قوافل التجارة وهو فى الخامسة والعشرين من خديجة ، الأرملة الذكية والفنية ، فكانت زوجته الأولى . وكان محمد ربعة لا بالطويل ولا بالقصير ، أزهر اللون ، أدعج العينين ، سبط الشعر ، كث اللحية . وكان أمياً كمعظم رجال قبيلته ، لكنه كان متين البنيان ، ذكياً نشيطاً ،

(١) سادة الكعبة = خادمتها

وكان فصيحاً في التعبير عما في نفسه ، وكانت شخصيته تأخذ بمجامع القلوب ، لما اشتهر عنه من أمانة ووفاء كما كان ذا إحساس نادر رفيع وهو الذي قدر له أن يكون فيما بعد النبي ﷺ . كان في شبابه فتى حاد المزاج ، سريع التأثر والانفعال ، نهياً لشواغل (١) غامضة ، ذا ميل طبيعي للأحلام والنزعات الروحية . وعندما بلغ النبي ﷺ من الرشد عرف كيف يكبح جماح نفسه وأن يستمر مسيطراً عليها وقد هبأه هذا التأمل الروحي وكلفه بالمثل العليا منذ صباه للاهتمام بالقضايا الدينية ، فكان يحاول محادثة المسيحيين واليهود ، والحنفاء الذين كانوا يرفضون عبادة الأصنام وينكرون الحرافات التي لا سند لها . وقد أخذ الميل لدراصة القضايا الأزلية التي ملكت دأماً عليه فكره ولبه ينمو أيضاً حتى أصبح الإنسان المصطفى .

راح محمد ﷺ قبل الأمر بالبعثة يختل بنفسه أكثر فأكثر باحثاً بتأملات ولا يبلغ الأربعين ، فكان يعتكف كل عام في أثناء شهر رمضان (٢) في غار حراء بالقرب من مكة لكي يفرغ للصيام والتأمل . وهناك ذات ليلة من سنة ٦١٠ نزل عليه جبريل قائلاً له إنه « رسول الله » شددت هذه الدعوة من عزيمته فأعلن عن نفسه جهاراً في السنوات التالية أنه نبي الله ، رب العرب (٣) ، وكان اعتقاده خالصاً بأن عليه واجب قيادة الشعب العربي إلى الدين الحق وإلى أخلاق جديدة .

لكن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يعيش في جماعة تشتغل بالتجارة ، يعتمد

(١) الذي يعرف عنه أنه لم يكن حاد المزاج ولا سريع التأثر والانفعال وخاصة والله يصفه بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ويقول الله في كتابه العزيز : إنك لعلی خلق عظیم » « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك » . (المترجم) .

(٢) الذي في سيرة ابن هشام (ج ١ ص ١٥٣) أنه كان « يجاور في حراء من كل سنة شهراً » دون تعيين أنه شهر رمضان بالذات ، إلا أن هذا الشهر كان رمضان في السنة (التي بعث فيها ﷺ) (المترجم) .

(٣) هذا ما لا نوافق عليه المؤلف ولا يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم حيث يقول : « إذ قال له ربه أسلم ، قال أسلمت لرب العالمين » (المترجم) .

فتخلها الأساس على الذور التي كانت تؤدي إلى أصنام السكبة في أثناء الحج ، لذلك لم يلبث أصحاب السلطان القاسم على الثروة أو الطبقة أن أخذوا ينظرون إليه على أنه منافس خطير يجب الوقوف في وجهه ، وكانوا لا يجسرون على مجاسدته خوفاً من مشاحنات دامية لأن أفراد عشيرته حتى - الثائرين على دعوته سيجدون أنفسهم ملزمين بالدفاع عنه وفاء لعاداتهم القديمة ، ولسكنهم لم يكفوا عن اضطهاد أتباعه الأولين ، الذين نقد صبرهم وهاجروا إلى الحبشة ، البلد المسيحي .

يبد أنه على الرغم من الاضطهاد المستمر المؤلم ، وعلى الرغم من فقدته خديجة زوجته التي كانت أول من ساندته وأخلصت له والتي فاضت روحها في سنة ٦١٩ ، وعلى الرغم من موت عمه أبي طالب الذي كان معيناً له أيضاً ، فإن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يكل ، بل مضى غسب الجزيرة العربية يدعو إلى الدين الجديد وكان كل يوم يضيف رواداً جدداً اعتنقوا الإسلام متأثرين بقوة اقتناع النبي وبلاغته عباراته . ومع هذا فقد كان موقفه يتقدم أكثر فأكثر . فعند ما رحل إلى الطائف وهي مدينة لا تهتم بإرضاء الطبقة الاستقرائية في مكة أو عدم رضاها ، طرد منها مشيعاً بقذف الأحجار . ولما شعر بالكراهية تعظم وتحيط به ، وعند ما علم من ناحية أخرى أن سيد قريش الجديد ، أبا سفيان قرر التخلص منه ، أدرك أنه لم يعد أمامه غير الهرب من مكة إذ أراد أن يتجنب أسوأ العواقب .

اتجه يومئذ إلى يثرب ، وهي مدينة يبلغ عدد سكانها ١٠٠٠ نسمة ، وعلى بعد ٤٠٠ كيلومتر من شمال مكة ، والتي كان قد سبقه إليها بعض صحابته ، وكانت هذه المدينة تبدو بتوفيق من الله مهيأة لتفهمه واستقباله . وقد حدد هذا الحادث التاريخي الذي عرف باسم الهجرة بداية التاريخ الإسلامي (١٦ يوليو ٦٢٢) ويثرب التي استطاع محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو فيها إلى دينه الجديد بكامل حرية ، سُمِّيَتْ بـ « المدينة » أي مدينة النبي .

لسكن الصعاب لم تنقطع . .

وأمام اهتمامه والتزامه باطعام سكان المدينة التي كانت قريبة للقطع ، أدرك محمد وقتئذ ضرورة العمل ، ودون تردد ، أخضع قافلة تتجه من سوريا صوب مكة ، ثم مضى

بعد ذلك إلى غزو قريش ، وألحق بهم هزيمة دامية في بدر ورجع إلى المدينة محملاً بالزاد والغنائم .

قد كان هذا العمل بمثابة نقطة انطلاق لسلطانه الزمني . فقد قاتل الإسلام وكسب ممر كته الأولى بطليعة من ثلثمائة رجل ، كلهم نشيط بسبب جرأتهم وثقتهم في مقدرات الدين الجديد . ولقد أدرك محمد (صلى الله عليه وسلم) الضرورة الملحة في نشر الإسلام والدفاع عنه عن طريق سيادة السلاح ، وسيادة العقيدة متشجعاً بسبب نجاح تلك المظاهرة من القوة . ومن الآن فصاعداً أصبح الرسول رجل دولة ، ويجمع كل أسباب السيطرة داخل جماعة المسلمين .

ولما استمد النبي (صلى الله عليه وسلم) من المضايقات التي كانت تدبر ضده حقائق إنسانية ، طرد وقتل من المدينة دون شفقة اليهود الذين كانوا يكيدون له ، وأعلن أن الإسلام سيبقى الدين الوحيد للدولة التي أقام أسسها ، وكانت قوة رد الفعل قاسية النتائج . فقد تسكتلت ضده متحالفة القبائل اليهودية والعربية وزحفت لمحاصرة المدينة (سنة ٦٢٧) ، فحشد النبي (صلى الله عليه وسلم) كل أنصاره وأمرهم بحفر خندق حول المدينة المحاصرة ، وأكره أعداءه المعقوتين على رفع الحصار ومضى بعزم يرد هجمات الأعداء ، وأحرز انتصاراً جديداً على يهود بني قريظة الذين كانوا قد ساعدوا قريشاً . وقد سلك معهم مسلكاً يدل مرة أخرى على عظيم خلقه ، ذلك أنه منحهم حق الاختيار بين الإسلام أو السيف . وانتهت المرحلة الحرجة ، وبعد عدة معارك انتصر في غضونهما محمد صلى الله عليه وسلم دون صعاب على أعدائه ، توقفت الحروب .

وعرف النبي (صلى الله عليه وسلم) عندئذ كيف يفاوض ببراعة ومن ثم ، عند ما توجه إلى مكة سنة ٦٢٨ على رأس ألفي جندي مدججين بالسلاح ، كف المشركون عن الاقدام على مهاجمته . وبعد ذلك بستين حطم أصنام الكعبة ، وعند ما تغلب نهائياً على جميع سكان مكة أذعنوا له بالولاء . ووصلت وفود من كل فج تقدم فروض الطاعة لسيد الأنبياء الذي أصبح فيما بعد سيد مكة المكرمة . وهكذا ، دانت الجزيرة العربية لمحمد (صلى الله عليه وسلم) في عام ٦٣١ . ولم تسكن قد خضعت أبداً لرجل واحد . وزالت دولة الوثنية في الشرق على يد الإسلام الذي أصبح هو نفسه دولة .

فاضت روح النبي (صلى الله عليه وسلم) وعمره واحد وستون عاماً في ٨ يونيه من سنة ٦٣٢ ، دون أن يدون بنفسه نصوص رسالته . وعند ما كان ينزل عليه الوحي كان يتلو أقوالاً يسجلها صحابته المتيقظون على لفافات من الورق والرق وعلى صحائف من الحجر أو من المعظم ، وسعف النخيل ، وغالباً ما كانوا يحفرونها في ذاكرتهم ولقد مات ستائة من هؤلاء الحفاظ في معركة واحدة بعد سنة من وفاته . ولكن الباقين منهم جمعوا النصوص والروايات .

ثم عهد إلى زيد كاتب النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يدون مصحفاً رسمياً جمعاً عليه ، وذلك بعد وفاة النبي بتسعة عشر عاماً . وقد راجع هذه النسخة التي حررها زيد ثلاثة من الثقات ، وأصبحت هذه النسخة « القرآن » أي « الكتاب » .

وقد أرسلت ثلاث نسخ من هذه المصاحف إلى دمشق والكوفة والبصرة التي حفظت فيها بعناية ، وليست شرعية هذا المصحف موضع شك حتى في الأجزاء المروية من الذاكرة ، على الرغم من أن هذا الجمع هو في الحق مجهود رجل واحد .

« القرآن » مقسم إلى سور ، والسور إلى آيات ، وأقدم الآيات — وهي آيات مكة — قصيرة ، مبثورة ، ونبوية ، شعرية ، وروحانية . فهي تعالج القول بوحداية الله وصفاته وما فرض من عقائد . أما الجزء المنزل في المدينة في وقت الانتصار فهو على العكس أكثر طولاً وتفصيلاً وذكرًا للأحداث العملية . وموضوعات هذا الجزء هي العبادات والمعاملات من علم وطب . وفي بعض الآيات من العظمة والبلاغة ما يأخذ بالألباب ويستهيى القلوب . والذي يهمنا أن نسجله هنا هو أن « القرآن » بالنسبة للمسلمين « غير مخلوق » فهو كلام الله ، والهادي الذي لا يحيد عن القصد ، ودعامة الدين ، وخلاصة كل معرفة ، ومصدر كل سلطان ، ومبدأ كل إدارة والأساس الوحيد للحياة الشرعية .

لم يوجد مؤلف في النثر باللغة العربية قبل « القرآن » فهو أقدم كتاب عربي نثرأ ، ولا نزاع أنه أروع الأدب العربي . وإسا كانت روعة « القرآن » في أسلوبه

فقد كتب ليقرأ ويتلى بصوت عال . ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية . ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جماله وقوته وسمو صياغته . ويخلق نثره الموسيقى والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتوهج الصور نضارة . فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان ملهماً بجلال الله وعظمته .

(٥)

الدين والفكر الاسلامي

الحديث :

القرآن يكمله الحديث الذي يعد سلسلة من الأقوال تتعلق بأعمال النبي وإرشاداته . وفي الحديث ، يجد المرء ما كان يدور بخلد النبي صلى الله عليه وسلم ، العنصر الأساسي من سلوكه أمام الحقائق المتغيرة في الحياة . هذه الأقوال أو هذه الأحاديث التي يشكل مجموعها السنة دونت مما روى عن « الصحابة » أو نقل عنهم مع التمهيص الشديد في اختيارها وهكذا جمع عدد كثير من الأحاديث . والبخاري الذي يعد إماماً في الحديث لم يصح عنده سوى عشرة آلاف من ثلثمائة ألف حديث . ولا تزال السنة هي التتمة التي لا غنى عنها للقرآن والتي يلجأ إليها المرء على مر الأيام عندما يواجه بمشكلة لم يقل فيها القرآن برأى قاطع ، فإذا لم يستطع القرآن أو السنة أن يقدم الإجابة المطلوبة ، يرجع حين ذاك إلى القياس أو اتفاق الجماعة ويسمى هذا الاتفاق « الاجماع » .

والكثرة السائدة من المسلمين سنيون . ومع ذلك فإن عدداً صغيراً منهم لا يقبل غير « الأحاديث » المروية عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وهم الشيعة ، ولكي تطبق أحكام القرآن والسنة لا بد من شروح دقيقة . وهذا هو ما قامت به المذاهب والجماعات الدينية التي انتظمت علماء دينيين لهم مكانة مرموقة .

العقيدة :

تتلخص العقيدة الإسلامية في إقامة البرهان على ثلاث : إثبات وجود إله واحد ، خالق العالم ، قادر على كل شيء ورحيم — ، ورسالة محمد والطابع الإلهي للقرآن — ، والبعث في الآخرة والحساب فالواجب على المسلم أن يشهد بوحدانية الله في كل مناسبة حتى الموت ، هذه الشهادة عقيدة أساسية ولا يجوز مساسها ، وتقابل هذه الوحدانية المنزهة الشرك بالله ، بل كذلك الثالث المقدس . والقول برسالة الرسول جزء لا بد منه

في بناء العقيدة عندما يقصد بها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم المرسل من الله ، وكذلك القرآن وأنه كلام الله غير مخلوق وأن كل آية منه أوحى بها الله ، وهذه عقيدة لا تقبل المناقشة ، ويتضمن البعث ويوم الحساب أن تكون الأنفس خالدة ، وأنها إما سعيدة أو شقية وفقاً لأعمالها . وترتكز العقيدة الإسلامية وهي تتشابه في ذلك مع العهد الجديد في الخوف من العقاب والأمل في الثواب .

وكما فرض القرآن الإيمان بالملائكة والجن فرض أيضاً الإيمان بالأنبياء ، ومن بينهم المسيح عيسى بن مريم . الحق أن الفكرة العامة للدين الإسلامي تتلخص في تعريف كلمة « إسلام » التي تعني « إنكار الذات » كما تعني كلمة « مسلم » أي « المطيع » ، وتدل هاتان الكلمتان على مدى ما توصف به من امتثال للارادة الإلهية ، وإيمان بقضاء الله .

العبادة :

العبادة في الدين الإسلامي هي قبل كل شيء عبادة عملية خالصة من التعقيدات اللاهوتية أو الصوفية . والعبادات المفروضة خمس أطلق عليها « أركان الإسلام الخمس » « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان . وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً .

ويتلخص الإيمان في التأكيـد بوحداية الله ورسالة محمد في قوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » وتسمى « الشهادة » وعندما تنطق بالعربية أمام شاهد فإنها تكفي للاعتراف بالانضواء تحت راية الإسلام . وهذه الصيغة يستشهد بها المسلم في كل مرة يجعلها المناسبة ضرورية ، على المهود ، وعلى القبور ، وأمام المحن ، وفي مواجهة الخطر ، وكذلك في وقت الدعوة إلى الصلاة .

والصلاة التي تؤدي خمس مرات في اليوم هي أمر بالعبادة يمارس بحسب أحكام محددة حيث يولي المسلم وجهه تجاه مكة ، ثم يقرأ بعد وضوئه — أي لا بد من أن يكون في

حال طهارة — الشعائر الدينية باللغة العربية مهما تكن لغته الأصلية . وصلاة الجمعة في المسجد إجبارية بالنسبة لكل البالغين من الذكور ، وهي تقتضى تجتمع « المسلمين » في صلاة يلقي الإمام قبلها خطبة مع دعاء باسم « رئيس الدولة » . وتشكل هذه الصلاة الجامعة نظاماً هاماً للبدوى الذى لا يقيم وزناً لشيء قدر ما يقيمه لحرية . وهذه الصلاة الجامعة هي في الامتثال لشريعة النبي (ﷺ) التى ارتضتها القبائل عن تضامن لم يكن معروفاً حتى ذلك الوقت وهو التضامن الذى أصبح مصدر قوتهم . من أجل ذلك فإنه قبل نشوب معركة القادسية التى انهزم فيها جيش الفرس قال القائد الفارسي الذى كان يرى — عن بعد — العرب يسجدون جماعة وقت الصلاة ، لحاشيته : « هذا عمر يعلم النظام » . .

كانت الزكاة قبل كل شيء عملاً تعاونياً حراً وإدارياً ينظر إليه على أنه فضيلة كبرى . وفي تنظيم جماعة « المدينة » اعتد النبي (صلى الله عليه وسلم) هذا العمل الخير كأنه ضريبة شرعية وإجبارية رابع^(١) العشر لصالح الفقراء والمعوذين . وسيتحول فيما بعد هذا النظام وسيتولد عنه هيئة من موظفين ، وبيت مال ، وخراج حاد عن هدفه . لكن إذا كانت الدولة قد صنعت من هذا العمل الخير مصدراً لمواردها ، فإن مبدأ الزكاة ظل — بفضل القرآن — فضيلة مارسها المسلمون تلقائياً بوصفه واجباً دينياً . وينبغي أن نزجى الثناء لمحمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان أول من شرع ضريبة تجبى من الأغنياء للفقراء .

هكذا أوجد القرآن الرحمة الإجبارية^(٢) . .

(١) في الأصل الفرنسي العشر . (المترجم)

(٢) عبثاً يحاول المفكرون ، وعبثاً يحاول أصحاب الدراسات والنظريات إيجاد طريقة تؤمن للإنسان حياة كريمة شريفة فلا يجدون سوى شريعة محمد عليه السلام لو نفذت بروحها وبنصها وبواقعها لما بقي فقير على وجه الأرض أو محتاج . (المترجم)

الصيام

يحتفل الصائم بذكرى « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ... » ويجب على المسلم أن يمتنع عن الطعام والشراب أثناء شهر رمضان من الفجر حتى الغروب . ويمكن أن ينظر إلى هذا التقشف الشديد على أنه عمل يقصد به وجه الله ونوع من التفكير عن الخطايا ، وبذلك يكون عملاً توسلياً شافعياً أمام الله ، لكنه يهدف كذلك إلى تقوية الإلزام الاجتماعي وإلى إشعار المسلمين بتضامنهم وتماسكهم . وكثيراً ما يلجأ العامة من المسلمين إلى تجريح أوائك الذين لا يحترمون هذه العادة .

وبالإضافة إلى الصلاة والصيام والزكاة ، شرع محمد (صلى الله عليه وسلم) الحج إلى مكة على أنه واجب ديني . فيجب على كل مسلم ولو مرة واحدة على الأقل في حياته إذا استطاع صحياً ومالياً أن يتوجه لزيارة الأماكن المقدسة وهذا بلا شك بقية من عادات قديمة سامية . وكانت الكعبة والحجر الأسود يمثلان مكانة كبيرة بالنسبة للبدو ، وقد أبتت مناسك الحج على عادات الماضي . لذلك كان علينا أن ندرك مبلغ التأثير التزايد لهذه التجمعات البشرية الضخمة التي يأتي إليها المسلمون من كل صوب وحذب ، للتأخي في دين واحد .

الحرب المقدسة

كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول في بداية دعوته إنه لا إكراه في الدين ... وأمهل الكافرين رويداً .. وفي ذلك الوقت ، أقر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلقاء السلام على اليهود والمسيحيين الذين كانوا يؤمنون بالله وكان لا ينبذ إلا عابدي الأصنام .. لكن ، هذه الطريقة التي يبدو فيها التسامح الجميل والمسألة العظيمة لم تجتذب إلا قليلاً من الأنصار ولم تستمر وقتاً طويلاً . وفي الحق كان الاضطهاد كفيلاً بأن يعلأ روح محمد (صلى الله عليه وسلم) بالمرارة ، لذا يتضح العنف الذي راح يلعب به المشركين « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار واجتدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين » .

وهكذا وبالضرورة ، حدد هذا الرأي مشروعية الجهاد :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » .
 وفسر كثير من المؤمنين هذا الكلام على أنه دعوة إلى الحرب وإلى أعمال السلب .
 ولكن النبي حرص على أن يحدد لهم أن « الله لا يحب المعتدين »
 بيد أن الخليفة القائم على أمر الدين والمدافع عنه فيما بعد ، كان عليه أن يوسع رقعة الإسلام ، كما جاء في الكتاب والسنة من أن ذلك أول الواجبات . وسيصوغ هذا المفهوم الحركي للدين من الحرب المقدسة (الجهاد) الركن السادس من الإسلام

الدعائم الدينية

كان في استطاعة الإسلام أن يستغنى عن أماكن العبادة ، وعن رجال الدين ، لأن الدين الإسلامي ليست له قرابين مقدسة ولا طقوس ، والصلاة صلته المباشرة بين الله والمؤمنين ، ومع ذلك فهو مزود بوفرة من المساجد ومن رجال الدين . ففي « المسجد » ينبض قلب الإسلام . وفي صحنه المعطى بالبسط الفاخرة وأحياناً بالحصر المتآكلة ، وفي أرجائه التي تضئها بنورها الخافت مصابيح زجاجية متعددة الألوان ، يحس المرء إحساساً حياً أنه بحضرة الله . « الحق أنه لا شيء في المسجد إلا البساطة » ويشير على وجه الدقة بتجويف بسيط جداً في الحائط مزين بالفسيفساء ذي نمط في إلى المحراب وإلى الباب الرمزي في اتجاه مكة ، ويتربع منبر متواضع من الخشب المنقوش ؛ الإمام وخطبته البليغة . ولكن كل شيء كذلك ذو جمال ، وبساطة وتجانس ، وتنطلق اتجاه السماء أغصان الأروقة الرشيقة من المسآذن .

هكذا ، يبدو المسجد فشكل المساجد خالية من العظمة المتشاحخة للكاتدرائيات القوطية ومن غمامتها الصارخة .

وعلى الرغم من أن الإسلام لم يقر نظام الدرجات والمراتب الدينية ، فإن سلالة النبي (صلى الله عليه وسلم) الأشراف يمثلون قبل كل شيء في أعلى ذروتهم ، وهذه السلالة التي تتمتع بتأثير سياسي وديني ضخم ، هم أولياء عهد ، وذوو قداسة لهم مكافة مرموقة ، ويتلوهم العلماء ، وهم علماء مفسرون للشريعة ويدرسون في الجامعات ، والفتى المكلف بالمحافظة على أحكام القرآن والقاضي المدني والديني والإمام الذي يؤم الصلاة ويمظ الناس في الجامع ، والشيخ الذين ينظمون إدارة الجمعيات الخيرية الدينية .

إن أكبر الأعياد في السنة وفقاً للقرآن ، هو العيد الكبير الذي يحتفل فيه بذكرى
تضحية إبراهيم ، أبي جميع العرب ، ويشتمل على أربعة أيام من الطهارة ، ومن الصاوات
ومن الأفراح . أما العيد الصغير فإنه يحتتم شهر رمضان ، ويستمر كذلك أربعة أيام^(١)
ويوم الجمعة الأول الذي يأتي بعد الاحتفال بهذا العيد يكرس لكريم الموتي . ويحتفل
أخيراً « المولد » بذكرى مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) ويوم عاشوراء^(٢) بمقدمه
إلى المدينة .

وقد استطاع محمد عليه الصلاة والسلام أن يحقق آماله العريضة بسبب قوة مثله
الأعلى الديني . فكانت القبائل العربية تعيش منطوية على نفسها ، مستقلة ، متنافسة ،
تعبد الأصنام ، وتعتقد في الخرافات ، فلما جاء الإسلام وطد قواهم السكامة ، وناشد
خيال رجل الصحراء ، ومخاوفه ، وآماله ، ولقنه النظام الفردي والجماعي الذي كان
يفتقر إليه عن طريق أحكام ثابتة ، وفي الحقيقة ، شكل هذا الدين النواة لشعب متماسك
ومنظم أخذ يتكشف عن شعب لا يغلب .

من أجل هذا ، كان لازماً على محمد (صلى الله عليه وسلم) أن يحقق طيلة بضعة
قرون تفوق الشعب العربي بالإنعام عليه بدين سام في بساطته ووضوحه وكذلك بمذهبه
الصارم في التوحيد في مواجهة التردد الدائم للعقائد الدينية . وإذا ما عرفنا أن هذا العمل
العظيم أدرك وحقق في أقصر أجل أعظم أمل حياة إنسانية فإنه يجب أن نعرف أن محمداً
(صلى الله عليه وسلم) يظل في عداد^(٣) أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب
والأديان .

(١) العيد الصغير ثلاثة أيام فقط . (المترجم)

(٢) الاحتفال بيوم عاشوراء لذكرى مقتل الحسين في كربلاء لا المقدم النبي عليه

السلام إلى المدينة . (المترجم)

(٣) . . وإذا ما حكمنا على العظمة بما كان للمظيم من أثر في الناس قلنا أن محمداً

(صلى الله عليه وسلم) كان أعظم عظماء التاريخ ، فقد أخذ على نفسه أن يرفع المستوى

الروحي والأخلاقي لشعب القت به في دياجير الهمجية حرارة الجوى ، وجذب الصحراء ،

وقد نجح في تحقيق هذا الغرض نجاحاً لم يدانه فيه أى مصلح آخر في التاريخ كله [عن

قصة الحضارة عصر الإيمان ، تأليف ول ديورانت ، ترجمة محمد بدران ص ٤٧] . (المترجم)

(٦)

انتشار الاسلام

الخلافة :

عندما توفي محمد ﷺ لم يكن قد عين خليفة له ، فمن يقع عليه الاختيار ؟ لقد حدث ما يحدث عادة ، حينما يناط حكم بالموافقة الشعبية أن تشكل أحزاب مختلفة يعارض بعضها بعضاً .

كان حزب الصحابة المشكل من المهاجرين من قبيلته ، وحزب أوفياءه الأول أنصاره بالمدينة ، يعلن أن له الحق في تعيين خليفة من بينهم ، وكان المدافعون عن الحقوق الشرعية الثأرون على مبدأ التمييز بالانتخاب وأنصار الحق الإلهي ، يتمسكون — على العكس — بعلي ، ابن عم النبي ، وأحد السابقين إلى الإسلام ، وزوج فاطمة بنت النبي الوحيدة . وكانت الأسرة الارستقراطية من قريش ، وهي أسرة الأمويين التي كانت آخر من اعترف بالإسلام ، والتي كانت تقبض على السلطان قبل النبي ، تتواطأ كذلك على السعي حثيثاً إلى الخلافة .

ولم توجد قضية سياسية أراقت كثيراً من الدم الإسلامي ، مثل مشكلة الخلافة هذه ، وهي المشكلة الأولى التي طرحت أمام الاسلام ، ولم تحل بعد قانوناً . وادعى عدد من القبائل والأسرات الحق في السلطان واللقب ، ومنذ إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا في عهد كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ عقدت في القاهرة أو في مكة مؤتمرات متنوعة من جميع الشعوب الاسلامية ، لكنها لم تستطع أن تعين الخليفة الشرعي للنبي .

وطيلة القرن الأول ، وقعت أزمة الحكم في أيدي بدو الجزيرة العربية . والخلفاء الراشدين الذين يمتد حكمهم من عام الهجرة حتى عام ٦٦١ ميلادية كانوا صحابة النبي : أبو بكر ، عمر ، عثمان ، علي . وقد نجح عمر في المحافظة على الوثبة الحربية للقبائل وحقق استمرار الاسلام وتقدمه . وفي سنة ٦٦١ نشأت الخلافة الأموية . وهي الطبقة

الأرستقراطية التقليدية لرؤساء القبائل العربية التي كان لا بد لها أن تستمر حتى سنة ٧٥٠ .

كانت هذه الفترة مرحلة الفتوح .

فتوح عسكرية وسياسية :

قامت الانتصارات المتتالية للعرب على أسباب متنوعة يتجلى أهمها في الخلق السامي الذي كان قد تشربه العرب عن الدين الجديد ، فقد طبعهم هذا الخلق على جرأة ، واحتقار للموت ، جعلهما لا يغلبنون ، ويجدر بنا أن نضيف إلى هذه المزايا الخلقية الطريقة الفنية الحربية التي كانت تحترم تشكيل القبيلة ووحدةها ، وكانت تتواءم بشكل عجيب مع اتساع السهب الذي لا نهاية له : وكانت هذه الطريقة الفنية الحربية تتمثل في سهولة الحركة الفائقة للفرسان ، وبساطة التسليح الذي يتكون من الرمح والقوس ، وتقتصر عدتهم على العبادة والعمامة . وكانت العبادة الصوفية التي يختال بها البدوي نهارة ، ويلتخف بها ليلاً ، والعمامة ذات الأهداب التي تقي الرأس الشمس وضربات السيف يمنحان طمأنينة كافية لمسؤولاء المحاربين الصحراويين الأشداء الذين كانوا يترقبون من المعارك الواقع المباشر لنصيب خمسين من غنيمة كما ينتظرون صدق وعود بنعيم الحياة الآخرة .

لم تكن الشجاعة الحربية للعرب هي التفسير الوحيد لفتوحهم الهائلة فقد ظهر هذه الشجاعة ضعف أعدائهم ، وهما امبراطوريتا الساسانيين والبيزنطيين المتنافستان . ولم تكن هاتان الامبراطوريتان الغازيتان للشرق الأدنى قد حققتا تفوقاً بعيد الغور في هذه الربوع : وظل كل شيء — النظام الاقتصادي والأخلاق والعادات — ذا طابع شرقي . وكان الفتح العربي يملك الرضا الضمني من السكان الذين كانوا يكبرهون الإغريق والفرس ويكرهون استبدادهم الديني والسياسي ، ونظام ضرائبهم الفادحة . ولم يمد الوطنيون قادرين على أن يتمموا أخيراً هذا الاستبداد المتعطر من حكام أصبح تفوقهم ضرباً من الذكريات . تلك هي الأسباب التي من أجلها استقبلت هذه الشعوب المتأخرة جيرانها ذوي التاريخ الطويل كأسيادهم ذوي قربي قد أقبلوا لتعريبهم

من ظلم الغاصبين الأجانب الممقوت . وناذتهم بعض القبائل العربية من سوريا لنجدتهم . وكان كل شيء يمهّد لفتح الطريق للشعب العربي الذي لم يدهش حين وجد لغته وعنصريته الخالصة راسختين كل الرسوخ ، كما أنه عندما نهكت الحروب المستمرة والخلافات الخفية ، الجيش البيزنطى فى سوريا ، فقد مقاومته . وكانت الامبراطورية الفارسية من جهة أخرى فى انحلال تام .

بدأ الفتح العربى بسوريا ، فى سنة ٦٣٦ ، أحرز خالد ، سيف الله الانتصار على قوى متفرقة فى وادى اليرموك ، واستولى بسرعة على مدن سوريا ولم يتوقف إلا عند جبال طوروس . وأشاد هذا الانتصار الباهر السريع على حساب بيزنطة بذكر الكبرياء العربى . وقد غزت القبائل العربية التى استغلت سوريا كنقطة انطلاق ، غزت بعد ذلك أرمينية واندفعت حتى القوقاز . وفى العام التالى أباد سعد بن أبى وقاص جيشاً فارسياً كبيراً فى القادسية . واستولى على العراق . وبعد ذلك بقليل فتح العرب المدائن عاصمة العدو وأحرزوا نصراً سباحقاً . وكانت مصر القربية من سوريا والحجاز فى وقت واحد ، وقاعدة الأسطول البيزنطى تشكل تهديداً مستجراً فى العرب ، وفى سنة ٦٣٩ فتح عمرو بن العاص الاسكندرية عاصمة مصر ، واندفع حتى طرابلس الغرب . وفى أقل من عشر سنوات كان العرب قد دمروا الامبراطورية الفارسية وزعزعوا امبراطورية بيزنطة ، وهما أكبر قوتين فى ذلك الوقت .

لكن تقلبات سياسات العرب الداخلية ، راحت تقف من وثبتهم ، فقد نشأ شقاق فى صفوفهم . وكان أهل السنة والجماعة والشيعة الموالون لعلى ، والخوارج أصحاب الاتجاه الديمقراطى يواجه بعضهم بعضاً ، ولقد مات ثلاثة خلفاء اغتيالاً من بين الخلفاء الراشدين . وأضحت المدينة ومكة نهياً للسلب ، وحرقت الكعبة ، ولذلك لم يكن بد من اللجوء إلى القوة فاستولى معاوية الداهية (٦١٠ — ٦٨٠) حاكم سوريا ، وابن أبى سفيان ، وحفيد أمية ، وابن عم عبد المطلب جد محمد ، على الحكم وحسم نهائياً موضوع الخلافة .

ومنذ ذلك التاريخ ، ظلت السيادة المطلقة لأسرة الأمويين ، ثم بدأت مرحلة ثانية من الفتوح . فقد شيد معاوية من خشب أرز لبنان أسطولاً قوياً فى غضون السنوات التى كان فى أثناءها حاكم سوريا . واستولى هذا الأسطول بعد مناورات بحرية على قبرص

وكرث ورودى ، وأحرز في سنة ٦٣٥ ضد القوى البيزنطية على شواطئ ليقياء ، أول انتصار بحرى عظيم للإسلام ، وحاول الأسطول العربى متشجعاً بانتصاراته القديمة - أن يستولى فى سنة ٧١٦ على القسطنطينية ، لكنه تخلى عن هذا المشروع بعد عام من الجهود غير المجدية . وعند ما انحسر المد الإسلامى فى الشمال ، أخذ فى مداومة إحراز انتصارات باهرة على الخطوط ذات المقاومة الضعيفة من الشرق ومن الغرب .

فى الشرق ، كان العرب قد وضعوا أقدامهم ، فى غزوة خاطفة ، فى وديان نهر السند ونهر أموداريا ، واندفعوا تجاه آسيا الوسطى . وفى الشمال استولوا على تركستان مع مدن بخارى وطشكند وسمرقند ، وبلغوا حدود منغوليا . وفى الجنوب ، بعد أن عبروا نهر السند ، احتلوا دلتاه ، واستولوا على مولتان الواقعة إلى جنوب البنجاب فى بلاد بوذية ، وفى سنة ٧١٢ استقر الإسلام فى الأقاليم المتاحة للهند .

فى الغرب كان الزحف أكثر نصراً . فى سنة ٧٠٠ نجح العرب فى طرد البيزنطيين من الأراضى التى كانت باقية فى أيديهم فى إفريقية ، واستولوا على قرطاجنة وبمسد أن هزموا البربر ، تابعوا تقدمهم حتى المحيط الأطلنطى . وأشهد عقبة بن نافع الذى كان يقودهم وهو يتقدم بحصانه وسط هذه الحشود من المحاربين ، أشهد الله على أنه كان لا يستطيع أن يذهب أبعد من ذلك .

وفى سنة ٧٠٨ كانت كل إفريقية الشمالية قد فتحت ، وقد أخذ الفتح الإسلامى فى نحو الآثار الطفيفة من سيطرة رومانية لم تسكن لها دراية بشوطين نفسها إلى أبعد الآماد داخل البلاد ، ولا فى الهضاب العالية التى يقطنها البربر ، وهم بدو أو أنصاف بدو . أما الإسلام فقد توأم إلى أقصى حد مع هؤلاء السكان الذين كانت أخلاقهم شبيهة جداً بأخلاق القبائل البدوية ، ووجد العرب فى البربر معاونين لهم ذوى عزيمة مبدئية فى وقت الفتح الأسبانى . وفى ذلك العصر ، كانت أسبانيا تحكم حكماً استبدادياً على يد بعض أمراء القوط الغربيين الذين كان السكان الأسبانيون — الرومانيون ينظرون إليهم بكراهية شديدة . وكان العرب بدون شك لهم مكائهم كمحررين كما حدث فى الشرق . فى سنة ٧١١ ، أطلق موسى بن نصير فى أوروبا ١٢٠٠٠ بربرى تحت قيادة طارق بن زياد ، ونزلوا بالقرب من صخرة ضخمة أطلق عليها اسم هذا القائد البربرى « جبل طارق » وتقدم لودريق ملك القوط لمقابلتهم وتقابل الجيشان فى بحيرة لاينده ، بالقرب

من شريش ، فقد تخلى عن لوزريق أتباعه ، وقهر في ميخوقيا (قشتالة القديمة) (٧١١) ، وسار طارق الذي استغل نجاحه إلى طليطلة عاصمة المملكة ، واستولى في أثناء الطريق على أرشدونة وغرناطة . وانتزعت قرطبة على حين غفلة وعند ما انتصر أيضاً في أثينا ، سلم إليه اليهود طليطلة ، وهكذا ، فإن هذه الحملة التي كان مقدر آ لها أن تكون غزوة للاستطلاع ، انتهت في بضعة شهور بفتح مملكة .

وفي سنة ٧١٢ ، بادر موسى بنفسه ومعه ١٠٠٠٠ عربي ، وهاجم الموضع الحصينة من ماردة ومن أشبيلية التي كان قائده قد تحاشاها من قبل عن رأى صائب وانتظمت المقاومة ، ودافعت أشبيلية وماردة عن نفسيهما بعنف طيلة أكثر من عام . والتقى موسى بطارق في طليطلة وأمره بجلبه لأنه لم يتبع تعليماته ، ولكنه تابع مع ذلك الفتح ، وبلغ سرقسطة واندفع حتى جبال البرانس . وفي سنة ٧١٣ لم يبق في أيدي المسيحيين الأسبانيين غير الجبال في الشمال الغربي من أسبانيا ، وموسى نفسه الذي كان قد تخطى أوامر الخليفة ، استدعى إلى دمشق بسبب تحول تام في الأمور . ودخل دمشق في أبهة كبيرة بموكب مؤلف من « ٤٠٠٠ أمير قوطي حاملين تيجاناً وأحزمة من الذهب ، هذا إلى فرقة ضخمة من العبيد وأسرى الحرب المحملين بغنائم غنية » . ولم يشفع هذا كله لدى الخليفة إذ انتهى فاتح أفريقية وأسبانيا إلى قضاء أيامه الأخيرة في فقر وحاجة مثله في ذلك مثل بيليزاريوس (١) .

ولم تفر جرأة خلفاء موسى عن المضي في ذلك . فكانت تتغلب روح المغامرة على الفطنة ، وفي سنة ٧١٨ عبر الحر الثقي جبال البرانس .

وبعد ذلك بعامين ، على الطريق الذي يصل إلى فرنسا ، وإلى ألمانيا وإيطاليا ، استولى السمع بن مالك على مقاطعة سبتيانيا ، وانتزع ناريون التي حولها إلى قلعة ذات مكانة استراتيجية فائقة . لكن في سنة ٧٢١ هزم في حملة أمام تولوز على يد إيد ، دوق اkitania ، وفي سنة ٧٣٢ انتزع الأمير عبد الرحمن مدينة بوردو ، وسار في اتجاه

(١) قائد بيزنطي (من ٤٩٤ إلى ٥٦٥) في حكم جستينيان ، انتصر على الفرس والوندال واقوط الشرقيين ، ورغم هذا فقد غضب عايبه الامبراطور ، وقد ذكرت بعض القصص عنه أن حياته قد انتهت بفقد بصره ومد يده . (المترجم)

تور ، وهناك بالقرب من بواتييه ، عند ملتقى نهري فين ، وكلان كان عليه أن يلتقي بافرينج شارل (١) مارتلس وبعد بضعة أيام من الانتظار ، بادر الأمور بالهجوم . و يروي المؤرخ أن الجوع الجاشدة من الفرسان المسلمين انقضوا كأنهم عاصفة شديدة على خطوط الافرينج التي ظلت « كأنها حاجز من الجليد . . وقد عاد المسلمون إلى الهجوم على هذا الحاجز عشرين مرة . . والحائط من الحديد لا يثنى أبداً » . . ووضع الليل نهاية المعركة . وفي فجر اليوم التالي ، كان العرب قد عادوا من حيث أتوا تاركين خيامهم وأمتعتهم .

وقيل عن يوم بواتييه أنه كان توقيتاً لإحدى المعارك الحاسمة في التاريخ . فقد أنقذت هذه المعركة ، حسب رأى العدد الأكبر من المؤرخين ، العالم المسيحي ، وحسمت مستقبل أوروبا .

حقاً ، كان المد الإسلامي الذي ابتعد كثيراً عن قواعد انطلاقه قد بلغ « نقطة توقفه الطبيعي » . لقد كان ينتشر — إذا جاز القول — على أسس غير ثابتة . . . وكانت وثبة القبائل حقاً لا تبارى في السبق ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى أيضاً تعف دون العودة إلى مهاجمة الافرينج ، فالحرب الأهلية في أسبانيا والتنافس بين العرب والبربر والاختلافات في المشاعر والمشاحنات الحفية . . كل أولئك كان قد قوض من تماسك الجيش وقوته .

ويمكن دائماً أن نقسم ما إذا كان يمكن أن يحدث لو أن المسلمين لم يقفهم « حاجز بواتييه الجليدي » لقد كان رؤساؤهم يظهرون من العجلة في قراراتهم ، ومن المبادأة ومن الجرأة في المعارك ، ومن المهارة الدقيقة في طرائق معالجة الأمور حذراً يجعل تقديراتهم أخطر . فموسى وطارق في أسبانيا ، وعمرو في مصر ، وسعد في فارس ، ومعاوية في سوريا ، وخاله نفسه على استعداد لطيع الأوامر ، إذا أراد الخليفة ذلك . . كل هؤلاء القواد العرب كانوا قد تخطوا الأهداف التي كانت تحدد لهم ، وأظهروا أنهم أسانذة في فن استغلال الانتصارات . وقد لمس دون شك حلم عبور أوروبا وضرب بيزنطة من طرف وإزالة الارتباط مع خليفة دمشق ، لمسا خفيها روح هؤلاء الذين كانت معارفهم الجغرافية لاتسمى سمو خصائصهم المميزة .

ومع ذلك فإن فتوحهم كانت تبدأ عادة على أنها غزوات سريعة ، وغزوات لا يسبقها تخطيط ما ، ولا تبعث بحشاماتاً . ولكن هذه الغزوات المذهلة والمترامية الأطراف تذكرنا سير آلة عظيمة تركت قيادتها لهؤلاء الذين أداروا محركاتها عند ما أطلقوها عند ذلك .

فتوح لغوية :

إن أعظم ما كان يتحناه الاسكندر ، تحقيق إدماج الإغريق والشرقيين معا على قدم المساواة : ومن ثم ، فقد أغرق في سيل هذا الهدف آسيا الصغرى بالزارعين الإغريق ، وأسس سبعين مدينة « أكثر مما لم يدمره جميع المنتصرين الآخرين في الشرق » . وجمع نظامه شمل المهزومين ، وأفضى إلى رخاء عظيم ، لكن خلفاءه فشلوا في سياسة جمع الشعوب وإعادة بناء الامبراطورية ، ولم يكن في استطاعة هذا الإدماج أن يؤتى ثمره على الرغم من أن المشروع الاقتصادي والاجتماعي ككل بالنجاح .

وبقى المجتمع والثقافة اليونانيتان على حالهما في ظل الإدارة الرومانية التي كانت ظاهرية فقط وظلت اللغة اليونانية لغة رسمية طيلة أكثر من ألف عام وعند قدوم العرب كان لابد أن ينهار كل شيء دفعة واحدة ، ابتداء من اللغة والفكر اليونانيين وكانت الثقافة اليونانية قد غزت من غير شك المدن والأوساط الحاكمة ، لكنها لم تكن قد عرفت طريقها إلى قلوب سكان القرى ، لذلك كانت الإدارة والقانون والتجارة إغريقية في المدن ، وذات عرف تقليدي يختلف اختلافاً أساسياً عنه في الأقاليم ولم يكن في استطاعة الثقافة اليونانية على الرغم من احتلالها الطويل أن تأخذ في مجموعها مكانة الحضارات الشرقية القديمة . أما الإسلام الذي كان يمت بصلة أقوى إلى هذه الحضارات ، فقد رأى نفسه أنه في موطنه من أول الأمر .

والحق أنه منذ بدء الفتح ، أثر العرب تأثيراً عميقاً وسريعاً في البلاد التي كان الساميون قد تركوا فيها آثاراً من لغتهم ومن عاداتهم ، ففي أراضي الهلال الخصيب وفلسطين وسوريا وكلدان ، ظلت اللغة العربية واللغة الأرامية بـ: قربة اللغة العربية — لهجتين من لهجات الولايات المترامية الأطراف . كما أن العرب عند ما نفذوا إلى فينيقية ،

لم يجلبوا أية صعوبة في أن يفهم عنهم سكانها الذين كانوا قد هاجروا من الجزيرة العربية منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة .

وفي أفريقية الشمالية ، مهدت أيضاً صلات لغوية إلى استقرارهم بسبب تقارب اللهجات البربرية من اللغات السامية نتيجة التأثير الشديد لقرطاجنة مدة عشرة قرون في أفريقية الشمالية . وكانت اللهجات البونية قد حافظت على نفسها في الريف حتى عصر الوندال . وكانت الأندلس — وهي قاعدة يونانية — تتحدث نفس اللغة على الرغم من عدة قرون صبغتها بالصبغة الرومانية ، ولقد توقف الفتح العربي عند الحد الأقصى لذكريات لغوية ، وعند خط انفصال تأثير قرطاجنة وتأثير الغرب الذي استند في الواقع إلى الميدان الشرقي القديم .

ويشير التاريخ إلى أن الشعوب التي افتتحت كانت تفضل اختيار أى نظام سياسى جديد على تغيير لغتها . وقد أيد هذه الحقيقة فشل الإغريق والرومان في الشرق مرة بعد مرة . فما الذى تكون عليه لغة الشعوب التي ستخضع للإسلام من الآن فصاعداً ؟ لم يكن فى استطاعة أية لغة أخرى غير اللغة العربية التي كان لديها المزية القاهرة وهي لغة المتصر . وفوق ذلك لم تكن هناك أية لهجة قادرة على أن تحدث فى الأفكار تأثيراً أكثر سمواً من اللغة العربية . وكان للعوامل الدينية أثره إلهام فى تعزيز مكانة اللغة ولما كانت اللغة والدين يساند بعضهما بعضاً ، فإن الشعوب التي آمنت بالدين ، انضمت إلى العالم الإسلامى جسماً وروحاً .

كان فى « القرآن » فوق أنه كتاب دينى خلاصة جميع المعارف . وكان يطلق عليه فى البلاد الإسلامية « الكتاب » وكانت تعنى كلمتا « القراءة والكتابة » قراءة وكتابة القرآن ، وظل « القرآن » زمناً طويلاً أول كتاب يتخذ للقراءة إلى الوقت الذى شكل فيه وحده كتاب المعرفة والتربية . ولا يزال حتى اليوم النص الذى تقوم عليه أسس التعليم فى الجامعات الإسلامية . ولا تستطيع الترجمات أن تنقل ثروته اللغوية « إذ يذبل جمال اللغة فى الترجمات كأنها زهرة قطفت من جذورها » ولذلك يجب أن يقرأ « القرآن » فى نصه الأسمى .

ابتدأ العرب إذن بقصد تعليم الأعاجم الذين اعتنقوا الإسلام فى إعطائهم دروساً

منظمة في اللغة العربية ونشأ البحث الأول لقواعد اللغة من هذه الحاجة . ثم اتسعت ضرورة هذه البحوث فيما بعد وبخاصة لهؤلاء الذين كانوا يسمعون حديثاً وراء الوظائف العامة . ولما كانت اللغة العربية لغة دواوين الحكومة والتشريع والدبلوماسية ، فقد أصبحت لذلك في وقت قصير جداً لغة العلاقات الاجتماعية والتجارة والأدب .

كانت الشعوب التي اعتنقت الإسلام تملك في الأغلب ثقافة فكرية تفوق ثقافة العرب . فلم يكن البدوي ، الولوع بركوب الخيل وبالخيل والطيقة ، صاحب آداب . وإذا كان يملك ناصية لفته بالفطرة ، فإن كل معرفته كانت تتلخص في بضع آيات من « القرآن » . بيد أن الكتابة العربية الحالية من الحروف المتحركة والتي اقتضت على حروف ساكنة رئيسية كانت تستخدم كسند للذاكرة وكانت تتطلب قواعد مضبوطة ومتائلة ، ومجموعة قواعد نحوية لا تعلم إلا في المدرسة ، لكن البدوي الأرستقراطي كان لا يذهب إلى المدرسة ولم يكن لديه إلا صياغة مجموعات لقواعد نحوية . وحسب هذا العربي المعتز بعنصريته أن يكون في قمة المرتبة الاجتماعية ، مزوداً بدخيل طيب فكان من واجب الشعوب الجديدة التي اعتنقت الإسلام أن تنهض بوضع قواعد اللغة العربية المكتوبة . وقد بدأ العلماء والمتبحرون في العلم من تلك الشعوب والمزودون من قبل بمحضرة سابقة ، عملهم مستندين إلى أساس راسخ من « القرآن » ، وقد اكتسبوا مع طول الزمن ملكة الجدل البيزنطي فكان عليهم أن يضعوا قواعد البلاغة التي تمثلها اللغة العربية في متانة الأسلوب وقوته ، وأن يبينوا عما فيها من وضوح ، ونظام ودقة ، وأن يهذبوا مفرداتها ، وأن ينحوها قواعد ومنطقاً وإعراباً ونحواً . وجندت صفوة مخلص من رجال الفكر نفسها لهذا العمل الضخم . وعند ما تشبعت هذه الصفوة بفهم اللغة وروحها الحية ، جمعت منتخبات من النصوص لولا هذا الجمع لضلت طريقها ، وألفت معاجم وأنشأت موسوعات . ومما لا ريب فيه أن نصيب هؤلاء الطلاب من الصفوة كان مهماً في إعداد فقه اللغة ، هذا الفقه الذي طبع في غضون ذلك الوقت بطابع الفجاءة والتوسع ، الذين هم من غير شك طابع العرب أنفسهم

عن هذه اللهجة التي استخدمها قديماً شعراء الجاهلية ليشتدوا بذكر رفاقهم في القتال وليساندوهم في المعركة تولدت أخيراً أكل لغة في العالم ، وأكثرها صلاحية من اللهجات الوطنية المسيرة لجميع القنصيات . ومن ثم ظلت هذه اللغة لا منافس لها

من بين جميع لغات البلاد المحتلة . وهنا نلاحظ أن غزارتها ودقتها يسرنا لها أن تعبر عن جميع الفروق الدقيقة للفكر ، وعن جميع دقائق روح العصر الوسيط المدرسية . وهذه اللغة الشعرية التي سحرت الأعراب الجفاة ، أصبحت من الآن فصاعدا لغة البلاط ، والمجالس والعلماء . وأصبحت سرعة البديهة وطلاوة اللسان صفتين لا بد منهما في المجتمع الراقى أكثر مما كان المجتمع يتطلبه من رقة الحاشية وحسن الذوق .

ولا نزاع في أن اللغة والدين اللذين انتشرا معاً قاما بدور خطير في هذا العمل الضخم لتقريب هذه الامبراطورية الشامعة وتحويل أبنائها إلى الإسلام . وحطمت هاتان القوتان الحواجز التي كانت تفرق بين الفاتحين وأهل البلاد وحولوا بعض الأجانب إلى عقيدتهم أكثر مما كان لروما في العصر القديم في هذا الميدان والأنجلوساكسون في الفترة المعاصرة . فالذي كان يدين بالإسلام وكان يتحدث ويكتب اللغة ، يسمح له أن يعد عربياً ، وهذا حدث خطير في تاريخ الحضارة الإسلامية . وقد ألغت تلك القوة الموحدة بهذا الأسلوب الحدود السياسية ومنعت ينحرفوا شكلاً موحداً لبلاد مشتقة مترامية الأطراف في ثلاث قارات ، وأصبحت فيما بعد خالية من القيود . وكان المسلم يجد في كل مكان نفس الدين ونفس الصلوات ، ونفس الشرائع . وبمساعدة هذه المؤثرات العجيبة ، كان يشعر في كل مكان بأنه في بلده ، سواء أكان في رحلاته خارج الحدود أم في معاملاته مع تجار البلاد الأجنبية .

وطيلة قرون عدة ، كتب العلماء المسلمون ، أيا كانت جنسياتهم جميع مؤلفاتهم باللغة العربية . وأثرت اللغة كما أثرى الفكر أيضاً من هذا الواقع ويعزز ذلك ويعمل على انتشاره تعليم مجاني للجميع . وآزرت أيضاً الترجمات العربية للعلم والفلسفة اليونانيتين وكذلك للشرق الأدنى وللشرق الأوسط في انتشار هائل للأفكار واللغة . ثم إن منطق « أرسطو الذي كان يحتوي في ترجمته العربية على كتابي البلاغة والشعر ، وكذلك « أيساغوجي » لفورفويوس الصوري قد احتل منزلة متعادلة بجانب النحو العربي ، بوصفه أساس الدراسات الإنسانية في الإسلام .

وقد حدث نتيجة لذلك أن اللغة العربية حققت نوعاً من نزعة دولية للاداب والعلوم في مختلف الشعوب التي كانت تؤثر فيها . وقد فرضت اللغة نفسها وتسلطت بطريقة بحكمة إذ أن العرب كانوا من بين المفكرين والعلماء الذين ساعدوا على ازدهارها .

هذا إلى أن الفرس بعد خضوعهم بقليل منحوا الأدب العربي مؤلفات مبتكرة متساوية متناسقة حتى إن التأثير العربي بات لا يحس به في هذه المؤلفات . وهذا الانتصار العالمى الذى كان يتجاوز نفسه بنحو ما كان ينطلق من كتاب لا ريب فيه ، ألا وهو « القرآن » . وكان لتداول لغة واحدة مزايا أخرى تحققت عملياً عن طريق كثرة المبادلات الثقافية التى أمكنها لذلك أن تنظم نفسها عبر الامبراطورية كلها وحتى عبر حدودها . وقد أربى تأثير ابن سينا ، وهو مواطن من إقليم ما وراء النهر ، على مؤلفات ابن رشد فيلسوف قرطبة . وكذلك ، فإن الأدريسى الذى كان يعلم ويدرس في أسبانيا يطبع بطابعه العميق مؤلفات ياقوت الحموى الذى كان يتلقى تعليمه بالقرب من بحر أوران .

كما أنه عبر الامتداد الشاسع للعالم الإسلامى ، ساعدت كذلك البلاغة الحية والمؤثرات الباهرة للغة العربية على نفاذها إلى اللغات الغربية أسبانية أو لاتينية ظلت مليئة بألفاظ من أصل عربى . ومع ذلك لم يكن هذا النفاذ سهلاً .

لقد قيل إن قصة الكتابة واللغة العربية لم يكن شيئاً آخر غير قصة الحضارة العربية . وما لا جدال فيه أن هذه القصة مهدت بشكل لا نظير له إلى الانطلاق والتطور . وراحت هذه الرسوم ، وهذه النقوش الفنية التى اقتبست من الأرض القديمة لآسيا والهند إنشاءاتها الأولية الخطية المتفرعة من حروف هيرودوليفية ، راحت هذه الرسوم تصبح شيئاً فشيئاً لغة وكتابة كاملتين .

ونظراً إلى الصعوبة التى كانت تمثلها قبل كل شيء الكتابة الخطية العربية بالنسبة للغربيين ، فقد نسى عصر الحضارة الأوربية القديمة بسرعة ذكرى الحضارة العربية . واتجه الأوروبيون تجاه العصور القديمة الكلاسيكية الاغريقية والرومانية للحصول على المعارف التى كانوا يفتقرون إليها . وهذا الاختيار ولو أنه ينطوى على نكران الجميل يمكن فهمه وتصوره فى ضوء هذه التحليلات . فقد كانت الحضارة الغربية لليونان وروما أكثر سهولة فى طابعها على الفهم بالنسبة للغربيين إذا قيست بالحضارة العربية . وإنه لأمر رهيب فى أن يكون الغرب هو الوارث لهذا الماضى الضخم ، والممثل لتلك الحضارة إلا رسخ قدما فى الكرة الأرضية (أ. جوتيه) عندما يكون الأمر بصدد تلقين أصول

مبادئ تلك الحضارة في شعوب فتية (١) .

(١) لا شك أن هذه إحدى المغالطات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع . والواقع أن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما ورثوه عن الشرق الأدنى أكثر مما ابتدعوه . ويقول ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة - الشرق الأدنى - ترجمة محمد بدران ص ١٠ : وكان اليونانيون الوارث المدلل المتلاف لتخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاث آلاف من السنين ، ولما جاء إلى مدائنهم من مغائم التجارة والحرب . فإذا درمنا الشرق الأدنى وعظمتنا شأنه فإننا بذلك نعترف بما علينا من دين لمن شادوا بحق صرح الحضارة الأوربية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يؤدي من زمن بعيد .

(المترجم)

(م ٤ - حضارة)

أخلاق ومادات

السيكولوجية الإسلامية

في عصر الأمويين ، في القرن السابع والثامن الميلاديين ، وعلى الرغم من تنوع الأجناس والشعوب التي تشكل الإسلام ، كان المسلمون يبينون سلماً عن خصائص متشابهة ، وعلى الرغم من كل ما يمكن أن يفرق بين حضر وبدو ، اغنياء وفقراء ، كانوا يسلكون تقريباً مسلكاً واحداً . ذلك أن أية عقيدة تقوم على أسس ثابتة تحدث ردود فعل مماثلة عند أقوام متفاوتة . وقد وضع روح القرآن قواعد التصرفات اليومية للناس ، وخلق الجو المعنوي للحياة ، حتى تغلغل شيئاً فشيئاً في الأفكار فانهتى بتشكيل متناسق للعقليات والأخلاق . كما كان تأثير الدين عظيماً بسبب انتشار اللغة ، وبسبب نتائج السياسة الخارجية المشتركة ، وكذلك بسبب نتائج نظام اجتماعي معمم .

ويقال إن عشر درجات من خط العرض تغير من القوانين ، ولكن الملاحظ في هذا الصدد أن الإسلام انتشر نحو الشرق ونحو الغرب ، وأنه يكون شريطاً مترامياً الأطراف لا يحيد عن خطى عرض ٣٠ ، ولكن ، إذا كان هذا الشريط يمتد بطريقة طوليه ، فإنه ينحصر من جهة أخرى في حدود ضيقة نسبياً عرضاً ولا يتقدم كثيراً نحو الشمال أو الجنوب أعني نحو السهول الشديدة ، أو نحو الحرارة القصوى ، فيظل المناخ تقريباً نفس المناخ في الأقطار المختلفة التي يسود فيها الإسلام . وينشأ أيضاً عن هذا الاعتدال المناخي حال صالحة لاستعداد معين للتوافق السيكولوجي .

كانت رسالة محمد (صلعم) تستهدف رفع المستوى الأخلاقي والثقافي لأتباعه . ولم يوجد من بينهم من لم يؤمنوا بتفوق دينهم مهما يكن اعتقادهم بأدجا . فليس لحرية التفكير ، والنضج السياسي والبراعة الفنية عند الغربيين قبة أمام التفوق الروحي عند الشرقيين فهو في نظرهم واضح وضوح النور . إن القول الذي يوحى به إليهم التقديم العلمي العربي : « لم يعد يعوزكم إلا القضاء على الموت » فيه من النهك أكثر مما فيه من إعجاب وهو يعني أن جهود الإنسان سوف تكون عاجزة أمام قضايا الآخرة التي

حسمها للمؤمن دفعة واحدة : فقد ونحوها لنا بكلام صريح : كل الصراحة « إذا كانت الدنيا لكم ، فالآخرة لنا » . وقد يوجد كثير من التعليق على هذا المفهوم الحاسم لمشكلة الإنسان . وبما لا شك فيه ، أن الدين الإسلامى ينطوى على نوع من التقشف ، ولكنه ينتهى إلى بذل أقل جهد فروح الكفاح للرجل العربى التى أصبحت غاية فى حد ذاتها ، لا تبصر الأمور الروحانية وتؤدى من الضعف إلى الألم النفسى المبرح . فمن هو على صواب ؟ إن يقين المسلم يبلغ من التمام الحد الذى يجعله كلما واجه تفاقم الأخطار تحرك رد فعل دفاعى بطريقة آلية فى كل مرة توضع عقيدته فيها موضع جدل : وهذا الإيمان القوى الراسخ الرسوخ كله لا جرم يزداد رسوخا عند محاولة القضاء عليه .

ذلك أن القرآن يتنبأ بكل شيء ، ويجد الحلول مقدما لجميع القضايا ويربط ما بين القانون الدينى والقانون الأخلاقى ، ويسعى إلى خلق النظام ، والوحدة الاجتماعية ، وإلى تخفيف البؤس والقسوة والخرافات . إنه يسعى إلى الأخذ بيد المستضعفين ، ويوصى بالبر ويأمر بالرحمة ، كما جاء فى قوله تعالى : « وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » .

وفى مادة التشريع وضع قواعد لأدق التفاصيل للتعاون اليومى ، ونظم العقود ، والموارث ، وفى ميدان الأسرة ، حدد سلوك كل فرد تجاه معاملة الأطفال والأرقاء والحيوانات والصحة والملبس ، الخ ...

ويجدر بنا أن نراجع الآن باختصار شديد أخلاق المجتمع الإسلامى وعاداته ، ثم البيئة التى كان يعيش فيها المسلمون الأول ، وأن ندرس بعد ذلك كيف تضافرت مختلف العوامل الجثمانية والسيكولوجية لمولد حضارة جديدة .

الأسرة الإسلامية - الزواج - الأطفال

قبل وفاة محمد (صلم) وبفضله كانت قد بنيت الأسرة المسلمة بنساء يشد بعضه بعضاً ، وهى مدينة له بالولاية التى زود بها رب الأسرة ، والتى تبدو فى نظر رجال

العرب متجاوزة الحسد . فالمرأة ملتزمة بطاعة الرجل ، وإذا عصت فعليه تأديبها ، إلا أن القرآن يذكر الناس فأن أمهاتهم حملتهم في ألم وولدتهم في وهن على وهن ، وأرضعتهم في أكنز من عام ويقول النبي « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

هذا وقد فرض على المسلم أن يتزوج ، ويدين له أبناؤه بالطاعة والاحترام ، وتراعى هذه القاعدة شكلا وموضوعا في المدينة . أما في الريف فلا يدخل طفل أمام أبيه . ولا تسأل فتاة أباه . ولما كان الأب مطلق الحرية في ممارسة حقوقه تجاه امرأته ، لأنه سيدها المطلق ، فهو كذلك رب أولاده يتصرف في مستقبلهم وقصصا لصالحهم كما يترأى له . ويستطيع من حيث المبدأ تزويجهم دون موافقتهم ، ولا استشارة البنات أبدا من جهة اختيار أزواجهن .

ووضع المرأة في الزواج هو وضع خضوع مصون يخفف بقدر معين من السلطان الذي تستمده طبيعيا من مفاتها . لكن حياتها الحقيقية قبل الإسلام كانت تتجاوز بسرعة بضع لحظات من هيام عاشق إلى حياة طويلة ذات عمل كادح . لذلك كانت رفيقة ممتعة لفترة قصيرة ، وخادمة على مدى الأيام . وهكذا ، آمن محمد بوجوب تحسين وضعها الاجتماعي .

لقد وضعت المرأة على قدم المساواة مع الرجل في القضايا الخاصة بالمصلحة . فأصبح في استطاعتها أن ترث ، وأن تورث ، وأن تشتغل بعهدة مشروعة . لكن مكانها الصحيح هو البيت . كما أن مهمتها الأساسية هي أن تنجب أطفالا . إنها « حرت لكم » وكثيرا ما كان ينظر إلى المرأة الولود نظرة تقدير . ولا غرابة في ذلك لدى مجتمع زراعى قلى . وعلى ذلك ، رسم لها النبي واجبها : « أيما امرأة مات زوجها ، وهو راض عنها ، دخلت الجنة » . . . واستنادا إلى هذا التشريع كان يمكن أن يحكم على خيانة المرأة بالموت . وفي الحق أن تعدد الزوجات بتقييده الأنزلاق مع الشهوات الجامحة ، قد حقق بهذا التشريع الإسلامى تماسك الأسرة ، وفيه ما يسوغ عقوبة الزوج الزانى .

وفي الأسرة الإسلامية ، تعد ولادة الطفل وبخاصة الذكر كأنه حدث سعيد ، ويحاط هذا الطفل بألوان كثيرة من الرقى ضد الجن ، وبأساليب تجلب الحظ السعيد ، بوضع السكر قريبا منه لكي يكون ميمونا والخبز لكي يعيش طويلا ، والذهب لكي يكون غنيا .

وليس من الصعوبة تسميته باسم يقتبس عادة من الدين ، ويضاف إلى اسم أبيه المسبوق بابن . ويعنى اسم الصغير ، هذا « ولد » مثل « آن » في إيران ، و« وايهي » في بلاد بارس^(١) و« بن » في إفريقية الشمالية فقولنا ابن أحمد ، وأحمد آن ، وأحمد وايهي ، كل هذه الثلاثة تدل على ولد أحمد .

وكانت الأسرة الإسلامية ترعى دائماً الطفل ، وصحته ، وتربيته رعاية كبيرة . وترضع الأم هذا الطفل زمناً طويلاً ، وأحياناً لمدة أكثر من سنتين . وتقوم على تنشئته بحنان ، وتعمره بحبها وباحتياجات متصلة ، وإذا حدث أن أصاب الموت بعض الأسرة . وأصبحوا يتامى ، فإن أقرباءهم المقربين لا يترددون في مساعدتهم وفي تربيهم .

واليوم ، مثل الأمس ، يعيش الطفل ويكبر تحت رعاية أمه في المساكن التي خصصت للنساء في غضون سنواته الأولى . وفي سن الخامسة ، تقام له الحفلة التقليدية للختان^(٢) التي تكون على شيء كثير من الأبهة والتي تبقى دائماً الفرصة لعيد الأسرة ، تهجيز دخول الطفل في الحياة الإسلامية ، ومنذ ذلك الوقت ، يبدأ في الإفلات من مراقبة النساء وينبغي أن يكون قادراً على أن يقوم بنفسه بغسل يديه ووجهه ، وأن يياشر ملبسه وزينته ، وأن يؤدي صلواته .

ثم إذا كان صبياً ، يبدأ في الاتصال بأبيه الذي سيشرّف على تعليمه بنفسه . ولن يمنع الحنان والحب الحزم بل ولا القسوة . وتلك كل أسرة مسلمة في ذاكرتها التعليمات التي كان قد أعطها الخليفة هارون الرشيد مؤدب ابنه الأمين : « ولا تمر بك ساعة إلا وأنت مغتم فائدة نقيده إياها من غير أن تحزنه فتحميت ذهنه ولا تمن في مسامحته فيستعلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فإذا أباهما فعمليك بالشدة والغلظة » . وكان الشاعر سعدى يقول أيضاً بطريقة أكثر إيجازاً : « إن قسوة المعلم أعظم نقماً من لين الأب » .

(١) بلاد الفرس القديمة . (المترجم)

(٢) هذه العادة كثيراً ما تتقدم إلى سن مبكرة في حياة الطفل عند ما يكون في اليوم السابع من مولده ، وليست هذه العادة جزءاً من الإسلام نفسه . (المترجم)

ويقوم تعليم البنات على تلقينهن تربية دينية قوية ، وعلى تعويدهن الصلاة ، وجعلهن في وقت مبكر صالحات للأعمال المنزلية^(١) ، وبعد سنوات أيضاً ، يعلمن قرض الشعر ، والفنون الزخرفية والموسيقى والرقص في المدارس المخصصة لدوى اليسار في المجتمع الإسلامي واليوم يذهبن في ساعة مبكرة إلى المدرسة الابتدائية والثانوية .

وقد جرت العادة في البلاد الإسلامية ، أن ينظر الناس إلى العزوبة على أنها خطيئة ، وعلى أن الزواج مستحب عند الله . ومن ثم ، يتزوج المسلمون في سن صغيرة جداً ، حين يبلغ البنات سن البلوغ من بداية التاسعة أو العاشرة ، والصبيان حوالي الخامسة عشرة ، يدفع إلى ذلك ما يحض الدين عليه ويرتضيه العرب وتقتضيه المحافظة على العفة قبل الزواج . وتشير تجربة البلاد الحارة إلى أنه ليس هنالك وقت للضياع ، لأن المرأة إذ تصبح أمّاً في سن الثالثة عشرة تدبل منذ وقت مبكر . ويبت في الزواج بترتيب من الأسرة . ففي أفريقية ، كما في كل مكان في العالم ، تقوم النساء بهذه المهمة ، وينهضن بها ، ويكثرن من المعاشات الصغيرة الخاصة بالزواج ، أما في إيران فإن الرجال هم الذين يقومون بالطلب التمهيدى للزواج المسمى بالخطبة . وعند ما يرضى الطرفان بحرر عقد الزواج على يد المسأفون ، ويؤيد بصدّق (مهر) يقدمه الخطيب على أن يبقى ملكاً للمرأة .

ويقرن الزواج بتلاوة خطبة قصيرة ، وهو مناسبة بعد ذلك لوليمة فاخرة مع توزيع هدايا في احتفال متسلائيء بالأنوار . والموكب الذي يذهب إلى منزل الزوج يطوف بالأماكن القريبة ، ويعتلى فيه الزوج صهوة جواد ، بينما تتوسط الزوجة هودجاً ثم يتبع الموكب بغال محملة بالهدايا .

(١) تدل شواهد كثيرة أن أبواب التعلم والثقافة بمختلف صنوفها كانت مفتحة على مصاريحها للبنات العربية منذ عصر بني أمية ، وأنه قد نبغ بفضل ذلك عدد كبير من النساء العربيات ، وبرزن في علوم « القرآن » والحديث والفقه واللغة وشق أنواع المعارف والفنون ، بل لقد كانت منهن معلمات فضليات تخرج على أيديهن كثير من أعلام الإسلام . [عن سلسلة اقرأ — المساواة في الإسلام] تأليف الدكتور على عبد الواحد وافي ص ٤٧] .
(الترجم)

ويسمح بفسخ الزواج لدوافع مختلفة ، وغالباً ما يكون هذا الفسخ من عمل الزوج الذى يطلق زوجته باعلانه أمام قاض . وإذا كان محمد (صلى الله عليه وسلم) أقر حرية ما قبل الإسلام فى الطلاق . فإنه لا ينصح به لأنه غير مستحب عند الله ، ويعوقه بينات وجهود تبذل للصلح ، ويتحكم . وفى حال الانفصال القاطع (١) بعد فترة العدة ذات الثلاث حيضات . تحتفظ الزوجة المطلقة ب مهرها وبأموالها . ويبقى الأطفال تحت رعاية الأب . اللهم إلا إذا لم يستطيعوا أن يستغنوا عن رعاية أمهم وتأخذ هذه الأخيرة فى هذه الحال نفقة يحددها القاضى .

ولما كان تعدد الزوجات بعامة متالياً أكثر منه دفعة واحدة ، فإن الزوجات الشرعيات يقبلنه على أنه حال عادية ، وتبأهى الإماء غالباً بعدد أطفالهن ، وبخاصة عند ما يصبحن « أمهات أولاد » .

الجنائزات :

لا يهاب المسلم الموت أو على الأقل يرتضيه بإستسلام ، وتلك نتيجة لتعاليم دينه . وينطق بالشهادتين ساعة الموت متجهاً برأسه نحو القبلة (مكة) ويتلو اسم الله ، ويطلب من الله رحمته ، ، والنفوس عن خطاياهم : ويقترن الموت بحفلات جنازية لا تختلف عن حفلات الأديان الأخرى . ويسهر المعزون الليل على التوفى بتلاوة صلوات من أجله وسط زقرات ونواح من نسائه وأسرته وجيرانه . والاحتفال بغسل المتوفى وتزيينه له طابع ديني وطابع مميز ، ويقام الغسل فى الصباح الباكر أو بحسب العادات المحلية . وعند ما تلف الجثة فى كفن ، تحمل إلى المقبرة على النعش ، ويتناوب أربعة رجال فى أثناء سير الجنازة حمل النعش . لهذا فإن حمل أى ميت يعد ثواباً . ثم يتقدم موكب الجنازة الذى يتجه إلى المسجد أو إلى المقبرة للصلاة على الأموات رجال الدين وهم ينشدون مختارات من قصائد دينية . وتأتى بعد ذلك النساء . النائحات . . . اللائي كانت تمنعن الشريعة الدينية أن يشتركن فى الجنازة . وكان نواحهن مثل نواح النائحات المأجورات يمنع من وقت لآخر بواسطة الخلفاء الحريصين على الاحتفاظ عند الدفن بكل وقاره ، لكن هذا التحريم أصبح نسبياً منسياً .

(١) الصيغة الشرعية هي أن يقول الزوج لزوجته « أنت طالق ثلاثاً » . (المترجم)

وفي المقبرة ، يودع باطن الأرض الجثة ، ويوجه الرأس تجاه مكة ويستند إلى حجر عار ، ويستخدم للجثة عقد من بناء خفيف من الحجر مرصوب كذلك من بعض الآجر (الطوب) كوقاية ..

من هذا المصير المشترك للجثث البشرية وللأحجار البسيطة التي تحمى وتسندها ، استخلص عمر الخيام في قطعة شعرية تفيض بالسخرية والأسى أكثر طلاوة من مقطوعتنا « أنت تراب^(١) » بضعة أبيات شعرية مليئة بمثل هذه التعبيرات المثيرة للحزن التي يحلو للمرء أن يرددها كثيراً :

« أرى أجداثنا تبني بلبن
غداً يا صاح أن رد المنونا
ويصنع من ثرانا بعد ، لبن
به تبني قصور الآخريننا

ولا تمر عادة هذه المادة الخشنة للدفن دون إثارة ردود فعل خاصة . وكان ابن حنبل وحقيقته وهو من الأحرار في معتقداتهم الدينية في القرن العاشر يزعم في كتابه عن « الفلاحة^(٢) » أن الجثث المدفونة كانت تسمم الأرض وأن بلاد ما بين النهرين كانت مصابة بهذا التسمم . من أجل ذلك زين بعضهم حرق الجثث ، لكن هذه المادة الوثنية لم يكتب لها النجاح . وهناك عادة أخرى ظلت قائمة على الدوام في المقبرة وهي عادة فصل الجنسين . وتؤكد التجربة أن هذا الأمر كان محرماً تحريماً باتاً . فيعد أمراً إجرامياً أن يجمع في جفرة واحدة بين جثتي رجل وامرأة اللهم إلا إذا فصل بينهما حاجز من اللبن أو الآجر وما إليهما .

(١) سفر التكوين ، الفصل الثالث . (المترجم)

(٢) نشر نصه وترجمته إلى الإسبانية بانكويري في مدريد سنة ١٨٠٢ ، وترجمه إلى الفرنسية كليمان مولييه ونشره في باريس فيما بين عامي ١٨٦٤ — ١٨٦٧ . (المترجم)

واختيار المقبرة والثوى الأخير لا يقل عما سبق غرابة . وقديماً ، بقي في عادات المسلمين أن يدفنوا موتاهم في نفس أماكنهم الأصلية ذاتها . وكان الجمهور من الموتى يدفنون في ظل ضريح لولى محلى . وكان الأغنياء يفضلون الأمكنة المقدسة الرسمية . وكان بعض المسلمين الحنطين والمعطرين ، والذين ينتمون إلى المذهب الشيعى يحصلون على مقابر فخمة فيما بين بلاد النهرين ، ولكن السنيين كانوا يفضلون المدينة ، أو بيت المقدس أو دمشق ، وما شرع اليهود والمسيحيون يسلكون نفس المسلك حتى انتظمت مشروعات خاصة بالجنازات في نفس الوقت الذى كانت بعض الأماكن تفضل غيرها . وكان لابد أن تنشأ تجارة رابحة عن هذه التجارة الجنائزية .

لكن قوة إيمان المسلم لم تكن تتأثر بذلك ، فهو دائماً على استعداد لمواجهة الموت ، وكان يحمل كفنه في أثناء أسفاره ، وعندما كان يشعر باقتراب أجله يلف نفسه بنفسه في كفنه بعد وضوئه الأخير وهو يدعو رفقائه أن يعضوا في طريقهم .

الرقيق :

كان العبد قديماً في المجتمع الإسلامى في أسفل السلم الاجتماعى ، ولا ينبغي لأى مسلم أن يسترق . وكان « القرآن » ينظر إلى أسرى الحرب غير المسلمين والأطفال الذين ولدوا من آباء أرقاء على أنهم المصادر الوحيدة الشرعية للرق ، وعلى الرغم من أن « القرآن » أمر بحسن معاملتهم ، كان لسيدهم حق الحياة والموت تجاه أرقائه ، وعلى أى حال كان على هؤلاء المحرومين من الحياة الذين كانت تثقل كواهلهم الأعمال الحقةرة أن يؤدوا أعمالاً في المدن ، وكان في استطاعة أطفالهم أن يلقنوا تعليماً خاصاً . والأمة التى كانت تنجب من سيدها كان يطلق عليها « أم ولد » وكان هذا الطفل المميز يولد حراً وشرعياً . ومن ثم ، نرى بعض أولاد الأرقاء يتحررون ويبلغون مناصب عالية سياسية أو اجتماعية . ويصل بعضهم أيضاً — مثل المهالك الأول — إلى قمة المناصب وتحملوا أعباء السلطان . وفي الحق أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) كان قد أباح الرق كشر محتوم . . هذا الرق كان قد أباحه سلفاً كتاب العهد القديم . ولكن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يتوان أبداً عن محاولة تحسين هذه العادة . كما أن « القرآن » والسنة عدا عتق أى عبد بمثابة عبادة يتقرب بها إلى الله . .

تجارة الرقيق

يبدو أن تجارة الرقيق ، التي انتشرت من تلقاء نفسها في قبائل مترامية متجمعة بميسداً عن أية رقابة كانت قديماً تكاد تكون وقفاً على اليهود الذين كانوا يغشون الأسواق الكبيرة الأوروبية في براغ ومجدبورج واكسي لاشابل والبندقية وجنوة . وكان الأسرى المقبوض عليهم بالجملة في أثناء هذه الحملات في تركستان أو في إفريقية أو في أسبانيا أو في إيطاليا والذين يباعون من جديد بالمزاد موضع تجارة نشيطة . وكان يبيع هؤلاء الأسرى يعقد تجزئة في أسواق تقام في المدن تحت مراقبة رسمية لأنواعهم ولأغاثهم ، لأن الدولة كانت تقتطع من هؤلاء الأسرى عدداً معيناً لسد حاجة الجيش : فكان الأرقاء الأتراك والصقالبة تبعاً لهذا أرفع الجنود منزلة . وعلى العكس يمد أرقاء بزنطة وأرقاء الهند للعرف الصناعية ، وكان الأرقاء الآخرون يخصصون للأعمال المنزلية ويستخدمون كخصيان وحظيات وفقاً لجنسهم .

كان الراقصون والممثلون والمغنون يختارون في العادة من بين الأرقاء . أما الأعمال الشاقة في الحقل أو البحر فكانت توكل للأرقاء السود .

كان اللون والعنصر والجنس كلها تتدخل كعوامل في تحديد ثمن العبد . ففي القرن العاشر كان أي حبشي شاب يساوي تقريباً من ١٨ إلى ٢٠ ديناراً والشاب الأسود بـ ٣٠ ديناراً والأمة السوداء بـ ٣٠٠ . والجارية البيضاء بـ ١٠٠٠ وأكثر ، حتى ولو كانت لا تتقن صناعة ما . وكانت الشابات الصغيرات الجيلات يؤدين بغية مضاعفة قيمتهن التجارية . وقد ألفت كتب في الأجناس تفصل القول في حسنات كل جنس وعيوبه ومواهبه . وظهر فن خاص لشراء الرقيق وبيعهم . فقبل التوجه إلى الأسواق كان المقدر عليهم البيع يزينون ، وتجمل وجوههم ويزال شعر أجسادهم عند الحاجة لإخفاء حقيقة بنهم . ولم يكن المشترون يجهلون هذه الممارسات في الدلالة فكانوا على حذر منهم . وكان كل مشتري يعرف فوق ذلك الصفات والعيوب الخاصة بأجناس معينة : فكان أرقاء الحبشة ينظر إليهم على أنهم لصوص وهم معروفون بذلك . وكان أحسن الطاهيات يأتي من الهند . وكان أرقاء تركيا لا يحسنون الاقتصاد . وكان الأرقاء السود لا يعرفون غير الرقص .

فصل الجنسين :

في الشرق وحتى في الزمن المعاصر، يعيش الجنسان منفصلين ولا يختلط مجتمع النساء ومجتمع الرجال بعضهما ببعض . ولم تجر أبداً معالجة الأمور أو المصاحبة بين أشخاص من جنس مختلف عن الآخر لأن الفصل تام بين الجنسين (١) . فهناك مجتمعات وحفلات ومآدب عشاء خاصة بالرجال ، وهناك أدب خاص بالرجل غنى جداً بكتب الغزل . ويعيش النساء من جانبهن فيما بينهن ، ويتزاورن زيارات متبادلة ، وعندما يشغلن بالهن بالأمور الصغيرة الأنثوية اللانهائية ، يكرسن جزءاً من نهارهن في العناية بأسباب جمالهن التي تمارس في الحمامات .

وحياتهن أقل رتبة مما يتصوره المرء غالباً ، لكن يظل المستوى الفكري للمرأة غير المتعرة بسبب الحياة الحديثة منخفضاً جداً ما عدا حالات نادرة . وليس الأمر كذلك على مستوى الشعب . ففي المدينة تشتغل المرأة في المشغل أو في المنزل أو في الحقول . إنها تساعد زوجها وليس هذا عن تعطل ولكن لكي تزيد من موارد الأسرة وفي هذه الظروف ينبغي احترام مبدأ الفصل بين الجنسين بقدر الطاقة . وقد خفف التطور الاجتماعي جزءاً منه ، ولكن لا يزال العرف قائماً .

الخصيان :

كان وجود الخصيان في منزل دليلاً على رفاهية صاحبه ، ولأنهم توابع ضرورية للحریم ، كانت الأسر الميسورة تمتلك منهم الكثير لتعهد إليهم حراسة الحریم والأطفال وكانوا يشترون بشمن غال في الشمال وفي الهند وفي إفريقيا . وأحياناً يرتفع ثمنهم إذا عهد إليهم خطف رجال الدين الذين كان البيزنطيون يخصوصونهم لكي يسمموا لنسائهم بالذهاب إلى الكنائس دون خطر على شرفهن .

(١) لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة طبيعة كل من الجنسين وأعبائه في الحياة ، وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة نفسها . [عن سلسلة أقرأ — المساواة في الإسلام — تأليف الدكتور علي عبدالواحد وافي ص ٥١] . (المترجم)

الحريم :

أخذ الناس عن الحريم فكرة غير صحيحة ومعنى الكلمة مقدس ، محرم ، ويقصد بها الجزء الأسرى من المنزل المخصص للنساء ، والذي كان لا يستطيع أحد من غير أهل المنزل التسلل إليه . وإذا كانت شريعة القرآن تبيح للمسلم أن يتزوج أربع نساء ، بل أن يتخذ عدداً غير محدود من الحظيات ، فلا ن محمد صلى الله عليه وسلم كان ينظر إلى تعدد الزوجات على أنه ضرورة بيولوجية قصد بها تعويض عدد الوفيات المتزايد ، والهبوط السريع للقدرة على النسل . في البلاد الحارة . حقاً إن هذه المادة التي كانت تبررها الضرورة إلى الحريم ، ظلت رفقا سهلا المنال على الأغنياء وخدمهم . وفي الطبقة العاملة كان العامل يكتب طوعاً أو كرهاً زوجة واحدة . وكان المرء يضحك دون تحفظ من عن أهالي البيوتات المتعددة الزوجات . وعلى أى حال ، فقد قصر تبرير هذا النظام في القرون الأولى من الفتح بضرورة تلافى استنفاد العنصر العربى وزيادة عدد مواليد .

البغاء :

الدين من حيث المبدأ يحرم البغاء ، لكن الدولة كانت تأذن به وتنظر إليه على أنه مصدر للدخل . وكانت كل مدينة تملك سوقاً لها من الخربات (١) . وتبنى في هذه الشوارع منازل ذات طابق واحد ، وذات ترف وكانت تشبع رغبات الحرفاء المترفين . كما كانت الأحكام الصارمة تقرر من وقت لآخر إحصاها ، وذهب الخليفة الحاكم بأمر الله إلى تحريم الخروج على النساء في الشوارع ، ومنع حتى صانعى الأحذية من أن يبيعوا لهم أحذية . لكن هذا لم يكن إلا انتفاضات ذات أمد قصير لأن تكاثر الثروات كان يزيد من الرفاهية بجميع صورها . ومنذ خلافة الرشيد ، كان القصاصون العرب يولون ولأثم ذات نزوات أنثوية من غلمان أو ندمان ، وكان شمراء إباحيون مثل أبى نواس يخصصون لهم أشعاراً غزلة وأخذت هذه الرقاعة وهذا التترقع ينتشران حتى إن النساء بدورهن سقطن في انحرافات مشابهة تحت حكم الأميين .

الصحة :

كما أن محمداً صلى الله عليه وسلم قاد العرب إلى درجة من القناعة ومن الاعتدال التي لم يكن لها نظير قط ، فقد لقنهم معارف أولية ، بل دقيقة عن الصحة ، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « النظافة من الإيمان » لكنها كانت أحياناً باباً للدخل ، ومن ثم كان الأغنياء يهتمون اهتماماً كبيراً بشخصهم ، فبعد أن يسترخوا لمدة طويلة في الحمام ، وبعد أن يعهدوا بأيديهم إلى مقلم الأظافر ، كان عدد كبير منهم لا يترددون في تطيب أنفسهم ، وفي زيادة بريق عيونهم بتزجيج الحواجب والأهداب بوساطة عجينة أساسها كحل من أصهبان . وكان الفقراء أكثر إهمالاً على الرغم من أن الحمامات العامة كانت كثيرة العدد . وكان الناس — أغنياء أو فقراء — يعفون لحام التي كانت تحلق من الوسط لكي تميزهم عن اليهود ، وكان المرء يستطيع أن يحدد طبقتهم تبعاً للعناية التي ترجل بها لحيتهم . وفي الحق أن الرجل الشرقي يعنى عناية كبيرة بجسمه ، وتبدو عادة الختان نفسها مقصورة على أنها اهتمام أولى بالنظافة .

الحجاب وذوق العصر (الموضحة) :

في كل زمن ، في الشرق ، كان النساء ذات اليسار يغطين الوجه ليصن بشرة من قسوة الجو . وقد أمر محمد صلى الله عليه وسلم بنشر هذه العادة بين جميع نساء العرب اللاتي زادهن الاسلام شرفاً . لكن الانتشار العظيم للديانة الاسلامية جعل هذا الاجراء غير عملي ، وأصبح الحجاب من جديد العلامة المميزة لطبقة اجتماعية . وكان وضع الحجاب في الحق غير متفق مع الأعمال الريفية وأعفت نساء الشعب وجوههن من الحجاب . وكانت الملابس وزينة الرأس تتغير مع ذوق العصر . وطيلة القرن الأول الهجري كان الرجال الأشراف يرتدون الملابس من الحرير الأبيض أو الأسود ويتنقلون على صهوة الخيل . وكان أوساط الأغنياء يرتدون ملابس من ألوان قابلة لتحمل القذارة وفيما بعد تحول الأسود والأبيض إلى ألوان زاهية أو متنوعة تنوعاً دقيقاً ، لكن البدوي كان يحافظ دائماً على ملبسه الفضفاض و (مثاله) وعقاله .

كان لباس الرأس في العادة مكوناً من عمامة يصحبها وشاح ملون ، وكان الأرقاء

يرتدون قلنسوات من اللباد . وفي عصر الرشيد ، كان ذوق العصر في ارتداء القلنسوات المدنية الأطراف التي كانت في الأصل لباس رأس على شكل طرطور في العصر الوسيط الأوروبي . وكان الحذاء أو النعل أحمر اللون للشعب ، وأصفر أو أسود للطبقة الميسورة . وكانت العباءات المنسوجة من شعر الماعز فضفاضة بأكام عريضة جداً يستطيع المسلم أن يدس فيها أي شيء كزوج من النعال مثلاً . والمرأة التي كانت تقي من حيث المبدأ في الحريم ، تملك صوانا من الداخل مصنوعا من نسيج قطن رقيق ، ومن أجزاء عليا لخلل مبرقشة ، ومن أحزمة مبرقشة لامعة برسوم مرصعة ، ومن (تنورات) ملونة عريضة جداً . وفي الخارج ، تلف المرأة نفسها دائماً إلى جانب خمار من (شاش) أو من (دانتلا) تغطي الوجه إلى ما تحت العينين ، تلف نفسها بإزار واسع جداً من نسيج حرير أطلسى لإخفاء الأوضاع المثيرة لجسم الأنثى . وترتدى المرأة المتواضعة الحال نفس اللبس ، لكن الأنسجة لم تكن من نوع ممتاز ، وكانت الأصواف والأقطان تنسج نسيجاً رقيقاً متيناً يستطيع صبغها عدة مرات قبل استهلاكها . لذا كانت صناعة الصباغة مزدهرة بوجه خاص .

الملاهي والألعاب الرياضية :

كان لا بد للشرق أن يسبق الغرب بكرم ضيافته ، ورقة أدبه ، ومشاربته الطيبة لدى جميع طبقات المجتمع . وكانت الطبقة الميسورة تتخفف من الولاثم والانتفاس في الحب بإقامة مباريات في الفلسفة وفي العلوم ، وفي الأدب تتخللها مناقشات لطيفة يسودها دائماً البهجة والمرح وكانوا يحضرون أحياناً حفلات من الغناء والموسيقى والشعر وتلاوة آيات من القرآن .

كان الشعب مولعاً بممارك الديكة ، وحيل المشعوذين والسحرة وعسرح (الأراجوز) وكان يستمع أحياناً إلى أغاني الشوارع أو يتغنى بأغانيه الخاصة . وكان يتقبل بسهولة — وهو البسيط المرح في حياته الجارية — المصاعب والتعقيدات ، وكان يتلقى ضيق الحال بصبر واحتمال . وكان يعرف الامتثال لضربات القدر بعزة نفس . وعرف المسلم ذو الروح اليقظة والفهم السريع على مدى الأيام أن يتسلى بالقليل ويضجلك في طلاقة

وكانت المباريات الرياضية من قبل ذات منزلة كبيرة . وتروى النصوص المعاصرة أن العرب كانوا يمارسون بانتظام الملاكمة والمصارعة والألعاب الرياضية والمبارزة بالسلاح الأبيض والقفوس والرمح والفروسية (والبولو^(١)) وكانوا يلعبون بالشطرنج والترد ، لكن لعب الميسر كان محرماً ، وإذا كان سباق الخيل فيما سلف ذا فائدة عظيمة فإن الصيد كان يشكل أكبر المسليات شأناً .

ولكي تنتهي من هذا الحديث مع هذا الفصل عن الأخلاق والعادات يجدر بنا أن نلقى نظرة في الأحوال المادية لمساكنهم .

المنزل

في الشرق كانت منازل الفقراء كما هي عليه الآن لا تسكاد تزيد صلابة ورحابة عن الخيمة . وقد أقيمت هذه المنازل على غرار الخيمة بحيث لا تصلح إلا لحياة قصيرة ، فقد بنى سوادها بلبن أو ملاط مع سقف من سعف النخيل ومن طين مجفف ، وتبنى أحياناً منازل الطبقة (البورجوازية) من طابقين وقاعة ملائمة للإقامة محلاة بقبة وشرفة ويطل باب الدخول على فناء داخلي بمحديقة ونافورة من المياه ، وجزء من الحديقة مخصص للأزهار . ويتجه في الأصل فن معمار هذه المنازل إلى توفير أكبر قدر ممكن من العزلة والأمن قبل كل شيء . ومن النسيم العليل بعد ذلك . ومن أجل ذلك توصلت الأبواب دائماً بإصداً محكماً بالمزلاج . وتسمح النوافذ المزودة بعريش من الخشب المحفور (مشربيات) والتي تقوم في وقت واحد مقام النوافذ ، والستائر والمصاريع ، تسمح هذه النوافذ بمرور الهواء ، وتتيح الرؤية من الداخل إلى الخارج ، وتمنع الرؤية من الخارج إلى الداخل . وتشكل السقوف سطوحاً تصونها فتحات صغيرة مثقوبة من أجل مرور الهواء . وكانت أكثر المنازل يساراً خالية من أنابيب المياه ، ووسائل لتوصيل المياه . وعند خلو البيت من صهريج أو بئر ، كان العرب يجلبون المياه بواسطة القرب ، كما أن المنزل العربي كان به غرفة صغيرة ذات حفرة لقضاء الحاجة ولم يكن للدار موقد ، وكانت وسائل التدفئة تعتمد على مواقد سهلة الحمل .

وعند الفقراء ، تغطي الأرض الخشبية إما بالبسط أو بالحصير ، وتطلى الحوائط المبنية من الجبس بألوان متنوعة ، وعلى الجوانب الثلاث من الغرفة يشكل الحائط مصطبة منخفضة تغطي ببسط أو بوسائد تقوم مقام المقاعد ، وفي الليل يمد عليها الفراش وتشكل الأريكة قطعة الأثاث الرئيسية لحجرة الأكل ، ولما كانت مستندة إلى الحائط ذي ثلاثة الجوانب من الغرفة ، فانها تغطي دائماً بمساند وتشكل مقاعد أخرى من الجلد موضوعة هنا وهناك على البساط وكذلك موائد صغيرة منخفضة تشكل هذه القطع من الأثاث لهذه الحجرة الرئيسية . ومع الموائد والمقاعد والمساند يتكون أثاث التدبير المنزلي من أطباق وأدوات من النحاس ، وأباريق وأحواض وأواني ومصاييح تأذن مرور الضوء موضوعة أمام المرايا وفجوات في الحائط ذات شكل قوطي تستخدم لترتيب تحف صغيرة أو كتب . ولا يوجد عادة قمطر (دولاب) ، بل خزائن مزودة بأقفال متينة توضع فيها الملابس الداخلية والملابس الخارجية وكذلك المراتب والأغطية ومساند للرأس . ومع ذلك ، وحتى إذا عينا المنازل المتواضعة ، فإن البيت العربي مثل مظهره من الترف والرفاهية بفضل البسط والطنافس والستائر . وتساعد أخيراً الأسقف والحوائط المزينة بملاط من كلس ، ومن رخام ، ومن رسوم ملونة ، ومن فسيفساء على إعطاء جو دافئ رائع .

وفي المدن ، كانت تتجمع المنازل في أحياء متميزة تبعاً للطوائف أو القبائل . وكانت أحياناً تتجمع مختلف الطوائف في حي واحد .

وابتداء من القرن العاشر ، وعشياً مع نمو عدد السكان ، حتم على العرب أن يتجمعوا في عمارات مكونة من ستة طوابق أو سبعة أو ثمانية . وكانت هذه الأبنية مكونة دائماً من أربعة مساكن أصلية يحيط بها فناء داخلي مجهز بحديقة . وكان كل طابق مزيناً برواق من الآجر المنحوت في المحيط الذي كانت تشق منه المساكن طريقها وكان من الصعب جداً على النساء أن يحمين أنفسهن داخل هذه المساكن من الحرارة أثناء الصيف الطويل اللهم إلا بأن يظهرن غير محجبات . وكان الجميع يحتالون مع ذلك عشقة على خلق نسيم عليل ثابت بمساعدة بعض الطنافس المرشوشة غالباً بالمياه وبجهاز من المراوح التي تهز ببطء .

وعلى الجملة كانت معدات هذه المنازل لا تنقصها رفاهة أو أناقة . فالأفنية التي

كانت تنفجر من وسطها نافورات من المياه الرفيعة المجنعة ، كانت تتجلى في شكل بساتين مصفرة ، تسترعى النظر إليها بأراضيها المغطاة بالعشب الأخضر المنسقة بشكل يثير الإعجاب والمزينة بالأزهار والرياحين .

التغذية :

كان للمطبخ أوفى نصيب من العناية في الربوع الإسلامية ، وقد خصص عدد من الطرق لفن الطهو ويذكر من بين الطرق الأخرى كتاب « الوصلة إلى الحبيب » من تأليف أحد أحفاد صلاح الدين و « كتاب المطبخ » لمحمد البغدادي في القرن الثالث عشر . وفي مختلف طبقات المجتمع كان يحلو للعرب الاجتماع حول الموائد المزودة بأنقر الأدمعة . وكان استخدام الشوكة غير متداول ، بل كانوا يأكلون بأصابعهم ثم يغسلونها مستخدمين في ذلك الأباريق والعلسوت والفوط المصنوعة من القطن الرقيق ، وكان استخدام هذه الأدوات شائعاً لديهم . ولكنهم كانوا يستخدمون الملاعق لأكل الثريد الذي كان في العادة لذيذ الطعم حق عند الفقراء منهم .

وإذا كان القرآن قد حرم أكل الميتة أو الذبيحة التي ذبحت على وجه آخر غير الشرعي وكذلك لحم الخنزير أو الكلب ، أو لحم ما أهل لغير الله به فإن الحظر على العكس كانت منتشرة جداً . فكان الإيثار يجري على الباذنجان واللوييا والحمص والكراث والبصل ، وكان كل شيء متبلاً بشيء من فلفل وأفاوية .

كان دهن الخروف المذاب والمطيب كثير الاستعمال في المطبخ ، وكان الزبد عادة مخصصاً للسكريات والحلوى التي كان لها قدرها بمخاصة عند خبراء المآكل الفاخرة . وكانت التوابل من قرفة ، ومن حبة الفرتقل ، وفلفل أسود ، وزنجبيل ، الخ . وكذلك الفواكه ممتازة امتيازاً لا مثيل له . وظل النبيذ في الأصل محرماً . ومع ذلك ، كان الشعراء يشيدون بمزاياه إذ كان محبباً لديهم التغنى بالقصائد الخمرية التي لا تقل في قوة نسجها عن القصائد الأخرى في الأدب العربي .

كان الفقراء يعيشون على ثريدة من اللبن أو على حساء من اللبن (اسبيذج) ومن الدقيق (عصيدة) ومن طعام متبل من الباذنجان . وكانت الأكلات الشهية تحتوي على البطارخ والفطائر المحشوة من عشب غراب شعراء الجزيرة العربية وعلى لحوم مشوية

ودجاج ، وفطائر من الفواكه المحشوة . وكانت هذه الأطعمة تعد بعناية فائقة . وكان بعض الزاقصات والموسيقيين يحبون الولائم التي كان يعقبها أرق وأندر عطور الجزيرة العربية الق تفوح بأبخرة عطرية من مباخر ثمينة .

ظهرت القهوة الحجازية في القرن الثاني عشر ، على حين أن الشاي الصيني المعطر بالنعناع كان منذ وقت طويل له مكاتته ، أما استعمال التبغ فلم يدخل في العادات العربية قبل القرن السادس عشر .

قد لا نستطيع أن نختتم هذا الفصل القصير دون استرجاع العادات والأصول والملاقات المجاملة التي كانت تفرض نفسها في أثناء المآدب والاستقبالات . ويوضح كتاب مختصر في آداب السلوك عن هذا العصر أنه من الضروري أن يتصرف المرء بأدب رقيق وأن يستعمل أساليب رقيقة وألا يتخلى أبداً عن أى شكل من أشكال الوقار وجدير به أن يتجنب بعناية المزاح الحشن الذي يجرى في غير موضعه . ويقتضى حسن الهيئة أن يكون الملبس نظيفاً وغير مستهلك . وفي أثناء تناول الطعام على المرء أن يتعاشى الإفراط في تناول الثوم والبصل وأنواع الفلفل ذات الرائحة النفاذة ، وعليه أن يتعاشى كذلك أن يمس أصابعه على المائدة وأن ينظف أسنانه برأى من الناس .

(٨)

تطور الدولة والأمة

يقال إن اسم الإسلام يمكن أن يؤخذ على ثلاثة معان مختلفة : المعنى الأول دين ، والثاني دولة ، والثالث ثقافة ، وبالاختصار حضارة فريدة .

بعد أن خضع العرب للتربية الدينية ، كان التبشير بنظام جماعي وعسكري بين بدو عرفوا بالفوضى والفردية كأنه تبشير في صحراء بال معنى الحرفي لهذه الكلمة .

وقد نجح محمد (صلى الله عليه وسلم) مع ذلك في ربط هؤلاء البشر الجفاة بأوضاع غريبة جداً على طبيعتهم . لكن عند وفاته — كما حدث الرواة — زعمت قبائل معينة أن الخليفة لم ينتخب من بينها وأن أشرف المدينة ليسوا جديرين بحكمهم . وإذا قامت هذه القبائل على الردة فقد اتجهت نحو المدينة وكانت فترة من فوضى شاملة .

وفي بضع معارك قصيرة وعنيفة حقق الخليفة أبو بكر (المتوفى في المدينة في عام ٦٣٤) وحمو محمد (صلى الله عليه وسلم) وخليفته ، بمساعدة خالد بن الوليد (٥٨٢ — ٦٤٢) سيف الإسلام ، بقوة السلاح ، حكم شريعة « القرآن » الذي هو في الوقت نفسه تأكيد لحكمه نفسه . وقد كان هؤلاء القواد المسلمون ، وهم تابعون متحمسون لمحمد (صلى الله عليه وسلم) بحاربون بنفس الإيمان الذي يؤدون به الصلاة . وهذا الإيمان المتوقد الذي كان يحث جنودهم على الجهاد ، أثر تأثيراً بعيد الغور في أعدائهم ، وعند ما عاد المرتدون إلى العقيدة الدينية الحق ، تحققت من جديد الوحدة الدينية والسياسية معاً تحت سلطان جاكم واحد . وأسست الدولة الإسلامية مستوفية جميع الأركان .

لقد أراد المؤرخون أن يروا في انتشار الدولة العربية والأمة العربية وفي تكوينهما عمرة تخطيط أقيم سلفاً ، بعد تأملات ناضجة حكيمة .

وفي حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يتهم بالجنون كل من يتنبأ بشئ هذه الأحداث ، ولم يتبادر كثيراً إلى ذهن خلفائه التمهيد لمجازفة خطيرة واسعة النطاق .

وإذا كان هناك منطق في هذا التماقب من الأحداث الخارقة للعادة ، فإنه يتجلى في الاستغلال الواسع النطاق للظروف المواتية .

لقد كانت القبائل العربية تتقدم على الدوام متوغلة بعيداً أو قريباً خارج حدود الجزيرة العربية ، وقد أدرك البيزنطيون فجأة أن هذه القبائل كانت تركز نفسها كثيراً في كل مرة وأن غزواتها أصبحت متكررة أكثر فأكثر فإذا كانت هذه الغزوات الحربية قد استجابت للغرائز العريقة في القدم لرجال تعودوا أن يقاتل بعضهم بعضاً ، وإذا كان هؤلاء الرجال قد كفوا عن القيام بهذه اللعبة على أرضهم الخاصة ، فإن هذا يفسر لنا أسباب انتشار فتوحاتهم كما يبرر كذلك وفرة هجماتهم وعنفيها . وعند ما كان خالد يمتطي صهوة جواده في جنوب العراق إذ به يظهر فجأة بالقرب من دمشق ليساعد بعض القبائل في معركتها ضد بيزنطة حتى قيل إنه وقع من السماء . وكان قد سار في المقدمة ، وكله ثقة في هؤلاء الجنود الممتازين المدربين تدريباً عظيماً في صحراء لا طرق فيها ممهدة ولا ينابيع مياه .

وترجع سهولة تحركاتهم ومباغتتها إلى تناسق ملحوظ من عناصر ملتشعة ، وإلى قيادة حازمة كانت تظهر دائماً بشيء جديد . وكانت تستطيع أن تعوض عدم الكفاية العددية للقبائل كما أنه ظهر فجأة للأعين العربية المشدوهة ، أن المستقبل كان يناديها للانتصار والفتح . فقد كانت الأسباب الاقتصادية والسياسية والدينية تجعل النجاح محققاً ، ومن جهة أخرى لم تعد التربة القاحلة للجزيرة العربية قادرة على تغذية سكان يزدادون على الدوام . وكان ضعف بيزنطة والفرس وانحيارها الكامل مما يحث أخيراً على مهاجمة هاتين الامبراطوريتين بكثير من الاقتناع لاسيما أن قبائل كثيرة كانت تدعو إلى مساعدة اخوانهم المسلمين .

وقد اعتقد العرب فيما بينهم وبين أنفسهم — على غرار محمد (صلى الله عليه وسلم) — اعتقاداً صادراً عن إدراك وضرورة أن الإسلام يستطيع بل ويحتم عليه أن ينتصر بالسلاح ، فلم يصعب كثيراً على الخليفة عمر (٦٣٤ — ٦٤٤) وهو الذكي ، الحازم ، والمدرك لهذا المفهوم الحركي (الديناميكي) للإسلام أن يحسن توجيه المسلمين لكي يدركوا عظمة رسالتهم . وكان على عمر في أثناء ذلك ، وهو الخليفة العظيم الكريم أن يعزل خالداً الذي كان قد شان شهرته في الشجاعة أكثر من مرة بسبب الأعمال القاسية المتكررة

فقد دل هذا العقاب المثالي للعرب على أن دعوتهم ليست مقصورة على دعوة جنود للإسلام فحسب بل كانت كذلك دعوة رواد له ومبشرين به .

وتكشف الفتح العربي إذ ذاك عما كان يمكن أن يحققه الاقدام والايان . فقد استولى العرب على دمشق في سنة ٦٣٥ ، وانطاكية في سنة ٦٣٦ وبيت المقدس في سنة ٦٣٨ ، وبقية بلاد سوريا في سنة ٦٤٠ ، وفارس ومصر في سنة ٦٤١ ، وتوالى الفتح بعضها إثر بعض وهكذا في أقل من عشر سنوات بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) كانت حفنة من الجنود قد جعلت من نفسها سيادة لامبراطورية مترامية الأطراف . ومن ذلك الوقت ، عاشت القبائل العربية في هذه الربع ، وأصبحت أصلاً لذرية . وتسكثرت بسرعة ، على حين أن قبائل أخرى بدوية كانت تقبل أيضاً على دعم تأثيرها المستعرب باختلاطها بالسكان الأصليين الذين كانوا يحمون حياة هؤلاء العرب المستعمرين . وكانوا يهرعون من كل صوب ، من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن فارس إلى طرابلس الغرب . ولسكن ، عبر هذه الامتدادات الشاسعة ، وفي زحمة هذه القبائل الأجنبية ، لم يكن العرب إلا أقلية ضعيفة . ولم يطل بهذه الأقلية المتحفزة ، النابهة المقدام وهذه أصدق صفة لها ، لم يطل بها البقاء حتى ترى أن الربع المغزوة كانت آخذة في الانهيار ما في ذلك شك . وكانت هذه الأقلية منظمة تنظيمًا حسنًا ، ومن ثم لم تغير شيئاً من الجهاز الإداري الذي وضع من قبل . وكان عمر قد حرم على أتباعه ، الاستعواذ على الأراضي كي يحافظ في عزم على الطبقة العسكرية وخصائصها الحربية . ولا جرم ، فقد طالب المنتصرون المغلوبين بالفوائد الاقتصادية والمالية دون أن يلحق ذلك ضرراً ، بالناحية السياسية والمادية . هذا إلى أنهم ، وعلى عكس ما كان يعتقد فيهم ، قد عرفوا بفطنة تثير الإعجاب وبحماسة سياسية صادقة ، صلتهم من التأثير بأي تبشير لدين آخر ، وكان السكان المغزؤون يحتفظون بدينهم التقليدي في نظير ضريبة عقارية ، وجزية . من أجل ذلك كان نظامهم في الحياة يسير سيره الطبيعي كما كان عليه في الماضي . وخلدت من جديد ذكرى الحضارات القديمة والثقافة اليونانية مع الثقافة الإسلامية التي كان لزاماً عليها أن تنمى نفسها على أسس هذه الحضارات . وقد حدث أيضاً أن الشعوب التي اهتدت بهدى الإسلام انتهت إلى نسيان ماضيها التاريخي الخالص ، وإلى مزجه بالحاضر كلاً ما الإسلام سيكتب له البقاء . وأهل امتزاج هذه الحضارات لم يكن بعد امتزاجاً تاماً .

وقد قتل سنة ٦٤٤ عمر الورع الذي كان يتألم وهو يشاهد شعبه وقد غرق إلى أذنيه في الثراء ، ثم قتل خليفته عثمان على هذا المنوال في سنة ٦٥٦ ، وكان الحزب الهاشمي ينادى حين ذلك بخلافة علي زوج بنت النبي (صلى الله عليه وسلم) . لكن الطبقة الارستقراطية للقبائل القرشية والتي كان على رأسها أموى داهية هو معاوية ، حاكم سوريا ، هذه الطبقة ثارت ضد علي الذي مات مقتولاً بسبب المتطرفين من حزبه الخاص والخوارج الذين كانوا ينادون بالمساواة . وعند ما نودى بمعاوية خليفة في سنة ٦٦١ ، أعاد عاصمته في دمشق وحاط نفسه بجهاز حكم ملكي منقول عن بيزنطة وعن حكم الله . ومن أجل ذلك كان لا بد له أن يقوض عقيدة الخلافة المطلقة باتخاذ مبدأ الوراثة بالنسبة للخليفة ، بدلا من الانتخاب الذي مورس حتى ذلك الوقت عن طريق رؤساء الطوائف . ومنذ ذلك الوقت ، يبدو أن العشيرة الأرستقراطية في مكة انتصرت على عشيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أصبحت الجمهورية التيقراطية من الأعقاب ملكية مدنية وراثية . وأسس معاوية — وهو إداري كبير وسياسي ذكي — أول مجتمع إسلامي منظم . وباستثناء بعض فترات من الضعف ، فإن فترة الأمويين التي استمرت قرناً ، كانت فترة مجد للإسلام ويرجع الفضل لهذه الأسرة في إيجاد حكومة حرة ومنظمة لهذه الامبراطورية المهيبة التي امتدت من النيل إلى الهند .

وعلى حدود العالم الإسلامي في المشرق كان الفرس والمصريون قد ضاقوا ذرعاً بسلطة دمشق السياسية . ولم يكن أهل بيت النبي (صلى الله عليه وسلم) بأقل نفوراً بسبب أخلاف الأمويين المنحرفة وبسبب تهاونهم الديني . وعلى ذلك أخذت الليول الانفصالية للقبائل تشتد يوماً بعد يوم . وكانت الروح القبلية التي حاربها محمد (صلى الله عليه وسلم) بكل قوة ، والتي قهرها من وقت إلى آخر حكام صارمون ، تظهر من جديد بدون توقف ، وأخذت تتكشف كمائق رئيسي لتحقيق قوة موحدة . ويجمع أبو العباس — أحد ذوى القرابة من النبي (صلى الله عليه وسلم) — يجمع الملتحقين والقوى المعادية في تحالف واحد ، ويأمر بقتل جميع الخلفاء الأمويين معلناً بذلك عودة أسرهم إلى الأبد ، ثم ينصب نفسه خليفة تحت اسم « السفاح » وينقل عاصمته إلى بغداد سنة ٧٥٠ .

وكان لزاماً على الخلافة العباسية التي نشأت في حمام من الدم أن تمر في أثناء ذلك

بمصر عرفت في غضون هذه الفترة من الرفاهية والترف ، كما عرفت فيه ازدهار الآداب والعلوم والفنون . وستشرق بريق وضاء جديداً على طول القرنين التاسع والعاشر ، وسيقرر إشعاعها الروحي والسياسي العصر الذهبي « للحضارة العربية » وبعد موت « أبي العباس » في سنة ٧٥٤ قام خليفته المنصور بتثبيت دعائم الأسرة العباسية . وعلى يد خالد البرمكي الذي اختاره المنصور وزيراً نشأ عصر الرخاء الذي جنى ثماره هارون الرشيد الذي أصبح حكمه أشهر حكم في تاريخ العصر الوسيط ، وقد أثبت وزيره يحيى البرمكي أنه من أحسن الإداريين في الامبراطورية .

هذا ولعل التاريخ لم يظفر بحاشية ملكية مثل حاشية هارون الرشيد التي ضمت كوكبة من العقول الناضجة المتنافسة . ولم يكن الخليفة مولعاً بالموسيقى والفن وحدهما ، بل كان يجيد الحكم ، وحماية الحدود ، وقيادة الجيوش في حذر ، والقضاء بعدل ، وعلى الرغم من عطايه ، وبذخه ، بل اسرافه الذي لم يستطع أحد أن يجاريه فيه فإنه وجد عند ما مات في الثاني والأربعين ، أنه ترك في صناديق الخزانة أكثر من ٨٤ مليوناً من الدينار وهو مقدار يساوي ١٠٠ مليار من الفرنكات القديمة وترك امبراطوريته بين يدي ابنه المأمون الذي كان لابد له أن يتابع سيرة الخلفاء الكبار . واستطاع المأمون بحكمته وسعة نظره وشمول أفكاره أن يجمع في مجلسه ممثلي جميع معتقدات امبراطوريته ، حتى أحرار الفسك . ولما كان نصيراً للعلماء والأدباء واسع الأفق فقد حث على نشر الآداب والعلوم والفنون ، وأمن انتشارها عبر العالم . وفي ظل إراداته الدافعة أنجزت تراجم المؤلفات الإغريقية إلى العربية على أوسع نطاق .

حقاً ، لقد بلغ الإسلام في هذا العصر الذهبي ذروته . .

الباب الثاني

(٩)

ذروة الاسلام

الحياة الاجتماعية :

في العصر الذي بدأ مع الخلفاء الأول ، كان سكان الامبراطورية ينقسمون أربع طبقات . ففي طبقة الطبقات الأربع : الخليفة وأسرته والوزراء والطبقة الارستقراطية من الفاتحين العرب ، ثم المهتدون الجدد الذين اعتنقوا الإسلام إما عن مصلحة أو عن عقيدة ، وكانوا يتمتعون في الأصل بشريعة المسلمين . وكانت الطبقة الثالثة تتشكل من الذميين أو من ممثلي المال المتساهمة أو أصحاب الأديان المنزلة التي تدعو إلى وحدانية الله : مثل المسيحيين واليهود والصابئين الذين يطيعون سلطة رؤسائهم الروحانيين ، وكان الرقيق يشكل أخيراً الطبقة الدنيا من المجتمع الإسلامي .

من المعروف أن العرب لم يجلبوا معهم ثقافة خاصة . فقد ظلت ثقافتهم سريانية أو هندية — فارسية أو يونانية أثناء فترة الأمويين التي لم تستطع أن تكون غير فترة حضارة بسبب الظروف المضطربة . لكن القادمين الجدد لم يتوانوا عن أن يمتزجوا بفنون السلم . وقد استلادوا من براعة الأجناس المغزوة وطريقتهم الفنية ، الأمر الذي دفعهم إلى خلق فن مبتكر على وجه السرعة . هذا الفن المبتكر شكل مظهره الأول في فن المعمار الديني . أما فيما يخص الأدب فقد كشف التقدم فيه عن عظماء كذلك ، وضعوا أساساً لازدهارات العظيمة في الأسرة العباسية . وقد حافظ نفوذ الخلفاء على سلطتهم المطلقة طيلة ما يقرب من قرنين ، وعند ما اقتطع امراؤهم — سواء منهم من كان غير عربي الجنس أو من كان على خلاف سياسي وديني مع بغداد — دولا لأنفسهم أقاموا فيها حكمهم على « القرآن » وهكذا لم يتوقف انتشار اللغة العربية ، والدين الإسلامي بين الشعوب عن السير قدماً .

ومن المهم أن نلاحظ أنه ليس هناك أى وجه للموازنة بين انتشار الدين الإسلامى عبر العالم وبين التطور والانتشار للديانة المسيحية التى كان محتوماً عليها أن تغزو الجموع البشرية ، بإغرائها بمثل عليا من البر والمحبة والتسامح — وكان المسيح والحواريون يعلمون جهاراً . أن « أحبوا بعضكم بعضاً »^(١) وربما كان النبي (صلى الله عليه وسلم) على حق تجاه منهج أكثر إنسانية وأقل تثقيفاً فى أن يشير إلى أن أجمل مثل أعلى لا بد من تعزيزه بسلطة سياسية وقوة عسكرية . وحقاً ، لم تكن السرعة المذهلة للتقدم الدينى للإسلام إلا النتيجة المباشرة لأعمال سياسية وفتوحات حربية .

الادارة :

تشكلت فى ظل حكم العباسيين ، تحت رقابة الوزراء المعهود إليهم بالرقابة العليا على الموظفين وتوجيه سياسة الدولة ، إدارة مركزية وإقليمية كان لزاماً عليها أن تؤمن استمرار الامبراطورية على الرغم من تغيير الأمراء ومؤامرات القصر . وكان الوزراء فى الغالب يختارون من بين أعضاء أسرة واحدة ، وكان أشهر البيوتات الوزارية ، بيوتات البرامكة ، والمهلبين والامديين ، والكلدانيين ، وكل هذه البيوتات من أصل فارسى ، وإذا كانت بعض هذه البيوتات وهم البرامكة ، لاقت مصيراً مؤلماً على الرغم من سلطانها الذى لم يكن له مثيل ، فإن كثيراً منها أجادت عن براعة الاحتفاظ بسيادتها . كما أن أسرة المهلبين شغلت أرفع المناصب طيلة أكثر من عشرة أجيال وبلغ أربعة من أهم أعضائها أسمى المناصب ونجحوا فى الحفاظ لأنفسهم بها إلى درجة أن هذه الأسرة التى كانت تتكون من كبار الموظفين المزودين على نطاق واسع بالسلطة وبالثراء نهضت بتشكيل دولة داخل « الدولة » .

(١) إن كان المؤلف يقصد ما جاء به المسيح من البر والمحبة والتسامح ، فإن التاريخ يشهد بأن المسلمين ينادون على الدوام بالبر والمحبة والتسامح ويوصى « القرآن » فى كثير من آياته بذلك . والواقع أن البر والمحبة والتسامح فى الدين الإسلامى ممزوجة كلها بالقوة وعزة النفس . (المترجم)

ومن وجهة النظر الإدارية كان ينظر إلى إدارات الجند والمال على أنها ذات مكانة مكيّنة وكان بيت المال يلتزم مجموعة من الموظفين الكثيرين ، ثم يأتي بعد ذلك ديوان الرسائل الذي كان يتولى الأعمال الخارجية ، وإدارات الشرطة والبريد ، ومكتب للشكايات يمكن أن يتمثله المرء على أي حال بمحكمة استئناف تشريعية وإدارية . وكان الموظفون في الغالب من غير المسلمين . وكان عددهم كبيراً تنتظمهم طوائف مهنية تشبه النقابات الحديثة . وعند ما أرادت الدولة حسن مكافأتهم وافقت لهم بسرعة في القرن العاشر على الراحة الأسبوعية في يوم الجمعة ، ثم أضافت إليه بعد قليل يوماً آخر ، هو يوم الخميس .

الشريعة :

كانت الشريعة تصدر عن « القرآن » ، وكان الفقه فرعاً من علوم الدين ، لكن أمام كثرة الحالات غير المستدركة ، لم يلبث القضاة أن رأوا أنفسهم مضطرين إلى الرجوع إلى السنة ، وهكذا أصبح الحديث المصدر الثاني للتشريع .

كان الخليفة نفسه هو الذي يختار القضاة من بين علماء الشرع أي الفقهاء . ولما كان القضاة طائفة قوية فقد كان بيدهم سلطان ومنزلة رفيعة في آن واحد تمثل الطبقة الدينية . ولما كانوا نفعيين في معظم الأحوال ، أكيّساً بمقدار ما كانوا يحترمون القضاء ، ويوحون بالرهبة أكثر من إيمانهم بالاحترام ، فقد كانوا يعضدون سلطة الحاكم المطلقة ، لكنهم كانوا يلينون للمؤثرات الخارجية . ويرون أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) لم يتخرج في القول بأن كل قاضيين على الأقل من ثلاثة جديران بالنار ، وقد يقال اليوم إنهم لا يساوون الحبل الذي يشنقون به (١) ، لكن المتقاضى لا يعيل أبداً إلى العدالة . وباستثناء القضايا الجنائية التي كانت تتعلق بمصلحة الدولة العليا كان القضاة أهلاً للفصل في جميع الجرائم . وكانت محكمتهم تنعقد بجانب المسجد الكبير ويتم الفصل

(١) جاء في السنن عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : القضاة ثلاثة : قاض في الجنة وقاضيان في النار ، قاض عرف الحق ف قضى به فهو في الجنة ، وقاض عرف الحق ف قضى بخلافه فهو في النار ، وقاض قضى عن جهل فهو في النار . (المترجم)

في الدعاوى علانية وكانت هيئة القضاء بما لها من سلطة مطلقة مجهزة بكاتب وحاجب ، وضابط ، وبعض الحرس المكلفين احترام الجمهور للنظام والسلطة العامة . وكما كانت هناك أسرار توارثت الوزارة والإمارة كذلك كانت هناك أسرار قصرت نفسها على القضاء يخلف فيها الابن أباه ، فقد كونت أسرة أبي الشوارب في بغداد ، وأسرة أبي بردة في شيراز في قرنين سلالتين شهيرتين فرصتا نفسيهما بسهولة فأن شهرتهما في طهارة الذيل والشرف كانت راسخة كل الرسوخ . وفي دواء القضاء ، كان للقضاة من مختلف المراتب وضع خاص ، وكانت هناك مهنة تسمى مهنة « رجل عدل » . وبموازنة هؤلاء موازنة كافية بالمهام الراهنة لوكلاء المودعين نرى أن الأغنياء قد جعلوا من هذه الأعمال رويداً رويداً ، مهنة قابلة للتجارة فيها بنفس القلب وبنفس الطريقة التي يناقش المرء بها اليوم شراء أو بيعاً في مكتب لموثق عقود أو توكيل دعاوى أو لمحضر . وكان هناك أيضاً وكلاء موثقون ، لكن المهنة كانت مزعجة جداً ، وخادشة للشرف كثيراً وكثيراً ، إذا وثق المرء في حديث ابن الأخوة ، الذي كتب فيهم يقول : « وأما الوكلاء الذين بين يديه فلا خير فيهم ولا مصلحة للناس بهم في هذا الزمان . فإن أكثرهم رقيق الدين يأخذ من الخصمين شيئاً ثم يتمسكون فيه بسبب الشرع فيوقفون القضية فيضيع الحق ويخرج من بين يدي طالبه وصاحبه فإذا حضر الخصمان فإن الحق يظهر سريعاً من كلامهما إذا لم يكن لهما وكيل . فكان ترك الوكلاء في هذا الزمان أولى من نصبهم »

وقد اعترف بأربعة مذاهب للفقهاء عند أهل السنة ، وكانت مدرسة القياس لأبي حنيفة (٧٦٧) تقرر أن « القاعدة الشرعية تعبر عن عرف عام ، وتتغير مع الظروف التي أحدثتها » ، ووقف مالك (٧٩٥) ضد هذا الاتجاه التقدمي معتمداً على دراسة ١٧٠٠ حديث فقهي . وكان يرى أن اجماع أهل المدينة التي ظهر فيها الحديث أصل من أصول الفقه . أما الشافعي (٨١٩) فقد ذهب إلى أن الاجماع أوسع من ذلك ، وهو عبارة عن اجماع سائر المسلمين في عصر معين . ورأى أحمد ابن حنبل (٨٥٥) أن هذا الأصل شديد الابهام فأسس مدرسة رابعة ، أكثر مطابقة للدين وتحدد الفقه بالقرآن والسنة . وعلى الرغم من هذه الاختلافات في الرأي ، وعدم اتفاقهم في المبدأ فإن المذاهب الأربعة لم تسكن تختلف من جهة التمسك بالدين ، بل من جهة تكثير الأحكام والفروع ، حقاً ، لقد ظلت شريعة القرآن راسخة على أنها المبدأ الأساسي لحياة المسلم ، ولم يتعرض ما جاء في القرآن من نظر وأخلاق ونظام لأية تغييرات ، ولا لتبديلات بعيدة الغور .

الممول والضريبة :

لم يكن الإسلام يعترف في المصدر الأول إلا بثلاثة أنواع من الضرائب وهي خراج أموال الأرض وقيمته العشر ، والزكاة وهي ضريبة « التأمين الاجتماعي » التي يدفعها المسلمون وخدمهم ، وجزية الرؤوس التي يدفعها جميع الذميين غير المسلمين عوضاً عن الخدمة العسكرية . وكانت الضرائب الأخرى التي كانت تفرض بانتظام مع أموال المؤسسات تؤخذ على أنها مخالفة للعدل والانصاف . بما في ذلك الضريبة على العاهرات .

ولتحديد جزية الأرض ، كان يعمل حساب خصب الأرض وكذلك سهولة الري . وكان يفرض على المزارعي الخصبة الشاسعة من الضرائب أكثر مما يفرض على زراعة الخضر ولكن في حال عدم الدفع ، كانت الجزاءات قاسية : فكان القبض والسجن والجلد ، وقد خفت رويداً زويداً هذه العقوبات حتى إذا ما رُئي الرجوع إليها ، توحدت الاحتجاجات ، ولزم على الدولة أن تنحني أمام هذه الاحتجاجات .

وعن طريق خلق ضرائب غير مباشرة ، بذل الوزراء كل جهدهم ومهارتهم في الكشف عن مصادر جديدة للدخل فقد استحدثت من أجل ذلك احتكار الدولة الثلج لشرب المرطبات ، والحريز النخين والحريز العادي ، وعطر الورود ، وعلى الرغم من أنه كان من الصعب في بلد إسلامي احتكار المشروبات الروحية الممنوعة أصلاً ، فإن الضرائب والضرائب الإضافية نجحت مع ذلك في الوصول إليها . وعلى هذا النحو ، وعلى الرغم من أن قانون الشريعة الإسلامية حرم مكوس الجمر ، فإنه كان يحصل دون شفقة عدد لا حصر له من المكوس والضرائب لاعلى تخوم العالم الإسلامي فحسب ، بل كذلك على الحدود الداخلية التي كانت تفصل الدول الإسلامية بعضها عن بعض ، وكانت هذه المكوس الجمركية فادحة أحياناً . وكانت تبلغ بين ١٠ ٪ و ٢٠ ٪ من القيمة الأصلية بحسب طبيعة البضائع والحوادث السياسية للحال الراهن . ومهما يكن من أمر في العصور الأكثر عسراً ، فإن استغلال الدولة للانسان لم يبلغ أبداً في أراضى العالم الإسلامي مبلغ الشدة التي لا رحمة فيها للعالم الآسيوي القديم أو لمصر الوثنية أو حتى للعالم المسيحي . ولقد عرف العالم الإسلامي دون شك البؤس والشحاذة لكن العون الفردي لم يفقد أبداً فيه . وظلت الصدقة ركناً من أركان الدين . وقد امتلأ تاريخهم بسماوات الكرم

وليس السلوك السخى فى قصة الحسن (١) الذى قسم على ثلاث مرات أمواله على الفقراء ووزع مرتين كل ما كان يملكه ، هو النموذج الوحيد .

أهل الذمة :

وإذا كان الوثنيون قد استبعدوا من الطائفة الإسلامية ، فقد كان يطلق على غير المسلمين الذين كانوا يقطنون أراضي العالم الإسلامى وينتمون إلى الأديان المنزلة « ذميون » (٢) وكان هؤلاء من أمم مسيحية أو من طوائف يهودية أو من الصابئين .

وكان عدد المسيحيين يتجاوز خمسمائة ألف فى بلاد ما بين النهرين ، وأربعين ألفاً فى بغداد ، وإثنى عشر مليوناً فى مصر ، وكان اليهود وعددهم ستمائة ألف فى بلاد ما بين النهرين السفلى وما يقرب من مليون فى إيران مبعثرين فى أجزاء كبيرة من المدن حيث كانوا يكبون على أشغال كثيرة بدون إتقان كاف وبخاصة فى الأمصار الإيرانية . وقد نجحوا بقوة عقيدتهم بوحدانية الله فى أن يحلوا محل التجار الهنود الذين طردوا على أنهم وثليون ولكن اليهود لم ينجحوا على الرغم من قدرتهم على التسلل وعنادهم ، إلا فى التسلل بصعوبة فى فلسطين وفى مملكة يهوذا حيث نافسهم بنفس المواطنين المسيحيون وهم مهرة وفطنون على غرارهم .

كان الصابئون اللاجئون فى بلاد ما بين النهرين السفلى ملاحين مهرة ، وصيادى لؤلؤ فى الأغلب وهم يكملون قائمة الذميين مع أتباع الشيعة الفارسية الزرادشتية

(١) يروى عن الحسن بن على أنه قسم ماله بينه وبين الفقراء ثلاث مرات فى حياته وأنه فى مرتين وهب لهم كل ما يملك . (المترجم)

(٢) وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا خصمه يوم القيامة » . (المترجم)

المنتشرين في بلاد ما بين النهرين وفي جنوب إيران ، والمزدكيين الذين كانوا يقطنون بلاد ماوراء النهر والإمارات التي على أطراف بحر قزوين .

وفي الأزمنة الأولى من الإسلام ، كانت حياة أي ذمي شاقة ولذلك فإنها لم تكن لها قيمة تذكر ، وأي مثل ملموس يعطى صورة دقيقة عن ذلك . ففي حال القتل الخطأ كان لزاماً على القاتل أن يدفع تمويضاً يحدده القانون ، يدفع كاملاً إذا كان القتيل مسلماً ، ويبلغ التعويض من ٦٪ إلى ٢٣٪ إذا كان القتيل من أصل يهودي أو من أصل بارسى على التوالي . وعلى الرغم من التسامح العظيم إزاء « الذميين » فقد أجبروا على ارتداء الملابس صفراء اللون والسكنى في أحياء خاصة بهم . وبوضع تماثيل صغيرة جداً تمثل الشيطان فوق أبواب دورهم . وقد فرضت عليهم فوق ذلك بعض القيود مثل تحريم التجول على صهوة جواد . والإدلاء بشهادة أمام المحاكم الإسلامية لأنهم ماداموا قد حرقوا كتبهم المنزل عليهم لا يستحقون الثقة بهم^(١) .

بيد أنه كان على خلفاء بني أمية أن يتصرفوا تجاههم بتسامح رحب جداً . فقد أيجت لهم سلطة ممارسة الاحتفالات بعبادتهم والاحتفاظ بعبادهم . وبعد قليل في ظل الخلافة العباسية كانت معاملة الذميين تتراوح بين الشفقة والقسوة وإن التسامح الديني العظيم هو طابعها دائماً . ولم يكن اليهود وحدهم هم الذين يفضلون الشريعة الإسلامية على القانون المسيحي ، بل كانت الهرطقات المسيحية التي اضطهدت فيما سبق من رجال الكنيسة تنظر إلى سلطة الإسلام على أنه شر أخف من شر سلطة بيزنطة . وقد ازدهرت أديرة ، وبيع للرهبان ، ومعابد وهياكل لليهود حتى إنه في ظل حكم المأمون ، وفي أوائل القرن التاسع ، كان الإسلام يملك على أرضه أكثر من ١١٠٠٠ كنيسة مسيحية ، ومئات كثيرة من المعابد اليهودية ومن معابد للنار .

(١) لا شك أن هذه إحدى المبالغات التي يلجأ إليها المؤلف في كثير من المواضع . وحسبنا في الدليل على هذا قوله جل شأنه في سورة المتحنة : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (المترجم)

وفي القرن العاشر ، أضحت الظروف العامة للحياة أكثر ملائمة ، وبدأ الذميون في جميع شمل أنفسهم في مديريات وفي مقاطعات . ومنذ ذلك الوقت سمح لهم بإدارة أنفسهم بأنفسهم تحت تفوذ حكّام من إختيارهم ، واحتفظوا بقضاتهم وقوانينهم ؛ وسمح لهم بدخول الوظائف العامة ، خلا السلك القضائي . وأصبح الذميون بين يوم وليلة أطباء ، وجباة ضرائب وأصحاب مصارف ، وصيارفة ، وتجار جملة ، وأنشئ نوع من التنظيم بين أصول المذاهب المختلفة أو الأديان . وكان رجال المال ينتخبون من بين اليهود ، والاطباء من بين البارسيين^(١) . وأما الكتاب فكانوا من المسيحيين . ويمكن أن تشاهد من اجل ذلك طبقات ممتازة من الذميين الذين وصلوا إلى أعلى المناصب . وأصبح عدد معين من بينهم حكّاما ووزراء . وقد تكرر هذا حتى أصبح شيئا تقليديا . وفي نهاية القرن العاشر في مصر تحت حكم العزيز بالله الفاطمي راحت المناصب العالية للمسيحيين وللإهود تشر قريحة مؤلفي الأغاني والشعراء ومن قولهم :

تنصر فالتنصر دين حـق عليه زماننا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجـلوا وعطـل ما سواهم فهو عطـل
فيعقوب الوزير أب ، وهذا العزيز ابن وروح القدس فضل

وفي منتصف القرن الحادي عشر ، تسلل اليهود إلى أعلى المناصب على الرغم من بعض نصوص القرآن المضادة تجاههم ، وانتهوا أيضاً باستبعاد الذميين الآخرين . وقد شغل أحد اليهود المناصب الوزارية في القاهرة القديمة ، وأدار آخرا ن هما ابن سعد والتستري الامبراطورية ، ولحق بهما فيما بعد الهجاء والتهكم بكل حماسة ، بعد إذ تجاوزوا الحدود .

العزيز فيهم والبال عندهم
ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم
تهودوا فقد تهود الفلك

الجيش :

إذا كانت الخدمة العسكرية عند المسلمين لم يصكن لها طابع إجبارى بالمعنى الذى يفهمه المرء اليوم ، فقد ظلت مع ذلك أحد الواجبات الرئيسية لكل مسلم ، وكان الجندى العربى تحت راية الإسلام يكافأ مكافأة حسنة ويتمتع بمكانة كبيرة .

وشكل الفرسان صفوة الجيش ، والأداة الحاسمة للمعركة فى المنازلات الأولى . وكانت سرعتهم مذهلة ، وقد عرف قواد العرب كيف يختارون الأراضى الملائمة ليظهروا فيها مقدرتهم فى فن الحرب . وكانت الخيالة الخفيفة تستخدم الرمح والوَهَق^(١) وكانت الخيالة الثقيلة المزودة بالسيوف تحارب بالهراوة وبالحربة .

وفى القرن الحادى عشر ، كانت المشاة العربية تستخدم القوس والنشاب ، والخنجر والزرذ أى قبل استخدام الغريين لها بمائتى عام . وكان القوس يستعمل من نهايته ، فلا يسمح بانطلاق أسهم كثيرة فى وقت واحد بل تقذف — لمسافة بعيدة — كمية كبيرة من كرات الرصاص . وعند ما كان القرص يرفع بوجه خاص على جهاز مثبت ثقيل يصبح صالحا لإطلاق الحراب بقوة مما يجعلها تحترق الدروع المعدنية . ثم اخترع نموذج رابع شبيه بالجهاز السابق يسمح بإطلاق حراب كثيرة وثقيلة فى آن واحد . ومع هذه الأسلحة التى ذكرت سلفا ، كانت مدفعية المسلمين ثقيلة ومعقدة ، لكن تصويبها كان محكما ، وكانت لا تستخدم قط لرمى القذائف من كل نوع ، بل كانت تتيح كذلك قذف الكبريتات ، والأسهم النارية وقذائف أخرى حارقة .

وقد وصف لنا جوانفيل^(٢) Coininille الآثار العجيبة لتلك الأسلحة فى قوله : « وكان يبدو أن هذا السلاح كان الصاعقة التى تنزل من السماء ، والشيطان الطائر فى الهواء الذى يلقى شهابا يبلغ من القوة أن ضوءه كان ينطلق بضوء النهار فى جيشنا ، وكان لهب النار شديداً جداً » .

وفى بعد ذلك بنصف قرن كان العرب هم الطليعة فى صنع البارود . واستغللاه .

(١) الوَهَق محرّكة ويسكن الحبل يرمى فى أنشودة فتؤخذ به الدابة والإنسان والجمع أوهاق . (المترجم)

(٢) مؤرخ فرنسى (١٢٢٤ — ١٣١٧) ، كان مستشاراً للويس التاسع ، ومؤلف تاريخ القديس لويس والحروب الصليبية . (المترجم)

(١٠)

الحياة الثقافية والفنية

التعليم :

لقد كان محمد (صلى الله عليه وسلم) يقول : « من خرج يطاب علماً ، فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

كان الطفل في سن السادسة أو السابعة يذهب إلى المدرسة التي كانت تقع في الغالب بالقرب من المسجد . وكان يلحق في هذه المدرسة دروساً بالهجان أو بأحر يستطيع كل أحد دفعه . وكانت مدة التعليم خمس سنوات . وكان على المدرسين أن يبرهنوا أنهم ذوو ثقافة كافية وأن يكونوا متزوجين وفي سن ناضجة . وكانت العلوم بسيطة تتكون من : القراءة والصلاة وقراءة القرآن الذي كان الأطفال يحفظون بعض آياته ويكتبونها إثر ذلك بعد تلاوتها معاً بصوت عال . وكان على التلاميذ أن يسموا جهداً طاقتهم لحفظ القرآن كله ، ومن كان ينجح في بلوغ هذا الهدف كان يسمى (حافظاً) .

وفي القرن العاشر ، تم تطور بتأثير الفرق المعارضة ، التي كانت كل منها تسمى دون شك إلى تثقيف الشعب بحسب أفكارها ومبادئها ، لكنها تسعى أيضاً إلى رفع المستوى الفكري . وقد أنشئت لذلك عدة درجات للتدريس . وكان هدف التعليم الأولي أو المرحلة الأولى أن يشكل الخلق ، وكان تعليم المرحلة الثانية خاصاً بالعلوم وحدها . أما المعلومات الفنية التخصصية ، فإنها كانت على الدوام تؤدي في الطوائف عن طريق أرباب المهنة ، والصناع ، وأصحاب المراسد .

وقد نظمت المعاهد الثانوية بسرعة كبيرة ، وأصبحت مدارس عامة أو مدارس ثانوية . وكان التعليم يعارس في هذه المدارس بالهجان مثل مدرسة المسجد . . وكان مما يدرس فيها الصرف والنحو ، وقواعد اللغة ، والبلاغة ، والأدب ، والمنطق ، والرياضيات . وكان التلاميذ — وهم جلوس حول المدرس — يتلقون تعليماً سماعياً أكثر مما يؤخذ

عن الكتب . وكثيراً ما كان الطلبة يركبون متون الأسفار لكي يستمعوا إلى كبار المتبحرين في العلم في مكة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وعلى طول الطريق . وكانوا لا يعدمون في كل مكان مسكناً ، وغذاء ، وتعلماً بالحجان . وأمام التأثير الفكري المتزايد دون توقف لأصحاب الأفكار التقدمية أسس وزير سلجوق في بغداد في سنة ١٠٦٥ المدرسة النظامية التي أصبحت المؤسسة النموذجية ، ثم نسجت المدارس على منوالها ، في المدن الرئيسية . وقد كانت هذه المؤسسة التي تولت رعايتها الحكومة باهظة التكاليف ، ومنعت أموالاً وفيرة . وكان مما يدرس فيها القرآن والأحاديث ، وعلم الفقه والقوانين ، والشرائع ، والمذهب الشافعي ، وفقه اللغة ، والأدب ، والجغرافيا ، والتاريخ ، وعلم التاريخ ووصف الشعوب ، وعلم الآثار ، والفلك ، والرياضيات ، والكيمياء ، والموسيقى ، والرسم الهندسي .

وقد أنشئ فيما بعد أيضاً ، وفي بغداد دار إسلامية داخلية للشريعة ، والعلوم ، والآداب ، والفنون : وهي المستنصرية . وكان مما يدرس فيها فقه المذاهب الأربعة . ولما كان تطبيق القواعد يثير في أثناء التطبيق العملي عقبات لا يمكن أن تحل إلا بتفسير نصوص من القرآن اتجه الفقهاء والعلماء إلى الاعتراف رسمياً بهذه المذاهب في التفسير التي كان هدفها أن تجيب على المذاهب الدينية الأربع الكبرى التي كانت تضم مجموعة العالم الإسلامي ، والتي كان اسمها يسترجع اسم مؤسسها : وهم أحناف إيران الشرقية وأفغانستان ، وتركستان ، ومالكية إفريقيا وأسبانيا وصقلية ، وشافعية سوريا والعراق^(١) وإيران ، والحنابلة الذين كانوا يضمون الطبقة الوسطى من الشعب في المدن . وكان هذا تنظيماً حقيقياً لثقافة عامة ولطابع دولي ، قلده الغرب بجمع الشعوب الأربعة للعالم المسيحي في جامعة باريس ، وقد أخذت اليونسكو كذلك عنهم هذا التنظيم .

التبحر في العلوم :

سيطر الإسلام أثناء خمسمائة عام من ٧٠٠ إلى ١٢٠٠ على العالم بالقوة وبالعلم ، وبتفوق حضارة .

(١) نسي المؤلف أن يضيف مصر إلى الشافعية . (المترجم)

لقد ورث الإسلام تراث اليونان من الفلسفة والعلوم ، ثم بعد أن نماها ، نقلها إلى أوروبا الغربية . كما أنه استطاع أن يوسع الأفق الفكري للعصر الوسيط ، وأن ينفذ بعمق إلى الفكر والحياة الأوروبيتين .

كان الخلفاء والأمراء قد وضعوا في المقام الأول انتشار الآداب والفنون والعلوم ، وغالباً ما كانوا علماء أو حماة مثقفين للفلاسفة والمتفنيين ، يسلكون معهم مسلك النصراء الكرماء للآداب والفنون كما كانوا يحثفون بالشعراء ورجال العلم .

وقد ارتفعت الثقافة حتى بلغت درجات العرش . ففي بلاد الأندلس كان الخليفة الناصر يتحدث عن أرسطوطاليس ، وعن أفلاطون مع ابن رشد في زمن كانت طبقة الأشراف في العرب تنبأه بعدم معرفتها القراءة . وفي قرطبة كان العالم الأموي الحكيم يستخدم مكتبة تضم أكثر من ٤٠٠.٠٠٠ مؤلف على حين أن ملك فرنسا شارل الخامس — أعنى العالم الحكيم — لم يستطع أن يجمع بعده بأربعة قرون من هذه المؤلفات أكثر من ألف مؤلف .

وفي الحق ، أن إنشاء المأمون العباسي دار الحكمة في بغداد كان عاملاً مهماً وحاسماً في انتشار العلوم . ويرى ابن خلدون صاحب المنهج الموضوعي في دار الحكمة هذه ، انطلاقاً ازدهار المشرق للإسلام .

الفكر المستقل :

ولكن الأمر الذي لا يزال موضع غرابة أن كتاب العرب لم يعنوا أية عناية بالأدب اليوناني الضخم ذلك الأدب الذي كان على عصر النهضة الأوروبية أن يبعثه من مرقدته بقوة .

الحق أن مؤلفات الأدباء والمؤرخين اليونانيين ، وكذلك العدد الهائل من المسرحيات اليونانية والتي كانت تحت تصرف العرب ظلت ولا أثر لها في الروح الشرقية . ويجب بلا ريب أن نلتمس بعض أسباب ذلك في دوافع دينية جعلت من مبادئها المنظمة محو أثر صفحات من ماض رائع . ذلك أن الأدب اليوناني لم يكن مطابقاً للدين حق المطابقة ، وقد عمل مفكرو المسلمين زمناً طويلاً حتى تيسر لهم التوفيق بين الفلسفة اليونانية وتعاليم القرآن .

لم يكن هذا السعى إلا قرابة القرن الحادى عشر عند ما هجر المفكرون والمؤرخون العرب ما كان حتى ذلك الوقت المصدر العظيم الوحيد للإلهام . ومن أجل هذا ، لم يتردد ابن قتيبة وهو أول من وقف ضد سواد كتاب جميع البلاد العربية في هذا العصر ، أن يبحث الدين الإسلامى فى ضوء عالمى كما ينبغى أن تكون طريقة المؤرخ الذى يحيط بمظنة العصور . وعلى هذا النحو يجدر بنا أن نعمل بمثل هذه الطريقة ، إذا أردنا أن ننتهى إلى فهم متبادل بين الشعوب ، وتقتضى سيكولوجية المؤرخ الجمع بين لودعية الفيلسوف ولودعية السياسى .

لقد جهر كذلك علماء آخرون مسلمون باستقلالهم فى الفكر فى زمن كان التعبير فيه عن الآراء المخالفة للدين برهاناً على الانزلاق إلى الحضيض ، على الرغم من الحرية التى اتخذها الإسلام دستوراً له . ويحلل الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » الذى ظهر فى سنة ١١٢٨ العقائد الرئيسية بإنصاف قلما يصادفه المرء عند المؤلفين المسيحيين المعاصرين له .

النثر :

كل ما يشيره الأدب العربى فى ذهن الرجل العربى اليوم ، ذكريات خلقتها قصص ألف ليلة وليلة . وقد ثبت نجاح هذا المؤلف عن طريق روعة الخيال الذى أثاره . وألف ليلة وليلة بعيد كل البعد عن أن تمثل تكامل أدب الشرق الخيالى .

وقد عرفت ألف ليلة وليلة للمرة الأولى نحو منتصف القرن العاشر على أنها ترجمة عربية للكتاب القديم « هزار افسانه » الذى يعنى ألف قصة . والإنشاء الأصلى الذى كان الجهشيارى مؤلفه قد استوحى من شعر قديم فارسى اسكن مع الزمن ، أضيف إليه رويداً رويداً قصص شعبية من مصادر متنوعة ، وقدمت حاشية هارون الرشيد بخاصة فكرة قصص الحب والهكاهات الهزلية المؤثرة التى لاتنفد . وسعرت مغامرات السندباد البحرى وعلى بابا والأربعين لصاً وعلاء الدين والمصباح العجيب ، فضلاً عن قصص أخرى ، سعرت هذه المغامرات الصغار والكبار فى جميع البلاد .

تصف هذه القصص ذات المغزى الأخلاقى والمليئة بحكمة الروح وجمال الأسلوب ،

خفايا وغرائب الحياة الشرقية ، وكرم السلطان ، وروحه العادل ، وجراة المرأة ومكرها ، وإفك الأشرار وقسوتهم وفي غضون قرابة عشرة أجيال ، أضاف القصاصون العرب إليها عدداً معيناً من القصص المهمة تتفاوت بين الكثرة أو القلة والتي كانت تشير إلى انحطاط أذواقهم في عصر من الرخاء . وهذا الكتاب الذي بدىء تأليفه في القرن السابع وانتهى في القرن الخامس عشر يمثل مجموعة الأدب الشرقي في العصر الوسيط . وقد ظهرت أول ترجمة له في باريس في عام ١٧٠٤ ، ولم تكند تظهر حتى بلغ من نجاحها أن ترجمت إلى جميع اللغات . وفي الشرق نفسه ، حظى مؤلف أدبي آخر لقصص يبدأ بشهرة تفوق قصص ألف ليلة وليلة . واستحضرت هذه القصص من الهند ، وكانت محررة باللغة السانسكريتية قبل أن تترجم إلى اللغة الفهلوية في القرن السادس ، ثم ترجمت إلى العربية في منتصف القرن الثامن على يد ابن المقفع . وهذا الكتاب الذي كتب نثراً هو أول الروائع الأدبية في اللغة العربية ، وقد ظهر تحت عنوان « كتاب كيلة ودمنة » ونجد فيه هذا الميل القصصي ذا المغزى الأخلاقي . . هذه القصص يترابط بعضها ببعض بوساطة خيط متين ، وتتسلسل كأنها قصة لانهاية لها ، أو على أنها قصة مرتبطة بأخرى ثم لاتزال تستطرد في ثوب رواية متسلسلة جديدة . والمهارة التي تركز على أن تجعل الحيوان يتحدث ، أتاحت لكتاب القصة الخرافية أن يصف الوضع الاجتماعي للإنسان ، وأن يقدم عبراً لجميع الناس ، وأن يهذب الأخلاق ، وأن يسلك مسلك عالم الأخلاق .

وقد ترجمت قصص بيدبا في القرن الثالث عشر إلى اللغة الأسبانية من أجل الفونس الحكيم ، ملك قشتالة وليون . وعند ما ترجمت فيما بعد إلى أربعين لغة ، أصبحت تنتمي إلى الأدب العالمي . وفي القرن السابع عشر ، أتم الترجمة الفرنسية عن ترجمة فارسية لافونتين (La Fontaine) ولا تزال قصص بيدبا مع قصص ألف ليلة وليلة أعظم كتابين خياليين وأكثرهما انتشاراً في أرجاء العالم .

ثم ظهر بعد ذلك بقليل كتاب آخر روح كل الترويح عن أهل بغداد ، وهو ديوان يحوى خمسين قصة أو مقامة ، ومن هنا كان اسم المؤلف : « المقامات » التي كتبها أبو محمد الحريري (١٠٥٥ / ١١٣٢) رئيس ديوان الرسائل . وهو يقص مغامرات متسول يسمى « أبا زيد السروجي » وهو شخصية تجيد الحديث ، وتمثل تمثيلاً رائعاً منظرآ معيناً من الروح العربية : إنها روح ، تطنب في الحديث ، وتجيد الحيل الكثيرة ، وتخترع جميع الوسائل للتخلص من المآزق وهي روح داهية ، ولهذا ، فإننا نقدر لهذه

الروح كل شيء ، فلقد منحها الخيال الخلاق والأسلوب الرصين مقدرة على تصوير أشخاص مخدوعين وضحايا ، ألم تملك هذه الروح فن تقييم الفروق الدقيقة في اللغة العربية ودقائقها بمهارة وبجاسة سحرية تثيران الإعجاب ، فالسمع والصور البلاغية ، وبقية الأدوات الفنية سهل عليها تحقيق غايتها .

لم يكن للقصة الطويلة وجود عند الشعوب العربية ، ولم تهتد هذه الشعوب إلى عقدة القصة الطويلة المعقدة . وكان الشرقيون يحبون القصص القصيرة ، وكانوا يستمعون إليها مؤثرين عدم قراءتها — مؤملين في شيء من السذاجة أن تنتهي إلى نهاية سعيدة وسريعة لكن ، خاصة القصة الطويلة هي أن تؤخر النهاية وأن تكشف عن العقدة . وعلى كل حال ، لا ينطوي الأدب الشرقي على حوادث فاجعة ، إنه صور من أشعار أو من قصص مملوطة .

الشعر :

يشغل الشعر من جهة أخرى مكانة كبيرة في الأدب العربي ، فلن تشاهد في الشعر الأوربي ما تشاهد في الشعر العربي ، من شعراء تغنى بمآثر الأبطال ، ولا مباريات من قصائد صغيرة تنتهي ببيت من التهمك ، فكان الإنشاد الشعري تسلية اجتماعية . وأمكن القول عن النثر إنه « حق عند ما يسير ، يرقص » لكن الشعر رياضة روحية والشعر وحده — في نظر المتصوفة — هو الذي يستطيع أن يستحضر الأفكار السرمدية ، وأن يردد صداها بقوة يظل بها المستمع الشرقي مأخوذاً بنوع من الجذب قد يكون قاتلاً أحياناً . وإذا سلمنا بأن هناك رابطة ما بين الميتافيزيقيا والشعر ، فربما لم يعترف أبداً بهذه الحقيقة إلا في الشعر الإسلامي .

وقد اتجه الشعر بتأثير شعراء الفرس إلى التجميل بالملاحاة الفارسية والتحدث بلغة القصور . ومن ثم ، أصبح أكثر رقة ، وأكثر نفاسة ، وأكثر تكلفاً ، وهو يعرض في ظل الصورة الشاعرية الملامح المتعددة للقطر الفارسي ، حكمته ، وأزهاره ، ووطنيته ، وفلسفته ، وفجوره ، وتقواه ، ويشكل أخيراً الحب ، نغنى — الحب الخالد — من هذا الشعر الموضوع الرئيسي . ونفس كلمة « أدب » التي تعني الفنون الأدبية ، كان

يستخدمها الشعراء والفلاسفة لنعني في آن واحد علم الأخلاق وأدب السلوك في الحب
لقد أولع شعراء الإسلام بالتغني بمفاتن المرأة ، فشبهوا أريج شعرها بالمطر ، وجمال
عينيهما بالجواهر ، وظلم^(١) شفيتها بالفاكهة ، وبياض أطرافها بالمسجد .

ولذا ، كانت موضوعات الدروس في الحب أثناء العصر الوسيط الأوروبي تتخذ
مادتها مما كان يجري في صحراء الجزيرة العربية وفي الشرق ، ثم في مدن المغرب الإسلامي
بعد ذلك .

كان العرب مثل كثيرين غيرهم من الذين عاشوا قبل اختراع الطباعة ، موهوبين
بحاسة سمعية ممتازة . وكانوا ينتشون من هذه الأشعار الموزونة التي كانوا يحفظونها
أو ينشدونها بصوت عال . وسرعان ما اتخذ النثر العربي ونثر الوعاظ ، والخطباء
والقصاصين صورة سجع غير موزون بتأثير اللغة ونغمها الذي يأتي عرضاً . وكان
الشعراء يبالغون أيضاً في هذا الميل الفطري وكانوا يتنافسون بحذق ومهارة في خلق
فواصل وقواف معقدة ، وكان كثير منهم يزنون التفعيلة ونهاية البيت في وقت واحد .
وكثيراً مدهش الغريون لوزن الشعر العربي .

والخلاصة . أن أرجح الأقوال تذهب إلى أنه إذا رجعنا إلى نشأة البوادر الشعرية
الأولى ، رأينا مصدرها الحركة الإيقاعية لسير الجمل ذى السنام الواحد ، والجمل ذى
السنامين ، وهما رفقاء أمناء لطريق البدوى الذي أوقع الأغاني الأولى الشعرية .

ولكى يخفف حزنه ووحدته في أثناء رحلته التي تمتد أياماً طويلة عبر الصحراء ،
كان البدوى المنفرد يحدو بأغنيات موقفة على خطوات راحلته . وأقدم الأغاني التي نجدها
في الألحان الموسيقية العربية هي « الحداء » أو أغنية الجمل . ولم يكن « الحداء »
شيئاً آخر غير لحن موسيقى ، كان البدوى يسرع به أو يبطئ بحسب سير الجمل الذي
تشتد أو تقل سرعته ، ومن هنا ، — وبحسب قول عباس محمود العقاد — أنشء
الوزن الأول للشعر العربي « الرجز » الذي هو أبسط وأسهل أوزان الشعر جميعها .

فلنسمع مثلاً هذا البيت من الشعر الذى كان النبی علیه المصلوات لا یمل تردیده فی إحدى غزواته :

« أنا النبی لا کذب

أنا ابن عبد المطلب »

وكان المعتقد أن هذا البيت من الشعر نظم عن طریق مسير الجمل ذی السنامین ، والحق أن النبی (صلى الله علیه وسلم) كان یمتطی وقتئذ نوعاً من الإبل سریع العدو . طی نقیض هذا البيت الذی ينبعث من إحساس بإيقاع بطيء :

ما للجمال مشیهـا وئیداً أجندلا یحملن أم حدیداً

ویشیر هذا اللحن الموزون—مع هذا التوافق المائل للإيقاع إلى الجمل ذی السنامین اللاهث وذی الرقبة المشرتبة ، الذی یتابع بیطاء مسیره المنقل عبر الصحارى .

وقد تطورت موسیقی الشعر شيئاً فشيئاً ، وتحسن رويداً رويداً نغم وزن الشعر ، حتى آذن هذا عمود « القصيدة » . وكانت هذه القصيدة الموقعة أكثر ملاءمة للأذن ، كما أنها كانت تمثل فی الحقيقة شعر الشعراء الرحل ، ولم تلبث أن حلت محل الرجز ، « بین بدو الصحراء أو عند الشعراء الذین كانوا یفتخرون باقتناء عمود الشعر . »

وهذا هو الریاضی والموسیقی الخلیل ابن أحمد الذی وضع علم العروض فی الشعر العربی فی نهاية القرن الثامن المیلادی . فكان من الضروري منذ ذلك الوقت السکف عن التغنی بالبيت من الشعر ، وأن یمطی وزناً أكثر دقة .

هذا هو أصل نظم الشعر العربی وتطوره ولكن ، بیت الشعر الآن لم یعد خاضعاً لأی التزام موسیقی ، لهذا وجد الشعر نفسه متحرراً كما استطاع الإفادة من الصور الشعرية المتشکرة ، ومن الممكن أن نلتحق هذا الانتاج الشعری الضخم الذی ظل زمناً طويلاً فن العرب الذی لا شبیه له بتقسیمه بحسب العصر وفقاً لفنون القول فيه ، فقبل الإسلام ، كان الشعر یتغنی بآثر القبائل الأسطورية ، وأثناء القرن الأول الهجری ، وحتى نهاية الأسرة الأموية ، وفی منتصف القرن الثامن ، ظل موضوعه المفضل الحرب ،

ولكن يضاف إليه العاطفة الدينية . وفي نهاية مرحلة الفتوح ، سارت العاطفة في موكب ازدهار الشعر . وفي عصر العباسيين العظام الذي امتد حتى القرن الحادى عشر ، تميز الأدب العربى بأنتاج غزير تفوق فى جميع الفروع .

صدر الاسلام والأمويون « من القرن السادس إلى القرن الثامن »

نستطيع أن نستهل هذه المرحلة بعنتر بن شداد ، وفى قول آخر « عنتر » الشاعر الفارس الذى أوحى بالقصة الشهيرة فى الفروسية ، القصة التى كانت تحمل اسمه . وخاتمة هذا اللون من الشعر مؤثرة وعظيمة التصوير ، ويستهل البطل الأنشودة الجنائزية التى راحت تسبق منيته :

« فهو الرب القادر القاهر الذى حكم على عباده بما أمضاه فلا اعتراض عليه فيما قضاه ، وقد فرغت الليالى والأيام ، وانطوت كأنها أضغاث أحلام ، ولوعاش الإنسان ألف عام ، فلا بد أن يشرب كأس الحمام . »

وتصوير النهاية مملوء بصور مؤثرة فى النفس . فعندما يصاب البطل بإصابة قاتلة من سهم مسموم ، ويطارده العدو ، يتوقف عند مدخل مضيق ، على حين أن جنوده ورفاقه يتقهقرون بانتظام ، وينتظر عنتره شروق الشمس والموت وهو مستند على رمح المرتكز فى الأرض ، ومنتصب على جواده . ويموت ، ولكن أمام هذه الجثة التى تظل منتصبه يهرب العدو .

وعاشت الحنساء وهى أشهر الشاعر العربيات فى نهاية القرن السادس ، وقد شهرت بالأشعار التى وقفها على أخويها صخر ومعاوية اللذين قضيا نحبهما فى أثناء القتال ، والحنساء وهى شاعرة صدر الإسلام هى المعبرة عن الشعر العربى فى عصر الجاهلية .

والشاعر الإمام على بن أبى طالب ، هو ابن عم النبى وصهره والخليفة الرابع . وعندما نهل هذا الامام من تعاليم محمد (صلم) روى عنه عدد من الحكم الأخلاقية الممتازة بالسمو جمعها الشريف الرضى (٣٥٩ — ٣٦٩) .

« يموت من مات منا وليس بميت ، ويلى من بلى منا وليس ببال . »

ويروى أيضاً عن الامام على « هذا الحديث القدسي » ...

من عادى لي ولياً ، فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته .

كان عبد الحميد (المتوفى سنة ٧٥٠) كاتباً لآخر خلفاء بني أمية مشهوراً بصفاء أسلوبه ونزاهة خلقه . وكان على النقيض من زملائه الذين تغنوا بدميح السلوك . فقد أشاد هو بمجد الكتاب والشعراء ورجال الآداب ، وكذلك يبرز شخصيتهم في سلم المراتب الاجتماعية .

« . . . فجلسكم معشر الكتاب في أشرف الجهات ، أهل الأدب والمروءات ، والعلم والرزانة . . . بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلدانهم . . . »

عهد العباسيين « من القرن الثامن إلى القرن العاشر »

يجد ربنا أولاً أن نذكر من بين الشعراء الكثرين الذين ذاعت شهرتهم في العصر العباسي ، أبا نواس الذي ولد في مارس سنة ٧٤٧ ومات حوالي سنة ٨١٥ . وأصبح نديم هارون الرشيد الذي كان يخالفه مع ذلك لفرط مجونه . هذا الشاعر الأصيل الذي وصفه وصفاً جيداً « سي قدور بن غبريط » ، اعتاد الاعتذار عن شهواته وفجوره . المحبوب بسبب « نعمة ذكائه الرائعة » .

كان أبو نواس يحب الحياة ، والنبذ ، والنساء ، وأشعاره التي ينظمها . وكان يكرم أحياناً ويغضب عليه أحياناً . وغالباً ما كان يدفع به في السجن ، مثله في ذلك مثل الطاغوت الذي يعبد عندما يأتي المساء . ويروى أن أبا نواس أنهى أيامه بالتقوى . وكان يذرع الشوارع فريسة للعزن والقرآن تحت إبطه ، ومسبحة في يده ، على حين كان شعب بغداد يتغنى في مفارق الطرق بقصائده في تمجيد النبيذ والإثم .

يارب منزل خمار أظفت به والليل حلتته كالقمار -وداء
فقام ذو وفرة من بطن مضجعة يميل من سكره والعين وسناء
فقال : من أنت في رفق ، فقلت له بعض الكرام ولي في النعت أسماء
وقلت إني نحت الخمر أخطبها قال الدراهم ، هل للمهر إبطاء
لما تبين أني غير ذي بخل وليس لي شغل عنها وإمضاء
أنى بها قهوة كالمسك صافية كدمعة منحتها الخد مرهاء (١)
مازال تاجرها يسقى وأشربها وعندنا كاعب ييضاء حسناء

وكان لأبي نواس سواء أ كان مغتما أم صاحباً ردود بدهية سريعة تجاه هؤلاء الذين
كانوا يشمخون بأنوفهم لتبعرهم في العلم :

فقل لمن يدعى في العلم فلسفة

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

كان سعيد بن جودي في سنة ٨٩٧ - وهو ابن لوظف كبير في قرطبة - المثل
الأعلى للمحب الشرقي العاشق المشوق ، بل الذي لم يرو من الحب غلته أبداً ، وقد عاش
حائراً وهو المحارب والشاعر والرحالة - أيؤثر الحب أم الحرب .. ؟ ولما كان حساساً
لأقل صلة بالمرأة فقد مر بسلسلة من العشق المتوله الزائد ، الذي كان كل واحد يتلبأ
بدوامه وقتاً طويلاً . وكان أكثر شجره سموا الشعر الذي ألفه لجيخان التي لم يكن
قد رأى منها غير يد من سوسن .

وإنه ليعترف عن إخلاص بهذا البحث الدائم وبهذا الركض العنيف وراء المجهول :

جريت جرى جموح في الصبا طلق (٢)

وما خرجت لصرف الدهر في ملق

(١) مرهاء = مرهت العين خلت من الكحل أو فسدت لتركه أو ابيضت
حاليقها .

(٢) طلق = ذوحدة . (المترجم)

ولا انثيت لداعى الموت يوم وغى

كما انثيت وحبل الحب فى عنقى

وكان لابد لثل هذا الطريق الحماسى أن يجلب عليه الشؤم وكان رفقاًؤه فى الحرب
ينقمون منه أحياناً سلطانة الفاتن على نساءهم . وفى ذات يوم ، فاجأه جندى وقتله .

اشتهر البحتري كأحد عظماء الشعراء فى العصر العباسى . وقد ولد فى سوريا بالقرب
من حلب وعاش فى بغداد فى موطن الخلفاء الذين كان يتغنى بسخائهم ومات فى
سنة ٨٩٧ .

كأنها حين لجت فى تدفقها

يد الخليفة لما سال واديهما

محفوفة برياض لانزال ترى

ريش الطواويس تحكيه ويحكىها

وابن الرومى الذى تغنى بالحب الذى لم تنطفىء ناره ، وعانى حزن المحبين ، مات زهاء
سنة ٨٩٥ وهو القائل :

أعانقها — والنفس بعد مشوقة إليها — وهل بعد العناق تدان ؟

وألثم فاها — كى تزول حرارتى فيشتد ما ألقى من الهيمان .

ومن بين الشعراء البارزين الذين اشتهروا فى ظل العصر العباسى الثانى يمكن أن
نذكر أيضاً أبا الفرج (٨٩٧ — ٩٦٥) الذى كانت لديه فكرة جمع المؤلفات
الرئيسية الشعرية المعروفة فى عصره فى عشرين مجلداً تشكّل « كتاب الأغاني » .

والحق أنه مهما يحرر المرء بسبب ثروة الشعر العربى وتنوعه ، فلن يتردد فى ذكر
اسمين فى هذا العصر بلغا المنزلة العالمية وهما المتنبي والمعرى .

كان المتنبي (٩١٥ — ٩٦٥) أحد كبار الشعراء فى الشعر الغنائى العربى ، وقد
تردد أثناء ذلك العصر — على الرغم من تواضع أصله — على بلاط الأمراء ، وبخاصة

بلاط سيف الدولة . ولم ينفك عن التغنى بكرم العطاء ومجد الأمراء ، لكنه كان يتغنى قبل هذا وذاك بنفسه .

إن أكن معجبا فعجب عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

أنا ترب الندى ورب القسوافي

وسهام العدى وغيظ الحسود

والمرى أغرب جميع الشعراء المسلمين ، ولد في سوريا في سنة ٩٧٣ ، وعلى الرغم من أنه كان فاقد البصر منذ طفولته ، فقد ارتحل كثيراً ، واستمع إلى أساتذة مشهورين وحفظ عن ظهر قلب كل ما كان يذله ، ثم أوى إلى قرينته بالقرب من حلب . وعاش فيها يائساً على عكس شعراء عصره لأنه كان يربأ بنفسه أن ينشد مديحاً يجده مذلاً . وقد نظم كثيراً من قصائد الهجاء لكن مؤلفه الرئيسى ظل رسالة الجنة أى « رسالة الغفران » التى تصف حوار الشعراء فى الجنة .

كان المرى ذا خلق كريم وعدوا لكل ألوان النفاق ، راحت شهرته تزداد مع الأيام ، وأقبل عليه تلاميذه من كل فج ، كما أقبلت عليه الثروة التى لم تغير شيئاً من بساطته ، وكان يعيش على خبز الشعير ، ويرتدى ملابس من صوف خشن . وفى السنة عشر ألف بيت التى تتضمنها اللزوميات يشن هجوماً على هذه القضايا الأساسية — الوجود ، والطبيعة الإلهية ، والدين ، والعقل . وهو شاك ، متشائم فى القضايا الدينية ، وديمقراطى تقدمى فى السياسة . وكان المرى على علم بنقد طبائع البشر بقلم لاذع ناقد . وهذا مثال للطريقة التى كان يسلكها فى شن هجومه على بعض العلماء المتأقين :

رويدك قد غررت وأنت حر

بصاحب حيلة يعظ النساء

محرم فيكم الصهباء صبحا

ويشربها على عمد مساء

ويأخذ على علماء الدين استغلالهم للدين :

طلب الحسائس وارتقى في منبر

يصف الحساب لأمة لينهلها

ويكون غير مصدق بقيامة

أمسى يمثل في النفوس ذهولها

وهو يسخر من الحجيج الذين « يذهبون إلى مكة لقذف الجمرات ويعبد الذين يقومون على إدارة الأمكنة المقدسة من الأشرار ، ولكنه يعجب من الطبيب الذي ينكر وجود الخالق بعد أن درس علم التشريح :

عجبي للطبيب يلحد في الخصالق من بعد درسه التشريحا

وكان الممرى لا تنقصه الدعاوة وهو صاحب روح تهكية :

رأيت سجايا الناس فيها تظالم

ولا ريب في عدل الذى خلق الظالم

وهو مقتنع أن شرور المجتمع تعزى إلى طبيعة الإنسان ، ومن هنا ذهب إلى أنه كان من الأفضل ألا يولد ، وأمر أن ينقش على قبره هذا البيت من الشعر اللاذع :

هذا جناه أبى على وما جنيت على أحد

وكان شكيا ساخرا ، يوازن غالبا بفولتير أو بونتسكيو ، ولكنه كان كذلك طيبا كريما مقبلا على مساعدة الإنسان « العارق في الدموع » الذى كان يثقله الألم .

لم يكن للممرى تلاميذ « على الرغم من أن مائة وثمانين شاعرا ماروا في جنازته ، وأن أربعة وثمانين عالما ألقوا مرأى عند قبره » . وهذا قد يفضى إلى الدليل على أن مذهب الشك لم يسيطر على عقول الشرقيين بل على النقيض من ذلك ، يقرر أنه أحدث بعد موته بقليل نهضة في العقيدة السلفية التى ربما تكون قد أثرت في أدب الأجيال التالية .

يشكل المتنبي والمعري ذروة الشعر العربي ، الذي أصبح بعدها أكثر تصنعاً وأشد ابتذالاً ، وأقل صدقاً . وفي ذلك الوقت ازدهر الشعر الملحمي في فارس مع الفردوسي . وأنشأ الفردوسي عشرة آلاف بيت من الشعر مجيد فيها أعمال الحرب والأبطال المشهورين ، والأساطير الشهيرة في إيران الشرقية ، وهذه الأبيات من الشعر تؤلف « الشاهنامه » أي كتاب الملوك .

ويحكى أن الفردوسي نجح ذات يوم في تقديم شعره إلى السلطان . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، وكان أربعمئة شاعر في خدمة محمود الغزنوي يقومون على رعايته بعين يقظة . وقد وكل إليه السلطان — وهو صاحب منعمة وفتنة بهذا الشاعر — كثيراً من الصناديق ذات الوثائق التاريخية لكي يستطيع أن يستكمل ملحمة العظيمة ووعد به بقيثار من الذهب لكل بيتين من الشعر يراجعهما ويصححهما . هذه اللقمة شجعت الشاعر على النظم حتى نجح حول سنة ١٠١٠ في إرسال ستمائة ألف من ثمانية لمخطوط جديد . وهنا تكمن أساليب حيلة رخيصة ، إذ تأمرت الحاشية ضده بعهارة دنيئة حرمت الفردوسي المسكين أن يتسلم غير دراهم من الفضة بدلا من الدنانير الذهبية التي كان قد وعد بها . وبعد عشر سنوات ، عند ما راجع السلطان نفسه ، أرسل إليه قافلة محملة بستين ألف دينار ذهباً تشبه في لونها طيف الشمس مشفوعة بخطاب اعتذار . لكن ذلك جاء متأخراً . فقد قابلت القافلة وهي في طريقها جنازة الشاعر .

كان الفردوسي قد كرس خمسة وثلاثين عاماً من حياته ، ليحكي تاريخ بلده في مائة وعشرين ألف بيت من الشعر أي ما يزيد على أبيات شعر الألياذة والأوديسية مجتمعتين ، والشاهنامه إحدى المؤلفات العظيمة في الأدب ، وهي قصة حياة يدهش المرء لما تحويه من صور ساحرة للنساء ، ومن مآس للحب الأبوي ، والبنوي ، ومن خيول مطهمة ، وشجاعة وانتصارات على الشياطين ، والأبالسة ، والسحرة والأتراك . ويستخلص هذا الكتاب الذي لا يجارى وحدته وحقيقته من بلده المحبوب المائل دائماً أمام عينيه غائباً أو حاضراً ، والذي يبقى حتى اليوم أيضاً ماثلاً في جميع الأذهان . وقد أطلق الفرس اسم رستم ، بطل الملحمة ، على أكثر من ثلثمائة قرية ، وظل اسم الشاعر دائماً ذيوياً يحمل العالم كله في عام ١٩٣٤ ، أن يحتفل بذكرى عيد ميلاده الألفي . وأجاب الأتراك خصومهم الفرس على كتاب « الشاهنامه » في القرن الحادي عشر بكتاب

قوتاد^(١) غوييليك للشاعر أرسلان خاص حاجب الذي أشاد بمجد قبائل الهون والأتراك فيما قبل الإسلام في أثناء قتالهم القديم مع أمراء إيران المنتهين إلى شعب الاسكيديين . وهذا الشعر شعر ملحني مطول جداً . يستعيد برحابة أشعار الهند ، واليونان ، وأوروبا الحديثة .

الكتاب والكتب :

كان الأدب في الإسلام يؤلف بخاصة ليشرح ذوق الطبقة الارستقراطية . إنه أدب الثروة ، وأدب المثبت ، ولم تكن تعرف حينئذ حقوق التأليف ، وكان الكتاب والشعراء يعيشون تحت رعاية حماة الآداب والفنون من الأمراء . وكان سوادهم يكسبون بشق النفس قوت يومهم ، وكانوا ينسخون المخطوطات لحساب دور الكتب . وكان البعض الآخر يباشر مهنة نظم الشعر . وينتمون إلى مدرسة معينة . ولما كان الكتاب أو الشعراء ينتجون من علم العروض ومن القافية آثاراً وفيرة صالحة للنشر ، ولما كانوا يوجهون بحذر المديح أو النقد ، فقد كانوا على أي حال أدباء عصرهم ،

(١) « قوتاد غوييليك » هو أقدم مؤلف أدبي تركي كتب تحت تأثير الأدب الفارسي ، وهو من تأليف يوسف البالاساغوني ألفه سنة ٩٦٢ هـ [١٠٦٩ / ١٠٧٠] ، وهو مكتوب باسم السلطان طغفاج بوغراقارخان أبو علي حسن بن سليمان أرسلان قاراخان « وهو من الملوك القره خانيه الذين كان مركز سلطتهم في « كاشغر » في بلاد التركستان . وقد منح السلطان المؤلف رتبة « خاص حاجب » في قصره فصار يعرف باسم يوسف خاص حاجب ، ومعنى اسم الكتاب هو « العلم الذي يهب السعادة أو العلم الجدير بالسلطين » . وهذا المؤلف من ثلاثة فصول ويحتوي على أكثر من ٦٥٠٠ بيت مكتوبة على وزن « فعولن فعولن فعولن فعول » ويث الشاعر نصائحه وحكمه على لسان بعض الشخصيات الرمزية ، وهو من المؤلفات التي تعرف باسم « سياستنامه » ، ويوجد في دار الكتب المصرية نسخة خطية من النسخ الفريدة في العالم تحت رقم « تصوف تركي ١٦٨ » ، انظر فهرس المخطوطات التركية — دار الكتب المصرية . ص ١٩٤ — ٢٠٤ ، وانظر كوبرلي زاده محمد فؤاد : تورك أدبياتى تاريخى ، استانبول ١٩٢٦ . (المترجم)

وكانت تأليفهم تنتشر بسرعة جداً وفي أقطار بعيدة، مثلها في ذلك مثل تأليف الكتاب المعاصرين . وكان أكثر رجال الأدب مهارة يجردون مجالا لدى الأمراء الذين كانوا يرتبون معاشاً لعدد كبير منهم . وكان هؤلاء مهرة في فن الهجاء أو المديح ، أو التهكم ، وفي الاعتذار عن الفشل ، أو تعجيد الانتصار ، وكانوا حقاً مرهوبى الجانب بوصفهم هجائين مهولين ، لكن المهنة على الرغم من ذلك لم تكن تخلو من المتاعب إذ كانت تقتضيهم أن يكونوا بصراء بالنفوس وأكياساً حتى لا يعرضوا أنفسهم للأخطار ومع ذلك جمع بعضهم ثروة كبيرة وظفر بعضهم الآخر بشهرة عريضة . وكان القرنان العاشر والحادي عشر عصرهم الذهبي ، أما في ظل السلاطين التركمان الذين كانوا يثرون الرأي العام فقد خبت جذوة الشعر .

التاريخ :

كان العلماء مولعين منذ القرن الثامن بالدراسات التاريخية مع اهتمام معين بتعري الحقيقة . وكان محمد بن إسحاق سنة ٧٦٣ يكتب سيرة محمد (صلى الله عليه وسلم) في صورة تشكّل أقدم مؤلف في النثر (باستثناء القرآن) وصل إلينا . وألف بعض المؤرخين معاجم لتواريخ حياة بعض الشخصيات الهامة .

وحاول ابن قتيبة (٨٢٨ — ٨٩٠) أن يكتب في بداية القرن التاسع تاريخ العالم ، وبعده بقليل ، كان محمد بن النديم ينشر « فهرست العلوم » الذي يتناول إحصاء للعلوم مع ترجمة وجيزة ونقد واف لكل مؤلف .

والطبرى الذى ولد (٨٢٩ — ٩٢٤) في طبرستان ومات في بغداد كان أحد كبار المؤرخين في الإسلام . ولما كان الطبرى فارسى الأصل فقد انقطع أربعين عاماً لعمل تاريخ جامع عن حوليات الرسل والملوك منذ بدء الخليقة حتى سنة ٩١٣ . وما وجد من هذا الكتاب يشغل خمسة عشر جزءاً . ويقال إن الكتاب الأصيل أكبر من ذلك عشر مرات . وفي هذا الكتاب الذى ألف بنزاهة ، يفتح الطبرى طريقة تناول علم التاريخ . ولكي يثبت الحقائق التاريخية المنقولة نجده يعتمد في هذا على نواتر الروايات أو كتابات الشهود المعاصرين للحادث . غير أن الطبرى مثل بعض مؤرخى الزمن المعاصر ، لم يكلف نفسه تنسيق الحقائق ، بل يقتصر على سردها ، ويشكل هذا (٧م — الحضارة)

الكتاب على الرغم من ذلك وعلى الرغم أيضاً من جفافه ، مصدراً عظيماً كوثيقة تاريخية .

كان المسعودى عربياً من بغداد ، وهو أعظم مؤرخ بعد الطبرى ، وهو رحالة كبير نشر موجزاً في ثلاثين مجلداً تقريباً ، ثم اختصره بعد ذلك في مجلد واحد وصل إلينا تحت عنوان « مروج الذهب ومعادن الجوهر » وقد درس المسعودى الجغرافيا وعلم الحياة ، والتاريخ ، والعادات ، والدين والعلوم في جميع البلاد من الصين إلى فرنسا . وعند ما أراد أن يجمع بعض الأفكار الفلسفية ، نشر « كتاب التنبيه والإشراف » قبل نهاية حياته بقليل . لكن هذا الموجز لأفكاره عن المعرفة والتاريخ والفلسفة ، لم يقابل بالرضا من المحافظين من أهل العلم . وقد مات في القاهرة سنة ٩٥٦ بعد عشر سنوات من المنفى .

كان هؤلاء المؤرخون دون شك أسى مقاماً من معاصريهم المسيحيين ولا يضير مؤلفاتهم ما قد يبدو فيها من نقص في التركيب أو اختلال في الترتيب . وربما بدا هذا للقارئ الذى لا يستطيع أن يستخلص الفلسفة من التاريخ ولا الدروس التى يتوقعها من تأليفهم .

دور الكتب ومحال الوراقة :

كانت مدينتا بلخ وسمرقند تعدّان قبل الفتح العربى بقرون عدّة مركزين مشهورين للثقافة الفكرية في إيران الشرقية . وكان الرهبان البوذيون في هذه المدن المقدسة يترجمون في لغة إيرانية حكمة الصين والهند . وترجمت في جامعة جنديسابور المؤسسة في القرن السادس كتب لبعض الفلاسفة الصينيين من القرن الثامن قبل الميلاد إلى لغة إيرانية وغربية . وكانت سمرقند عند ما احتلها العرب سنة ٧١٢ تملك مصانع للورق إلى دار للكتب الفاخرة .

لقد اختار الخليفة العباسى الأول أحد البرامكة ، وزيراً له ، وهذا البرمكى سليل أسرة قديمة كان من أسلافها منذ قرون الدلاى لاما ، أى كبير رهبان الدين البوذى . وقد عرف هؤلاء البرامكة كيف يرغبون الخلفاء وحاشيتهم في تذوق الدراسات والكتب ، وجعلوا من بغداد مركزاً علمياً قدر له أن يطغى على سمرقند بجمع الروائع

الأدبية الصينية والسنسكريتية والإيرانية من الشرق ، والمؤلفات السورية والبيزنطية من الغرب في وقت واحد . وقد أحرزت أول دار للكتب في الإسلام والتي أنشئت أمام « دار الحكمة » نجاحاً عظيماً يصوره أن اليعقوبي كان يحصى في سنة ٨٩١ أكثر من مائة من محال الوراقة في بغداد وقد أصبحت محال الوراقة هذه مراكز أدبية ومؤسسات للنسخ والخط وفقاً لذوق العصر .

ولم يقتصر إنشاء دور الكتب على اتخاذ معظم المساجد مقراً لها فحسب ، بل أخذت بعض المدن تشيد لهذه الدور أبنية رائعة . وكانت الموصل حوالي سنة ٩٥٠ تملك من قبل دار كتب لبلدتها حيث كان الطلبة يستطيعون فيها أن يتزودوا بالورق والكتب . ثم كانت النظامية المنشأة في سنة ١٠٦٤ في بغداد تتصرف في ميزانية تساوى المليون ونصف المليون من الفرنكات الذهبية مخصصة لشراء الكتب والمخطوطات . وفي هذا العصر ، لم يكن هنالك شخص ما يأخذ طريقه إلى الثراء دون أن يفكر في مساندة الآداب والفنون . وفي نطاق المنظمات الرسمية كانت دور الكتب الخاصة شبيهة إلى حد ما بالنادى الانجليزية اليوم ، وفي هذا الاتجاه كانت تتعدد — على غرار محال الوراقة — أمكنة تجمع وتسليه . وابتداء من القرن العاشر . أصبحت هذه الدور غنية إلى حد لا مثيل له : فكانت دار الكتب في النجف وهي مدينة صغيرة في العراق تملك أربعين ألف مجلد ، ودار الكتب لأبي الفداء وهو أمير كردي من حماه ، بها سبعون ألف مجلد ، ودار الكتب للسلطان المؤيد الرسولي في جنوب الجزيرة العربية بها اثنا عشر ألف ، ودار الكتب في المراغة وبها أربع مائة ألف . وكانت عشر قوائم ضرورية لتسجيل كتب دار الري . لكن أكمل الدور كانت دار العزيز بالله الفاطمي في القاهرة القديمة . وفي هذه الدار . كان هناك مليون — وست مائة مجلد موزعة بعناية مفهرسة ومنظمة ، منها ستة آلاف وخمسمائة في الرياضيات ، وعشرة آلاف في الفلسفة . . الخ ، أما من جهة دار كتب بخاري . فابن سينا يعلن أنه رأى فيها كتباً لا توجد في أي مكان آخر .

وقد يكون من الممل أن نعدد المكتبات الخاصة . وبخاصة أن تعداد رجال الفكر يبلغ حوالي ثلث مجموع السكان . وكان من أسلوب العصر عند الأغنياء امتلاك مجموعة طيبة من الكتب النادرة . نذكر مثلاً لهذا ، الطبيب الذي كان لزاماً عليه أن يرفض دعوة سلطان بخاري بالمقام في بلاطه ، ذلك بأنه كان في حاجة إلى أربع مائة جمل

لنقل مكتبته التي كانت تمثل تقريباً مائة ألف كيلوجرام من الكتب والمخطوطات . وقد ترك الواقدي عند موته ستمائة صندوق من المؤلفات الثقيلة جسداً من كل نوع يحتاج إلى رجلين قويين لحمل كل صندوق منها ، وجمعة غني آخر صاحب مكتبة ضخمة هو صاحب بن عباد الذي كان يملك أثناء القرن العاشر كتباً أكثر مما كان يوجد منها في جميع دور الكتب الأوروبية مجتمعة .

وخلاصة القول أن ما يشاهده المرء من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر لم يكن له مثيل قبل ذلك . ففي كل مكان كلف لاحد له بالكتب . وآلاف المساجد تهتز بفصاحة العلماء ، ومائة بلاط رائع تدوي عبارات شعرية أو فلسفية ، وطرقات غاصة بعلماء الجغرافيا ، وعلماء التاريخ ، وعلماء الدين للبحث عن المعرفة . وهذه أهم يقظة فكرية في التاريخ الإسلامي .

مكتبة الاسكندرية :

قبل أن تترك هذه الدراسة المتعلقة بدور الكتب . نرى من الحق علينا أن نقف موقف العدل من أسطورة يصعب نقضها فقد أخذ على عمرو أنه هدم مكتبة الاسكندرية بناء على أمر الخليفة عمر . وقد كانت هذه المكتبة التي أنشأها بطليموس سوتير ، تحتوي مؤلفات ايجيولوس^(١) وسوفوكليس^(٢) ، وتيتوس^(٣) ليفيوس ، وتاسيتوس^(٤) ، ومؤلفات أخرى أيضاً وصلت إلى حال يرثى لها كل الرثاء ، وكانت هذه المكتبة تحتوي

(١) شاعر درامي ولد في اليوسيس وعاش من عام ٥٢٥ إلى ٤٥٦ ق م يعد المؤلف الحقيقي للدراما اليونانية . (المترجم)

(٢) شاعر درامي ولد في كولون ، توفي في عام ٤٩٥ ق م ، يتصف أسلوبه في الدراما بالبساطة وعدم التصنع . (المترجم)

(٣) مؤرخ لاتيني ولد في بادوا عام ٥٩ ق م ، كتب التاريخ الروماني من بدايته حتى عام ٩ ق م . (المترجم)

(٤) مؤرخ لاتيني ولد في روما نحو (٥٥ — ١٢٠) ، مؤلف الحوليات وأخلاق الجرمانيين ، ومجاورة الخطباء ، وهو صاحب شخصية إنسانية وفنانة . (المترجم)

كذلك نصوصاً وميزات لبعض الفلاسفة ، لم يبق منها إلا مقتطفات كما كانت تحتوى
آلآفا من المجلدات ، فى التاريخ والعلوم ، والأدب ، والفلسفة الإغريقية ، والمصرية
والرومانية . ويعد اختفاء مثل هذه الثروة مؤساة من أكبر المآسى فى تاريخ الإنسانية .

ويحكى عالم مسلم هو عبد اللطيف البغدادي (١١٦٢ — ١٢٣١) أول بيان عن
هذا التدمير الذى لا يمكن إصلاحه . وقد أثبت هذا البيان أبو الفرج ، وهو يهودى
متنصر من سوريا يطلق عليه ابن العبري (١٢٢٦ — ١٢٨٦) . تقول الرواية إن
عالماً نحويّاً من الإسكندرية طلب مخطوطات المكتبة من عمرو بن العاص الذى رجع
إلى عمر بن الخطاب فى ذلك الشأن فأجابه : « إن كان فيها ما يوافق كتاب الله ، ففى
كتاب الله غنى ، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله ، فلسنا فى حاجة إليها » وعند ما
تخلص عمرو من تبعاته ؛ وزع هذه المجموعة الثمينة من المؤلفات بين حمامات المدينة لتشعل
مواقدها لمدة ستة شهور .

وحيال هذا الاتهام الخطير ، يجدر بنا أن نلاحظ أن أول دار للكتب كانت قد
أحرقها يوليوس قيصر فى سنة ٤٨ قبل الميلاد ، وأن المسيحيين دمروا أخرى فى عهد
البطريق تيوفيل سنة ٣٩٢ ، وأنه وقعت عدة معارك فيها بين سنة ٣٩٢ ، ٦٤٢ ، وهو
تاريخ التدمير المزعوم . ويجب أن نضيف أنه فى مائتين وخمسين سنة ، أمكن عدداً
معيناً من المؤلفات أن يمتحن نتيجة الإهمال ، وعدم العناية ، وأن خمسة قرون ونصف
قرن أخيراً مضت بين الحادث المفترض والبيان الأول الذى صور هذا الحادث ، على
حين أنه لم ينوه بهذا الحادث أى معاصر ، حتى ولا اوطوخيوس رئيس أساقفة الاسكندرية
هذا إلى أن مثل هذا المسلك لم يكن مألوفاً عن عمر الذى كان يمنع من تلقاء نفسه
نهب كثير من المدن ، كما قضى أيضاً على عادة مزمنة بإعلانه فى جرأة حرية العبادات .

المهارة :

عند ما مضى العرب فى الفتح ، كانوا لا يعرفون إلا فناً واحداً : هو الشعر .
وكانت التقاليد السامية قد صرفتهم عن فن التصوير وعن فن النحت إذ نظر إلى تصوير
الأمشكال الإنسانية أو الحيوانية على أنها ظاهرة لعبادة الأوثان ، والموسيقى على أنها

علامة للفساد . وقد فترت هذه المحرمات في بعض جوانبها مع الزمن . لكن الفن الإسلامي للمصور الأولى من الإسلام كان يقتصر على فن العمارة والزخرفة .

والتعقيق يقرر أنه لم يبق على وجه التدقيق من بغداد شيء ، فقد أتت الحروب وصروف الزمن على كل شيء . ففي الشرق الأدنى لم يبق من عهد الإسلام الأول إلا مبدئان فقط . جامع الأمويين^(١) في دمشق ، وقبة الصخرة^(٢) في أورشليم أيضاً من طراز بيزنطى وسورى حتى في زخرفتهما .

ومع هذا ، يصور جامع الأمويين تصويراً كافياً الطراز الذى انتشر به الفن المعمارى الإسلامى . وقد أقيم في سنة ٧٠٥ على القواعد القديمة لكنيسة مسيحية مهداة إلى القديس يوحنا ، والتي كانت قد حلت محل معبد جوبيتر . ولا نستطيع اليوم أن نتبين العناصر الفنية القديمة التي يحتويها هذان المبنيان القديمان . فقد بنيت المذبتان الجنوبيتان على أساس الكنيسة . والمذبة الشمالية يظهر فيها بوضوح ذلك النمط الإسلامى وقد استخدمت كنموذج لآثار أخرى أقيمت في افريقية وفي الأندلس على هذا الطراز نفسه . وفي شرق الامبراطورية ، اختار العرب الزخرفة القديمة الآشورية والبابلية . وبعد أن حلل المهندسون المعمارىون العرب الفن المعمارى الفارسى واستخلصوا عنصر القبة ، والسطح الداخلى للقبة من الفن القوطى ، ومن الزخرفة الخاصة بالأزهار ومن الزخرفة

(١) . . . وسمح لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد ، فلما شاهده التفت إلى رفاقه وقال لهم: « لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادى أن سلطان العرب سيزول عما قريب ، أما الآن وأنا أرى كيف يشيدون عمائرهم . فقد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحقاباً طوالاً . [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف وودبورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٥٩] . (المترجم)

(٢) يقول المقدسى : « فإذا بزغت عليها الشمس أشرقت القبة ، وتلاأت المنطقة ، ورأيت شيئاً عجيباً . وعلى الجملة لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرق مثل هذه القبة » . (المترجم)

الهندسية ، أنشئوا بفضل جميع هذه العناصر المنقحة والمتطورة تأليفه مبتكرة ومتنوعة ذات ثروة كبيرة في النقش ودقة لانهاية لها .

ولا شك أن هذا — على أية حال — يعد تمويضاً عن رسوم الأشكال الإنسانية والحيوانية ، مما دفع المتفنن المسلم إلى التنوع الفني في هذه الزخرفة . فقد بحث عنها أولاً في جميع الرسوم الهندسية المتكررة والمركبة في « تموجات » وفي نقوش بمنحنيات متداخلة ، وفي تشابكات ، وزخارف متداخلة ، وفي نجوم ، ولما مضى بعد ذلك إلى الرسوم الخاصة بالأزهار . صور أكاليل الأزهار والتمائل ، أو أزهار نبات الجبال ، أو أزهار أوراق اللوتس ، وأوراق شوكه اليهود أو أزهار أشجار النخيل ، ومزج الجميع في نقش عربي . وأضاف أخيراً إلى كل ذلك الكتابة العربية الممتدة أو العريضة ، والمزينة بتوقيعات الشكل وعلاماته . وامتد هذا الميل للنقش إلى جميع الأشكال الفنية الخاصة بصناعة الأواني الفخارية وكذلك إلى الأقمشة والسجاجيد . وعلى هذا النحو بالنسبة إلى المئذنة المقامة « كأصبع يشير إلى الله » تشهد بالوحدانية الإلهية . فقد تلمس المرء في النقش العربي دلالة روحانية ، وفي نفس الوقت ظاهرة تصوفية للمتفنن أو للصانع المسلم ، وفي الحقيقة لم يعثر المسلمون الذين لم يكن يعوزهم الخيال — حتى ذلك الحين — على رمز ديني . ويكفي أن صنعتهم المتزايدة في الرسوم عرفت تركيب الحجر والمرمر ، والخشب والمعدن ، والفسيقساء ، والخزف ، والفخار والزجاج لإعطاء منشآتهم وأثاثهم ومخطوطاتهم جمالا ذا شكل مجرد لم يسبق أبدا لأى فن أن عبر عنه .

وتسكاد العمارة الإسلامية أن تكون دينية صرفاً . وإنك لتجد روائع هذه العمارة في قصر الحمراء في أسبانيا ، إلى تاج محل في الهند ، بل لقد امتدت إلى جنوب فرنسا ، وفي صقلية . وقد يكون من الصعب أن نذكرها جميعاً ، ويجدر بنا مع ذلك أن ننوه بهذه الروائع بحسب ترتيبها التاريخي : قبة الصخرة في أورشليم ، والمسجد الأموي في دمشق ، ومسجد القيروان في القرنين السابع والثامن ، والمساجد العظيمة في قرطبة ، والزهراء في اشبيلية في القرن الثاني عشر ، وقصر الحمراء في غرناطة والمدارس العليا الإسلامية في فاس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ومساجد السلطان أحمد والسلطان سليمان في القسطنطينية والمسجد الكبير في أصبهان وتاج محل في أجراوها من القرنين السادس عشر ، ومن السابع عشر . وعلى الرغم من بعض الاختلافات

الناتجة عن مفاهيم إقليمية أو عامة ، فإن لجميع هذه الآثار مظهراً متجانساً تدين به إلى تقاليد الاسلام .

النهضة :

لما كان تصوير جسم الانسان والحيوان ، محرماً . فقد قصر فن النحت على الزخرفة . ومهما كانت المادة المستخدمة ، حجراً أم خشباً أم معدناً ، فإن المتفنيين المسلمين بلغوا دقة في التنفيذ تستحق أن نتحدث في إعجاب عنها كما نتحدث عن رسوم حقيقية تتجلى في أفاريزهم وألواحهم المزخرفة وتحفهم النادرة ، وكان الحجر يشذب ، وينقش ويمثل الملاط من الكس والرخام الذي ينحت في مجموعات ثروة متنوعة من الزخرفة . وكانت المنابر والمحاريب في المساجد وحتى النوافذ والأبواب لبعض المساكن مزينة بنقوش رقيقة محفورة في الخشب . وكانت المصاحف والأثاث والحلى توشى بنقوش من العاج ومن العظم . واختص بعض الصناع بصياغة الحديد والمعادن فصنعوا منها مصابيح ، وأباريق ، وزهريات ، وأقداح ، ومواقد ، وأبواب من البرونز والفلز ، والنحاس . وكان فن توشية الحديد والفولاذ يشتمل على تحليته بالذهب والفضة وحفر الرسوم المنقوشة في المعدن ، وقد شاعت هذه الصنعة في الحلى ومواد صناعة المجوهرات . وكانت أسلحة دمشق المصنوعة من الصلب المسمى المشعوز محلاة بالأصداغ التي كانت تشكل رسوماً أو آيات .

التصوير :

كان القرآن قد حرم النحت ، ووفقاً لتقليد قديم ، كان محمد (صلى الله عليه وسلم) قد أنكر كذلك الرسوم والتصوير . وربما كان متأثراً في ذلك بالتقليد القديم وبالأبدا الحرفي للقرآن . أو كان يظن أن المتفنيين كان يحاول ادعاء الربوبية بإعطاء صورة الأشياء حية . ولم تتوان الشريعة الإسلامية شعبة كانت أم سنية في الحفاظ على هذا التحريم المزدوج أن يدركه الفناء ، وقد ساند الشعب الشريعة إلى حد تشويه بعض أعمال فنية أو تدميرها أحياناً . ولسكن رأينا إلى جانب هذا أن بعض الفقهاء أتاحوا لفن التصوير أن يصور بعض الكائنات غير الحية ، ولم يعترض بعض الفقهاء الآخرين على وجود رسوم حية فوق أشياء ذات استعمال دنيوى . بل إن بعض الخلفاء

الورعين أذن بتصوير نقوش على حوائط قصورهم تمثل كنيسة ورهبانها . وذهب أيضاً المستعصم وهو آخر خليفة معزول على يد الأتراك السلجوقيين إلى ما هو أبعد ، ولم يتردد في زخرفة مساكنه بمساعدة رسوم مأخوذة من كتيبات فارسية ذات فن غزلى . بيد أن التصوير الإسلامى الذى تباطأ فى انتشاره ، والذى انكمش فى تعبيره والذى اكتفى بالاعتماد على كرم حماة الآداب أو الفنون لم ينتشر إلا بعد فترة طويلة ، وبعد أن آن أوان انطلاق الفن العظيم .

الزخرفة :

لقد عوضت لحسن الحظ التحف الإسلامية التى تعد من أجمل الآثار الفنية التقصير السالف . كما كان الإنتاج فى ذلك الفن وفيراً .

وقبل الإسلام ، كانت الكتب السماوية ، وهى كتب مقدسة ، تكتب بحروف وضيئة لىكى تذكرنا بالسما بطريفة مثلى . وكانت هذه الحروف من ذهب أو فضة منسوجة على رقوق ملونة قبل كل شىء باللازوردى والأرجوانى والزعفران ، وكانت أغلفة الكتب مزينة بالدرر والياواقيت ، والمزودة برسوم ذهبية وفضية تمثل الجنة والنار ، والبعث ، واليوم الآخر ، إلخ . . . ولقد عرف المتفنون فى الزخرفة وهم أساتذة فى تنوع الألوان والأصباغ فى أنفس المعادن كيف يعبرون عن لازوردية السماء المتلألئة بنجوم من الماس ، وعن الياقوت الأحمر الذى يمثله غروب الشمس ، وعن الياقوت البنفسجى للشفق ، أى أنهم عرفوا كيف يعبرون عن سر الشرق الحفى وسعره .

وفى عصر الإسلام الوسيط ، تابعت أيدي الفنانين المتحمسين هذه الجهود . فقد قلدوا منهم القدماء وطرائقهم فى الكتابة . وحل الشكل النسخى لحروف الهجاء العربية محل أشكال متنوعة لحروف الهجاء ، وخطوط قديمة ، وكانت حروف الكتابة فى حد ذاتها زخرفة . ولم توجد كتابة تجارياً فى رشاقتها وكما حمدنا لهذا الاتجاه فه الأصيل وجماله العميق ، فإننا نأسى لما آلت إليه الكتابة على يد مطبعة جوتنبرج .

وفى المصاحف ذات الكتابة النسخية التى وصلت إلينا من العصر الإسلامى الوسيط تعبر الزخرفة وحناس السطور الدقيقة وتناسق الألوان عن « الاتقان الهادى للجمال

المجرد ، وعن كثير من السمات التي تتعلق بفكر عاش في سلام . وكان مجرد نسخ الكتاب بعد عملا من أعمال التقوى .

كانت التعبيرات الزخرفية ، ورسوم الخطوط يتم وضعها في مصنع فخار ثم ترفع حول المداخل الفخمة للمساجد ومحاريبها . وكانت الرسوم تنسج كذلك على أقمشة زخرفية . لهذا استطاع بعض الصناع المتواضعين ، بل أى عامل نسيج مبتدىء ، رأى صانع فخار أن يبلغوا بالدأب والمهارة إلى ميدان المنافسة في الأعمال الفنية . ولكن ، أكان حقاً هدف كل صناعة أن تصبح فناً ؟ ولما كان المتفنون يجدون في إثر خيالهم ، وفي البحث عن الجمال فقد كانوا ينالون حظوة كبيرة ، وكان الصناع يجدون أنفسهم مبهجلين وتلك خاصية مميزة لهذه الحضارة التي كانت لا تفرق بين هؤلاء وأولئك والتي كان كل شيء فيها يسهم في تجميل الحياة .

الموسيقى :

كانت الموسيقى أيضاً في بادىء الأمر إغناً ، لكن شعوب آسيا كانت في هذا الميدان فيما قبل الإسلام ، قد تذوقت النظريات الصينية والطرائق الفنية الهندوكية عند ما غزاها العرب . وكانت الموسيقى القديمة جداً للاسكيديين المتوحشين تنتقل من الحالة الفولكلورية إلى الحالة العلمية ، وفي بلاط الساسانيين كان أساتذة مشهورون في الموسيقى يتألقون في الشرق كله أثناء العصر الوسيط .

سار العصر الكلاسيكي للموسيقى في أول الأمر بدون أثر للعرب وقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يخشى الفجور الذي يمكن أن ينتج عن رقصات النساء ، وكان يجهر بأن الموسيقى كانت دعوة من « مؤذن » الشيطان ، وكانت المذاهب الأربع التشريعية في الإسلام تزعم أنها تثير الشهوات ، لكن بعض الفقهاء أفق أنها لم تكن جريمة في حد ذاتها ، وكان بعض الظرفاء يدعون أنه إذا كان البيذ بمثابة الجسد ، فإن الموسيقى بمثابة الروح .

وصل إذن العرب إلى هذا المعنى ، لدرجة أن مؤرخاً مسئولاً استطاع أن يقول مؤكداً على وجه تام : « لقد حولت الثقافة الموسيقية في كل نواحيها على يد العرب التعرف على الفن في تاريخ البلدان الأخرى إلى شيء غير ذي موضوع » .

قد لا يجدر بنا أن تناقش هذا الحكم . فمن الصعوبة يمكن على أذن غربية أن تتذوق خصائص الموسيقى العربية . وتظل عبارتها الموسيقية ذات بساطة ريفية ، وذات رتابة حزينة موحمة ، وبالنسبة للرجل الشرقي ، فإن الموسيقى العربية تفتقر إلى الحساسية ، وتنقاد إلى ضجيج معقد ومنفر للأصوات .

بدأ العرب من السلم الصيني — الإيراني الموسيقى ، وأقاموا السلم الطبيعي ، وأنجزوا تقدمات عظيمة في فن العزف والآلات الموسيقية المتعددة : مثل الرباب ، والقيثارة ذات الأوتار الست ، والعود ، والقانون ، والبيندور ، والسنتور ، والمزمار ، والطبول التي تشد عند الحاجة بوساطة نقرات ، والدفوف ، والطبول التي منها الأطول والأضيق والطبول العادية ، والصنوج ، وهذه الآلات هي التي شكلت أخيراً القانون ، وهي أصل للمعزف : البيانو : والنماذج الأصلية للأرغن الحديث ، لكن إيثارهم كان ملحوظاً بالنسبة للعود الذي كان من الواضح أن العازفين عليه لا يجارون . وقد أدخل المسلمون كل هذه الآلات في شبه جزيرة إيبيرية وفي أوروبا الغربية . وكانت آلات أخرى مثل الدف ، ومزمار القرية ، والصفارة ، والبوق والفلاوت التي يجدها المرء منذ وقت طويل في أسبانيا من أصل عربي أيضاً .

ونحن مدينون إلى الفارابي (في القرن العاشر) بكتابه الشهير «الموسيقى الكبير» الذي أسقط نهائياً المفاهيم الخاطئة للمدرسة الفيثاغورية تجاه موسيقى الكواكب وتناسق الأجرام السماوية . وهو من أوائل الموسيقيين الذين قدموا التفسير المادي لظاهرة النغمة التي تأتي من اهتزاز الهواء والتي تزداد شدتها أو تقل بحسب طول الموجة . وأتاح له هذا التحقيق الاستقرائي أن يحدد القواعد الضرورية لتركيب آلات الموسيقى . والعرب أيضاً هم الذين أدخلوا فكرة الوزن في الموسيقى وهيأت نتيجة كل هذه الخطوات الفنية ارتقاء الموسيقى الشعبية في أسبانيا وفي البرتغال . وثبت هذا التقدم أخيراً بوساطة خلق تعليم الأغنية الذي أقامه لأول مرة في قرطبة المغني العربي الشهير زرياب الذي ندين له بالوتر الخامس للعود .

ولم تكن منزلة الموسيقيين في جملتها رفيعة ، ولم يقبل بعض الفقهاء شهادتهم أمام القضاء . حقا لقد كانت الموسيقى على غرار الرقص حرفة الأرقاء المدربين والمأجورين ، وكانت هذه الحرفة مشيرة للمعاطفة بقدر ما هي فنية وظلت حرفة دنيوية ، ولم يقرها

الدين الإسلامى . وقد أصلح مع ذلك الخلفاء العباسيون حال الموسيقيين من أتباعهم وأغدقوا على كبار المغنين فى عصرهم كثيراً من الهبات ، وأصبح بلاط هارون ملتحقاً بالمغنيين الموسيقيين .

شجع الخليفة هارون ، على الرغم مما كانت تقضى به مبادئه جلسه ومنزله مواهب أخيه غير الشقيق إبراهيم بن المهدي الذى وهب له صوت ذو قوة خارقة للعادة كان يمتد على مدى ثلاث طبقات . وارتأى مغن آخر شهير اسمه مخارق ، وهو عبد قديم ، أن يخصص مقعداً لهذا الفن بجانب كرسى العرش . ولكن إسحاق الموصلى كان أعظم موسيقى فى الإسلام وكان الخليفة المأمون يقول عنه : كان لا يغنى أبداً إلا وتذهب عنى وساوس المتزايدة من الشيطان » .

الحق أن الروح الإسلامية وحدها هى التى تتأثر بتلك الرقة السارية فى الموسيقى العربية . ويتحدث سعدى الشيرازى عن صبي فيقول : « كان يغنى نغماً مبكياً حتى إنه كان يقف أى عصفور عن طيرانه » .

(١١)

الزراعة — الصناعة — التجارة

الزراعة :

لم يلتفت إلى حال الزراعة وحاجتها إلى الإصلاح إلا قرابة القرن التاسع ، عندما وطد الخلفاء العباسيون النظام في الامبراطورية .

وقد كانت الأقاليم المترامية الأطراف وبخاصة تلك التي توجد على حافة بحر قزوين وأفغانستان الحاضرة ، قد مسنها الفتح العربي مسا خفيفاً ، واحتفظت بكيانها الاقطاعي دون تغيير محسوس وكان يسكن بلاد الشاطئ الغربي لنهر دجلة ومصر — فلاحون فقراء .

وعلى الرغم من أن حظ معظم الفلاحين المسلمين لم يكن مما يحسدون عليه ، فقد كان مع ذلك أسمى جداً من حظ أرقاء الأرض في العالم المسيحي في العصر الوسيط ، بل في العصور التالية ، ألم يكتب لابرويير La Bruyère في القرن السابع عشر : « يرى عبر القرى حيوانات اردوازية اللون افحتها الشمس ، هذه الحيوانات ، إنعسا هي بشر !! » وكان الخلفاء قبل ذلك بثمائنة عام يؤمنون حماية معقولة لحياة الفلاح وعمله .

وقد تحسن الموقف في مجموعه أيضا في القرن العاشر ، وفي جميع أنحاء الامبراطورية عدا مصر ، استطاع الفلاح أن يرتع أيضا في بمبوحة حقيقية ، وتحرر من وصاية الألقباء وأصبح المالك الوحيد لأمواله ومنازله ، بل ربما وصل إلى الثراء أحيانا ، على حين كانت العبودية محتوما عليها أن تبقى في روسيا المتاخمة ولم تلغ منها إلا بعد ذلك بألف سنة أي في القرن التاسع عشر .

ولا تخلو أية دراسة لحالة الزراعة في عصر أوج الإسلام من الفائدة ، ومن المحقق أن الجو وأسلوب الحياة تنسوعا بعض الشيء من طرف إلى طرف في هذه

الأمبراطورية الشاسعة التي امتدت من تركستان إلى المغرب . وقد أوضح علم (المناخ) أن أجناس الدواب كانت تتأقلم في أقطار معينة أكثر منها في أقطار أخرى ، ومن ثم ، استخدمت الخيل بمنطقة ما وراء النهر وشمالي إيران في حراثة الأرض والنقل بالعربات والجل بالنسبة للقطر العربي ، والجاموس ، بالنسبة للعراق وخوزستان المجاورة والمجول والبقر في آسيا الصغرى . وانتشرت الآلات الزراعية انتشارا واسعا ، فوجد في كل مكان تقريبا المحراث الموروث عن السلف المصنوع من سلاح حديدي وقلاب كان الفلاح يحمله أحيانا بنفسه جنبا إلى جنب مع حماره . عندما كان لا يملك خيرا منه ، وكان جميع الفلاحين يعرفون فن إعداد الأرض وحرثها كما كانوا يجيدون اتقان استخدام الأسمدة التي كانوا على علم بخصائصها ، ومقاومة الحشائش الطفيلية ، والحشرات الضارة بالمحصولات ، وكان المزارع العربي يستخدم في هذه المقاومة وسائل مجدية ومدروسة . كما كان يستخدم أحيانا طرائق وتعاوين ليست سوى بقايا خرافات قديمة . ويروي المازري أنه لكي نخلص أرضا موبوءة بالدنقة ^(١) ، كان يكفي مثلا أن تطوف حول هذه الأرض في جميع الاتجاهات شاة عذراء عارية القدمين والجسم مسترسلة الشعر ، تحتضن بين ذراعيها ديكاً أبيض تطوف حول هذه الأرض في كل اتجاه ، ولم يذكر مرة تفعل هذا ، لكنه كان يزعم أن النبات الضار سرعان ما يذبل ويموت في نفس اليوم ، ويبدؤ بذور البطيخ في جمجمة بشرية مدفونة في الأرض ، كان يحصل المرء على منتجات تقوى من ذكاء الذين يأكلونها . وعلى العكس من ذلك إذا استخدم رأس حمار فان الظلمات تنتشر في «قلوبهم» ومن العادات الحمودة أنهم كانوا يحرمون إطعام دود القز على أوراق شجر التوت الذي في بيت الجار ، حتى لا يصاب باللعنة . وإنها لنصيحة حكيمة وأمينة .

البدواة :

يوجد البدو ، أعداء الزراعة بالفطرة ، في كل مكان من البلاد العربية فقد تميزت دائما المناطق الصحراوية نظرا لجفافها بالبدواة التي يكون أصحابها في حاجة مستمرة إلى الاتجاع ، وفي البحث الدائب عن مراعي تستطيع قطعان الماشية أن تنغذى فيها على

(١) الدنقة = آفة تصيب الحنطة

كلاً ندر وجوده . وبدفع البدو ، والبربر في إفريقية ، وأعراب أسبانيا والبرتغال محاربين ورعاة ، يدفعون أمامهم وبطريقة لاتعرف الكلل ، قطعانا من الخراف قصيرة القامة وقطعانا من الأبل المهرية (١) وهي أكثر مقاومة للحرارة من إبل التخوم الآسيوية .

وفي الشرفين الأدنى والأوسط تكون السهوب غنية بمستنقعات من الملح في الهضبة الوسطى في إيران تسمى «قافير» وبصحراء رملية في كراكوم ، وبناحية نهر أموداريا أى نهر الاوكسوس القديم . ومن ثم ، تترك القطعان الأراضى الحارة في الصيف لتقيم في مراعى الجبال التى ترتفع غالبا إلى ثلاثة آلاف من الأمتار فوق سطح البحر . وتنوع الحيوانات وفقا للمناطق . ففي إيران توجد الآن قطعان من الماعز والخراف ، وفي الوادى المنخفض من نهر أموداريا وبحر قزوين قطعان من المعجول ، وفي تركستان الخيول . ويقوم جميع الرعاة المتجمعين تحت خيام سود من صوف الماعز ويميشون على الألبان واللحوم من قطعانهم ، والملاك الأكثر يسارا هم ملاك الخراف السود ذات الصوف المجعد فى إقليم بامير وبحر قزوين التى تعطى الجلود الثمينة لاستراخان ، والى تقدر بـشمن غال منذ قرون .

الرى :

كان الرى ولا يزال أمرا جوهريا فى الشرق كله ، ولا تزال آثار من شبكة طرق الرى ماثلة منذ آلاف السنين . وفى أحواض الأنهار الكبيرة ، حفرت قنوات لصرف المياه إلى مكان بعيد ، وكانت بلاد ما بين النهرين ، وكلديا وسجستان تخطط بهذه القنوات . وكانت تستغل أحيانا مجار تحت الأرض كما تجاب المياه من الجبال إلى مئات كثيرة من الكيلو مترات ، كما لوحظ أيضا وجود آبار للتهوية وللتنظيف كانت مياهها تفرق دائما سهبا معزولة اليوم فى يزيد وفى كرمان . ولكن ، لا يكفى أن يكون ثمة ماء يجرى دون أن يروى الأرض عندما يكون الانحدار قويا جدا ، وليس فى الإمكان دائما

(١) الإبل المهرية المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قيل إنها لا يعدل بها شيء فى سرعة جريها .
(المترجم)

تهيئة مدرجات أرضية ، ولهذا ، فقد حفر الفلاحون قنوات لا حصر لها ذات انحدار قائم على دراسة جيدة وزودوها بسدود صغيرة . ولم يبق إلا استخدام الماء الغزير في الوقت الملائم للزراعة عن روية وبعد بذل كثير من الجهود . ولم تضع الفائدة الأصلية المرى من العرب الذين أقاموا في كل إقليم أو مقاطعة مديراً للمرى . ولما تابعوا نفس الهدف في توزيع المياه . فقد حتم عليهم في بعض المناطق أن يتخلصوا من الماء الراكد ، ورواسب الفيضانات الخفيفة أحياناً . ولهذا جففوا المستنقعات وعملوا على إزالتها . وشجع الخلفاء في صدر الدولة العباسية الجهود المبذولة لتصريف المياه ، ونجحوا في إعادة بناء القرى المدمرة والمزارع المخربة .

السنة الزراعية :

في الطرفين المتقابلين من الشرق ، كانت فيضانات نهر النيل ونهر السند تجدد السنوات المصرية والهندية ، وكانت هذه الفيضانات تطابق المنقلب الصيفي الذي كان كذلك بداية السنة في فارس — وكانت هذه البداية مناسبة لعيد مجيئ بنيران كبيرة توقد عند ما يأتي المساء .

وفي سبتمبر كانت تبدأ سنة الفلاحين المسلمين ، عند ما يبدأ الزيتون في النضج ، وعند ما ينضج الرمان والسفرجل وأشجار الفيراء . وكان الفلاحون يحصدون وقثد الأرز واللوبيا ، وكانوا يشرعون بعد ذلك في إقتلاع أشجار الحناء ، وفي تطعيم الكرم . وفي أكتوبر ، كانوا يبدأون حرث الأرض . وفي الوقت نفسه كانوا يغطون أشجار النارج ، وأشجار الموز ، وأشجار البرتقال لحمايتها من البرودة الوافدة . وكان نوفمبر الشهر الذي يذرون فيه الشعير ، والحنطة ، والكتان . وكان الخشخاش الأبيض يذر أثناء الشتاء ، في أمكنة مصنوعة بعناية من الرياح ومن البرد ، حتى إذا خفت حدة البرودة ، كانوا يشرعون في إعداد الأراضي المخصصة لزراعة القطن والكتان . ثم يشتغلون بتقليم أشجار اللوز والخروب ، وبعد ذلك يقطعون قصب السكر . وفي الربيع . كانوا يذرون الحناء ، والبادنجان ، والكتان وفي الوقت نفسه كانوا يعدون بذور الخضر ، ثم ينقطعون إلى أعمال تقطير الروائح وماء الورد . وفي غضون أيام الصيف الطويلة وفي نهاية شهر يونيو كانوا يجمعون البرقوق ، والتين ، والبطيخ . وكان موسم الحصاد ،

وجمع الجنبوب والبقول ، يأتي بعد موسم خصاد الدريس . وفي الخريف في أثناء اكتمال نضج البلح والعناب كانوا يحصدون الأرز والنيلة ، على حين كانت تبشر غصون الكروم المذهبة بقطفها .

زراعة الخضر في البرك :

أنتجت دائماً حدائق الشرق — باستثناء البطاطس والطماطم اللذين لم يكن العرب على علم بهما بعد — جميع أنواع الخضر بوفرة : كالكرات ، والكرفس ، والبصل بمختلف الألوان ، من أحمر وأبيض وأصفر وأخضر ، والخيار الذي كان يغمس بذره في ماء الورد ، أو يغرق بالخل ، والخيار المخلل ، والقرع والباذنجان ، ولم يهمل أى شيء فيه مرضاة لفن الطهو ، وإذا ماتصورنا التنوع إلى غير نهاية في النباتات العطرية ، فإنما ذلك لكي نذكر أن الشمر ، والبرقوقش ، والمرد ، والأنسون ، والنعناع ، والحبق الريحاني ، والكمون كانت تتزوج مع العنبر وشطة السودان كما ترضى أكثر الأذواق رقة ، وأكثر الرغبات إثارة للغريزة الجنسية .

ولم تكن زراعة البساتين سرّاً خافياً عن الشرقيين . وكانت أشجار النخيل المختلفة الأنواع ، وأشجار البلح ، وأشجار التوت ، وأشجار التين في حقول معتى بها ، إلا في مصر وفي إفريقية . وكان المزارعون الأكثر تطوراً يحاولون أن يؤقلوا فصائل جديدة مستوردة من البلاد النائية . وكانت الحديقة النباتية في تبريز بإيران مشهورة بجمعها لأكثر الفواكه نادرة في آسيا ، والصين ، والهند . وكانت زراعة الكروم قد غزت العالم الإسلامي من المغرب والبرتغال حتى القوقاز . وكانت بعض محصولات التبذ بخاصة ذائعة الشهرة وبخاصة نبيذ حمدان بيد أنه بقدر تنوع العنب ، كانت تتنوع الأنبذة من أنبذة خفيفة أو كثيفة ، حلوة أو حامضة صافية أو مسكرة ، تلائم جميع الأذواق . وقد كان زراع الكروم الشرقيون في الحقيقة منذ عصور الحضارة الفارسية الموعلة في القدم على دزاية بزراعة الكروم وفن تشذيبه وتطعيمه ، وتسميده كما هي العادة في الكروم المشهورة في العصر الحديث .

زرعت أشجار البرتقال والليمون في بلاد ما بين النهرين ، وفي فارس ، وفي كردستان ، وفي مزارع البصرة ، وفي خوزستان وفي القاهرة ، وفي بغداد وكانت (م — الحضارة)

زراعتها سهلة . وقد أتاح التطعيم الحصول على أنواع مختلفة منها ، وأصناف ذات خواص لذيذة . وابتدأ إعداد عصير الليمون منذ ذلك الحين . وكانت شجرة الزيتون على العكس منتشرة على شواطئ البحر المتوسط ، وفي الأندلس . وفي صقلية ، وفي سوريا ، وكان الليمون الهندي ، وقصب السكر ، منتشرآ في مصر وعلى شواطئ بحر قزوين . وأشجار نخيل البلح كانت تزرع بطريقة غريبة . كانوا يزرعونها يبدور يروونها بالماء كل يوم . وكانوا يعنون قبل بذر البذور بإضافة بعض الملح إلى الأسمدة وإلى الأرض . وكان تلقيحها بمارس صناعياً بهز بعض الأزهار من أسفل الشجرة المذكورة على أسفل الشجرة المؤنثة اللهم إلا إذا كان المرء يلقى بتؤدة هذه الأزهار إلى الطبيعة الأم التي: (١)

« . . . لكي تلقح الهواء على غرار شجرة نخيل من آسيا ما عليها إلا أن تقذف في الريح يذرتها المعطرة . . » .

كانت زراعة أشجار الموز تتطلب كثيراً من الحرارة والرطوبة . ولكي نجعل هذه الفاكهة أحلى مذاقاً ، كانت فساتلها تطلى بالعسل . وفي الحقيقة كان الشرقيون أغنياء بالتجارب والمعرفة والملاحظة وعلى دراية ببعض المشابهات ، والاختلافات التي تربط بين شجرة وأخرى ، كما أنهم كانوا يعرفون إخصاب بعض الثمار بمختلف الألوان من شجرة واحدة .

ويتناول بالتفصيل بحث نشر في اشبيلية في القرن الثاني عشر زراعة أكثر من خمسين شجرة فاكهة وبيان أمراضها المتنوعة مع وسائل علاجها .

الحبوب:

يذكر هيرودوت أن بلاد ما بين النهرين ، كانت موطن القمح ، بل إن هذا القطر كان كذلك غنياً بزراعة حبوب أخرى مثل الشعير بخاصة . وقد مورست زراعة الأرز في المناطق المجاورة لبحر قزوين ، وفي بلاد ما بين النهرين ، وفي العراق ، وفي عيلام وعلى الشاطئ الغربي من نهر دجلة . وكان الأرز ، فوق فائدته الغذائية ؛ يستفاد من قشه الذي كان يصنع منه حصر ، وقلنسوات ، وسلال ، وحقائب ومكانس .

الزراعة وتربية دود القز :

لم تكن توجد في الشرق أعمال مشرفة غير أعمال الفلاحة ولم تعد تربية الماشية ، ودراسة النمل ، وعاداته ، وتربية دودة القز بخافية على المزارعين الشرقيين وكان العسل منتزحاً جداً في فارس حتى إنه كان يتم التقايف به ، وكانت الدولة تقبله وفاء للضريبة . أما تربية دودة القز ، فقد بلغ من إتقانها أن أصبحت علماً حقيقياً . وكان يعرف من قبل انتقاء الشرائق وأشجار الثوت نفسها ، والرجوع إلى تنظيم محال تربية دود القز . وأصبح إنتاج الحرير وفيراً جداً في فارس حتى استطاع أن يواجه كل استهلاك أوروبا في العصر الوسيط .

النباتات المتعلقة بالصناعة :

القطن نبات هندي الأصل أدخل إلى إيران والعراق في بداية عصر الميلاد ؛ ثم زرعه المسلمون في سوريا ، ومصر ، وأسبانيا . وكان الكتان يزرع في دلتا النيل منذ العصور القديمة . لكن الإسلام نشر زراعته في القرن العاشر في خوزستان وفي جنوب فارس ووصل استغلاله بعد ذلك إلى الشمال وبحر قزوين . وكان هذا النبات يتطلب أرضاً رطبة وتربة جيدة ، ولا يكاد يصفر حتى يأخذوا في حصاده ، وبعد أن ينقع في الماء ، ويجف يستبعد القش بالدراس .

كان نبات النيلة يزرع في ابريل بعيداً عن الرياح الباردة ، وينقل إلى مكان آخر عند ما ينبت من الأرض . وكلما أخذ في النمو ، كان يلتف حول غابة مغروسة أسفل كل شجرة . وكانت القوة^(١) تذر في الهواء مثل القمح على أرض محروثة ومسمدة . وكانت تروى كل ثمانية أيام . ثم كانت تعطى بعد ذلك جذراً مشرباً بالحمر يقتلع بمجرد أن يصل إلى نمو معين . والحناء شجيرة تنمو بالماء مدة خمسة عشر عاماً تقريباً في مصر العليا وفي الحبشة . وقد نجح المسلمون في إدخالها بصعوبة إلى سوريا ، وجنوب فارس .

(١) القوة علي وزن القوة = عروق يصبغ بها (الترجيم)

لكنه تحول هناك إلى نبات ينزع كل عام ، وما يستخدم منه هو أوراقه المجففة في الظل .
ويزرع الزعفران بطريقة زراعة البصل نفسها . وكان البصل يزرع في مايو وكانت
هناك زهرة زرقاء ذات غصون سمراء مائلة إلى الصفرة تجمع في الخريف . وكان
الحشخاش ذو الأزهار الحمراء التي كان يستخرج منها الأفيون ، يئذر أثناء شهور الشتاء
ويروى مرتين كل أسبوع حتى الصيف . وعند ما كانت تبجف رؤوسه : تقطف من
الساق لكي يستخرج منها الأفيون . وكانت هذه المادة المضوية تصنع في أسيوط وفي
مصر العليا وتستخدم في الطب كمخدر .

المطور والأزهار :

كان للبخور والصبر في الجزيرة العربية شهرة معروفة ولم يتوقف أبداً السلف عن
الاستفادة بهذا البخور ، الذي كان يذكر المرء بأكثر التقاليد قدما في الشرق . وعلى
مذبح المطور ، كان العبرانيون يقدمون البخور إلى الإله يهوه . وفي حظيرة بيت لحم ،
قدم الملوك المجوس البخور والمر مع الذهب إلى يسوع الطفل واليوم يحرق البخور أيضاً
في أعياد المذهب الكاثوليكي .

كانت فارس ذاتعة الصيت من أجل بخورها المستخلص من الورد ، والبنفسج ،
والياسمين ، وبسبب التنسيق المتقن الذي بلغته في زراعة الأزهار المطعمة . وكان أحد
الملوك المعاصرين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) يتساءل : ماذا كان يمكن أن يكون عليه
عطر السماء ؟ فأجابه أحد جلسائه بأنه مزيج من الورد والملكية ، ومن الورد الفارسية
ومن حبق سمرقند ، ومن أزهار شجرة النارج في طبرستان ، ومن نيلوفر البانيا ،
ومن العطر الثلاثي للصبور الهندي ، ومن مسك التبت ، ومن عنبر سيكهبر^(١) .

لقد كانت الأزهار في الشرق مرغوبة فيها حتى بين الطبقات الدنيا القانعة بالقليل
والاهتمة بالحصول على الضروريات ، أما الطبقات الغنية فكانت تقوم على رعاية حدائق
ناضرة حتى في المدن الآهلة بالسكان مثل بغداد . وتحت الشمس المحرقة في الريف ،
كانت البيوت الفاخرة خارج المدن تنتشر متراخية وسط أحواض شاسعة من الأزهار .

ففي فارس مثلاً كان المرء فيها يمزج شجرة الورد بشجرة اللوز للحصول على أنواع نادرة . لهذا لم تكن الورود فيها بارعة الجمال . وجملة القول أن رجال الشرق في العصور القديمة كانوا يحبون الأزهار كما كسیر للحياة .

الصناعة :

لم يتح اختفاء طبقات الفحم في جوف الأرض ، أى تقدم ملموس للصناعة المعدنية في الشرق الأدنى . وقد وجد منه بشق النفس بعض العروق الخفيفة في منطقة يزد وسط هضبة إيران ، وفي لورستان ، وهي أقطار عسير مزارها ، فكان استغلال الحطب ضرورياً إذن . وأدت هذه الضرورة إلى إزالة الغابات من بعض ولايات أفغانستان الحالية ومن جبال أرمينية ، وهي مركز تموين لبلاد ما بين النهرين .

المعادن :

أما الذهب والفضة والزئبق فكانت توجد في منطقة جنزاك — وهي مدينة مشهورة بعلمائها الكيميائيين — وبين نهر دجلة الأعلى وبحر قزوين ، وفي مناجم جبال زاغروس . وكان البوراكس والأنتيمون يأتيان من أرمينية . وكانت منطقة بنجهر في أفغانستان غنية بمناجم الفضة والنحاس ، كما كانت توجد طبقة صغيرة من القصدير في منطقة كابول . لكن أهم مناجم الذهب هي التي كانت تقع بين بلاد النوبة والبحر الأحمر في مصر .

كانت المعادن تجلب إلى المدينة ، حيث كان النحاس يصهر ويترك ومعه البرونز والفلز ، والفضة ، والذهب . وكانت الأباريق ، والأواني ، والأقداح ، والأكواب ، والأحواض ، والسقايد ، والمفاتيح ، والمقصات ، والصينيات ، والمرايا ، والمصابيح ، والشمعدانات ، والمواقد ، والمباخر ، والآلات الملكية ، وأغلفة مصاحف القرآن . . كانت هذه الأشياء كلها تصنع وقتئذ بحسب رسوم ونماذج فنية .

كما أنه نشأ في بلاد ما بين النهرين من النحاس الذي كان أقل ندرة من بقية المعادن ، صناعة قطع مطعمة بالفضة لها تأثير عجيب في نفوس الناظرين . واختصت دمشق والموصل بصناعة الأسلحة والدروع من المعدن العادي ، وكانت هذه الأسلحة

المزخرفة إلى درجة الإتقان بفضل العرب محلاة بخيوط من الذهب أو الفضة . وفي دمشق كان يثبت الخيط الذهبي أو الفضي في الفراض الخشبية أو بعض المساكن المجهزة مقدماً ، وفي الموصل ، كانت تسوى هذه الأسلحة بضربات من المطرقة في مجموعها بحسب رسم موضوع : وكان يطلق عليها اسم « الدمشقيات » . وكان الصلب والحديد يجهزان في سمرقند وأذربيجان والبرونز في بخارى ، ونيسابور ، والنحاس في الموصل وديار بكر . وكان القصدير نادراً في الشرق . وكان منه القليل في بلاد صنديان في اموداريا العليا ، وكان يمزج بالبرونز . وكان الرصاص لا يحتاج إلى المزج . ويستخدم هذا الرصاص لبناء سقوف المساجد ، وأنايب المياه ، وتثبيت الأحجار .

ومع ذلك ، لم يعرف الشرق الصناعات الكبيرة ، ولا الخطوات الفنية الجادة في ميدان التعدين ، وظلت الصناعة في مستوى الصانع اليدوي ، وبقيت الأشياء تصنع في (الورش) والمحال الصغيرة كما كانت عليه في الماضي .

وكان العامل^(١) يبدى ، في هذه (الورش) وفي هذه المحال ، مهارة وحذقاً وصبراً وكانت كل هذه تعوق الإنتاج بدون شك ، لكنها كانت تمنحه صفة الإتقان ، وطابع الطلاوة . وقد بلغ صانع المعادن ما بلغه الحطاط ، وصانع الفخار ، وصانع الخزف . ولا شك أن في كل عمل متقن فضيلة منها يكن هذا العمل الفني الشخصي متواضعاً ، ومهما تكن قدرته على التعبير عن ذات نفسه .

ولم تكن الآثار الفنية المترفة التي يصنعها المتفنن لعملية القوم الشاغل الوحيد لصناع المعادن ، بل كانوا يصنعون أيضاً السلاسل الضخمة التي كانت توصل مداخل الأبواب ، والتي كانت الحلقة الصغيرة منها في طول الذراع وضخامتها . فقد منعت السلاسل

(١) ... لقد كان السيد في العادة يحسن معاملة العامل إلى حد لم يكن مركزه أسوأ من مركز العامل في المصانع الأوربية في القرن التاسع عشر ، بل لعله كان أحسن حالاً من ذلك الصانع ، لأنه كان آمناً على حياته منه ... ولم يبلغ استغلال العمال في بلاد آسية الإسلامية من القسوة ما بلغه في البلاد الوثنية أو المسيحية [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١١٢ و ١١٣] .
(المترجم)

الأسطول العربي من دخول البوسفور مرتين . ولم يذهب مدّى هذا الدرس القاسى .
ففى الميناء الذى أنشأه المهدي على مقربة من تونس ، كانت أبواب ، يزن مصراع الواحد
منها خمسة أطنان . وكانت معظم المدن المحصنة توحد بواسطة أبواب قوية من الحديد
المطروق . وكان صانع الأوانى النحاسية يصنع فى سمرقند قدورا تسع أكثر من ألف لتر .
وأتقن العرب صناعة سنبك (حدوة) الخيل ، وتعلم الصليبيون — عن طريقهم —
مدى ما تتمتع به سيوف دمشق من صلابة قوية . ويشير بيان موجز عن ثروة الفاطميين
إلى المدى الذى وصلت إليه المنتوجات الصناعية الشرقية : فيذكر البيان هذه الحقائق ،
« أربعائة قفص من الذهب ، وستة آلاف آنية من الذهب ، وخزانات من الفضة
تزن مائة وخمسين كيلو ، وديكة ، وطواويس ، وغزلان ذات حجم طبيعى من الذهب
المطعم بالأحجار الكريمة وأشجار نخيل من الذهب فى أفصاص من الذهب ، وأسلحة ،
ودروع ، وأكثر من مائة ألف تحفة قيمة فى مجموعها منها ثلاثون ألفاً من معادن
مختلفة » (١)

الخشب :

كانت صناعة الخشب مزدهرة على الدوام عند العرب . ومما يثير الدهشة لدى الرجل
الأوروبى حين يزور الشرق ، المشريات المصنوعة من الخشب المفرغ والتى
تسكن النوافذ . وكذلك أيضاً عدد كثير من العرائس من الخشب المنقوش حول
الشرفات والأروقة . وفى المساجد والمحاريب ، والمنابر ، ودكة القراء ، كلها مصنوعة
من خشب جميل قوى محفور بشكل يثير الإعجاب . وتزين معلقات متقنة الصنع المساكن
الخاصة ، والسلام والحواجز ، والنوافذ ، والأبواب . وتصنع كذلك المقاعد ، والأرائك ،
والمكاتب ، والموائد ، والنضد المستديرة والعلب المزينة بصفائح رقيقة متنوعة من الصدف
أو المرمر أو الخشب الثمين أو بنقوش من الودج على شكل سكين مقلد ، من خشب
مزخرف . والخشب هام جداً من أجل الصناعة والبناء والتدفئة .

ولكن — كما يقول جويتيه (Gautier) — وربما كان هذا القول مبالغاً فيه ، « قد

(١) على مظاهيرى : الحياة اليومية للمسلمين فى العصور الوسطى .

« قد لا يوجد في الجزيرة العربية خشب يكفي لصناعة عود ثقاب » فالشرق الأدنى كله مشترك تقريباً في ندرة الخشب اشتراكاً على أجمال وجهه ، باستثناء لبنان الذي كانت أخشاب أرزه تستخدم من قبل في بناء الأسطول الفينيقي ، ثم الأسطول العربي ، وباستثناء أرميلية التي كانت تمد بلاد ما بين النهرين بخشب الوقود . وكانت بقية أخشاب غابات أرميلية تقطع من أجل احتياجات الصناعة . إذن ، فقد كانت الأخشاب المستخدمة في الصناعات مستوردة . وكانت جميع مساكن الخليج الفارسي ، ومساكن بلاد ما بين النهرين ، والجزيرة العربية تستخدم في هياكلها الخشبية ، وفي أثاثها خشب الهند ، والملايو ، وإفريقية . وتجلب هذه المواد بالسفن أو بوساطة ناقلات بحرية مصنوعة من جذوع الأشجار مرتبطط بعضها ببعض بسلاسل حديدية .

هذا هو السبب الذي من أجله كان فن صناعة الخشب منتشرأ دائماً في البلاد العربية . وكان الصناع من المهارة على الغاية وكانت التعف الخشبية المقطوعة قطعاً فنياً أحياناً في نقش حقيقي أو المنسقة بإحكام تشهد ببراعتهم . وكانت الزخرفة تتركب من نقوش ومن قطع من الخشب الثمين تطعم بها الأخشاب العادية : مثل خشب الأبنوس ، والخشب البنفسجي اللون ، والخشب الوردي أو قطع من اللؤلؤ ، ومن العاج ، ومن المعدن . وكانت قطع الشطرنج تحتوي على ألوان فنية رائعة .

الورق:

عند ما احتل العرب سمرقند في سنة ٧١٢ ، أذاعوا فيها طريقة تعطين الكتان وتشكيل عجينة منه تنتهي إلى أوراق رقيقة جداً وهذه العجينة تستطيع أن تحمل محل الورق الأبيض الأملس والرق الذين كانا نادري الوجود وأثمانها غالية . وكان هذا الورق « البايروس » يذكرنا بالورق البردي ، وسرعان ما استبعد الكتان وحل محله القطن لأنه أقل تكلفة ومنتشر جداً في الشرق . وقد خلق الوزير الفضل البرمكي الصناعة الأولى للورق في بغداد في سنة ٧٩٤ . وهذه الصناعة التي كانت من أصل صيني انتشرت بسرعة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً بسبب الترجمات ، كما أن الشغف العام بالكتب كان يستلزم الإكثار على نطاق واسع من صناعة الورق . وقد انتشر الورق بسرعة في جميع البلاد الإسلامية حتى بلغ أسبانيا ، وقد اقتضى مع ذلك أكثر

من ثلاثة قرون لكى ينتقل إلى أوروبا . وظلت سمرقند وقتاً طويلاً المدينة الهامة للورق الجيد . وكانت القوافل تحمل من الصين إلى سمرقند الورق الذى يقال عنه ورق الحرير . ومن الصين تأتى جلود الكراسات ، وكانت أحجام أوراق الكتب كذلك التى تستخدم اليوم . مثل القطع على النصف والقطع على الربع أو البغدادى ، والقطع على الثمن أو الثلث ، ولم يكن معروفاً لدى العصور القديمة غير دروج الرق .

وتحتفظ المكتبة القومية فى باريس بنصوص مطبوعة بوساطة المانويين^(١) فى تركستان قبل مطبعة جيتنبرج بستمائة عام . وعن طريق تركستان أدخل المغول فى فارس فى القرن الثالث عشر أوراقاً خاصة خليقة بأن تطبع بمساعدة حروف متحركة من البرنز . وهذه كانت أول أوراق نقدية . وقد أدى سوء استخدام هذه الأوراق النقدية إلى اختفائها واختفاء طريقة الطبع فى وقت واحد . لكن أهالى جنوا كانوا قد اطلعوا على طريقته الخفية المزدوجة وحملوها إلى أوروبا .

الزجاج :

كانت صناعة الزجاج من أصل فينيقي ، ثم تقدمت فى مصر وسوريا حتى بلغ من تقدمها أن كانت تباع وتوزع بضائع لا حصر لها فى قوارير زهيدة الثمن . وعثر على بقايا تحمل شواهد عن هذه الصناعة مؤرخة من القرن العاشر . وصنع الزجاج أولاً فى فينيقية ، وظلت مصنوعات الزجاجية مرتفعة القيمة مدة طويلة . وصدرت من وقت مبكر مصر وسوريا إلى حوض البحر المتوسط كله مصنوعات الزجاجية . وسرعان ما ورث المسلمون عن الفينقيين والمصريين والسوريين مهارتهم فى صنع الزجاج ، ومنذ القرن التاسع ، كانت مخترعات حلب فى هذه الصناعة مرغوباً فيها جداً ، وكانت هذه المدينة تصنع أكواباً وقوارير ، وزجاجات متداولة الاستعمال وأوانى أو آلات من الزجاج من أجل الكيمياء ، مثل أنابيب التقطير ، وما إليها الخ . وكانت دمشق

(١) أبتاع مانى وهو رجل من أهل إكباتاتا (همدان) (٢١٥ - ٢٧٦) ، وكان يقول إن كل شيء يخرج من أصلين رئيسيين هما النور والظلمة ، أو الخير والشر . (المترجم)

تصنع الزجاج المذهب ، والقاهرة القديمة أقدماً شفيفة تشبه الزمرد . وأما في العراق وفارس فقد صنع البلور المصفى لأول مرة . ويحتفظ اللوفر والمتحف البريطاني بمتحف فاخرة من سامراء والفسطاط : من أقدم ، وآنية ، وأباريق ، وقناديل موشاة بألوان يراقة ومغطاة بطلاء ملون بألوان الطيف أو بيلاتين معدني ذي ألوان متغيرة ككقوس قزح . وكانت صيدا وصور تحصدان من صناعة الزجاج على صفاء ونعومة لا مثيل لهما . ومن بداية القرن الحادي عشر ، بدىء في صناعة صحائف الزجاج التي استخدمت في زجاج النوافذ ، وفيما بعد بقليل ، بدىء في صناعة قناديل المساجد من عجينة زجاجية مزخرفة ذات ألوان متنوعة . وصنعت المصاييح « الاباجورات » الزجاجية المزينة بنقوش وخطوط ورسوم زهرية . وقد زينت المساجد والقصور بحواجز زجاجية دقيقة الصنع جداً ، حمراء أو خضراء أو صفراء . وأدخلت هذه الصناعة في صقلية في القرن الثاني عشر . وفي ذلك العصر ، كانت حلب ودمشق تصنعان عجائب من الزجاج بمساعدة رسوم بألوان الطيف . وأما البندقية فقد حصلت أخيراً من سوريا ومن مصر على المواد الأولية والعمال العرب الاختصاصيين وعلى طرائق هذه الصناعة الخفية التي احتفظت بها عن جدارة وحرص من القرن الثالث عشر إلى القرن السابع عشر .

صناعة الفخار :

ترجع صناعة الأواني الفخارية والخزف المطلق إلى أصل صيني ، وإيراني ، وساساني . وكان الحجر نادراً وغالي الثمن في بلاد ما بين النهرين وفارس ، أما الصلصال والحرارة فإتبعهما منتشران وقد حول تنوع الترتيب والتشكيل القرميد المتداول إلى أشكال أخرى بوساطة حركة الضوء والظل . فقد صنعت صفائح من الخزف ، وقراميد مزخرفة ، وفسيفساء مختلفة ألوانها تكسى بها الجدران كما صنعت واجهات رائعة من الأفاريز المنقوشة ، ومن بعض الخزف المصقول ، والمطلق بالمعدن ، وكانت المساجد في جميع بلاد الإسلام قاطبة تزين بها الواجهات وكانت الطلاوة الرقيقة لهذه الزخرفة الداخلية تتوازن في انسجام مع القوة المهيبة للأشكال الخارجية .

وفي القرن التاسع ، نحت بعض التأثير للصناعة الصينية — صنعت في خراسان ، وفي أفغانستان وفي سامراء على نهر دجلة ، وفي سوسا ، وفي الري ، وفي الرقة على نهر

الفرات ، تحف من خزف متنوع تمتاز بحسن الشكل والتناسب ، ذات ألوان غنية جداً تذكرنا بخزف الصين . ولكن فقدان الفخار الأبيض في الشرق الأدنى منع انتشار صناعة الأشياء نصف الشفيفة . وأن كانت بعض صناعات الأواني الفخارية تحاكي الألوان المختلفة الصينية ، وأخيراً كانت تضاء بعض صناعات أخرى بانعكاسات من الأضواء الذهبية والفضية يتوصلون إليها بمزج الأوكسيدات المعدنية . وقد رأينا في الري وفي الرقة أنواعاً من الصناعة الفخارية ذات المنظر الطبيعي المعتمد في رسمه على اللون ، تتركز فنيته في رسوم صغيرة ذات ألوان رائعة ، وكانت تحف مزخرفة بألوان مختلفة تمثل صوراً ، ومناظر وشخصيات عربية من الذهب الذي يغلب عليه اللون الأزرق . وأخيراً ، اختصت منطقة الموصل بصناعة الأواني التي تحمل نصوصاً بالنقش البارز ، وتبدو صناعة الفخار الفارسية كأنها زخرفة ضرورية في هذا البلد ، وهي الانعكاس المشرق لعبقريته ، وهي تصور بمهارة ، وتنفيذ فيه ذوق رقيق ، ولتخرج ذات ألوان باهرة ، ولم يكن لها من منافس في الغرب لمدة سبعمائة سنة أو ثمانمائة سنة . وما يروى أن ولية أقيمت في القرن التاسع فارتجل فيها المدعوون قصائد تمجيد للأكراد التي كانت تزين مائدة طعامهم .

الصناعة الكيميائية :

كان علماء المسلمين يفترضون أن جميع المعادن ، من نوع واحد وكانوا يعتقدون في إمكان تحول هذه المعادن . وعلى هذا بحث علماء الكيمياء في تحويل المعادن « الخسيسة » إلى ذهب أو فضة مثل الحديد والنحاس والرصاص والتصدير إلى ذهب أو فضة . وذلك بمونة حجر الفلاسفة وهو مادة تعالج بطريقة خاصة . وظلوا يبحثون عن حجر الفلاسفة هذا لكنهم لم يكشفوه بعد . وكان الشعر ، والدم ، والبول ، والغائط تعالج بمساعدة مواد كاشفة متنوعة تخضع للشمس ، والنار ، والتكليس ، وللتصعيد بأمل الحصول على « الإكسير » الذي يطيل الحياة .

وفي عصر الكيميائيين نفسه ، كان هناك فنيون توجههم مصلحة عملية يسعون — في معامل حقيقية — إلى تجربة قياسية للأجسام الصلبة ، أو المركبة . وكانت هذه البحوث تتناول كذلك المعادن ، والأملاح ، والأحماض ، ومواد التلوين ، والأجسام

الدهنية ، الخ . . وكانت مواد التجربة مكونة من آلات تقطير ، ومن أفران ، ومن مواقد للتقطير ، ومن موازين ، ومن جميع الأجهزة الضرورية من الأحجار الرملية ومن الزجاج أو من المعدن . وكان كيميائيو هذا العصر يعدون جداول تشير إلى الأوزان النوعية ، الأمر الذي جعلهم قادرين على أن يميزوا بين الأجسام عن طريق وزنها أولاً ، كما استطاعوا أن يتعرفوا فيها بواسطة تحاليل مختصرة ، وطريق إعادة إنشائها عن طريق تأليفها .

كانت مهارة الكيميائيين ومعارفهم أداة صالحة وجدوا بها أصباغاً لتلوين الأنسجة ، والفسيفساء ، وصناعة الأواني الفخارية . وكانت هذه الأصباغ ثابتة حافظت على رونقها طوال ألف سنة .

ولم تكن المصور القديمة تعرف غير العطور الشرقية . الصير ، والمسك ، والبخور . فقد أخذ العرب يعرفون العالم طريق استخدام العطور . وتعلم الكيميائيون بسرعة استخراج العطور من الأزهار . وفي شابور ، كانوا يقطرون جميع الروائح وفقاً للطرق الفنية الزرادشتية : مثل النرجس ، والبلك ، والبنفسج ، والياسمين ، الخ . . وكانت جور مشهورة بمياهها المعطرة ، وكانت تصنع مياهها من زهر البرتقال وماء الورد المجلوب من ورد أصبهان .

كانت سمرقند مشهورة بعطرها من الحب (١) الريحاني وسيكهير بعنبرها . وقد احتفظ مسك التبت ، ونيلوفر البانيا ، وورد فارس بجاذبية عطورها الأسطورية .

وقد صنع العرب الصابون بمزج الصودا مع شحم الأغنام أو الزيت ، وأنشأوا صناعة من أنخر الصناعات في بغداد إذ قدر لها أن تنتشر بسرعة في مصر ، وسوريا ، وبلاد تونس ، وأسبانيا الإسلامية .

كان الإسلام قد استقر بحيث إن الليل إلى الرفاهية تملك جميع طبقات المجتمع ، حتى إن الإنتاج لم يستطع مواجهة الاستهلاك فاحتاج الأمر إلى اختراع صناعة مواد بديلة أو منتجات غذائية بديلة .

صناعة المنسوجات :

عندما فتح الإسلام الشرق الأدنى كله ، كانت به منسوجات مصرية ، ومنسوجات قطنية من سوريا ومن بلاد ما بين النهرين ، ومن إيران ومن صناعة حرير بلاد ما وراء النهر . وكانت الأقمشة البيزنطية والقبطية والسامانية مشهورة من قبل ، وعرف المسلمون الاحتفاظ بشهرة تلك الأقمشة . أما الحرير ، فإن مناسج الشرق الأدنى الصغيرة أصبحت المتعهدة بتصديره لعالم العصر الوسيط ؛ على الرغم من أن النبي ﷺ رأى كراهة لبسه . وقد كان يصنع في مصر ، وفي سوريا بمساعدة أنوال يدوية لأنسجة حريرية مزخرفة ، شهد الأورييون في أوروبا بجمالها . وكان الصليبيون يستخدمون أنسجة حريرية ليلفوا بهارفات موتاهم (الذين كانوا يعظمونهم) .

وكانت أنخم الأقمشة الكتانية تصنع في مصر ، في إقليم دمياط . كما ينسج في دمياط ستر شديدة الرقة ، وستائر ، وملابس داخلية رقيقة . هذا ولأن البلاط المصري احتجز لنفسه كل صناعة الكتان ، فقد زرع الكتان في إيران في القرن العاشر ، واستقرت آلاف كثيرة من النساجين على شاطئ الخليج الفارسي وفي أذربيجان . ونظرا لخصائص منتجاتهم ، ودقة مواعيدهم وانتظامها فقد اشتهروا سريعا بأمانتهم ، حتى إن البضائع كانت تفضى من يد إلى يد دون أن يشعر المتسلم بحاجة إلى التحقق منها .

كانت الصناعة القطنية نشيطة وبخاصة في إيران ، وكانت الأقمشة القطنية تصنع في معظم مدن خراسان ، وسينيز وكرمان في وسط فارس ، أما الأنسجة القطنية المطبوعة فكانت في وسط فارس وبخارى ، وأما في جهرم فتصنع الأصواف المنسوجة وكانت سينيز تصنع الملابس الداخلية ، وكانت مرو تصنع النسيج الصوفي الخفيف واختصت نيسابور وبلخ بالقطع الكبيرة من النسيج ، وهذه القطع كانت ترسل ، إلى بغداد ، ومصر ، وكان يصدر بعض منها حتى يصل إلى الصين مما جعل زراعة القطن في القرن العاشر تنتشر في سوريا وفي إفريقية الشمالية ، وفي إسبانيا . وصنعت الموصل أقمشة قطنية رفيعة « موصلية » . . ودمشق أقمشة « مشجرة » تسمى الدمشقيات .

وقد قامت صناعة الحرير قبل الفتح العربي على مواد أولية مجلوبة من الصين وانتشرت على شواطئ بحر قزوين ، وفي طبرستان ، وبعد الفتح انتشرت تربية دودة

القرز . وانتشرت معها في الوقت نفسه هذه الصناعة — إلى حد ما — في كل مكان من الأراضي الإيرانية فنسجت أقنعة للنساء ، وخمر ، وأشرطة منقوشة بالذهب ، وأنسجة حريرية ملساء ، وأنسجة حريرية رقيقة ، وستائر لمظلات الأسرة ، أو للهواذج أو لقبة المحراب . وكانت أراارات مشهورة بأقمشتها المطرزة بالذهب . وكانت هذه الأنسجة تصنع بطريقة متقنة جدا تصدر بسببها إلى الشرق الأقصى . وقد حفظت بعض النماذج في متحف اللوفر ، وفي المتحف الأمبراطوري الياباني . وكانت أكثر الأقمشة المنسوجة تصنع من الذهب في صقلية . وكانت هناك مطرزات من الذهب ذات أرض من الحرير ، وعندما استقرت هذه الصناعة في بالرمو على يد الفاطميين ، اهتمت في الازدهار تحت حكم النورمانيين . أما في صقلية في القرن الثاني عشر فقد صنع معطف تتويج أباطرة ألمانيا المحفوظ في « خزانة فينا » . وفي أسبانيا ، كان المساجون السوريون قد جلبوا ابتداء من القرن العاشر الطرائق الفنية لصناعة المنسوجات الحريرية المهللة بالذهب .

لكن الشرق كان ولا يزال متفوقا في صناعة السجاد ، سواء أكان من وبر الماعز أو الجمل ، أو من الصوف ، أو من القطن أو من الحرير . وكانت بعض المصانع الصغيرة القائمة في القرى تستخدم نساء وأطفالا يعملون ، وهم جلوس أمام النول على لحن أغنية خاصة تسمى إلى الغرز والأصباغ . وكانت الرسوم مستوحاة من مناظر حية ، وبخاصة من أمكنة للصيد ، ومن معارك للحيوانات ، أو من كتابة حسنة العبارة والأسلوب ، ومن رسوم ذات نقوش عربية متأثرة بالإسلام . ولم يظهر السجاد المخمل في فارس إلا في القرن الحادي عشر . ومن هنا كانت الرسوم ميدية أو من أذربيجان ، ومن غاردجستان ، أو من طبرستان ، وكانت كل السجاجيد الشرقية مطلوبة ، ولكن التي حظيت بالشهرة هي سجاجيد أصبهان واختصت بخاري بصناعة سجادات الصلاة .

الصناعة الميكانيكية :

عندما دخل العرب القصر الملكي في المدائن ، لاحظوا على الفور « قطعة أثاث ضخمة من الأبنوس ، والعاج ، والذهب ، تعلوها قبة مذهبة ولازوردية ، تمثل السماء قد برصت بنجوم ثابتة تدور حول نفسها على غرار القمر والشمس في دورانهما

الشهرى والسوى» (١) ولم يفهم العرب على وجه الدقة شيئا عن هذه الآلة التى لم تكن سوى ساعة دقاقة وقبل ذلك بيضع عشرة سنة، لاحظ هرقل الذى استولى توا على مدينة ملكية أخرى هى جنزاك وتسلى إلى البهو الكبير لمعبد الملوك، فرأى حسب قول تيمان Théphone الصنم المخيف (ارمزد) Onmuzd متربعا على العرش فى سقف القصر الذى كان على هيئة كرة (قبة) تحيط به الشمس والقمر والنجوم التى كان عبدة الأصنام يعبدونها على أنها آلهة، كما يحيط به من جميع الجهات رسله حاملين صولجانات الملك. وهناك كان قد أمر عدو الله هذا بإقامة آلات ميكانيكية لإسقاط قطرات من المياه شبيهة بالمطر، ولإحداث أصوات شبيهة بالرعد»

ولم يفهم الملك البيزنطى من هذا شيئا، وإنما كانت هذه ساعة جبارة تمثل السماء. وكان فى الشرق نماذج أخرى لساعات دقاقة أقل تعقيدا ولكنها ليست خالية من أجهزة معقدة. وفى المسجد الأموى فى دمشق، كان يرى « قصر » فيه اثنتا عشرة نافذة توصل أحداها كلما كان مدفع صغير يعلن الساعة. وفى نهاية النهار تكون جميعها موصدة. وكان دوران هذا الجهاز يبدأ فى الليل، لكن النوافذ كانت تضاء بنور أحمر، الواحدة بعد الأخرى.

كان هارون الرشيد قد أهدى إلى شارلمان ساعة تعمل بالماء مصنوعة من جلد ومن نحاس موشى بأسلاك من اللجين أو الذهب، وفى كل ساعة كان فرسان من المعدن يفتحون الباب، ويتركون مجموعة (البلى) التى كانت تناسب التوقيت تسقط على دف، ثم تراجع. وقدم سلطان من مصر بدوره إلى فردريك الثانى (٢) هوبنشتاوفن « قصر الساعات » وهى تحفة ميكانيكية حقيقية، وقد حافظ ملوك المسلمون على هذا التقليد، ولا يزالون فى أيامنا هذه يقدمون ساعات كهذا إلى ضيوفهم. ومنذ القرن العاشر كانت تصنع نماذج لساعات أقل تعقيدا، لكن ثمنها لم يكن بعد فى متناول المقادير المتواضعة.

(١) وفقا لرواية على مظاهرى فى كتابه « الحياة اليومية للمسلمين فى العصور

الوسطى »

(٢) امبرطور من عائلة هوبنشتاوفن الألمانية التى اعتلى أفرادها عرش ألمانيا من عام ١١٣٨ إلى عام ١٢٥٠، ومن أشهر من اعتلى العرش من هذه الأسرة فردريك الأول، وهنرى السادس، وفردريك الثانى. (الترجم)

وأعن من ذلك بالنسبة لجماعة « المؤمنين » كانت هناك أجهزة أخرى تدار بالماء وهي الطواحين الموزعة على حافة الأنهار . وكان يوجد منها طواحين ثابتة أمام مجموعة من المدن الهامة . وكانت هناك طواحين أخرى هوائية مهمتها طحن حبوب سكان الشواطئ والقرى المجاورة .

وفي الموصل ، كانت طاحونة واحدة مقامة على قاعدة من الخشب وسط نهر دجلة ، تدار أرضها الجبرجية باندفاع تيار النهر ، وكانت تستطيع أن تطحن خمسين طناً من الحبوب كل يوم . وكانت طاحونة أخرى في بغداد بها مائة رحي . وفي ملتقى النهرين عند البصرة ، كان هناك جهاز يستعمل لإدارة عدد كثير منها قد انتشر بنظام مستغلا المد والجزر .

واليوم ، في بلاد ما بين النهرين ، وفي سوريا تأخذ طواحين ذات قواديس مثبتة على حافة مجارى الأنهار المياه من حوض النهر ، وترفعه ، وتصبه في قنوات الري التي تنطلق من ضفافه . وتعمل هذه الآلات التي يطلق عليها « سواقي » على نهر العاصي . وأخيراً ، وفي وسط الحضبة الإيرانية ، كانت طواحين هوائية أقامها الفرس من قبيل الفتح العربي تستخدم الرياح التي تهب بانتظام . ويعمل على الدوام عدد معين من هذه الطواحين . وكانت لدى المسلمين فكرة إقامة شبيه لها في صقلية وفي إفريقية الشمالية التي يستعمل فيها بعض الطواحين أيضاً لعصر الزيتون ، واستخراج السكر من القصب (١) .

التجارة :

إن الطرق الكبيرة البرية والبحرية التي كانت ملتقى الأجزاء المعروفة من عالم العصر الوسيط ، كانت تمر بالعالم الإسلامي : وكانت أوروبا وآسيا وإفريقية تتلاقى في هذا العالم عند مفترق طرقها .

هذا الوضع الجغرافي الممتاز كان يقتضى أن يعطى تجارة المسلمين مكانة ممتازة :

(١) علي مظاهري .

وكانت قوافل التجارة تسلك طريقين هامين : طريق البر الذي يطلق عليه طريق الحرير ، وطريق البحر الذي يطلق عليه طريق الهند ، وكان طريق الحرير يربط الصين بالغرب ، وكان يمر بسمرقند وبخارى في تركستان ، والرى وهمدان في فارس ، ثم بغداد التي كان يزود فيها الطريق ليصل من جهة إلى القسطنطينية والغرب بوساطة نهر الفرات والبحر المتوسط ، ومن جهة أخرى بالجزيرة العربية وإفريقية ماراً بالكوفة ومكة والمدينة .

كانت القوافل تحمل منتجات الصين والتبت وأواسط الهند . وكانت هذه القوافل تجلب من الصين بخاصة الأقمشة الحريرية وبعض الأواني الصينية مقابل المنتجات المصنوعة في بيزنطة ، وفي العالم الإسلامي ، ومن التبت كانت تجلب الفراء المستوردة من سيبيريا والجلود التي تسمى جلود استراخان التي تؤثرها الطبقة الموسرة من فارس ومن بيزنطة ، ومن الهند ، كانت تجلب أنسجة ، وأقمشة قطنية ، وجواهر وأحجاراً كريئة ، وروائح وأعشاباً طبية ، ولكن عن طريق آخر هو طريق نهر الفولجا وبحر قزوين . وكان الأرقاء البيض يأتون من روسيا ومن إسكندنافيا ، والعنبر يأتي من بحر البلطيق ، والعسل من الشمال الذي أوتر استخدامه على السكر ، والشموع الطويلة التي كان العالم الإسلامي يستهلك منها كميات كبيرة في مساجده . وكان طريق الهند — وهو طريق السندباد البحري — الطريق البحري ، الذي يربط بين فارس وموزيق ومدغشقر بالشواطئ الشرقية والغربية للهند ، ومع الملايو وسومطرة ، وبلاد كمبوديا في ذلك الوقت والميناء الكبير للصين الجنوبية : كانتون التي كانت فيها الجالية العربية تقم بأعداد لا حصر لها .

كان الشرق يستورد من هذه البلاد المختلفة المنتجات الأكثر تنوعاً . فمن إفريقية كان يستورد الأرقاء السود ، والعاج ، ومسحوق الذهب ، والعنبر الداكن . وفي جزرها ، كان يكشف أعشاباً طبية ، وتوابل وعقاقير ، ومن الهند كان يأخذ الحديد ، والصلب ، والقصدير ، ومن الملايو خشب البناء ، والأصباغ ، والمواد المعدنية ، وكانت بلاد كمبوديا القديمة تصدر الأخشاب الثمينة .

وكان المسلمون يصدرون إلى الصين العاج والحلي الصدفية من إفريقية والهند ، والنحاس والكافور الذي كان الصينيون يدفعون ثمنه غالياً . وكان التجار يعرضون (م ٩ — حضارة)

كميات صغيرة في كل مكان من بضائع مصنوعة من زجاج ، وجواهر ، وكبريت ، ومنسوجات قطنية وعطور ، وفواكه ، وخضر . وكانت تجارة الخيل بخاصة مزدهرة . وفي كل سنة ، كانت هناك عشرات الآلاف من الخيول ترحل من سيراك إلى شاطئ كورومانديل حيث كانت تباع على شاطئه إلى الهند . وفي الحق ، كان البحر ، المتوسط حتى زمن الحروب الصليبية تسوده جميعه تجارة المسلمين ، التي كانت تجرى بين سوريا ومصر من جهة ، وإفريقية الشمالية ، وإسبانيا وصقلية من جهة أخرى . وكانت هذه التجارة فوق ذلك تصل إلى اليونان وإيطاليا وفرنسا .

ولم يكن النبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه يحقر فوائد التجارة التزيهة الأمانة . ويرى أنه عند ما كان يحكم المدينة ، كان يشتري جملة ، ويبيع مجزأ ، ويكتفي بأقل ربح ، وكانت لفته غنية باستعاراتها التجارية ، وكان يتوعد بالنار التجار المخادعين ، وكان يندد بالذين كانوا يحتكرون ويضاربون على الحبوب لكي يبيعوها مرة ثانية بأعلى سعر ، وذهب حتى إلى تحريم السلفة بالربا^(١) . ولم يملك العرب ، نتيجة توسع مثله السامية ، اتجاه التجارة ، امتيازات الطبقة الارستقراطية الأوروبية في العصر الوسيط . ولما نظموا الدول ، وحطموا حواجز الحدود ، كانوا يعرفون أن أمثل الطرق لتيسير الاتفاقيات تنحصر في تعميم لغة موحدة تصبح اللغة التجارية بلا منازع . ومنذ ذلك الوقت ، شوهد تطور تلقائي وسريع للمدن والقرى تحت تأثير البيع والشراء والحركة التجارية ، وازدهرت المعارض ، وجماهير الباعة والمشتريين ، والأسواق ودوت بحياة جديدة وسط ضجيج المفاوضات التجارية ومساوماتها^(٢) . وهكذا انتظمت صلات قوية وإنسانية أصبحت تقليدية في مجتمع مزدهر ، ولم يشك أحد في ازدهار ثمرة هذه الصلات التي لم يقدر للغرب أن يعرفها إلا بعد ذلك بستمائة سنة أو سبعمائة .

(١) هذا التحريم راجع إلى نص القرآن . (المترجم)

(٢) ويبدو بوجه عام أن المسلم كان أرقى في خلقه التجاري ، وفي وفائه بوعده ، وإخلاصه للمعاهدات التي يعقدها مع غيره [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٤١] .

(المترجم)

القوافل :

كانت هناك طرق كثيرة تربط المدن الكبيرة ، وكانت قوافل الجمال تسير في السهول وفي سهوب الصحراء ، وقوافل البغال القوية الصبور في البلاد الجبلية الوعرة تجوب بانتظام هذه الطرق . وهكذا نقلت البضائع من كل نوع في (طرود) ، و سلال ، وأقفاص ، وقرب ، وعلب ، وأواني مختلفة الأنواع .

كان ما يقرب من خمسة آلاف جمل تجوس في جميع الجهات طرق العالم الإسلامي ومواطنه . وقد أنشأت وكالات ماهرة على طول هذه الطرق فنادق قروية ، ومبرات ، وأحواضاً للمياه ، وفي المناطق الصحراوية خانات رحبة وكثيرة حيث تستطيع الدواب وقوادها أن ينعموا براحتهم ويتناولوا طعامهم . وكانت هذه المنشآت تستخدم كذلك ملجأً وملاذاً في أثناء العواصف الرملية التي قد تبلغ من شدتها أن تدفن قوافل بعدها وعديدها . ففي صحراء الفرس الوسطى ، أقيمت صهاريج عدة على حافة محطات القوافل والطرق ، وفي كل مكان ، كانت هناك إشارات تدل المسافرين وتوضح معالم الطريق ، وفي البلاد الجبلية كانت قناطر مقامة بعناية تحتاز مجارى المياه ، وكانت قنطرة كروم في منطقة سوسا يبلغ طولها كيلومتراً ، وكانت بها اثنتان وسبعون فتحة ولا تزال معظم هذه المنشآت باقية على الرغم من أن طريق الحرير قد فقد كثيراً من قيمته .

الموانئ :

صرفت الشواطئ المنعزلة ، والتي تقوم بأعمال عدوانية من الخليج الفارسي ، أنظار الجغرافيين عن كل نشاط بحري في هذه الناطق ، بيد أن ميناء توج كان مشهوراً في عصر الإسكانيين ، وحق القرن السادس الذي قضت فيه ميناء سيرا في شهرتها وعرف هذا الميناء الأخير نشاطاً قوياً في مدة تزيد على الخمسمائة عام وسلبتها جزيرة كيش التي في مواجهة سيرا تفوقها أثناء القرن الحادي عشر . وفي زمن الفتح العربي ، كانت سيرا تملك من قبل أسطولاً تجارياً هاماً ، وملاحين ، وتجاراً حاذقين ، وتوكيلات تجارية لجزيرة بيبا في أفريقية ، وكيلون على شاطئ مالابار ، وكوا في شبه

جزيرة ملقا ، وكاتون في الصين . وزاد بشكل ملحوظ التقدم المطبوع بطابع الإسلام ، والرخاء الذي نتجت عنه حركة البيع والشراء في هذا الميناء الكبير . وكان هذا الميناء يتبادل — وحده — أعمالاً كبيرة مع جميع هذه البلاد ، ومن ثم كان سكانها غاية في الثراء . وكان تقدير الثروات مرتفعاً جداً ، حتى لم تعد الثروة التي لا تتجاوز الخمسمائة مليون من الفرنكات بذات شأن ، وكانت الاعتمادات المالية لتجار سيراف ضخمة جداً وسنداتهم متداولة في كل مكان . لكن المدينة دمرت في نهاية القرن العاشر (٩٧٨) نتيجة هزات أرضية مما دفع سكانها إلى الاستقرار في جزيرة كيش على صخرة واقعة في مواجهة المدينة القديمة . وسرعان ما أصبحت كيش ميناء ذا مكانة مكنية ، ونوعاً من جمهورية تجارية برؤساء جمهوريتها (ملوك) على غرار جمهوريتي البندقية وجنوا . لكن كيش كان ينافسا ميناء آخر — منظم أشد التنظيم وجاد كما أن لها مديريين أيضاً — تلك هي جمهورية عدن . وكان الأسطولان البحريان يتنافسان على الأسواق حتى في الصين ، وعاشا في خلاف دائم ، وما زال كذلك حتى كان أول القرن الحادي عشر انقسمت المياه الإسلامية فيما بينهما قسمين متضادين ومتنافسين ، فريق الخليج الفارسي ، وفريق البحر الأحمر ، كما انقسم العالم الإسلامي نفسه إلى إمبراطوريتين متنافستين : إمبراطورية بغداد وإمبراطورية القاهرة .

الملاحة البحرية :

كان الذهاب من الجزيرة العربية إلى الهند يقتضى من الملاحين العرب قرابة شهر وزهاء شهر آخر لكي يستطيعوا التوجه إلى شبه جزيرة ملقا ، وشهرين للطواف حول شواطئ الصين ، وكانت رحلة العودة تتطلب هذا الوقت نفسه تقريباً ، ولكن كان عليهم أن ينتظروا الرياح الموسمية .

كانت السفن المشيدة عادة في الهند من نوعين : سفن سريعة وخفيفة مخصصة لنقل الركاب وخدمهم وسفن ضخمة (جنك) مخصصة لنقل البضائع ، وقد كانت هذه السفن قادرة على نقل عدد كبير من الركاب . وعندما جهزت هذه السفن (منذ القرن الثاني عشر) بأسطرولابات ومجسات ، ومصابيح بحرية للإشارة ، وأطلس يوضح تيارات المياه والمد والجزر ، وخيط من الرصاص يحدد أعماق المياه ، أصبحت معدة بكل شيء لمواجهة أخطار أعالي البحار . وكانت أشبرعتها الممتدة

والمحكمة إحصائياً شديداً تهيب لها سرعة خاصة ، وكانت تصفها في موقف يجعلها قادرة على الدفاع عن نفسها ضد القراصنة الذين كانوا ينهبون الشواطئ والذين كان مأواهم الأصلي جزيرة سوقطرة ، عند منفذ خليج عدن . كان ذلك هو الأسطول التجارى الذى أضيفت له مراكب صغيرة الحجم لا تغوص كثيراً فى المياه وتستخدم بمخاصة على الشاطئ الشرقى لإفريقية .

كانت الملاحة منظمة تنظيمًا دقيقاً . وكان جدول التقويم يحدد كل عام ولسكل ميناء اتجاه الرياح ، والرياح الموسمية . وكانت المنارات المضاءة بواسطة مصباح بالبترول يصوته زجاج ويحيط به كوخ ، قد شيدت بأعداد كبيرة . وهنا ملاحظة تجدر الإشارة إليها ، كان بحارة المحيط الهندى لا يحسبون بالدرجات وبال دقائق مثل الكلدانيين ، بل اعتادوا أن يقيسوا المسافات بالقصة ، وبالأصابع والعقد .

الملاحة النهرية :

لا يوجد كثير من مجارى المياه فى العالم الإبنلافى الشاسع وقليل جداً من هذه المجارى صالح للملاحة. ففي الشرق ، ينبع نهر السند ونهر الأوكسوس من جبال بامير، لكنهما يجريان فى اتجاهين متعارضين ، ونهر الأوكسوس الذى كان يصب قديماً فى بحر قزوين ، ينتهى الآن إلى بحر الأورال ويطلق عليه اموداريا . وإذا اتجه المرء نحو الغرب ، على طول أربعة آلاف كيلومتر فإنه لا يجد غير نهر دجلة ونهر الفرات اللذين ينبعان من الشمال ، ويصبان فى الخليج الفارسى ، وعلى بعد أكثر يوجد النيل الذى ينبع من الجنوب ويصب فى البحر المتوسط ، وهذه الأنهار الثلاثة الأخيرة هى أكثر الأنهار عائدة .

ونهر الفرات الذى كان موازياً فى وقت من الأوقات لشاطئ البحر المتوسط والذى يبعد عنه بمائتين من الكيلومترات فقط يجرى بالقرب من المدن الكبيرة السورية : حلب ، وحماه ، وحمص ، ودمشق . وكان بوسع القوافل التى كانت تنطلق من هذه المدن ، أن تلتقى بالنهر فى مسكن التى يكون النهر عندها صالحاً للملاحة . ثم تسير هذه القوافل بعد ذلك بالطريق النهري حتى تصل بغداد على نهر دجلة باستخدام قناة عيسى التى كانت تربط النهرين . وبسبب عدم الصيانة يجزى نهر الفرات الآن فى

مستنقعات . ولم تعد هناك مدن كانت لها كياناتها قديماً مثل الرقة — التي كانت مدينة ملكية — بل كل ما هناك تجمعات وكومات من الرمال . وكانت أخشاب البناء والتدفئة تنقل من أرمينية إلى بلاد ما بين النهرين والعراق في نهر الفرات على سفن طولها عشرة أمتار .

وفي الحياة الاقتصادية للخلافة ، كانت الشبكة الملاحية ذات مكانة بالغة . وكانت هناك سفن كثيرة تشق الطرق المائية ، وكانت السفن الشراعية الآتية من الصين تلتقي في هذه الطرق المائية بجلود الخراف المنتفخة بالهواء التي كانت تعبر نهر دجلة محملة بالحضر والفواكه المجلوبة من أرمينية . وكانت الزوارق الطويلة السريعة التابعة لإدارة الخلافة تمرق بين الصنادل الثقيلة المحملة بالبضائع ، والقوارب المحملة بالركاب . وفي بغداد كانت ثلاث قناطر من المراكب تعبر النهر الذي يبلغ عرضه مائتين وخمسين متراً . وكانت الحركة التجارية فيه نشيطة جداً تتلامس فيه الصنادل بعضها ببعض حتى يكاد النهر يغطي بها . بيد أن أقصى حد وصل إليه نشاط الحركة التجارية هذه كان في مقاطعة البصرة التي كانت تجري فيها أكثر من مائة ألف قناة أو طريق مائي عبر أشجار النخيل والغاب ، ويقدر بما يقارب ثلاثين ألف مركب كانت تغطي الشبكة النهرية في عصر العباسيين .

الخدمة البريدية :

كان البريد في يد الحكومة في بداية الخلافة ثم أصبح تحت تصرف الشعب في الأزمنة التالية . وكانت رسائل البريد تشحن عن طريق السفن البريدية ، أو بالإبل المهرية أو بالغال تبعاً للبلاد ، وكانت الرسائل (البرقية) ترسل بوساطة حمام الزاجل أو بوساطة إشارات مضيئة . وقد أقيمت محطات على حدود الامبراطوريتين الصينية والبيزنطية ضمنت سرعة وصول رسائل البريد أكثر مما نظن بين أوروبا والصين .

ويقال إن الرسائل البريدية بين بغداد والمدن الكبيرة ، المحيطة بها ، مثل الموصل ، والبصرة ، والكوفة ، كان وصولها يتم ذهاباً وإياباً في أربع وعشرين ساعة ، على الرغم من أن هذه المدن المختلفة كانت بعيدة عن العاصمة بما يقرب من ثلثمائة كيلومتر إلى خمسمائة . وفي الأنهار الكبيرة ، كانت سفن البريد تحمل كذلك مسافرين وتقطع مائة

وثمانين كيلو متراً في النهار . وكان البرق (التلغراف) ذو الإشارات الضوئية يمارس بخاصة في غرب الامبراطورية ، حتى يمكن إرسال أية رسالة (تلغرافية) من بلاد مراکش إلى مصر في ليلة واحدة ، وهما على بعد ثلاثة آلاف وخمسمائة كيلومتر . وكان نقل البريد بحمام الزاجل شديد الانتظام ، وكانت هذه الخدمة البريدية تنتهي عند أبراج الحمام الذي كان يقبل عليها من جميع أنحاء الامبراطورية . وكانت نفقات النقل تدفع عند الوصول ، وهي واجبة الأداء لأنها كانت تشكل في تلك الأثناء دخلاً منتظماً للدولة . وكانت إدارة البريد مثل الأفراد تستخدم اختتاماً من الشمع ، وكان لزاماً على الحنارين أن يسجلوا جميع الأختام التي كانوا يصنعونها . وكان الحكام يتصلون بالعاصمة عن طريق الرموز (التلغرافية) .

تجارة المال :

احتكر الأجانب تجارة المال في العصور القديمة في بلاد المشرق ، فهي في يد الهنود في الشرق ، واليونانيين في الوسط . وكان ينافسهم بعض الفرس والفينيقيين . ثم انتقلت في عصر الإسلام إلى أيدي اليهود .

وجدت منذ وقت بعيد جالية من أصحاب البنوك والتجار اليهود في أصبهان ، وكان أصحاب البنوك في بغداد يقرضون أموالهم حتى للوزراء . وكان اليهود في الشمال والشرق قد أثروا كثيراً عن طريق التجارة بالجملة فأصبحوا أصحاب رؤوس أموال أو جباة ضرائب^(١) . وفي الغرب كانوا يشرفون على صيادي المرجان من البحر الأحمر ، واقتسموا احتكار هذه التجارة مع المسيحيين . وفي نهاية القرن العاشر ، أتاحت لهم سيطرتهم على المال أن يصلوا حق إلى منصب الوزارة ، وحدث ذلك في وقت واحد في اسبانيا وفي مصر . لكن الفرس الذين صودرت إقطاعاتهم عقب الفتح العربي ، نزلوا إلى هذا الميدان بشيء من الخوف في أول الأمر . ومنذ أوائل القرن الحادي عشر ، كانت البصرة وهي أكبر مركز مصرفي للخلافة تضم عدداً معيناً من البارسيين الذين انتشروا بعد ذلك في سوريا ومصر .

(١) هم رجال المال الذين كانوا ملتزمين بجباية جميع الضرائب . (المترجم)

وفي منتصف القرن الثالث عشر ، لجأ أصحاب (مصارف) الشرق الأوسط في أثناء هربهم من الغزو المغولي ، مع رؤوس أموالهم ، إلى دلهي التي استعمرها المسلمون منذ وقت طويل . وهذه المدينة أصبحت حي المال ، وكانها « وول ستريت » لذلك العصر . كانت وحدة الثروة في الشرق الأوسط هي القطعة الفضية (الدوهم)^(١) حتى القرن التاسع ، ثم بعد ذلك أصبحت الثروة تقدر بقطع ذهبية (الدينار)^(٢) . وفي وادي النيل ، بلد الفلاحين واليد العاملة النموذجية ، كان أغلب التعامل بقطع ذهبية ، وكانت ثروته أكبر الثروات . وفي الشمال الشرقي من تركستان ، لم تكن توجد غير (عملات) من النحاس . ومن هناك اندفع على الدوام الغزاة يحركهم الفقر نحو البلاد الغنية ، وقد ساد الدينار المصري وفي قول آخر المغربي — وهو بمثابة « الدولار في هذا العصر » — على العالم الإسلامي بسبب عياره من الذهب . وكانت قيمته نظرياً تعادل ثلاثة عشر درهماً ، لكن العملة الفضية حين انخفضت قيمتها ارتفع سعر الدينار كل عام حتى لقد أضرب حرس الخليفة في عام ١٠٠٠ مطالبين بزيادة رواتبهم . وكانت أسعار العملة في ذلك الزمان خاضعة لتقلبات خطيرة ، إذ يرتفع سعر الدينار كل عام في موسم الحج . وأخيراً ، عندما كانت الحكومة تحاول التخلص من الأزمات المالية ، كان بيت المال يوازن الميزانية بالتلاعب في عيار الذهب . حقاً ، لا جديد تحت الشمس .

كان إقبال رؤوس الأموال على دلهي يرفع الذهب الهندوستاني المسمى « تنكا » والذي كان يقرب من الدينار المغربي ، وأدى هذا الارتفاع إلى زيادة انهيار الثقة التي سببها سقطت الحكومات الإسلامية بعد الغزو المغولي . لكن عندما انتصر السلطان المملوكي الأشرف على الفرنجة والمغول في نهاية القرن الثاني عشر ، استقر الدينار المصري في الشرق كله وأصبح يسمى « الأشرفي » .

(١) كلمة درهم مشتقة من كلمة درخمة اليونانية ، وكان الدرهم يحتوي على ثلاثة وأربعين جراماً من الفضة . (المترجم)

(٢) كلمة دينار مشتقة من اللفظ الروماني دينار يوس ، وكان يحتوي على ٥٦ جراماً من الذهب . (المترجم)

(١٢)

بغداد وبلاط الخلفاء

المدينة المستديرة :

حكم في سنة ٧٥٠ أبو العباس أول خليفة عباسي امبراطورية كانت تمتد من نهر السند حتى المحيط الأطلسي . ولما كان الدين ساعده لتولى الحكم من أصل فارسي ، فقد أخذ كل ما هو فارسي من ألقاب ، وشراب ، ونساء ، وألحان ، وأفكار ، وأساليب ، تنفذ إلى البلاط العباسي . وأخذ تأثير هذه الأمور يخفف من جفاء العربي ، ويهدد الطريق لعصر جديد من الثقافة . ومن جهة أخرى عرض الوضع الجغرافي للعاصمة الجديدة هذه الثقافة إلى تيارات آتية من الشرق . وراحت فارس تغزو بالفكر الذين كانوا قد قهروها بالقوة قبل مائة عام . غير أن العرب لم يقبلوا الردة في أمرين جوهرين : هما الدين واللغة .

ولما توفي أبو العباس سنة ٧٥٤ ، خلفه المنصور وقد بلغ الأربعين من العمر . كان طويل القامة ، نحيل البنية ، صارم الخلق ، شديد الخلق ، قليل الشكوك ، مثقفاً ، محباً للفنون والآداب أكثر من حبه للنساء أو النبيذ ، وقد أعاد تنظيم الحكومة ، والإدارة ، والجيش ، وأعاد كل ما أخذته أو حصل عليه المستغلون بطرق غير مشروعة ، وأدار الشؤون المالية باتزان وحكمة ، وجعل على رأس الوزارة خالد البرمكي ، من أسرة البرامكة المشهورة ، وأنشأ بغداد التي سبقت اسمها في التاريخ أسطورة الزمان .

كانت بغداد مدينة قديمة بابلية على الشاطئ الغربي من نهر دجلة ، تخلو من البموض الذي كان ينتشر في البصرة والكوفة ، وهي على مسافة طيبة من هاتين المدينتين حيث أخذت تتجمع الطبقة العاملة . وكان الخليفة نفسه يقول : « إنها موقع عظيم لمعسكر حربي » وكان يرى فيها بدون شك موقعاً استراتيجياً عظيماً ، في مأمن من جهة البر ، وعلى اتصال مع ذلك بدجلة والفرات ، وقنواتهما ، وعلى اتصال كذلك بالمدن

الكبيرة ، والأقاليم الحصبة الداخلية من جهة ، ومن جهة أخرى بالخليج الفارسي وسائر موانئ العالم . وكان هذا الموقع العجيب سبباً في الرخاء المباشر لبغداد . وكانت المدينة محاطة بسور دائري تحميها حصون مزدوجة ، وخنادق عميقة . وهناك سور ثالث كان يحمي مدخل الأحياء المركزية . وكانت حوائط السور مفتوحة بأربعة أبواب مذهبة تفضي إلى الجهات الأربع من الامبراطورية . وفي الوسط شيد قصر الخليفة وباب الذهب ، ثم في كل جهة من الجهات الأربع ، بليت على الفور قصور الأمراء (حكام الولايات) . وحول المدينة المقسمة كأنتها ميناء ساعة ، اثنا عشر قصراً كان يسكنها رؤساء الإدارات الكبرى وكانت كل هذه المجموعة تحيط بقصر الخليفة بحسب تخطيط ذي مركز واحد خطه مهندس معماري فلكي أراد أن يمثل الصورة المعروفة عندهم للسماء .

القصور :

شيد المنصور خارج الأسوار وعلى نفس الشاطئ مسكناً صيفياً أحبه هارون الرشيد حباً جماً ، لأنه أمضى فيه الشطر الأعظم من حياته ، ومن نوافذه كان يستطيع أن يشاهد السفن والصنادل التي تفرغ البضائع القادمة من جميع موانئ العالم المشهورة على أرصفة نهر دجلة . وبني المنصور في مواجهة دجلة على الشاطئ الفارسي ، قصراً لولده المهدي . وحول هذا القصر قامت مدينة ، لم تلبث أن فاقت المدينة المستديرة ، لكن المدينتين ظلتا مرتبطتين بجسرين من السفن .

ومن العسير أن نستعيد بكلمات ذكرى روعة القصر الماسكي وترف الخلفاء ، بل إن أبهة القصور الفارسية والبيزنطية وبذخها أضعف من أن تعطى فكرة صحيحة عن ترف قصور الخلفاء العباسيين . وربما تحدث الأرقام على الرغم من جفافها — عن هذا الترف على وجه أحسن . فنقلنا عن المؤرخ أبي الفداء ، كان قصر الخليفة مفروشاً بأثنين وعشرين ألف بساط على الأرض ، وبثمان وثلاثين ألف بساط على الحوائط ، منها ألف وخمسمائة من الحرير المطرز بالذهب . وكانت قاعة العرش ذات تأثير في النفس وبخاصة بسترها ومساندها المتقاة من بين أجمل صناعة فارسية . وكانت زبيدة الجميلة زوجة هارون الرشيد تنقل حذاء مزينا بالأحجار الكريمة ، ولا تحب — شأنها في

ذلك شأن زوجات العظماء في جميع العصور — إلا الآنية المذهبة أو الفضية والأشياء الثمينة المرصعة بالماس والأحجار الكريمة . وقد بلغ هذا الميل للأبهة إلى درجة أنه كانت تغطي في الحدائق جذوع أشجار النخيل التي لا حصر لها بطبقة من خشب «التك» المذهب .

الثروات :

كان زواج المأمون من ابنة وزيره في سنة ٨٢٥ فرصة للافراط في تبديد الثروات . « ففي الاحتفال بالزواج : أفرغ ألف لؤلؤة ذات حجم منقطع النظير من طبق ذهبي على رأس الزوجين اللذين كانا واقفين على حصيرة ذهبية مزينة كلها باللؤلؤ والياقوت . وكانت هناك شمعة من العنبر الداكن تزن قرابة مائة كيلو جرام تحول الليل نهاراً .

وأمر المقتدر فيما بعد بإنشاء « قصر الثريا » الذي يمكن أن يتصور اتساعه بتسعة آلاف من الجياد ، والبغال ، والإبل التي كانت ترقد في اسطبلاته . وبنى المقتنى بالقرب من هذا القصر في سنة ٩٠٢ قصر التاج الذي كان يشغل بمحادثته وأبراجه عشرين كيلومتراً مربعاً . وفي سنة ٩١٧ أقام المقتنى ، بدوره « قصر الشجرة » وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه كان قد أقيم في هذا المكان شجرة صناعية بها ثمانية عشر فرعاً من الذهب والفضة . وكانت تقف على الأغصان وكذلك على الأوراق المغطاة بطلاء مذهب طيور ميكانيكية مصنوعة من نفس المعادن الثمينة . وكانت الأغصان تتراقص ، والأوراق تهتز ، والطيور تبدأ تغرد إذا ما دأبت هذه الشجرة نسمة خفيفة ، وكان سفراء بيزنطة — في أثناء استقبال المقتدى لهم بأبهة كبيرة ، يأخذهم العجب من منظر قصر بغداد بأروقته المرمرية وزخرفته الفاتكة كل تصور ، وأثاثه الرائع وكم كان عجبهم عظيماً عند ما كانوا يشهدون سروج جياد الامبراطورية من الذهب أو الفضة وأغطيها من خيوط من الحرير أو الذهب أو الفضة ، وبالقوارب الملصقة وهي قصور تمخر عباب دجلة — واستعراض الجيش المؤلف من ستة عشر ألف جندي مترجلين وعلى صهوة الجياد في ملابس رسمية متألثة ، ومن خلفهم سبعة آلاف خصي أبيض أو أسود، وسبعائة من حراس القصر ، ومائة أسد مع مروضيها .

هارون الرشيد :

سيظل هارون الرشيد إلى الأبد (٧٨٦ — ٨٠٩) من بين جميع الملوك العظام

النموذج لخليفة أسطوري في تقاليد المجتمع الإسلامي وتصفه قصص العصر على أنه ملك مرح مثقف ، ومستبد وعنيف على حسب الظروف ، لكنه إنساني إلى أبعد الحدود الإنسانية . ويحكي المؤرخون أنه كان دائماً تقياً متمسكاً بالدين ، يؤدي فريضة الحج في مكة مرة كل سنتين ، يطيل السجود في أثناء الصلوات التي يؤديها كل يوم .

كان الرشيد جليساً مرحاً ، ذواقة للطعام ، وقد بلغ عدد زوجاته سبعاً ، واتخذ مائتين من الجواري ، وأنجب اثني عشر ولداً ، وسبع عشرة بنتاً ، كلهم من أبناء الجواري ، ماعدا الأمين الذي أنجبته له زبيدة . وكان المال يتدفق من بين يديه فأغدق على الشعراء ومنحهم منعماً جزيلة تفوق كل وصف . فقد منح « مروان » (ابن أبي حفصة) في قصيدة مدح واحدة قصيدة خمسمائة ألف قطعة من الذهب ، وخلعة سنوية ، وستة أرقاء صغار يونانيين ، وجواداً من جياده المفضلة . وكان كرمه الفائق يجذب ذوي الكفايات والمواهب تجاه العاصمة كأنه قوة جاذبية لا يمكن دفعها . ولذا كان يتجمع حوله « مجلس لا يبارى » من الشعراء ، والفقهاء ، والأطباء ، والنحاة ، والأدباء ، والموسيقين ، والمتفنين . وذوي العقول الراجحة ، وكان على دراية بتقييم آثارهم وأعمالهم بروح الانصاف وكان يكافئهم بسخاء . وكان هو نفسه شاعراً ، وعالماً متبحراً ، وخطيباً بليغاً مفوهاً . ولم ينتظم أي بلاط في التاريخ كله جماعة متألفة من رجال الفكر مثل هذه الجماعة .

اختص الرشيد بندماء ذوي مواهب منقطعة النظير لا تزال شهرة بعضهم باقية حتى اليوم . وقد ورثوا جميعاً البديهة الحاضرة ، والذاكرة الواعية ، والمواهب المتنوعة ، وكانوا في الوقت نفسه مغنين ومؤلفين ، وشعراء ، وعلماء متبحرين ، وذات مساء عند ما كان مخارق يغنى في زورق على نهر دجلة ، شوهدت من جميع الجهات ، وفي الشوارع ، وعلى المياه مشاغل مضيئة وقد أخذت في التحرك في اتجاهه ، وفي سنى الليل ، كان كل فرد متمطياً لسماعه عن قرب قريب .

كان الشاعر الماجن أبو نواس أحد أصفياء هارون الرشيد ونديمه المرح . وكان يثيره دائماً فجوره ومبازله ، لكن أبا نواس كان يتخلص ببراعة من كل ورطة يقع فيها ، وربما استعطفه بأبيات من الشعر الجميل . وقد وصف أبو نواس بطريقة واضحة

كل الوضوح في « ديوانه » الشعري الحياة الخرافية والجميلة لهذا البلاط الذي كان يجمع بين اللذة والمجد . وها هو ذا أبو نواس يروي قصة احتفال مشهود قاد في أمثائه الأمين نفسه طيلة ليلة كاملة — رقصاً تمثيلاً منقطع النظير شارك فيه عدد لا يحصى من القيان التجميلات . وغنين فيه حتى الفجر على لحن فرقة موسيقية ، على حين كان المتفرجون يشاركونهم في فرحتهم . والأمين نفسه هو الذي أمر بتشيد قوارب فاخرة من أجل هواياته في التجديف على نهر دجلة تمثل حيوانات : على هيئة الدلافين ، والأسود أو النسور وقد تكلف كل قارب من هذه القوارب بضعة ملايين من الدراهم .

وتوجد كذلك أمثلة أخرى على هذا البذخ الذي لا يندى من حياة الخلفاء في بغداد . وروى أن ابراهيم المهدي أولم لأخيه هارون ولبة ، فقدم طبقاً يتكون من أسنة الأسماك شديدة الرقة والصغر إلى درجة لا توازن ؛ ويحدد صانع هذا الطبق عدد الأسماك التي استخدمها وقيمة هذا الطبق ، ومن الخير لنا أن ننسأه حتى لا نجهد ذاكرتنا بما يمكن تصويره من هذه الخدمات الفائقة في إعداد مثل هذا الطبق الفريد في نوعه^(١) . كان الخلفاء مشبعين بالرق ، والشعر ، وألوان من الموسيقى ، والعطور العبقة ، والحلى من اللؤلؤ ، والأحبار الكريمة ، ولعله من المستحسن أن تترك هذه الأبهة المفرطة لنرى كيف كان الناس يعيشون خارج البلاط .

المجتمع :

لم يكن مثل هذا الترف ممكناً لو لم يكن سكان الإمبراطورية الإسلامية قد أفاضوا بلشاط زراعي ، وتجاري ، وصناعي . فقد كان الرخاء يعم وديان نهر دجلة ، والفرات ، والنيل ، ومدرجات إيران وسورية ، وكذلك المصانع الصغيرة في المدن الكبيرة وأطورة (أرصفة) الموانئ .

ومن كل جهة ، كان الصناع والتجار يسمعون إلى خلق المنتجات النادرة وصنعها وكشفها مما كانت تتطلبه عظمة بلاط الخليفة وترفه . وابتداءً من المباني الملكية على

(١) لاشك أن هذه إحدى المبالغات التي يلجأ إليها المؤلف في أكثر من موضع في هذا الكتاب (المترجم) .

ضفاف نهر دجلة خططت شوارع ضيقة ومتعرجة للوقاية من الشمس ، محفوفة على جانبيها بحال تجارية كبيرة صاخبة ، وتنتهى إلى الحى الذى كانت الطبقة اليسورة قد أقامت فيه مساكنها . وفى المدينة ، وفى ضواحيها ، وعلى امتداد كثير من الكيلومترات ، كانت ترتفع منازل متواضعة وبسيطة فى مظهرها الخارجى ، لكنها موشاة بالذهب والنفضة فى الداخل . وفى الريف المجاور ، كان الاثرياء من بين رعايا الخلفاء يملكون منازل (فيلات) فاخرة ، مشيدة وسط حدائق تشبه البساتين . ولم تكن هذه الحدائق إلا حمامات ونافورات ، وجداول ، وشلالات من المياه الصافية ، وأزهاراً ، وفواكه ، وغابات صغيرة ظليلة ، كانت هذه البيوت على غرار ما وصفه فيما بعد فوكيه Fouquet أمين شئون لويس الرابع عشر . ويحكى أن جعفر الوزير ، البرمكى ، كان قد نشر هذه الطريقة ، وابتنى لنفسه منزلاً فاخراً جداً استرعى الانظار ، وأثار على الفور الحسد ، ولكى يخمد غضب الحائدين ، تظاهر بتقدمه إلى الخليفة ، ثم حاول أن يبقى فيه ، لكن قيل أن مصيره قد انتهى إلى أفطع مأساة .

قد لا يكون من لغو الكلام أن تقدم هنا الأسباب لنكبة منقطعة النظير ، لأنها تبدو انعكاساً لأخلاق بلاط الخلفاء ، وكان هارون يحب جعفرأ حباً حمياً . وقد جاء فى أحد توقعاته ما يشير إلى هذا الحب . وهذا التوقيع أصدق من أية وثيقة أخرى « أربعمائة ألف قطعة من الذهب ثمن خلعة لجعفر بن يحيى الوزير » مثل هدم المنة وغيرها من المائن الأخرى الكثيرة ، مما كان يبعث على التشنيع والمكيدة ، لم يقدر لها أن تستمر طويلاً . وفى ذات يوم أغضب جعفر الخليفة لسماحه لمتعرد بالهرب كان هارون قد أعطى الأمر بإعدامه . وكان أن فقد المحبوب حظوته . على الرغم من أن أخت هارون العباسية كانت تشغف حباً بجعفر ، وقد أضيفت إلى التهم التى كان الخليفة قد جمعها ضده تهمة أخرى هى أنه كان فارسياً . واعتماداً على تلك الحجج لم يوافق الخليفة ، وهو العربى ، الغيور ، على تزويج أخته إلا على شرط عدم رؤية الزوجين كل منهما الآخر إلا فى حضوره . وأى شرط هذا ، وأأسفاه ، إنه شرط من الصعب احترامه ، وجعفر والعباسية اللذان كانا يداومان على اللقاء خفية ، قد أنجبا بعد قليل طفلين ، وريبا فى خفية أشد . وعندما علم هارون بهذا الخبر ، استولى عليه الغضب ، فنفذ حكم الإعدام فى أخته ، وأطاح برأس جعفر ، ثم عندما تيقن من تنفيذ حكم الإعدام فى الاثنين ، طلب أن يرى الطفلين ، وتحدث إليهما طويلاً ، ولأطلمهما ،

ثم أمر بمخنفهما^(١) . وانتهى الأمر بوالد جعفر الوزير يحيى الذى كان وزيراً كبيراً ، وأخيه الموظف الكبير — انتهى الأمر بهما إلى السجن ، وصودرت أموالهما الضخمة .

بحث المؤرخون عن أسباب أكثر عمقاً لهذه النهاية القاسية لحكم البرامكة . ف يرى ابن خلدون فى هذه النهاية أن « السبب الحقيقى » يرجع إلى : « وإنما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه » . وربما لم يحتمل الخليفة أن يشاهد إلى جانبه سلطاناً كبيراً مثل سلطانة ، وبلاطاً آخر غير بلاطه . والحق أن الوزراء الذين قسّدوا كل أتران ، كانوا ينافسون القصر ، ويسابقونه فى البذخ ، وقد حوطوا أنفسهم بشعراء ، وبمهرجين ، وبفلاسفة ، فكان لا يمكن هذا الوضع أن يدوم .

لم تكن الحياة إذن فى بغداد خالية دائماً من الهوموم والدسائس والمآسى ، لكن المجتمع الراقى كان يتناساها بسرعة فى الترف والملاذ ، وفى الصيد ، وفى سباق الخيل ، والبولو ، وقذف الرمح ، ورمى القوس والمبارزة بالسيف ، واللعب بالكرة ، والمطارق الخشبية ، كما يتناساها أيضاً فى المطاعم الريفية على صفاف نهر دجلة التى كانت الطبقة الراقية فيها تتذوق الفراخ المسعنة مع بعض الجوز الطازج ، وهناك أيضاً ، كانت تعد الولائم باللوز وبالبين ، وبالمسكرات اللذيذة ، وبالأشربة المعطرة مع مستخرجات البنفسج ؛ والورد ، أو توت العليق وبمرق البلح ، وبالنبيذ ، هذا الشراب المفيد الذى سمح بتناوله منذ أن أفق الامام أبو حنيفة بشربه^(٢) . وكان هناك احتفال يزكى بمخاصة تناول هذا الشراب ، هذا الاحتفال هو الاحتفال الأول بيوم الثلاثاء السابق للصوم الكبير عند المسيحيين . وبمناسبة هذا الاحتفال ، كان الرجال المتشكرون فى ملابس سيدات .

(١) قصة ظاهر عليها أثر التوليد والاختراع لمخالفتها أخلاق الرشيد ، ولم نجد لحادث خنق الطفلين ظلاً من الحقيقة فى كتب المؤرخين المعتمدة . (المترجم)

(٢) يغلب على الظن أن المؤلف لم يتعمق رأى « أبى حنيفة » بصدد تحريم الخمر ، وقد جاءت السنة متواترة أن النبي عليه السلام حرم الخمر وعليه انعقد الإجماع ، ولأن قليله يدعو إلى كثيره ويوجب الخير . (المترجم)

والنساء المتنكرات في ملابس رجال، تحت وجه مستعار يستطيعون أن يرقصوا ويضحكوا دون حذر، ولكن أصل الرقص التنكري لا يرجع تاريخه إلى هذا الرقص المقام في الاحتفال بيلة الثلاثاء السابق للصوم الكبير، بل الحقيقة، أن هذا الرقص المتنكر كان جزءاً من منهاج معظم الاجتماعات العاة التي كانت تنطوي كذلك على روايات تمثيلية بالحركة فقط، وأشباح غريبة تعرض بوساطة الفانوس السحري. ولكي يذهب الرجال والنساء إلى هذه الحفلات المسائية كانوا « يتحلون بالجواهر، ويرتدون ملابس فاخرة وملونة من نسيج مطرز بالحرير والذهب » وكانوا يتعطرون بالعنبر الداكن وبالبخور. وكان نساء المجتمع لا يشتركن في مجتمعات الرجال، وكانت تحمل محلهن جوار أنيقات تفوق موهبتهن الفنية في الرقص وجمالهن الفتان كل تقدير.

وبخلاف الأعياد والحفلات المسائية الراقصة كانت النخبة من الرجال ينظمون مجتمعات شعرية، ومجالس فلسفية كان المرء فيها يجادل عن علم وبصيرة رجب. وكانوا يجتمعون أيضاً على الملأ لتلاوة القرآن وتفسيره. ولقد كان هذا العصر المرح حقاً لا يخلو من متع أكثر سمواً فكان يفاخر بالمذهب الصقلي: وكانت المدارس الفكرية لا حصر لها وكانت الفنون والعلوم تشجع عن حكمة، وكان الجو كله يعوج بالشعر، وبالمتعة الكاملة في الفهم، وكانت حياة بغداد تنطوي على شيء من التسامح. وفي زمن الرشيد، لم تسكن المدينة قد بلغت بعد من العمر خمسين عاماً، لكنها اعتبرت مركزاً عالمياً في الدرجة الأولى من القدر، وكأنها مكان مقدس للفكر. وإذا كانت عظمتها قد نمت في عصر الامبراطورية، فإنها أصبحت بسرعة المنافسة لبيزنطة، وتبعاً لبعض التقديرات، كان يبلغ تعدادها في القرن الحادي عشر مليوناً ونصف المليون من السكان الذكور، على فرض أن التقدير الإحصائي لا تذكر فيه النساء، ويتيح هذا الرقم تقدير عدد السكان الكلي في بغداد بثلاثة ملايين من السكان. ومن المؤكد أنه كان يوجد في ذلك الزمان في قلب المدينة ستة آلاف حمام، وثلاثون ألف زورق، وسبعة وعشرون ألف مسجد. ويلبغى ألا ندهش من هذه الأرقام الأخيرة. وفي بداية الإسلام، كانت تطلق كلمة « جامع » على كل مكان لاجتماع أمين، وقد يكون هذا الجامع مدرسة أو نادياً أو حق سوقاً، أما الحمامات، فلم تكن فقط أمكنة للطهارة، بل كانت كذلك أمكنة للهو والترف.

جميع الأديان كانت ممثلة في هذه المدينة. وكان المسيحيون يملكون تحت تصرفهم

عددا لا يمحى من الأديرة ، وكانت الطائفة اليهودية لها محكمة الخاصة وسجنها . وكان بعض الوزراء مسيحيين ، أو فرساً أو يهوداً ، وفي قصيدة هجائية تجاه أخلاق « آخر الزمان » يؤكد ابن المعتز أنه في سنة ٨٩٠ أخذ « الدميون » في الطواف على ضهوة الجناد ، وكنا نسمع التحدث منذ وقت طويل عن مجلس من عشرة أعضاء كانت اجتماعاته تتسم بالتسامح المتبادل وكان هؤلاء العشرة يتكونون من سفي ، وشيبي وخارجي ، ومانوي وشاعر غزلي ، ودهرى ، ومسيحي ، ويهودى ، ومجوسى ، وزرادشتى . وفي الحقيقة ، ظلت هذه المدينة الجامعة لكل طوائف البشر نموذجاً للتسامح ، وللادارة الحكيمة ، وللأناقة .

الشعب :

ما الذى كان يصنعه عامة الناس ، وسواد السكان أثناء هذا العصر ؟ إن الشعب كان يحمل بكل سهولة على اكتافه — عبر كل العصور — كل ثقل هذا الصرح من العظمة . وكان العمال والأجراء والصناع — غير المبالين بجولات المتعطلين المتأقين — يؤدون عملهم المرهق بجهد تخففه البشاشة على ظهور السفن ، وعلى الأطورة (الأرصفة) ، وفى المشاغل ، وفى الأسواق ، وكانت كل طائفة تملك مشاغلها أو حوانيتها ، ومعالها أو مصانعها المتجمعة فى نفس الحى .

كان سوق الحدادين يضاء بمجموعة من الأضواء فى شكل حزمة . وكان سوق النحاسين يدوى بضربات المطارق . وكان صناع السكاكين والآلات الحادة وصناع الأقفال ، وصناع الأسلحة يطرقون ، ويردون ويصقلون الحديد ؛ وكان سوق صناع الجواهر يشع بالأحجار الكريمة المركبة على فن عربى من الذهب أو من الفضة ، وفى دكاكين الخياطين ، كانت تباع وتوزن الأنسجة ؛ وكان صناع الأحذية يصنعون نمالاً أنيقة ، وبقايب ضخمة ؛ وكان صناع الفخار ينحنون على (طولاتهم) ويحركون مخاريطهم بالقدم فيشكلون آنية من كل نوع . وينتظر صناع الأمشاط والسلاسل وهم جالسون على الطريقة التركية بيع ثمرة ما صنعوا . وفى وسط الشارع ، كانت صفوف من الإبل والحمر والبغال تملأ الجو بقرع أجراس جلاجلها التى يصاحبها بغير ملل رنين الأجراس الصغيرة وصياح الباعة المتجولين . وكان عابر الطريق وهو ضال بين هذا الجمع من الناس المزدهم يستطيع أن يتناول كمكاً ، وزلاية ، وأشربة مسكرة ،

وحلاوة ، وكذلك سمكاً مقلباً ، وباذنجاناً ، وقرعاً كان يبيعه أصحاب المطاعم المتواضعة . ثم بعد أن يحصل على نبيذ في الأديرة المسيحية ، كان يذهب ليتعاطاه في مقاه صغيرة يملكها اليهود ، وفي طريقه ، كان يمر سوق الخشب ، والأعشاب ، والفواكه ، والأزهار ، والتوابل التي كانت تعبق الجو بأريج معطر عطراً شديداً ، وكان مثل هذا المنظر يتكرر كل يوم في بغداد .

كان البناء يجري بهمة ونشاط في بغداد : فكان النجارون والبناءون ، والحفارون ، والرسامون يشكون في عى (الأسواق المالية) مؤتمرات حقيقية صغيرة للعمل الذي لم تكن تعريفته تقرر ، وأجر اليد العاملة في اليوم ، بل كان يرى جميع كذلك في هذه الأحياء استخدام العمال أثناء الفترة التي تتوقف فيها الأعمال . ومن بين هذه الطوائف ، توجد طائفة كانت تتحرك بسرعة على طول أطورة (أرصفة) النهر وهذه الطائفة هي طائفة الجمالين ، وعمال السفن ، وملاحى السفن النهرية . وكانوا يتوقفون عن العمل لأسباب سياسية ، وكذلك بسبب مشكلات الأجور . وكان يحدث أحياناً كآبة مدينة معاصرة ، أن تفتقر بغداد إلى الدقيق أو البلح أو الزيت فيتدخل رجال الشرطة في الحال ويهدثون من ثورة المضربين عن العمل ويميدون النظام من جديد .

وعلى الجملة ، كان هذا العالم الصغير من جمهور العامة الخالي من الاهتمامات الفلسفية ، يعمل دائماً بذكاء وبشاشة . وبين الوقت والوقت ، كان دولاب العمل اليومى يقاطع في الشارع بعوكب عرس أو ختان ، لكن الضوضاء كانت تتوقف مع أى إجراء للشرطة ، وتعود الحياة اليومية إلى مجراها الطبيعي ، وكان رجل الشعب المسلم وهو القنوع حقاً بالنسبة للضروريات فخوراً بمسجده ، وبعدينته ، وبمخلفته وكان يشعر شعوراً مهماً بأن بعض ذلك المجد يرجع إليه .

(١٣)

الإسلام في الغرب

الأمير عبد الرحمن :

في سنة ٧٢٥ ، كانت شخصية روائية تلقى عصا التسيار في أسبانيا . . هذه الشخصية ذات مظهر غريب ، صاحبها طويل القامة ، نحيل الجسم ، ذات سمات واضحة ، وأنف أفنى ، وشعر أحمر ، وهي الشخصية الوحيدة التي بقيت على قيد الحياة من سائر الأمراء الأمويين : إنه عبد الرحمن .

في سن العشرين ، كان عبد الرحمن قد قذف بنفسه في نهر الفرات قاراً من فرسان العباسيين المجدة في طلبه ، فعبر النهر سباحة وتنقل من قبيلة إلى قبيلة ، وطورد دون توقف في كل مكان . وقد عبر سوريا وفلسطين ، ومصر ، وصحراء ليبيا ، وطرابلس ، وإفريقية ، وبلاد المغرب بغير مال ولا صديق ، ولا دابة ، متخفياً بإحكام من الجواسيس الذين كانوا يتبعونه حتى في آخر العالم . وأعاد ثانية — وهو متخف — الطواف بالبحر الشاسع الذي كان أسلافه قد اجتازوه فاتحين قبل ذلك الوقت بأقل من نصف قرن ، وعند ما وصل الفارس الضال إلى أسبانيا نصب نفسه أمير قرطبة بمساعدة فرق سورية ، وفدت من دمشق ، وظلت على ولائها للأمويين ، وبمعاونة هذه الفرق ، قهر جيشاً كان مكلفاً عزله ثم أرسل هدية إلى الخليفة في بغداد ، لم تكن سوى رأس الحاكم الذي كانت عليه مهمة ذبحه . . وقد لف هذا الرأس في علم العباسيين الأسود ، وحفظ في الكافور والملح . وشهق الخليفة المنصور — الذي تعرف على هذا الرأس بقوله : « حمداً لله الذي جعل بيني وبينك بحراً بأكمله » .

لم تتوقف هذه القصة الشرقية الخالصة والحقيقية أيضاً عند هذا الحد . وراح هذا الهارب الخالي الوفاض ، والمزود فقط بدمه الملكي وصاحب الشجاعة النادرة يؤسس أسرة قدر لها من الحظ والشهرة أن تعدل أسرة خصومه الأقوياء . وتواصل القصة الحديث . كان هذا البطل الخيالي رجلاً رقيق القلب ، وفي أوج سلطانه ، كان يتلهف

على مواطن طفولته إلى حد المحافظة في شغف على شجرة النخيل الوحيدة في الأندلس والتي كان يهدى إليها أبيات شعره . لكن هذا الرجل الرقيق ، وصاحب قصائد الرثاء الصغيرة لم يكن رجلاً ضعيفاً ، فقد كون بسرعة لنفسه جيشاً من أربعين ألف بربري منظمين ومدربين . ومنذ ذلك الوقت تحقق أمن مملكته ، وتكشف كذلك عبد الرحمن عن أنه أمير عظيم في السلم والحرب معاً .

كان مولماً بالبناء ، شغله الشاغل إسعاد رعاياه ، فأمر أولاً بتشييد مجرى ماء يحمل المياه العذبة إلى قرطبة ويقوم بتوزيعها في المنازل والحدائق والنافورات والحمامات ، ثم أقام حصوناً حول المدينة ، وشيد خارج الأسوار القصر الملكي في الرصافة لكي يعيد به ذكرى قصر طفولته في سوريا البعيدة ، وأخيراً ، أسس المسجد الكبير في قرطبة الذي أصبح قبلة الإسلام في الغرب ، وأقام جسراً على نهر الوادي الكبير ، وأخيراً ، بعد أن وسع مدن إمبراطوريته ، وجعلها ، شرع في جمع شمل العناصر المختلفة للشعوب في الغرب : من عرب وبربر ونوميديين وأسبان . . الخ ، ثم يبق على كاهل هذه الحركة التي ستمتد عبر القرون التالية أن ترفع من شأن أسبانيا الإسلامية إلى المكانة الأولى من الحضارة . وعند ما مات عبد الرحمن في سنة ٧٨٨ كانت الثقافة ، والشعر ، والفن ، والطريقة الفنية الأسبانية المغربية قد أخذت في توجيه أتباعها ناحية العالم الغربي .

تابع عبد الرحمن الثاني هذا العمل السلمي المزدهر على الرغم من أعمال الكفاح التي كان عليه أن يقوم بها ضد النورمنديين الغزاة ، وضد المسيحيين على الحدود ، وقد قيل إنه كان — على غير علم منه — المصدر الأول للاضطرابات التي ظهرت في أثناء حكم خلفائه على الرغم من تساهله المتزايد تجاه بعض الثوار . وفي الأقطار الإسلامية سواء في الشرق أم في الغرب ، كانت السلطة التي لا تفرض نفسها ، تمهد الطريق لسقوطها . فقد دمرت في الحال ثورات من القبائل واضطرابات أهلية ، ومعارك ديلية أو عنصرية ، وأعمال قطع الطرق دمرت هذه الأعمال تماسك الإمبراطورية واتحادها للذين أقامها بجهد جهيد ، عبد الرحمن الأول . وكانت الدولة الجديدة تهتز من أسسها وكانت طليطلة وأشباهة تسعيان لاسترداد استقلالهما .

خلافة قرطبة :

عند ما تولى عبدالرحمن الثالث الحكم في سنة ٩١٢ ، كانت البلاد مفككة ، لكن هذا الفتي البالغ من العمر واحدًا وعشرين عاماً ، راح يصعد على قمة الظروف ، فقد قهر بذكائه وعزمه مثل سلفه الشهير المدن الثائرة ، وأعاد فتح الإمارات الواحدة بعد الأخرى ، وأخضع الطبقة الارستقراطية العربية التي كانت تستعد لإعادة تأسيس نظام إقطاعي .

كان سياسياً مهنكاً ، وخبيراً يعرف كيف يجمع حوله رجالاً مختلفي الولاء بدقة متناهية ، فنجح عن طريق محالقات بارعة في المحافظة على التوازن بين الدول المتنافسة ، وحكم بيقظة وبغاية وبتابعة جديرة بأعظم الملوك في التاريخ ، فلما استتب له الأمر قضى أخيراً على أعدائه . لقد رد هجمات دون سانكو ملك نيرا واستولى على عاصمته ودمرها فكف المسيحيون منذ ذلك الحين عن إقلاقه . والحق أنه ، لم يحصل على هذه الانتصارات الباهرة بدون مشقة بالغة . فبخلاف حرصه الخاص القوي — الذي يربو على أكثر من ثلاثة آلاف جندي والذي كان نواة عسكرية منتخبة لجيش دائم — كان قد شكل جيشاً من أكثر من مائة ألف رجل مجندين من بين الأسرى الصقالبة الذين أسرهم الجرمان وباعوهم . وكان جنود حرسه يؤخذون في سن المراهقة ويدربون ويثقفون بسهولة وفقاً للنظم العربية . وقد اتبع فيما بعد هذا النظام نفسه في مصر مع المماليك ، وفي تركيا مع الانكشارية . وبفضل هذه الفرقة من المرتزقة واسكنها الأمانة المخلصة استطاع الخليفة أن يقلل من الانقسامات وأعمال النهب . وأن يجمع التزعات الاستقلالية للطبقة الارستقراطية العربية وقد ظفر عبدالرحمن الثالث بعد أن استعاد سلطانه بشهرة عظيمة كرجل مذهب ، وكريم ، وملاطف . ولما عمل حساباً دقيقاً لقوته الخاصة وفي الوقت نفسه لأفول سلطان بغداد ، فقد نصب نفسه بنفسه في سنة ٩٢٩ خليفة وأميراً للمؤمنين وحامي حمى الدين .

وسبق عبدالرحمن الثالث أعظم شخصية للأمويين في أسبانيا . وتمثل فترة حكمه — وهي فترة غريبة كل الغرابة إذا قيست بالفترة التالية لها في ظل الخليفتين اللذين سيخلفانه تبعاً — ذروة التسلط الإسلامي في الغرب . وهذا الرجل الذي كان

عظيماً ترك — عند ما مات في سنة ٩٦١ هـ — شهادة للتاريخ تستحق التأمل بالنسبة لحظه المتواضع من الحياة الإنسانية :

« أيام السرور التي صفت لي دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، ويوم كذا من كذا ، وعدت تلك الأيام فكانت أربعة عشر يوماً ، فاعجب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفاتها وبخلها بكال الأجوال لأولياتها » .

هذا الخليفة الناصر حليف السعود المضروب به المثل في الارتقاء في الدنيا والصعود ، ملكها خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام ، لم تصف له إلا أربعة عشر يوماً ، فسبعان ذى العزة القائمة والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو ..

استمد ولده ، الحكم ، من الخمسين سنة الرخية الخالية من السعادة ، نظاماً حكيماً ، فقد انتفع بحكم سلمي ، واستطاع أن يكرس نفسه في تجميع — ل المدن ، وأمر بتشيد ملاجئ للفقراء ، ومستشفيات وحمامات وأسواق ، ومدارس ، ومساجد ، وأصبحت جامعة قرطبة في ظل قوته الدافعة أشهر جامعة بين سائر الجامعات . واستفاد على الدوام الشعراء ، والمتفنون والعلماء من مساعدته الكريمة ، ولكن في الوقت الذي كان ييسر فيه نشر كتبهم كان يجمع كذلك لنفسه أكبر عدد من المؤلفات الأصلية . كما أن مكتبته الخاصة التي نسقها كانت تحتوى على أكثر من أربعمئة ألف كتاب . وكانت المناوين الفريدة تشكل فهرس من أربعة وأربعين مجلداً . في كل فهرس منها عشرون صفحة كانت مخصصة للمؤلفات الشعرية .

ولم يكن خليفته هشام قادراً على الحكم فتولى المنصور (بن أبي عامر) وهو قائد مشهور الاسم . الحكم من بعده ، وأنشأ جيشاً يدين بالولاء له . كان سياسياً داهية فعمل على كسب تأييد المفكرين والفقهاء . وفي الوقت نفسه كان يجيد ملاطفة الشعب . وانطلق في حملاته كل ربيع كما ينطلق الشعراء إلى الحقول حيث دمر الدول المسيحية المجاورة على التوالي . وقلب رأساً على عقب كاتدرائية سان جاك دي — كومبوستل . وأمر بعض الأسرى بحمل أجراسها البرنزية من برجها الشهير على أكتافهم ، وعادت فيما بعد هذه الأجراس إلى الكاتدرائية بالطريقة نفسها لسكنها في هذه المرة كانت محملة على أكتاف المسلمين . ومات المنصور في سنة ١٠٠٢ عند عودته من حملة مدمرة في قشتالة ..

لم يعد تاريخ أسبانيا العربية من بعده إلا مغامرة تتميز — بالاضطراب والحيرة .
وقد اتحدت مختلف الطبقات الاجتماعية ضد خلفاء المنصور وعزلوهم سنة ١٠٠٢ فاستولى
البربر سنة ١٠١٢ على قرطبة ونهبوها . وشقت المدن عصا الطاعة بعد أن كانت موالية
لحكم الأمويين . وفي سنة ١٠٢٣ طرد أهل قرطبة البربر ، وقامت دكتاتورية البروليتاريا
(الطبقة العاملة) ، لكن لم تلبث أن قبضت الطبقات العليا يديها على السلطة في
سنة ١٠٢٧ وتفككت أسبانيا الإسلامية التي حازت قصب السبق على قرطبة . وحكمها
المتعصب بقسوة طيلة سبعة وعشرين عاماً . بالسخرية القدر ، فقد كان لزاماً على ولده
المعتمد أن يصبح أعظم شاعر في أسبانيا الأسبانية وأن يبقى طيلة جيل على رأس حضارة
مشرقة كحضارة بغداد ، وقرطبة في عصر أوجهما .

ونافسه في الحال بلاط سرقسطة وبلنسية وطليلة في الأبهة ، ويقصر الحديث عن
الأبهة عندما نتحدث عن مثل هذه المدن التي كانت مواطن ثقافة قوية قدر لها أن تؤثر
في العالم المسيحي تأثيراً عميقاً (١) .

(١) وكان المسيحيون من رجال الدين وغير رجال الدين الذين يفدون بكامل
حريتهم وهم آمنون من جميع أوروبا المسيحية إلى قرطبة أو طليطلة أو أشبيلية طلاباً
للعلم أو زائرين أو مسافرين وقد شكوا أحد المسيحيين من نتيجة هذا التسامح بعبارات
تذكرنا بشكاية العبرانيين القدماء من اضطباع اليهود بالصيغة اليونانية فيقول : « إن
إخواني المسيحيين يعجبون بقصائد العرب وقصصهم ، وهم لا يدرسون مؤلفات فقهاء
المسلمين ، وفلاسفتهم ليردوا عليها ويكذبوها ، بل ليتعلموا الأساليب العربية الصحيحة
الأنيقة . واحسرتاه ! إن الشبان المسيحيين الذين اشتهروا بمواهبهم العقلية لا يعرفون
علماء ولا أدباً ولا لغة غير علوم العرب وآدابهم ولغتهم ، فهم يقبلون في نهم على دراسة
كتب العرب ويملأون بها مكباتهم ، وينفقون في سبيل جمعها أموالاً كثيرة ، وهم
أينما كانوا يتفننون بمدح علوم العرب] عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — تأليف
ول ديورانت . ترجمة محمد بدران ص ٢٩٧ [.

(المترجم)

الإدارة :

كانت إدارة الأعمال العامة في الاندلس — وهكذا كانت تسمى أسبانيا الإسلامية — أكثر الأعمال تطوراً بلا جدال في ذلك العصر وكانت قوانينها المبنية على العقل والمتقنة الوضع في ظل نظام شرطي (بوليسى) منظم تنظيمياً كاملاً ، مطبقة بطريقة إنسانية على أيدي قضاة غاية في النزاهة وكانت الضرائب معقولة وميسرة التحصيل ، وأقل نسبياً من ضرائب البلاد الأوربية بفضل تطبيق اقتصاد موجه توجيهاً حسناً . وكان دخل إمارة قرطبة وحدها أعلى من دخول جميع العالم المسيحي اللاتيني . وكان يستخدم ثلث الدخل لدفع نفقات الجيش . والثالث الثاني للنفقات العامة والثالث الأخير للاحتياطى .

وعلى الجملة ، أحدث النظام الإسلامى تقدماً ثابتاً بموازنته بالنظم القوطية الغربية السابقة . حق قيل إن « بلاد الاندلس لم تعرف أبداً من هذا اللون في الهدوء ، والعدل ، والحكمة مثلاً عرفته في ظل الفاتحين العرب ^(١) » . نعم ظهر بعض الأمراء أحياناً بمظهر البرابرة بلا طائل ، مثل المعتضد في أشيلية ، ولكن في مقابل هذا — كم من سمات الكرم والفروسية أظهرها الملوك الأمويون في قرطبة .

الاقتصاد :

تفتت عند الفتح الإسلامى أملاك أمراء القوط الغربيين الشاسعة وكان هذا خيراً بالنسبة للفلاحين ، لكن النظام الإقطاعى الذى كان يمهّد لنفسه من قبل في أوروبا ، اتجه نحو الرجوع إلى الملكية الكبيرة لحساب الحكام العرب . ومع ذلك ، ففي الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الذى يمتاز بمناخه وأرضه كان عدد من السكان المستأجرين يعملون أيضاً بالحصّة مع الملاك .

(١) « لم تنعم الاندلس طوال تاريخها بحكم رحيم ، عادل ، كما نعت به في أيام الفاتحين العرب » ، ذلك حكم يصوره مستشرق مسيحي عظيم هو استانلى لين بول في كتابه « حكم المسلمين في أسبانيا » .
(المترجم)

وتحت القوة الدافعة الإسلامية ، تفوقت الزراعة في أسبانيا بشكل واضح عن بقية الغرب . فقد جلب العرب الزراع ذوي الخبرة من آسيا وحفروا قنوات للري ، وأدخلوا زراعة الكروم ، والحنطة السوداء^(١) ، وأشجار الزيتون في الجنوب ، وأشجار بلح النخيل في ميورقة ، وزراعة شجرة التوت لتربية دود القز ، وقصب السكر ، والأرز ، والهلين ، والسبانخ ، وكميات من الفواكه لم تكن معروفة بعد في هذه البلاد : من رمان ، وبرتقال ، وسفرجل ، وليمون هندي ، ومشمش ، وتين ، وليمون ، وخوخ .

بلغت وقتئذ ضواحي قرطبة وغرناطة « والسهول الخصبة في بلنسية ومرسية » شهرة عالمية زماناً ومكاناً . واليوم ، تملك أيضاً حدائق هذه المناطق الممتازة شيئاً غريباً بدون شك . لكن هذا الانتشار العظيم للزراعة هو أحد المكاسب الأكثر بقاء والتي تدين بها أسبانيا للحضارة العربية . وفي ميدان تربية الحيوان كان لزاماً على تهجين أجناس الخيول العربية والغربية أن تقدم الجياد المطهمة لفرسان أسبانيا ، وكانت الصناعة المدنية منتشرة ، كما كانت دروع قرطبة ، وسيوف طليطلة ذات شهرة عظيمة . وكانت مرسية تتقن صناعة النحاس والحديد . وكانت مدينتا جيان والجرب على مكان مناجم من الذهب ومن الفضة ، كما وجد القصدير ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزئبق . وانتفع بالكبريت وبحجر الشب . وكانت ياجه وملقه مشهورتين بياقوتيهما الأحمر . وتشتهر كلمة « صانع أحذية » Cordonnier ، من Cordoue (قرطبة) التي كانت فيها صناعة الجلد مزدهرة . وكانت هذه المدينة تزدهر عن تضمهم من عمال النسيج البالغ عددهم ثلاثة عشر ألفاً . وكانت سجاجيدها ، وستائر العريضة مرغوباً فيها في العالم جميعه مثل الأنسجة الصوفية والعريضة لالقة والمرية .

كانت حكومة الخلفاء تشرف على خدمة بريدية منظمة . وكانت هناك ألف من المراكب القادمة من برشلونة ، وبلنسية ، وقرطاجنة ، والمرية ، ومالقة . وقادس ، والميناء النهري لأشبيلية ، مهمتها تأمين حركة التجارة مع أفريقية وآسيا . وكان

(١) نبات ينمو في ألمانيا وبريطانيا وتستخدم حبوبه طعاماً للخيول والناجاس والماشية ، ويستخدم دقيقه لصناعة الكعك .
(الترجم)

التعامل يجرى بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية ، وهي ثابتة نسبياً ، في الممالك المسيحية الشمالية التي كانت لاتعرف طيلة أربعة قرون غير هذه العملة ، وعملة ملك فرنسا .

كان ملاك الأراضي الشاسعة والتجار يستغلون — كما هو حادث اليوم أيضاً — المنتج والمستهلك في أسبانيا الإسلامية لكن الأمراء كانوا يحافظون على التوازن بتخصيص ربع الدخل العقارى لمساعدة الفقراء .

الدين :

كانت جميع الأديان لها حق الممارسة المطلقة في عبادتها . . وكان اليهود المطاردون حتى هذه البلاد لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية . واختلط المسيحيون مع المسلمين . واتجهت العادات نحو التشابه بعضها مع البعض . وحدث أن مسيحيين ومسلمين اجتمعوا بأعيادهم معاً في المسجد وفي الكنيسة . ونتيجة لهذه الحرية البالغة أقصى حد ، شوه بعض المسيحيين يتخذون لأنفسهم أكثر من زوج على الرغم من تحريم الكنيسة . بيد أنه عندما بهرت هذه الحضارة المشرقة بعض رجال الدين والعلمانيين من أوروبا المسيحية كلها ، أخذوا يزحفون — حباً في هذه الحرية — إلى قرطبة وطليطلة ، وأشبيلية لكي يحضروا دروس الجامعات الإسلامية ومحاضراتها .

ثم حدث ما كان مقدراً له أن يحدث . فأمام هذا الكلف الزائد بهذه الحضارة ، بدأ بعض المسيحيين في مقاومته أحياناً بكل قوة بالشكوى من هذا الميل الذي كان يشمر به الكثيرون منهم تجاه أفكار الإسلام ومؤلفاته .

وبعد أن ورث بعض الأمراء عن الملوك القوطيين الغربيين حق تعيين الأساقفة وعزلهم ، أساءوا استخدام هذا الحق ، وانهك كثير من فقهاء المسلمين في الوقت نفسه في أحكام نقدية تجاه الدين المسيحي . ولم يتردد المسيحيون — مدفوعين بغضبهم من هذه الأحكام النقدية في تعريض أنفسهم لأخطار كبيرة في أثناء رددهم على هذه الانتقادات . وتآزمت بعد قليل الأمور . وفي ظل السخط الذي أثاره رد الفعل من جانب المسلمين ، تكونت مجموعة من «الغيورين» المسيحيين الذين ذهبوا إلى حد إثارة

الاضطهاد على الرغم من التسامح الديني . وسعى بعض الرهبان ، والقساوسة ، والنساء إلى الاستشهاد ، وارتضوا به عن غبطة . وقد تم تنفيذ خمسة عشر حكماً بالإعدام فيما بين عامي ٨٥٠ و ٨٥١ ، لكن الحركة انتهت بالهدوء ولم يستشهد إلا اثنان طيلة القرن التالي ، ثم لم يستشهد أحد بعد سنة ١٠٠٠ .

ذلك أن حمية المسلمين وإيمانهم كانتا تفتقران مع الثروة والرخاء . وهبت بعد قليل رياح من الشك على العالم العربي . وتكونت مذاهب إلحادية استنكرت جميع المعتقدات وجميع الممارسات الدينية ؛ ومن ثم ، عندما أخذت النوازل تهبط على العالم الإسلامي ، عزا رجال الدين سبب هذه النوازل إلى الإلحاد والمعصية . وحاول الملوك بكل سلطانهم أن يساندوا رجال الدين ، وقد ساندت العقيدة « القرآن » والسلطان والإيمان بعضها بعضاً بطريقة متبادلة . ذلك أن المناقشات الفلسفية لم تعد تقتصر على تسلييات البلاط ؛ فعلى الرغم من آراء الخلفاء المتحررة رأوا أنفسهم أحياناً ملزمين بالترابط مع السواد من رعاياهم ضد المفكرين الذين كانوا يرغبون في تحرير أنفسهم من تأثيرات المعتقدات الإسلامية ، وكانوا يتظاهرون بالنظر بشيء من الاحتقار إلى صرامة العقيدة .

المعمار :

كانت أسبانيا الإسلامية في القرن العاشر بلا شك أكثر بلاد أوروبا ثروة ، وكان بها عدد كبير من المدن ، ومن الأمصار العامرة بالسكان ، ويقال إن تعداد قرطبة في عهد المنصور بلغ نصف مليون من السكان ، ومائتي ألف منزل ، وستين ألف قصر ، وستمئة مسجد ، وسبعمائة حمام شعبي ، وسبعين مكتبة . وقد رأينا من قبل كيف كان في قرطبة عدد وافر من الشوارع المرصوفة بأطورة (أرصعة) مرتفعة ، وكان المرء يستطيع أن يسير عشرة كيلومترات على ضوء المصابيح في الوقت الذي لم يوجد فيه بعد ذلك بسبعمائة عام في شوارع لندن إلا مصباح واحد . وفي القصر الملكي الذي شيده عبد الرحمن الأول ، أضاف الخلفاء أيضاً بما كان لهم من همة ونشاط مساكن أخرى فاخرة : قصر الزهور ، قصر المحبين ، قصر الرضا ، قصر التاج .

وقد بنى عبد الرحمن الثالث بعد ذلك في النصف الأول من القرن العاشر ، وعلى

بعد بضعة كيلومترات من جنوب المدينة ، قصر الزهراء ^(١) الذى عمل فيه طيلة خمسة وعشرين عاماً أكثر من عشرة آلاف رجل وخمسمائة ألف دابة . وكان القصر مسكناً ضخماً يستطيع أن يتسع لسكنى ستة آلاف امرأة . وكانت لقاعة الاستقبال مقوف وحوائط من المرمر ومن الذهب ، وبها ثمانية أبواب محلاة بالأبنوس ، والعاج والأحجار الكريمة ، وحوض من الزئبق ، الذى كان سطحه المتعرج يراقص أشعة الشمس . وكان بالقصر مائتا ألف عمود من المرمر . وكان هذا القصر طيلة نصف قرن الموطن الأول فى الأناقة ، والرشاقة ، والركة ، ومهد الفكر والمذهب العقلى . وفى الطرف المضاد للمدينة ، شيد المنصور بعد ذلك بثلاثة عقود أو أربعة ، قصر الزاهرة الذى كان يستقبل فيه رجال البلاط والشعراء ، والشعراء المتجولين ، وفى سنة ١٠١٠ فى غضون الحركات السياسية الموجهة ضد الخلفاء ، نهب هذان القصران ، وأصبعا رماداً بسبب الأحزاب الثائرة ^(٢) . أما فى قرطبة ، فقد أسس المسجد الأزرق المشهور . ولقد أقام الرومان قبله وفى نفس الموضع معبداً ليانوس وأقام المسيحيون من بعدهم كاتدرائية . وبعد أن اشترى عبد الرحمن الأرض من المسيحيين ، هدم الكاتدرائية ، وبنى بدوره المسجد الأزرق . لكن فى سنة ١٢٢٨ كان لازماً على « الاسترداد » أن تحول المسجد مرة أخرى إلى كاتدرائية . وهكذا يتغير الحق مع أحوال الحرب . وثمة شيء مما يتناوله التغير فى غضون ذلك — ويسلم به المؤرخون فى الجملة : ألا وهو منظر المكان وموقعه وهو فريد فى بابه . وهو المنظر الوحيد الذى كان يأتى برجال من مواطنين بعيدة جداً من الأرض الأسبانية . وكانت العبادات المتعاقبة تحتار هذا الموقع كإطار لظواهرها . وكانت أعمالها الخاصة تقترن بهذا المكان ، وهى شبيهة بزخرفة تكاد تكون عابرة ، لكن فكرتها كانت تبقى مرتبطة بنفس المكان الذى نظر إليه على

(١) أطلق على هذا القصر هذا الاسم تبعاً باسم جارية أثيرة لديه وفى قول آخر زوجته . (المترجم)

(٢) ولقد كان المنصور بن أبى عامر يحس يسوء المصير لمدينته فهو يعلم قطعاً أنه : إنما أنشأها مغالبة واستبداداً وأبترازاً لأموال الناس وحرماناً لكثير من المستحقين [عن تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى — تأليف الدكتور على محمد حمودة ص ٣٨٢ . (المترجم)

أنه بمعد روجى جامع . وكان الإنسان لا يملك إلا أن تتجدد روجه في هذا المكان مع كل ما هو إلهى : وهذا ما كان ينبغى أن يكون عليه أكثر من الاحتفالات الدينية والطقوس الخاصة . وفي هذا ، يجب البحث عن المفهوم الفردى — غير المبالى بأحوال الحرب — فى أن كل كائن إنسانى يملك بعض الحقيقة وبعض الجمال وبعض الخير ثابتة ودأعة .

ومن بين أعمال البشر ، يظل المسجد الأزرق لا نظير له بأبعاده وتقوشه وأسهم كل خليفة طيلة قرنين فى تجميله لى يجعل منه أيضاً تعبيراً أكثر كمالاً وأكثر صفاء . وفوق أبراجه ، وحائطه المسنن الذى يحيط به ، تبرز مئذنة مربعة ذات نعط سورى تعلو جميع مباني المدينة . وهناك تسعة عشر مدخلاً خفياً مركبة عليها أقواس مبرقشة تتيح الوصول إلى ساحة الضوء ، التى تنفجر فيها أربعة صنابير ثبتت كل منها فى عمود من الرمر يصعب على سبعين ثوراً نقله . وبالدخل ألف ومائتان وثلاثة وتسعون عموداً من حجر اليبس ، ومن الرخام السماقى ، ومن الرخام الأبيض ، ومن الرمر تبرز جميعها سعة لا نهائية مزعجة .

وقديماً ، فى السقف الخشبى المبرقش ، علق مائتا (شمعدان) كبير مصبوبة فى برنز أجراس الكنائس ، كما كان هناك سبعة آلاف قنديل من زيت معطر معلقة فى فروعها تشتعل ليل نهار ، وتتلاأأ الحوائط أيضاً من الفسيفساء المزين بمختلف الألوان اليوم « ويظل كذلك المحراب الموشى بالذهب والمتوج بأعمدة رقيقة ، وبأقواس مسننة يظل هذا المحراب نموذجاً لأجمل تحفة قوطية » وأمام المنبر المصنوع من سبعة وثلاثين ألف صفيحة صغيرة من العاج ، ومن الخشب الثمين ، يقف الزائر مذهولاً من الدهشة بسبب ضخامة وسمو العمل المتقن .

العلوم:

لقد كان نصيب هذا العصر من الفكر أكثر من حظه من الثروة أو القوة، وكانت قرطبة فى الذروة من ذلك المجد مع أن إشبيلية وغرناطة وطليلة كان لكل منها نصيبها المشترك فى هذا المجد، فقد زاد الخليفة الحكم الذى كان عالماً متبحراً عن المعرفة فى جميع صورها .

وفي ظل حكمه ، وصلت جامعة قرطبة إلى مرتبة الصدارة وتبوات مكاتها قبل
جامعتي القاهرة وبغداد ، وكان أساتذة من الشرق يدعون إلى إلقاء الدروس فيها .
وأضاف الحكم سبعا وعشرين مدرسة مجانية إلى مدارس كثيرة كان من المعتاد
أن يدفع لها نفقات التعليم . ووصل مستوى الثقافة إلى حد أن المستشرق الهولندي
دوزي^(١) استطاع أن يقرر أن كل شخص تقريباً كان يعرف القراءة والكتابة في
الأندلس ، في عصر كانت أوروبا لا تعلم فيه غير مبادئ في المعرفة ، هذا إلى أن هذه
المبادئ نفسها كانت محتكرة لأقلية من رجال الكنيسة . وقد أسست أيضاً مدارس
أخرى ومدارس ثانوية في غرناطة وطليطلة وأشبيلية ومرسية ، والمرية ، وقادس ،
وكانت المدن المغربية قد أصبحت خلايا حقيقية تزخر بالعلماء ، والمشرعين ، والأطباء ،
والأدباء . والشعراء . وكان الفقهاء النحاة يعدون بالآلاف كما كان عدد المؤرخين ،
وكتاب السير كبيراً . ويقول القرى : « وسنمسك عن ذكر الشعراء الذين ظهوروا
في أيام هشام الثاني والمنصور لأن عددهم كان أكثر من رمال البحر » . وكانت
موضوعات شعرهم كما هي دائماً « الحب والحرب » ، وهم الذين مهدوا لظهور الطريقة
المتكثرة لشعراء العصر الوسيط في أوروبا الغربية المعروفين باسم المنشدين والشعراء
المتجولين .

وكان ينظر إلى العلم والفلسفة — في هذا العصر المتسامح دينياً والمتشدد عقائدياً —
على أنهما مشكلتان في الدين ، بيد أنهما تألقا تألقاً وضاء . ففي مدرسة قرطبة ،
كان هناك حماسة شديدة تتمثل في مسلة الجريطي الذي كان تلاميذه يدرسون الرياضيات
والفلك ، والطب ، والكيمياء ، ويدرسون في الوقت نفسه الفلسفة . وشرح جراح
كبير — هو أبو القاسم الزهراوى ، طبيب عبد الرحمن الثالث — علم الجراحة ،
واختراع طرائق جديدة في الجراحة التي امتد نجاحها فيما وراء حدود أسبانيا الإسلامية
بكثير . وكان الناس من جميع العالم المسيحي يذهبون لإجراء عمليات جراحية في قرطبة ،
فقدم الطب في هذه البلاد . وفي أشبيلية أنجبت أسرة ابن زهر سلالة مهيبة من الأطباء
اشتهرت طيلة أكثر من ثلاثة قرون . وكان الأكثر شهرة من بين أعضاء هذه الأسرة

(١) مستشرق هولندي (١٨٢٠ — ١٨٨٣) ، له مؤلفات شهيرة عن الجزيرة
العربية وأسبانيا الإسلامية .
(المترجم)

والذى نظر إليه على أنه رائد وتلميذ نابيه هو ابن رشد الذى كان طبيياً ذائع الصيت وفى الوقت نفسه أحد الشخصيات الكبيرة فى الفلسفة . وفى ميدان الطبيعة برهن صانع الآلات البصرية ليس بأقل شهرة عن سابقه ، هو ابراهيم الزرقالى للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالنسبة للنجوم .

أفريقية الإسلامية :

كانت أفريقية الإسلامية ، إبان الفتح العربى مقسمة ثلاث ولايات : مصر وإفريقية ، والمغرب تعترف كلها بسيادة خليفة الشرق ، ولكن نظام الخلافة المترامى الأطراف ، وغير الواضح ، وبعده المتزايد أيضاً بسبب نقل العاصمة فى بغداد ، وصعوبات المواصلات والنقل أدى بهذه الولايات إن لم يكن إلى قطع علاقاتها جملة مع الحكومة المركزية فلا أقل من أنها لم تعد تتبعها إلا من وجهة نظرية . ونتج عن ذلك أن ثلاث أسرات مستقلة ظهرت تقريباً فى وقت واحد فى بداية القرن التاسع : الادريسيون فى فاس ، والأغالبة فى القيروان ، والطولونيون فى مصر . وهذه الأسرات التى لم يكن لديها قاعدة شعبية ، أسست نفسها على القوة وتفككت عندما أضعف الرخاء العظيم قدراتها العسكرية .

يبد أنه فى سنة ٩٠٩ ظهر فى بلاد تونس أسرة قدر لها أن تستمر قرنين من الزمان هى : أسرة الفاطميين ، من سلالة فاطمة بنت النبی عليه السلام . إذ بفضلهم وبفضل الأغالبة عرف شمال أفريقية رخاء يشبه ما كان سائداً فى قرطاجنة وروما . فشقت طرق تجاه الصحراء الكبرى ، وأنشئت موانئ بونه ، ووهران ، وسيته ، وطنجة . وفى سنة ٩٦٩ ، استولى الخليفة المعز على مصر ، وأقام عاصمته فى القاهرة ، وبسط سلطانه على الجزيرة العربية وسوريا . وأعاد الوزير يعقوب بن كلس — وهو يهودى اعتنق الإسلام — تنظيم الإدارة فى مصر، وجعل من ملوكها أكثر الملوك ثروة فى عصرهم . واضطهد وياللاؤسف الخليفة الحاكم (٩٩٦ — ١٠٢١) اليهود والمسيحيين ، وأمر بتدمير كنيسة قبر المسيح فى اورشليم ، ولعل هذا التصرف كان سبباً من أسباب الحروب الصليبية^(١) .

(١) لم يكن هذا هو السبب ، بل إنها دعوة زائفة واقتراء كاذب من بعض المؤرخين الغربيين المتعصبين ، راجع تعليقا بهذا المناسبة ص ٣٢٢ من هذا الكتاب : (المترجم)

ازدهرت مصر طيلة فترة حكم الفاطميين . ووصف فارسي عاش في مصر من سنة ١٠٤٦ إلى سنة ١٠٤٩ العاصمة بمنازلها التي يبلغ عددها عشرين ألفاً وحوالياتها التي لاحصر لها . وشوارعها العريضة والمضاءة ليلاً ، وبالرقابة المفروضة على التجار للبيع بثمن محدد ، وبالأمن الشديد إلى درجة أن الصيارفة والصاغة كانوا لا يستخدمون أقفالاً لأبواب منازلهم ، وبقصر الخليفة الذي كان يسع ثلاثين ألف شخص منهم اثنا عشر ألفاً من الخدم . ويختتم الرحالة قوله — وهو مذهول بالإعجاب على هذا النحو — قد لا أستطيع أن أضع حداً لثروتها ، لأنني لم أر شيئاً في أى مكان آخر يقترب من هذا الرخاء . وبلغ هذا الرخاء أوجه في منتصف القرن الحادى عشر ، ثم خبا شيئاً فشيئاً بسبب الثروة ، والترف ، وتبائجهما المفسدة للآداب والأخلاق وانهارت مصر الفاطمية . وتفكك الجيش إلى أجزاء متنافسة بربرية . وسودانية وتركية . ثم استردت أفريقية والمغرب استقلالهما ، وفقدت فلسطين وسوريا . وفي سنة ١١٧١ مابى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . ولم يكن له من يخلفه واعترف صلاح الدين الذى كان حاكماً على مصر ، بسيادة الخليفة العباسى فى بغداد .

الحضارة الأفريقية :

شجعت الأسر الحاكمة فى العواصم الثلاث من أفريقية الشمالية : القاهرة ، والقيروان ، وفاس ، الآداب والعلوم والفنون . وقد اختفت اليوم الآثار الفنية ومخطوطات ذلك العصر ، أو أنها لم تستخرج بعد من تحت الانقاض . ولكن المساجد لا تزال على الدوام باقية ، وهى الوحدة التى صورت على غرار قلاع حقيقية . وفى القيروان ، لم يكن مسجد « سيدى عقبة » الذى شيد سنة ٩٧٠ ، إلا عدداً كبيراً من أروقة معظمها جلب من أنقاض قرطاجنة . وفى القاهرة أول ما يلاحظ جامع عمرو (٦٤٢) بأعمدته الجميلة المشيدة على الطراز الكورنثى والرومانى والبيزنطى : وجامع ابن طولون (٨٧٨) وجامع الأزهر (٩٧٠) الذى اتسمت أصالته بعقوده الفاخرة القوطية . وجامع الحاكم (٩٩٠) الشهير بأناقة زخارفه العربية ، وكانت هذه المساجد فى قديم الزمان مزخرفة بنقوش وفسيفساء رائعة ، ونقار يكاد يكون شفيفاً وقد لا يثيرنا اليوم مدى ما بلغت دقة صناعة النقوش والعناية الفنية الفائقة التى مورست حتى فى أقل التفاصيل . واشتهر أيضاً هذا العصر المتفوق فى الحضارة العربية بالفن الدقيق

الدقيق الذى صنعت به المنسوجات الفاطمية والى كان لها تقدير خاص فى أوروبا . وبرع هذا العصر — من بين الصناعات الأخرى — فى صناعة الخيام من القطيفة ، والأطلس ، والحرير الموشى بشكل أزهار ، والحرير ، والصوف المذهب . وتطلب مسجد الوزير اليازورى عمل مائة وخمسين صانداً طيلة تسع سنوات ، لى ينتهى على أحسن ختام ، يسترعى الأنظار . ومثلت رسومه جميع أنواع الحيوان ، لكن لم يثقل فيها الإنسان .

وفى الجامع الأزهر ، فتحت الجامعة الأولى فى سنة ٩٨٨ التى قدر لها أن تستقبل التلاميذ من العالم الإسلامى بأسره . وقد أخذ الخلفاء ورعاة الآداب والفنون على عاتقهم صيانتهم ، وهبوا أنفسهم للمحافظة على التراث وحماية تعاليم الدين الحق . وأنشأ كذلك الحاكم فى القاهرة «دار الحكمة» التى كان المرء يدرس فيها المذهب الشيعى ، وعلم الفلك ، وعلم الطب ، وأسس فى نهاية القرن العاشر مرصد على بن يونس وهو أعظم فلكى مسلم . وعاش على ابن يونس فى الوقت الذى عاش فيه الحسن بن الهيثم أعظم اسم فى المعرفة فى هذا العصر ، ومؤلف كتاب المناظر الذى استخدم كأساس لأعمال روجيه^(١) باكون Roger Bacon وكيبلر^(٢) Kepler الأوروبية .

كانت النتيجة الثيرة للعجب العاجب للفتح الإفريقى هى الاختفاء التام للمسيحية التى كانت قد أشرفت طيلة قرون كثيرة فى عهد ترتوليان^(٣) ، والقديس

(١) راهب انجليزى من الفرنسيسكان ، كان يلقب بالطبيب المجيب ، أحد كبار العلماء فى العصر الوسيط ، وكان يهاجم بعنف الطرائق الفلسفية فى عصره ، وناذى بالتجربة . (الترجم)

(٢) فلكى ألمانى (٥١٧١ — ١٦٣٠) ، له قوانين فى الفلك أطلق عليها قوانين كيبلر استخلص منها نيوتن قانون الجاذبية . (الترجم)

(٣) من كبار المدافعين عن الدين المسيحى ، ولد فى قرطاجنة (١٥٥ — ٢٢٠) تقريباً ، وهو كاتب لايشق له غبار ، وصاحب حجة قوية . (الترجم)

(م ١١ — حضارة)

سيربان (١) ، والقديس أوغسطين (٢) والقديس فوجانس (٣) من أهل روسب .
واندثرت الكنائس المشهورة في الاسكندرية وقرطاجنة وهييون . حياة البربر البدو
التي كانت تتشابه كثيراً مع حياة العرب ، كانت تهيئهم لاعتناق الدين الإسلامي أكثر
من الدين المسيحي . وساعدت بعض الاضطهادات المحلية ، مع الإعفاء من الضريبة
الذي تطبق على المسلمين الجدد — على إضعاف الدين المسيحي .

الإسلام في حوض البحر المتوسط :

كان معاوية ، مؤسس الأسرة الأموية أول من أدرك الحاجة الملحة إلى أسطول في
حوض البحر المتوسط ، فكانت النتيجة الأولية لهذه الضرورة فتح قبرص ورودس .
وقد احتلت كورسيكا في سنة ٨٢٧ ، وسرديليا في سنة ٨١٠ ، وكريت في سنة ٨٢٩ ،
وصقلية في سنة ٧٢٧ . وكما حدث في أيام قرطاجنة ، يبدأ من جديد نضال في حوض
البحر المتوسط ضد المدن التي أقامتها اليونان في صقلية . واضطلع حكام القيروان بهذا
العناء فتتابعت غاراتهم على هذه الجزيرة ، وسقطت بالرموي في سنة ٨٣١ ، ومسينا في
سنة ٨٢٢ ، وسراقوسة في سنة ٨٤٨ ، وطرمين في سنة ٩٠٢ . وأصبحت الجزيرة كلها
تحت السيطرة الإسلامية وازدهرت فيها حضارة مشرقة .

وفي هذه الفترة ، كانت قد تعرضت غارات سريعة لباري في سنة ٨٤١ ، وأوسق
في سنة ٨٤٦ متبوعة بغزوات ناجحة إلى ما تحت « أسوار روما البابوية » وقاوم
هؤلاء البابوات هذه الغزوات . وفي سنة ٨٤٩ ، ولي أسطول عربي أفريقي الأديبار .

(١) أسقف قرطاجنة ، وربما ولد في هذه المدينة في عام ٢١٠ تقريباً ، واستشهد
في عام ٢٥٨ . ويحتفل بذكره في ١٦ سبتمبر من كل عام . (المترجم)

(٢) لاهوتي وفيلسوف (٣٥٤ — ٤٣٠) ، فلسف المسيحية ، وله مؤلفات كثيرة
منها : مدينة الله ، والاعترافات . (المترجم)

(٣) أسقف مدينة روسب في أفريقية (٤٠٨ — ٥٣٢) ، كرس نفسه للرد على
مذهب آريوسي ، ويحتفل بذكره في أول يناير من كل عام . (المترجم)

واسترد وقتئذ البيزنطيون قواعد النزول العربية في باري في سنة ٨٧١ ، وفي تورنتو في سنة ٨٨٠ . ولكن بدئت من جديد غارات النهب السريعة تجاه الحملة الرومانية ، ووادي الأنيس ، وجبل كاسين . وأمام هذه التهديدات المتجددة ، تحالفت قوى إيطاليا ، وغلب العرب على أمرهم عند نهر جاريجليانو في سنة ٩١٦ .

وربما وجدت أيضاً في ذلك المكان معركة من هذه المعارك الحاسمة ، عند ما يعرض التاريخ لذكرى عدد معين منها . فكانت روما والبندقية أهدافاً جديدة بالاختيار . وكانت هناك غارات سريعة جريئة تراجع العرب أمامها إلى ماتحت أسوارها . ومع هذه المرونة التي كانت خاصة بهم في ركوب الخيل عبر العالم لم تكن المسافة كبيرة من البندقية إلى بيزنطة ، ومع ذلك كانت هذه المدينة الأخيرة تجتذب دائماً « المؤمنين » الذين بقوا في آسيا . ولو كان العالم الإسلامي في الغرب والعالم الإسلامي في الشرق قد تبادل سلامهما لدى الكنيسة البيزنطية سانت صوفيا في القسطنطينية ، لكان العالم المسيحي قد قضى عليه . وعند ما تسلل الأتراك إلى هذه الكنيسة فيما بعد بستمائة عام ، كانت المسيحية قادرة على أن تسد عليهم الطريق .

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

(١٤)

الآداب والفنون

الحياة الثقافية في أسبانيا الإسلامية :

قدمنا في فصل سابق ، نظرة جامعة عن الحياة الثقافية عبر جميع بلاد العالم الإسلامي . وفيما يختص بالإسهام الأدبي والفني الذي كان من واجب العالم الإسلامي أن يؤديه إلى الحضارة الغربية ، كانت أسبانيا الإسلامية تستحق مكاناً مرموقاً في هذا الميدان .

كانت أسبانيا الإسلامية تكتب بحروف من الذهب على باب جامعاتها : « يستند العالم إلى أربعة أركان : علم الحكماء ، عدل العظماء ، دعاء الصالحاء ، شجاعة الشجعان » .

لم يكن بطريق المصادفة أن تحتل المعرفة في هذا البلد المرتبة الأولى . ذلك أنه بالعلم تأصلت حقاً الحضارة الإسلامية في أسبانيا واستمرت بطريقة دائمة لم تأذن لذكراها أن تمحي بعد .

كانت لبسالة العرب العسكرية تتأججها المذهلة ، لكنها لم تستمر طويلاً . وسرعان ما ملك المغلوبون جأشهم ، وظل الدين الإسلامي على الرغم من جاذبيته التي لا ريب فيها دون أثر على الفكر في الغرب ، ولم يكن لشريعة القرآن كثير من الانعكاسات في الحياة الاجتماعية للمعصر الوسيط الأوربي ، وعلى العكس من ذلك نفذ العلم الإسلامي والصناعة الإسلامية بعمق إلى الثقافة الغربية .

وعندما تتصدى لهذا الفصل اللهم ، يجدر بنا أن نعود إلى الأدب لكي نتبع انتشاره في أسبانيا الإسلامية .

وكان الولع بالشعر قوياً في الأندلس ، فكان الملوك أنفسهم يقرضون الشعر ، وكان الجميع يستمتعون بجرس الألفاظ ، وكانت قرطبة قد توهج فيها لبيب الشعر ، واشتد إشراقه أيضاً في أشيلية ، وطال بقاؤه في غرناطة ومن خلال القصائد ، وأغاني الحب ، نستشف رومانتيكية تتكشف سلفاً عن فروسية العصر الوسيط ، ويتكشف الشعر الغنائي العربي عن عامل من أهم العوامل في تمثل المسيحيين الأسبانيين لدرجة أننا نجد دائماً في الشعر الشعبي الأشبيلي وفي التراثيل المسيحية .

وإذا كان الحب الأفلاطوني والعاطفي ، منذ القرن الثامن موضوعاً أدبياً محددًا في الشعر العربي ، فمن المهم أن نعد هذا الموضوع قد انتشر في جنوب فرنسا في نهاية القرن الحادي عشر برحابة ووفرة لا نظير لهما . كما أن الشعراء المتجولين قلدوا بطريقة واضحة منشدي الزجل . والحق أن الاحترام الفائق للبرأة إذ كان الفرسان يخيونها بالرمح ، عندما كانوا يذهبون إلى القتال ، والتي من أجلها كانوا يتحملون كل أنواع المحن ، لم يكن هذا الاحترام إلا تذكيراً بالشعر الأسباني — الإسلامي .

وملحمة رولان *La Chanson de Roland* التي ظهرت في سنة ١٠٨٠ ، والتي تشكل أثراً أدبياً بدائياً غريباً بمدينة بوجودها إلى الاحتكاكات الحربية التي حدثت من جهة جبال الأندلس وعبره .

وبوساطة أسبانيا الإسلامية أيضاً خضع بوكاشيو^(١) وشوسر^(٢) وكثير من المؤلفين القصصيين الألمان للتأثير العربي . وهي التي أوحى بأعظم أشعار تينيسون *Tennyson*

(١) شاعر إيطالي معاصر لدانتي وصديق له (١٣١٣ — ١٣٧٥) ، له كثير من القصائد . المترجم

(٢) شاعر إنجليزي (١٣٤٠ — ١٤٠٠) ، مؤلف قصص كاتربري ، وحاكي الفن الكلاسيكي والإيطالي ، ويعد أحد مؤسسي الأدب الشعري في إنجلترا . (المترجم)

وبراوننج Browing جمالا ؛ و « الكوميديا الالهية » لدانتى مدينة كَثِيراً إلى الفيلسوف المتصوف ابن العربي في القرن الثالث عشر . وهذا الشعر الخالد من جهة أخرى مليء بالأوصاف العربية في النصوص التي تحكي الرحلة عبر ملكوت السماء والجحيم .

أما من جهة القصة الأسبانية الخاصة بوصف الدسائسين والسفلة من الناس ، والتي أثرت تأثيراً يمكن أن نلاحظه عن طريق الصور التقليدية في مؤلف لوساج Le Sage فإنها تتشابه بكل دقة مع الوثيقة العظمى المكتوبة في نثر عربي مسجوع ، والمخصصة للشردروس أخلاقية من خلال مغامرات بطل . وبفضل تأثير الصورة الشرقية ، استطاع الخيال الأوربي أن يحرر نفسه من القيود الضيقة والصارمة التي كانت تقيد ، وهذا في مجموعه تم بفضل المساهمة الهامة من جانب الشعر العربي . وصورة دون كихوته Don Quichotte الرومانسية هي من جوهر عربي . وكان قد أسر سرفنتس Cervantés^(١) مؤلف هذه القصة في مدينة الجزائر ، وكان يقول أحياناً إن كتابه قد كتب أولاً بلغة عربية ، وكانت القصة الفلسفية « حى بن يقظان » لابن طفيل قد أوحى إلى دانييل دفو Daniel Defoe بكتابة قصة روبنسن كروزو .

كان الكاتب الكبير علي ابن حزم (٩٩٤ - ١٠٦٤) ، الذي ينسب إليه أربعمئة مؤلف من مختلف العلوم مؤرخاً متبحراً . وكتابه عن الملل والنحل إحدى المحاولات الأولى في الدين المقارن ويبين في هذا الكتاب ما في قصص التوراة من متناقضات لم تعرف في أوروبا إلا فيما بعد بخمسمائة سنة تقريباً . وقد لا يكون من لغو الكلام أن نعيد هنا ما كان يكتبه عن المسيحيين :

« في وضعهم أن يباهوا بمن فيهم من ملوك حكماء وفلاسفة ناهين ولكنهم مع هذا يقولون : إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وأن هؤلاء الثلاثة الأب والثاني الابن . وأن الانسان إله وليس إلهاً . وأن المسيح قديم موجود من الأزل ومع ذلك فهو مخلوق » .

(١) ولد الكاتب الأسباني ميغل دي سرفنتس سافيدرا مؤلف الراوية المشهورة « السيد المبقرى دون كихوته دي لاملشا » في قلعة هناريس على أرجح الأقوال من ولاية قشتالة بأسبانيا في عام ١٥٤٧ . (المترجم)

وينبغي أن تنوه هنا بأن خلدون المتوفى سنة ١٤٠٦ ، والذي يمكن المرء أن ينظر إليه على أنه أكبر مؤرخ في الاسلام وأحد العظماء في جميع العصور . فقد عرض ابن خلدون للمرة الأولى في مقدمته لدراسة التاريخ نظرية الواقع التاريخي الذي يأخذ في اعتباره المعلومات الطبيعية في الجغرافيا وفي المناخ كما يأخذ في الاعتبار القوى الأخلاقية والروحية . وهو أول من بحث ، وصاغ القوانين التي يخضع لها تطور الشعوب وعظمتها وسقوطها ، وأبان المعنى الحقيقي للتاريخ ، وبدون شك لم يكن لدينا من هذا المعنى الحقيقي للتاريخ مفهوم واضح كل الوضوح . وقد أوضح المستشرقون الأوربيون في القرن التاسع عشر نظرياته المبتكرة عن تطور المجتمعات .

الفن الإسلامي :

في بداية التاريخ الهجري ، لم يكن العرب يمارسون بعد أى نشاط فكري أو فني . وقد أعيد هذا القول عدة مرات . ومع هذا فما زلنا بحاجة إلى تأكيد هذه الحقيقة . لقد كان من الصعب على رجال مكرهين على حياة بدائية ، وشاقة ، ومهلكة أيضاً أن يدركوا ماذا يمكن أن يكون الفن .

وعند وصول محمد صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، كان قد رسم على الأرض مربعاً من مائة ذراع ، ثم سوره بسياج صغير مصنوع من لبن (طوب) من الصلصال ، وبنى على أحد الجوانب بعض أكواخ صغيرة غطاها بسقف من الجريد المتشابك ، وفي ركن من الفناء كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم على حصير ليستقبل أصحابه في ساعة الصلاة .

وكان هذا أول مسجد في الاسلام . .

فأى تضاد بين هذه الثلاثة أو الأربعة الجذوع من شجر النخيل التي تسند السقف المتواضع من الطين المحفف في المدينة وبين الآلاف من أعمدة الرخام المميزة بنمط الحضارات القديمة التي راحت تسند — بعد مائة عام — قباب مساجد العالم الاسلامي المرصعة باللازوردى والذهب .

إله من طريق قدر عليهم أن يسلكوه كما يفيدوا مما كانت تملكه تلك

الحضارات من خير ، وكما يبدشروا بها عبر العالم في نفس الوقت الذي يبدشرون فيه بكلام الله .

وعند ما بدأ الخليفة عمر في السنة السادسة عشرة من الهجرة ، الرحيل ليخظي بهـلم بيت المقدس ، كان كل ما يملكه من متاع : قصعة صغيرة من الخشب ، وقرعة من المياه الصافية ، وسلّة من البلح ، وقميصاً وعباءة متواضعة كان يرقعها بنفسه ، وكان يقذف وهو غاضب الحكام القادمين للاقائه بحفنة من الحصى في وجوههم بسبب أناقة ملبسهم وأثوابهم المضحكة .

ولكن ، لكي يغزو العرب العالم ، كان واجباً عليهم أولاً أن يرتفعوا إلى عظمة عمر .

كان لزاماً على قرن واحد أن يسد حاجة الحضارة العربية لكي يسترجع الوقت الضائع . فكان هؤلاء البدائيون ، وهؤلاء البدو المتعودون الحياة المتقشفة على غير معرفة بالفن أو الثقافة الفكرية بمقدار ما هم عليه من جهل بأناقة اللبس ، لكنهم كانوا يملكون إلى أقصى حد ميلاً طبيعياً خارقاً للعادة إلى المعرفة وقدرة فائقة على التمثل . ومضى كل شيء وكأن استعدادات خامدة ، وأذهاناً ساكنة أخذت تنشط فيهم .

الحق أنهم كانوا ورثة جيرانهم الأغنياء بحضارات فارسية وهندية وصينية ويونانية فلم يلتظر تقدمهم الفكري سوى الظروف الملائمة لكي يتجلى .

أجل ، كانت المعارف المتجمعة في غضون الفتح العربي في الميدان الفنى ضخمة من قبل ، ومع ذلك فلا شيء يجارى احتكاكهم باليد العاملة الأجنبية الصانع في تمام تملكها لمهارتها الهندسية أو بمعرفتهم ببعض الطرق الفنية الموروثة عن الماضي وببقريتها الأصيلة .

ولم يكن ممكناً أن يكون نتيجة هذا الاتصال تقليداً أعمى لمفاهيم فنية لشعوب مغلوطة على أمرها . وفي أقل من قرن ، خلق العرب في الحجر فناً أصيلاً ومميزاً معبراً

عن الاتجاهات الجمالية التي تلبثق عن حالتهم النفسية الجديدة . وكان هذا تأليفة مشرقة لكل ما كان قد متعوه بالملاحظة والإعجاب والحب والإيمان .

ويمكن أن نرى في القاهرة ، مسجداً شيد سنة ٨٧٨ ، وهو جامع ابن طولون ، أقدم جامع بعد جامع عمرو الذي شيد سنة ٦٤٢ ، وقد حافظ هذا الجامع على أروقه القوطية من بنائه الأصلي . ولم تستند هذه الأروقة إلى أعمدة شأن أكثر الجوامع ، بل إلى قوائم ضخمة . واستطاع بدون شك هذان العنصران المميزان من النمط المقوطي أن يوحيا بإقامة كاتدرائيات العصر الوسيط دون أن يستطيع المرء مع ذلك أن ينج هذا النهج المطروق لدى العرب . وربما وصلت هذه النماذج حتى أوروبا عن طريق صقلية والنورماندين . وربما نشأت كذلك فواصل النوافذ القوطية من رموس أفواس برج لاجيرالدا giralda في أشبيلية . وظهرت القبة ذات العروق البارزة المزخرفة في العالم الإسلامي قبل أن تظهر في أوروبا . وزين الجامع الأزهر في القاهرة — الذي بنى بعد جامع ابن طولون بمائة عام ، لكنه سابق مع ذلك كاتدرائياتنا القوطية — وعقود قوطية بقرنين . ويبدو أن جامع ابن طولون قد ألهم الأساتذة المماريين الذين صوروا كاتدرائية شارتر Chartres وصنعوا لها نوافذ من الزجاج الملون وأسوارا من الحجر ذات نقوش من الورد أو مرصمة بالكواكب والنجوم .

وفي طليطلة جامع قديم أصبح كنيسة « مسيح النور » تنافس في جمالها — على الرغم من أبعادها المصغرة — الجامع الكبير في قرطبة . ويمكن بالنسبة لأحد أجزاء حوائطها — ملاحظة التطورات الأولية للفن الأسباني العربي الذي ينتسب إلى نمط صور الكنيسة المنتشر في جميع أشبيلية . وبالبحث عن تأثير الفن الإسلامي تجاه الغرب ، يمكن أن نلاحظ أن أبراج الأجراس والقباب تمثل في الغالب المفهوم الأولى للمثدنة الشرقية .

ويجب أيضاً أن نذكر أن القصور والجوامع في الشرق صورت على أنها قلاع ، وأن الصليبيين استطاعوا أن يرثوا بعض المعارف في الفن المعماري العسكري الذي كانوا يجهلونه . ونحن مدينون بلاجدال ، للعرب بذلك ، وبالسور ذي الفتحات المستديرة مع حوائطه الثخينة العالية والمحصنة بأبراج صغيرة والتي كانت المدافع توضع فيها بمنجاة

من مرمى السهام . وتشمل هذه الطريقة مبدأ استغل بطريقة منظمة في بناء حصون غير قابلة للتدمير . هذه الحصون كشفت أيضاً — في سوريا — الطريق الذي كانت تتبعه جيوش العالم المسيحي . وقد أسس فيليب الجسور أسوار ميناء اج — مورت Aigues Mortes على نط حصون دمياط .

وفوق الفن الممارى ، يتسبب فن الأواني الفخارية في ايطاليا وفرنسا إلى ذهاب صناع الفخار المسلمين في القرن الثانى عشر إلى أوروبا ، وإلى رحلات صناع الفخار الأوروبيين في أسبانيا الإسلامية . وتعلم صناع الزجاج في البندقية ، وصناع المعادن الدقيقة . والمجلدون الإيطاليون ، وصناع الأسلحة الأسبانيون فتم بالاتصال بالصناع المسلمين . كما سعى صناع النسيج في جميع أنحاء أوروبا في البحث عن نماذج ونقوش لأنسجتهم في العالم الإسلامى .

(١٥)

العلوم الرياضية

إذا كان الفن غير موجود عند العرب ، فقد كان ما يملكونه من المعارف العلمية قليلاً . وقد كانت رغبتهم في المعرفة لا تقل عن رغبتهم الجامعة في الثروة ، ومن ثم احتفظ العرب بالمدارس السورية والفارسية التي كان يدرس فيها منذ عهد الاسكندر ، العلم والفلسفة اليونانيان ، ولما كان المسيحيون السوريون لديهم إلمام بعيد الغور باللغة اليونانية ، وكان اليهود السوريون يتحدثون اللغة العربية ، فإن كثيراً من المؤلفات نقلت من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ، وإلى اللغة العربية . وكان التراث أولاً يونانياً بخاصة ، لكن التأثيرات الهندية سرعان ما انتشرت عن طريق فارس التي كانت تترجم فيها مخطوطات السنسكريتية إلى اللغة الفارسية . وقد شجع الخلفاء هذه الاقتباسات ، كما أن كل شيء اتجه إلى اللغة العربية الصالحة كل الصلاح للانتفاع بكل تراث من السريانية ، ومن اليونانية ، ومن الفارسية ، ومن السنسكريتية .

الترجمات :

كان أحد أباطرة بيزنطة — يعجب من رؤية بدوى منتصر غير متحضر يضع ضمن الشروط المفروضة حقه في شراء المخطوطات اليونانية ، وهذا البدوى غير المتحضر الذي كان يتطلع إلى المعرفة . كان حاكماً عربياً ، وهكذا حصل الخلفاء بهذه الطريقة وبطرق أخرى ، على الكتب اليونانية التي كانت تتناول المعرفة ، والرياضيات ، والطب . ولم يقصروا أنفسهم على المؤلفات اليونانية : ففي سنة ٧٧٣ ، كان المنصور يقدم للترجمة مباحثات فلكية هندية ألفت سنة ٤٢٥ قبل الميلاد .

وفي سنة ٨٣٠ ، وهذا التاريخ يستحق أن يحفظ ، بدأ العرب يمارسون الترجمة الضخمة للكتب اليونانية . ويحق ذلك الوقت ، كانت الترجمات تتم بمجهود فردية كيفما تيسر . وجمع المأمون المخطوطات للترجمة ، وشكل مجموعة من المترجمين في « بيت الحكمة » ووضعها تحت قيادة حنين بن اسحق وهو طبيب مسيحي ، وعالم متبحر في

العلوم . وقد ترجم حنين بن اسحق هنا مائة كتاب تقريباً لجالينوس ولمدرسته إلى اللغة السريانية وتسعة وثلاثين مخطوطاً آخر إلى اللغة العربية ، منها مؤلفات لابقراط ودسقوريدوس وأفلاطون ، كذلك المقولات ، والطبيعة ، وكتاب الأخلاق لأرسطو ، وكانت هذه المخطوطات نقطة الانطلاق لكشوف فكرية .

وبفضل هذه الترجمات ، أمكن مخطوطات كانت قد فقدت ، أن تحفظ في ترجمتها العربية : وفي هذه الحال يعدل النقل التأليف ، وعلى هذا المنوال ترجمت الكتب السبعة « للتشريح » لجالينوس وكتابتها « القطاعات المخروطية » لابولونيوس ، و« الجليل » لأهرن و« علم الأهوية » لفيلون ؛ وقد شئت المصادفة أن يكون العلم اليوناني مازال مشرقاً في سوريا عند وصول العرب . ومن ثم ، شرح المترجمون شرحاً وافياً (بالنسبة للغرب) النقط الغامضة في النصوص اليونانية . ولما كان المترجمون علماء مجربين ، ومزودين بوثائق غاية في القوة فقد أسهموا في إضافة معرفتهم الخاصة وعلمهم الشامل إلى مؤلفاتهم . وقد بلغوا من نجاحهم ما جعل المنصور يعرض الأموال العامة إلى الخطر . بدفع ثمن المؤلفات الجديدة لهؤلاء العلماء بما يساوى وزنها ذهباً . لكن العمل أخذ يجري بسرعة منذ منتصف القرن التاسع ، واستطاع علماء العرب أن يقفوا بلغتهم الأصلية على بعض المؤلفات العظيمة لفلاسفة يونانيين من مدرسة الافلاطونية الحديثة وكذلك بالنسبة للمؤلفات العلمية والهندية والفارسية والسريانية .

الكيمياء :

هل هو واقع الظروف أو واقع ذكاء العرب الفطري أن يشغفوا بما يشير الإعجاب . فقد أمر خالد بن يزيد بترجمة الكتب القديمة في الكيمياء إلى اللغة العربية . وهذه كانت الترجمات الأولى ، وقد مضى عليها الآن ألف ومائتا سنة . وأنشأ خالد مدرسة أقامها في مصر على الأرض التي اختيرت لدراسة الكيمياء ، لكن هذا العلم على الرغم من غموضه ، انتشر بسرعة في الشرق كله . وكان الكيميائيون يتكاثرون بسرعة عليه ، ويقول عبد اللطيف البغدادي أن كثيراً من بينهم كانوا يعرفون « ثلثمائة حال للتمويه » وكان منهم مع ذلك علماء حقيقيون . وراث مدرسة يزيد ثمرة نجاحها في جابر بن حيان الذي ولد في القرن الثامن والذي ظل حق أيماناً هذه اسمى دلالة على الكيمياء .

وقدم برتلو Berthelot في تاريخه للكيمياء في العصر الوسيط ترجمة فرنسية لإحدى رسائل جابر ، ويشير إلى أنه إذا كان حجر الفلاسفة ، وإكسير الحياة الهدف الرئيسى لبحوثهم . فإن الكيميائيين حققوا كشوفاً صادقة وعملية . (ومن المتفق عليه أنه يجب علينا هنا ألا نخلط علم الكيمياء بالسيمياء) وتقوم طريقةهم المثلى في العلم من جميع طرق ذلك العصر على ملاحظات دقيقة ، محققة ، لكن الذى يجدر بنا أن نلاحظه هو أن الكيميائيين راحوا يمارسون عملياً ما لم يختبر قطماً من قبلهم ، وأوجدوا بطريقة صناعية ظاهرة الملاحظة : أعنى التجربة ، فقد اخترعوا آلة التقطير ، وباشروا تحليل عدد كبير من المواد ، وانتهوا إلى تمييز وتعريف القلويات والأحماض وكذلك علاقاتها ، وأعدوا بضع مئات من العقاقير . ويلاحظ في كتاب عربى قديم لم يترجم طريقة صنع الزجاج بطريقة صناعية ؛ وقد كشفت من جديد أوروبا لحسابها هذا السر أثناء القرن السادس عشر .

ويعد اسم جابر الساهر بالنسبة لعلم الكيمياء شبيهاً باسم بقراط وبالنسبة لعلم الطب . ونذكر من بين مؤلفاته الكثيرة الأكثر تواتراً « كتاب الرحمة » و « كتاب الوصية » و « كتاب تحصيل الكمال » الذى ترجم إلى الفرنسية . ووصف الحامض الأزرق ، والماء الذى يحلل به الذهب والبطاطس ، وملح النشادر ، وتترات الفضة ، والسليمانى ، وأخيراً العمليات الكيميائية الأساسية كالتقطير ، والتصعيد والتبلور . وكان يحصل على الحامض الكبريقي بتقطير سلفات الحديد ، والكحول بتقطير مواد نشوية أو سكرية مخمرة ، وعلى الجملة حول جابر نظريات أرسطو في تركيب المعادن ، إلى مفهوم بقى دون تجديدات هامة حتى بداية الكيمياء الحديثة في القرن الثامن عشر ، وحققت بقوة كثير من المؤلفات المنسوبة إلى جابر القى لا تحمل توقيعها ، والمترجمة إلى اللاتينية تقدم الكيمياء في أوروبا ، لكن بعد أن كان قد استخلصها المسلمون من كل مادة .

(١) كيميائى فرنسى ورجل سياسة (١٨٢٨ — ١٩٠٧) ، مؤلف كتاب عن تاريخ تركيب الأجسام العضوية والكيمياء الحرارية ، كان عضواً في مجمع العلوم الفرنسية .
(المترجم)

الرياضيات :

لقد أمكن الأعداد التي يقال عنها إنها « عربية » أن تنقل من الهند إلى العالم الإسلامي عن طريق المباحث الفلكية الهندية التي ترجمت تبعاً لأمر المنصور . وكان الخوارزمي وهو أحد كبار الرياضيين في العصر الوسيط يستخدم أعداد الهند في التقويمات الفلكية . ونشر الخوارزمي في سنة ٨٢٥ رسالة تعرف في اللاتينية باسم *Algoritmi de numero Indorum* « أي الخوارزمي عن أرقام الهند » . ومن أجل هذا استخدمت كلمة الخوارزمية لتعني كل طريقة مؤسسة على العلامة العشرية .

وفي سنة ٩٧٦ ، كان محمد بن أحمد (الخوارزمي) في كتابه « مفاتيح العلوم » يفترض استخدام دائرة صغيرة لسكني . « تحافظ على مرتبة الأعداد » إذ لم يظهر أي عدد في خانة العشرات . وهذه الدائرة التي نشأ منها الصفر *Zéro* لا تمثل إلا الترجمة اللاتينية للكلمة العربية « الصفر » التي تعني « فراغ » . بيد أنه لا اليونانيون على الرغم من ثقافتهم ، ولا الرومانيون على الرغم من طريقتهم الفنية استطاعوا أن يكشفوا أيضاً طريقة للعد . وكان الأقدمون يعدون على أصابعهم ، وعلى ذلك ظلت ممارسة الحساب صعبة في الغرب حتى بعد اختراع محمد بن أحمد للصفر بمائتين وخمسين سنة .

واليوم ، لانصل إلى تعليل البطء الغريب الذي أحدثه الأوروبيون في استخدام الأعداد العربية ، إذ لم يكن بسبب جهل عام . وكان أول من انتفع بالأعداد العربية إيطالي قدم من أفريقية الشمالية في سنة ١٢٠٢ وكان الاختراع مع ذلك عبقرياً ، ويستطيع المرء أن يقول دون سخرية إن الصفر كان يعد من بين أهم فتوح الجنس البشري .

وكلمة الجبر تأتي من العربية ال - جبر (رد الشيء إلى حالته الأولى) ويعني أنه يمكن المرء أن يضيف مقداراً ذاتياً إلى طرفي معادلة . ويظل أعظم رياضي في ميدان الجبر أيضاً « محمد بن موسى » ، وهو الخوارزمي صاحب أعداد الهند وكان هو الذي أعطى في كتابه « حساب الجبر والمقابلة » حلولاً تحليلية وهندسية لمعادلات من

الدرجة الثانية . وهذا المؤلف الذى ترجمه جيرار الكريمنى فى القرن الثانى عشر ، انتفع به على أنه نص هام فى الجامعات الأوربية حتى القرن السادس عشر . وعلم الجبر لعمر الخيام الذى ترجم إلى الفرنسية فى سنة ١٨٥٧ تميز عن كتاب الخوارزمى ومؤلفات اليونانيين . ونشر الخيام وهو يتابع دراساته فى مؤلف آخر فى الجبر انتقاداته الخاصة المتعلقة بمصادرات أقليدس وتعريفاته . ونعد الحل الجزئى للمعادلات التكميلية التى يقترحها أنها أعلى ذروة فى رياضيات العصر الوسيط . بيد أن عمر الخيام عرف فى أوروبا بخاصة « بربايعاته » .

وكان عبد الله البيرونى (٩٢٩) الذى أنشأ بحق حساب المثلثات الحديث ، قد أحل محل التحليلات المربعة الزوايا لبطليموس — التحليلات المثلثة الزوايا . والجيب محل وتر أبرخس وأدخل خطوط التماس ، وأسس النسب الحسائية المثلثة الهامة فى الشكل الذى نستخدمها فيه اليوم . وإذا كانت الجيوب والجتا والقتا المتماصة ، والقتا ، وذو الحدين ، وحساب المثلثات الكروى لا تتجاوب بقدر كاف مع الدهن ، أمكن أن نثق فى مؤرخى العلوم الذين يثبتون أن « العرب هم الذين كانوا أساتذة الرياضيات فى عصر حضارتنا ، لا اليونانيين » .

وقد تم أهم تقدم فى الرياضيات فى بلاد مراکش وفى أذربيجان فقد وضع حسن المراكشى (من مراکش) الجداول الأولى للجيوب ولأقواس الجيوب ، وللاقواس المتماصة منذ عام ١٢٢٩ . وبعد ذلك بتأثير أثرت دراسة حساب المثلثات إلى أبعد مدى على يد نصير الدين الطوسى الذى ظهر فى كتابه « شكل القطاع » على أنه رائد علم حساب المثلثات الصينى .

الفلك :

كان علم الفلك قد ظهر على شواطئ نهرى دجلة والفرات قبل قدوم العرب بأكثر من أربعة آلاف سنة . وقد كشفت مقتطفات من بحث فلكى مورخ بـ ٣٨٠٠ قبل الميلاد . وقد رسمت الظواهر السماوية وأقسام الشمس الكبيرة للكلدانيين على صفائح من الصلصال . وكان علماءهم فى التنجيم « يحاولون أن يتنبأوا بحالات كسوف القمر ، وكان النجاح يحالفهم أحياناً فى هذه المحاولة » وكانوا يعتقدون فى تأثير الكواكب

على مصير الإنسان ، واتجهت دراسة هذه التأثيرات الكوكبية إلى تحديد دقيق لشكل العالم السماوى . ومن ثم ، استطاع علم التنجيم أن يصبح أم علم الفلك .

وقد درس الموضوع دراسة بشىء يستحق الاعتبار على يد بيجوردان^(١) Bigouidan الذى كتب يقول : « يمكن أن نقر بوجوب دراسات ترجع إلى ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد ، بل إلى ما هو أبعد أيضاً » . وكان كيدينا Kidina الذى نوه عنه سترابون وبلينى « الشيخ » يستخدم — لكي يتنبأ بحالات كسوف القمر — طريقة حسابية لا « تختلف اختلافاً هاماً عن طريقتنا » واختتم « بيجوردان » كلامه بتأثير بعض الشىء : « فى هذا التعاقب الطويل من البشر والأفكار : نلمح فى الذروة المقيمين الثابرين والحساب الذين لا يكونون عن العمل فى مرصد بابل ، وبورسippa ، وارك Erock وسيارا Sippara ونيوى Ninive ونيبور Nippur .

لم يكن إذن مرصد بغداد الذى أنشأه الخليفة المأمون على أرض كلديا القديمة إلا الوريث الوحيد لمرصد بابل ، لكنه كان منشأة علمية وهب له مال وفير ، وهىء له مجموعة من علماء الطبيعيات ألفوا بالفطرة البحث الفلكى . وتشكل دراساتهم التى لا حصر لها سلسلة مستمرة طيلة قرنين . وقد كتب سيديو^(٢) فى موضوعهم : « إن مما تتصف به مدرسة بغداد منذ البداية ، تفكيرها العلمى : وهو الانتقال من المعلوم إلى المجهول ، والتحقيق الدقيق للظواهر السماوية ، وعدم قبول أى حدث على أنه حدث صحيح يبرهن به ما دام أن هذا الحدث لم تؤيد حقيقته عن طريق الملاحظة » .

كان لعلماء الفلك المسلمين فى عصر حضارتنا نفس تأثير علماء الرياضة . وكتب الفرغانى^(٣) حوالى عام ٨٦٠ نصاً فلكياً أثر تأثيراً كبيراً فى أوروبا طيلة سبعمائة عام .

(١) عالم فلكى فرنسى ، ولد فى سيسيتل ، ومات فى باريس (١٨٥١ — ١٩٣٢) ، تناولت أعماله فى هذا الميدان طرائق قياس موقع الكواكب . (المترجم)

(٢) مستشرق فرنسى (١٧٧٧ — ١٨١٣) ، انقطع لدراسة الشرق ، مؤلف كتاب « تاريخ العرب » . (المترجم)

(٣) من أهل فرغانة وهى ولاية وراء نهر جيحون . (المترجم)

وكشف البتاني الذي أدرجه لالاند في جملة عشرين عالما فلكيا مشهورين في عام ١٩٢٠ رجوع نقطتي الاعتدال ، وميل مستوى الفلك بتقريب ملحوظ بالقياس إلى التقديرات الحديثة . وفي القاهرة أتم على بن يونس « الأزياج الحاكمية » وأعاد عمل التقديرات بكثير من الدقة أيضا .

وكشف أبو الوفا الانحراف الثالث للقمر قبل تيخو براهي^(١) Tycho Brahe بستمائة عام .

والاسطرولاب الذي كان الموضوع الرئيسي في بحث ابراهيم الزرقالي ، تصوره العرب وأنشئوه ، ووصل إلى أوروبا في القرن العاشر واستخدمه الملاحون حتى القرن السابع عشر ، وابراهيم هذا هو نفسه ابراهيم الزرقالي الطليطلي الذي برهن في القرن الحادى عشر للمرة الأولى على انتقال البعد الأقصى للشمس بالقياس إلى النجوم . وظلت « الجداول الطليطلية » المتعلقة بحركات الكواكب السيارة لمدة طويلة قاعدة علم الفلك في أوروبا . وقد فتح البطروجي الطريق أمام كوبرنيك^(٢) ، وكان ينقض النظرية المشهورة عن دوائر الأفلاك وتعامس هذه الدوائر التي فسر بها بطليموس مسار النجوم وحركاتها . وكان لزاما على عمر الخيام الشاعر الرياضى الكبير ألا يبقى متخلعا ، وقد عهد إليه مع علماء آخرين بإصلاح التقويم الفارسى . وأدت هذه الأعمال المعجبية الدقة إلى توضيح خطأ يوم واحد كل ٣٧٧٠ سنة على حين أن التقويم الجريجورى يتطلب تصحيح يوم كل ٣٣٦٠ عاما . ومع ذلك لم يعتمد هذا التقويم ، وفضل عليه التقويم الإسلامى .

« ويقول ييجوردان يمكن أن توضح خلاصة النتائج التى حصل عليها الفلكيون

(١) فلكى دىمركى (١٥٦٤ — ١٦٠١) ، وضع نظاما فلكيا يختلف عن نظام بطليموس وكوبرنيك ، كان أستاذ كبار . (المترجم)

(٢) عالم فلكى بولونى (١٤٧٣ — ١٥٤٣) اهتدى إلى حركة الكواكب المزودوجة حول نفسها وحول الشمس . حاكته الكنيسة بسبب قوله بدوران الأرض حول الشمس . (المترجم)

العرب بالطريقة التالية . فبالنسبة إلى المجموعة الشمسية أتاح علم الفلك العربى تحديدا أكثر دقة لاختلاف مدار الفلك طول السنة ، وكشف البعد الأقصى لمدار الفلك والانخفاض المطرد لمداره . وفيما يختص بالقمر ، أدت تجربتهم ، وحسابهم إلى كشف تقلب أكبر خطوط العرض ، أعنى انحناء المدار ، وربما كان لدى العرب معرفة بالنسبة التباين الثالث الذى سمي وقت ذاك تمحولا .

ويمكن أن نضيف إلى هذه النتائج الأصلية التحديد الجديد لمواقع بعض النجوم وتقديراً أدق للمعانيها ، بالموازنة بينها وبين التقديرات التى اتخذت على يد بطليموس وفى الوقت نفسه لمعرفة أصح الرجوع لتمطتى الاعتدال . ويروى ييجوردان زيادة على ذلك الجهود العربية فى وضع الجداول الفلكية ، وتحديد الساعة ، والاستفادة من تحديد ارتفاع الكواكب فى تحديد وقت أية ظاهرة .

وجدير بنا أن نثبت الخلاصة الشاملة التى اختتم سيديوبها كلامه فى الفلك « فى نهاية القرن العاشر ، بلغت مدرسة بغداد ذروة المعارف التى كان من الممكن أن تحصل عليها دون الاستعانة بالعدسات والمناظير المكبرة » .

الجغرافيا :

طبق المسلمون معارفهم الرياضية على الجغرافيا كما طبقوها فى الفلك . وعندما انتعوا بأن الأرض مستديرة ، قاسوا درجة من دائرة نصف النهار بأن رصدوا موضع الشمس فى تدمر وسنجار فى السهل الشمالى من نهر الفرات . ووفقاً لتقديراتهم بلغ طولها ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلاثين ميل ، أى بزيادة ثمانمائة وستة وستين متراً على أكثر تقدير ، وهى نتيجة تستحق النظر .

ويجب ألا ننسى أن العرب كانوا قد ترجموا مؤلفات بطليموس ، وأصلحوا كثيراً من أخطائه ولم يكن بطليموس الأستاذ الحقيقى فى جغرافية أوروبا ، لكنه الإدريسى الذى ولد فى سنة ١١٠٠ ، ونخرج فى قرطبة والذى كان يعيش فى بالرمو فى بلاط روجار الصقل فى منتصف القرن الثانى عشر . ومصورات الإدريسى الى تعترف بكروية الأرض كانت تنويها لعلم المصورات الجغرافية فى العصر الوسيط بوفرته

وصحتها واتساعها . وفي الكتاب الذي ألفه باسم روجير ، ويسمى كتاب روجار ، أو الكتاب الرجوى والمعروف بكتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » قسم العالم الجغرافى اعتماداً على موازنة بين الأرض والكرة سبعين جزءاً رسم لكل جزء مصوراً وصف به جميع النواحي الخاصة .

فى هذا الموجز السريع ، يجدر بنا أن نقرأ أنه بمقاييس الطرق لا بمقاييس الفلك كشف العرب عن الأخطاء الجسيمة لبطليموس فى البحر المتوسط . لأن مقاييس المسلمين لخط العرض صحيحة فيما عدا بضع دقائق ، ومقاييس بطليموس تتكشف عن خطأ يبلغ عدة درجات .

لقد قام العرب ، وهم محنكون فى علم الجغرافية بأسفار كثيرة . فى سنة ٨٥١ نشر مؤلف عربى غير معروف قصة رحلة فى الصين قبل رحلة ماركوبولو ^(١) بأربعمائة وخمسة وعشرين عاماً . وفى القرن التاسع ، قدم ابن خرداذبة بدوره وصفاً غزيراً عن الهند وسيلان والولايات الشرفية الهندية والصين . وفى سنة ٨٩٥ ، نشر أخيراً المقدسى كتابه فى وصف الأمبراطورية الإسلامية المسمى « أحسن التقاسيم » والذي عد أعظم كتاب فى الجغرافيا العربية قبل كتاب البيرونى عن « الهند » .

وينفرد اسم من بين هؤلاء الكاشفين العرب الكبار ، هو أبو عبد الله ياقوت الحموى صاحب « معجم البلدان » ^(٢) (١١٧٩ — ١٢٢٩) وعمو عبد يونانى أعتق ، وتجول فى أنحاء العالم العربى ، وشرع يعلم نفسه بنفسه ، واطلع على مكتبات مرو ،

(١) رحلة إيطالى ولد فى فينسيا (١٢٥٤ — ١٣٢٤) عبر آسيا كلها عن طريق منغوليا ، وعاد عن طريق سومطره بعد أن قضى سبعة عشر عاماً فى خدمة خان كوبلاى الأكبر ، جمع قصة رحلاته فى كتاب « ماركوبولو » يعد هذا الكتاب وثيقة هامة وموسوعة جغرافية عن آسيا . (المترجم)

(٢) موسوعة جغرافية ضخمة جمع فيها كل المعلومات الجغرافية المعروفة فى العصور الوسطى ، ولم يكن يترك شيئاً من هذه المعلومات إلا أدخله فى هذه الموسوعة من تلك وطبيعة وعلوم الآثار والجغرافيا البشرية والتاريخ . (المترجم)

وطشقند القديمة وبلغ ، وعرف كل ما فيها من كنوز المعرفة ، وقد فرض عليه وهو ذو عقل مبتكر ، ، وناقد نزيه أن يشتغل بالنسخ مثل كثير غيره ، لكي يستطيع أن يهيئ لنفسه معاشا يوميا متواضعا . وقد وجد مع ذلك وهو مشغوف بالمعرفة الوقت الذي استطاع أن يؤلف فيه موسوعة جغرافية تمثل مجموعة معارف العصر . ولم يولع أحد حبا بالعالم الأرضي قدر هذا العالم المتجول .

علم النبات :

اشتهر علم النبات أيضاً على يد الأديسي الذي أشار إلى فائدة ٣٦٠ نوعاً من النبات في تركيب الأدوية .

وفي سنة ١٢١٦ ، أخصى أبو عبياس الأشبيلي الذي استحق لقب « النباتي » في دراسة حياة نباتات قاع البحر . وفي سنة ١٩١٠ اشتهر بمخاضة ابن العوام الأشبيلي « بكتابه عن الفلاحة » الذي وصف النبات ، وأشجار المأكلة ، وأنواع التربة الهامة ، والأسمدة ويمكن أن يعد هذا الاختصاص في فن الزراعة أعظم أستاذ في العصر الوسيط في مادة الزراعة .

علم الطبيعة :

لقد كان علم المناظر لبطليموس ، في تقدير بيجوردان الأثر الوحيد لعلم الطبيعة التجريبي والذي أمكن كشفه من بين المؤلفات اليونانية ، ولم يقدم العرب على القضايا الأساسية للطبيعة النظرية إلا بعد أن ترجموا مؤلف بطليموس في هذا العلم .

ومنذ بداية القرن التاسع ، بحث الكندي عن القوانين التي تخضع لها الانتقال من حيث جذبها وسرعتها .

وفي كتاب له عن علم المناظر مقتبس من كتاب لإقليدس درس الكندي الظواهر الضوئية . وكان لابد لهذا المؤلف أن يحدث تأثيرا كبيرا في الشرق مثل تأثيره في الغرب وبعده بقليل ، أحدث أبو الحسن ابن الهيثم الذي كان يعيش في القاهرة (٩٦٥ - ١٠٣٩) وثبة كبيرة في تطور البصريات وفيزيولوجية الأبصار . وأوحى بحته في علم المناظر الذي ترجم إلى اللاتينية وإلى الإيطالية بأبحاث علماء الفيزيكا .

كان ابن الهيثم على وشك كشف العدسة المكبرة إلى حد أن روجيه باكون ، وفيتلو وأوريين آخرين اعتمدوا على جهوده فيما بعد بثلاثة قرون ، وذلك في بحوثهم الخاصة المتعلقة بالمجهر والتلسكوب . ولما كان ابن الهيثم قد ناقض نظرية إقليدس وبطليموس بشأن الإبصار ، فقد قدم وصفاً صادقاً عن العين ، وعن العدسات ، وعن الإبصار بوساطة العينين . وبجاسة مطبوعة حقاً ، وصف ظواهر انكسار الأشعة وهو أول من نوه باستخدام الحجر السوداء ، وهي أساس التصوير الفوتوغرافي . وفي القرن التاسع عشر ، كان الرياضي شال^(١) يعد بحث ابن الهيثم « أنه كان أصل معارفنا في علم الضوء » وكان الفلكي بيجوردان — الذي ذكر سلفاً — يحكم على نظرية ابن الهيثم في علم الضوء : بالتفوق على نظرية بطليموس . ويلاحظ فيها بمخاضة الحل لمسألة حلت بالتحليل كانت تعتمد في حلها على معادلة من الدرجة الرابعة « وإنما اقتبس فيتلو وهو عالم بولندي من القرن الثالث عشر من هذا المؤلف اقتباساً مشعراً في تحرير بحثه الخاص عن علم الضوء ، وهو أول مؤلف ألف على يد أوروبي ، وإلى أن ظهر كيلر ، وليونارد كانت البحوث الأوروبية في الضوء تعتمد على مؤلفات ابن الهيثم . فلا مغالاة إذن في القول بتأثيره في المعرفة الأوروبية .

وطوال الألف سنة الشديدة الظلمة في تاريخ العصر الوسيط ، كان يشع اسم عالم عبر العالم الإسلامي : أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني الذي قدر له أن يبلغ شهرة جامعة . فقد ترك البيروني الفيلسوف والمؤرخ ، والجغرافي ، والرياضي ، والفيزيقي ، واللغوي والشاعر ، في هذه الميادين المختلفة مؤلفات هامة جعلت منه ليونارد^(٢) دى فانس في العالم الإسلامي .

(١) رياضي فرنسي ولد في إپرنون (١٧٩٣ — ١٨٨٠) . المترجم

(٢) رسام إيطالي ولد في فانس بالقرب من فلورانس . ومات في فرنسا (١٤٥٢ — ١٥١٩) ، كان مثالا ومهندسا معمارياً ، وعالماً في الطبيعة ، وفيلسوفاً ، وكاتباً وشاعراً وموسيقياً ، برع في هذه الفنون كلها ، ويعمد من العباقرة الذين ظهوروا في عصر النهضة . (المترجم)

ولد في سنة ٩٧٣ في خوارزم بالقرب من طشقند القديمة جنوب بحر أورال بعد موسى
مخترع علم الجبر بقرنين . ودفعته مواهبه إلى بلاط محمود الغزنوي ، فاتح تركستان ،
والذي قدر له أن يكون أول امبراطور مسلم في الهند وارتبط هذا الطاغية المولع
بالحرب الذي كان يحب العلماء والآداب بالبيروني الذي كانت لديه الفرصة لدراسة الهند
على حين أن حاكمه الذي لا يحتمل كان يعصى وقته في تدميرها .

وفي مقدمة كتابه الأول « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ولما يتجاوز الثلاثين
من العمر ، كتب بسذاجة الشباب يقول : « بعد تنزيه النفس عن العوارض المردية
لأكثر الخلق ، والأسباب المعية لصاحبها عن الحق ، وهي كالعادة المألوفة ، والتعصب
والتظافر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » . وكان هذا منهاجاً وفي الوقت
نفسه جهراً بقميدته الدينية . وكان البيروني ينتمي إلى الجماعة التي انشقت تؤيد شعوبية
الفرس والتي كانت تعارض أهل السنة في العالم الإسلامي ، ويقال إنه كان ذا ميل خفي
إلى مذهب اللادرية . ولم يستطع هذا العالم وهو ذو طبيعة حساسة ومثالي أن يغفر
تدمير حضارة الساسانيين^(١) الشاحنة التي قضى عليها العرب . وكانت نزاهته أسطورية ،
ويحكى أنه كان يرد غالباً إلى بيت المال الأموال التي كانت تمنح له .

وربما تفسر هذه السمات الخلقية موضوعية هذا الكاتب ، وأمانته العلمية النادرتين ،
« ونقده في فحص الترجمات والنصوص وكتبه المفهومة والدقيقة والمدققة في العرض
غالباً ما اعترف بالقصور وتعذر متابعة البحث إلى أن تظهر الحقيقة » .

ومؤلفه الرائع هو « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي ظهر في سنة ١٠٣٠
ولم يتبع المؤلف — مع أنه ثقة — طريقة السرد في التاريخ للهند بل بدأ بترتيب

(١) هذا التأويل يخالف الثابت من أمر البيروني وهو القائل : وللهجو بالعربية
أحب إلى من المدح بالفارسية . . . والساسانيون هم من سلالة أسرة الأبطال
الأسطوريين القدماء « كاياني » الذين كونوا مجتمعاً مستقراً في بلاد الفرس ، ولم ينته
بالتفتح الإسلامي حكم الساسانيين فحسب ، بل انقرضت الأسرة كذلك . (المترجم)

«الأساليب المختلفة للمؤرخين المخادعين» الذين كتبوا التاريخ ورجعوا قيعة شواهدهم . ولما تناول الجزء السياسى من هذا المؤلف ، درس دراسة مطولة تأثير الدين والملك الهندى ، ثم وازن بين مفكرى الهند وفلاسفة اليونان واختتم مؤلفه بمكرماً هؤلاء الآخرين .

وهو مترجم ممتاز ، وفى نفس الوقت لغوى ، ونحن مدينون له بترجمة مؤلفات عدة فى السنسكريتية إلى اللغة العربية ، كما ترجم بنفس السهولة « أصول إقليدس » ، و « المجسطى » لبطليموس إلى السنسكريتية .

أطلق عليه المؤرخون الإسلاميون لقب « الشيخ » الذى يعنى فى هذه الحال « معلم الذين يعلمون » وشهرته جدير بها كل الجدارة . وقد اهتم هذا المفكر العجيب الذى لم يكل بكل شىء ما عدا الطب . فى الفلك ، سلم البيرونى بأن الأرض كانت مستديرة ، ولاحظ « جاذبية جميع الأشياء تجاه مركز الأرض » وأوضح أن الوقائع الفلكية يمكن أن تفسر كذلك بافتراض أن الأرض تدور كل يوم حول محورها وكل سنة حول الشمس ، كما تفسر بالغرض المقابل لذلك ، واستهدفت ملاحظاته التى لاحظها حول شروحات تتعلق (بخريطة) العالم ، وأتاحت له أخيراً أن يحرر جداول فلكية .

وفى الطبيعة ، قاس البيرونى الأوزان النوعية باستخدام مقياس كثافة من اختراعه الخاص . ووضع على هذا المنوال المبدأ الذى يثبت أن الوزن النوعى لشيء ما يتناسب مع حجم الماء الذى يزيحه ، وهو الذى أثبت أيضاً — فى ميدان أكثر اتساعاً للعمل — حركة مياه الآبار الارتوازية عن طريق مبدأ الأواني المستطرقة .

وهو عالم هاو ، وصاحب مذهب توفيقى عالمى . وألف فى الرياضيات أجود شرح فى العصر الوسيط عن الأرقام الهندية ، وكذلك فى الهندسة ، اقترح البرهنة على نظريات جديدة ، أما فى التاريخ ، فيحكى عهد محمود الفرنوى وملوك معاصرين له وأخيراً وضع تقويمياً وسجل الأعياد الدينية بحسب مذاهب شعوب الشرق الدينية وشعائرهم . ولما كان البيرونى قد ألف كتابه بأعظم عناية فنية ، فقد عد نموذجاً للنزاهة العلمية .

وتشير مؤلفات البيروني التي كانت معاصرة لمؤلفات ابن سينا « الشيخ الرئيس » وابن الهيثم عالم البصريات والفردوسي الشاعر الملحمي الكبير في فارس ، تشير إلى أن الفترة التي تمتد من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر من الممكن أن ينظر إليها على أنها أوج العصر الوسيط .

وفي هذا العصر نفسه ، وفي نهاية العام الألف ، كان الغرب الذي حكم عليه بالإرهاب ينتظر نهاية العالم .

(١٦)

التطبيقات العلمية

الورق :

الورق بلا نزاع إحدى الإسهامات النافعة جداً ، والتي جابها العالم الإسلامي إلى أوروبا . ومن المعروف أن العرب تعلموا في سمرقند في تعطين الكتان لكي يصنعوا منه عجينة تحل محل جلد الماعز والرق . ثم خطرت لهم فكرة استبدال ألياف القطن الوفير جداً في بلاد ما بين النهرين ومصر بألياف الكتان . ومنذ ذلك الوقت تقدمت صناعة الورق تقدماً سريعاً وخارقاً للعادة . ذلك أن الورق كان يهد السبيل بسرعة إلى صناعة الكتب ، وهذه الصناعة شرط هام وضروري لاكتساب المعارف . وفي التقدم الثقافي ، يمثل الورق عدته وآلاته ، ويخلق شرطه المادي ، فالنشاط الفكري الذي لا غنى عنه في بلوغ الحقيقة ، في حاجة مع ذلك إلى سبيل يحفظ المعرفة ويقيها على مر الزمان .

ويمكن أن نزع مع ذلك — دون الحذر من المبالغة — أن ظهور الورق الرخيص الثمن شكل نقطة الانطلاق لعصر جديد ، وكانت الكتب التي تكتب على الرق أو على ورق البردي ذات ثمن مرتفع جداً إلى حد العزوف عن الشراء .

واقضى الحال مع ذلك كثيراً من الوقت لكي يصل هذا الاختراع إلى الغرب . ذلك أنه في سنة ٧١٢ كان العرب قد فتحوا سمرقند التي كان قد قدر لها أن تكون أساس انتشار الورق عبر العالم . ولم يبق المصنع الأول ، مصنع بغداد إلا في سنة ٧٩٤ . وتبدأ مصر بدورها صناعتها للورق في سنة ٩٠٠ وتتبعها بلاد مراکش في سنة ١١٠٠ فقط . وأقدم وثيقة أوروبية على ورق حقيقي أمر حررته زوجة روجار الصقلي باللغة اليونانية واللغة العربية في سنة ١١٠٩ ، وكذلك المصنع الأسباني في شاطبه التي أمدت أوروبا العربية بالورق ، وكان الجزء الشرقي من أوروبا يتزود مباشرة من لبنان . وانتقلت رويداً رويداً صناعة الورق من أسبانيا إلى فرنسا ، ومن صقلية إلى إيطاليا .

ويمكن أن ينظر إلى توقيت ظهوره في فرنسا مع عودة الصليبيين على أنها غلطة تاريخية . ومن المؤكد من جهة أخرى أن الصليبيين كانوا قد تعلموا في مصر طريقة طبع الأنسجة على صفائح من الخشب ، وهذه الطريقة الفنية التي كان الأقباط يعرفونها منذ وقت طويل أمكنها أن تساعد على تقدم الطباعة في أوروبا .

كانت الطريقة الفنية الأسبانية من قبل متطورة جداً . ففي قرطبة ، كان كاتب الخليفة عبد الرحمن يصدر الوثائق الرسمية في كثير من النسخ بمساعدة مطبعة بدائية ما زلنا نجهل كيف كانت تعمل ، ولعل ذلك يتيح لنا أن نلاحظ أن سكان جنوا وهم أكثر بصيرة كانوا قد عرفوا أن يستوردوا من فارس في القرن الثالث عشر سر طبع أوراق النقد بطريقة الحروف المتحركة قبل أن يتلاشى بسبب إفلاس بيت المال .

صناعة الزجاج :

كانت صناعة الزجاج وأصلها من فينيقية قد بلغت الكمال في الشرق الأدنى ، وقد أدخل هذا الفن في الشرق الأدنى وفقاً لشروط صحيحة متعاقد عليها بين بوهوند السادس أمير أنطاكية ، وكونتاري في دوق البندقية في أول يونيو عام ١٢٧٧ . وكان كل شيء يستورد من سوريا : المواد الأولية ، وسر الصناعة والصناع الذين كانوا يجتازون في بداية الأمر من بين العرب . واحتكرت الجمهورية صاحبة الفخامة بتسكتم شديد صناعة الزجاج وأسرارها حتى القرن السابع عشر الذي أذيعت فيه صناعة الزجاج في فرنسا على يد كولبير .

ويلاحظ أن صناعة المرايا واستخدام الزجاج الخاص بالكنايس وفي بالرمو منذ القرن الثاني عشر إنما يرجع لنشاط العرب ، وذلك أن ابن فرناس أول من صنع البلور في معمل قرطبة . وكانت خزانة الفاطميين تحتوي على ألف آنية من البلور الخام الذي لم يبلغ اليوم من الإتقان ما بلغه في ذلك الوقت .

وإلى جانب صناعة الزجاج ، كان إحياء صناعة الأواني الفخارية في إيطاليا وفرنسا يرجع إلى وصول صناع الفخار من المسلمين في هذين القطرين في القرن الثاني عشر .

المسوجات :

يقال إن الشرقيين كانوا يهتمون دائماً بالمظاهر الخارجية ، وكانت كثرة الملابس عندهم ضرباً من ضروب الفخفة ، وإذا لم يكن التجميل انعكاساً للذكاء والمعرفة ، فإنه لا يعبر كذلك عن مزايا خاصة ، مثل الرفاهة أو الذوق أحياناً ، وكان هذا حقيقةً بخاصة بالنسبة لعصور الترف وحب الظهور . وعندما كان أى خليفة يمنح خلعة كان يقصد بها الإناعام بتكريم وبهدية ثمينة معا . وهنا يجدر بنا أن نتذكر هذا التوقيع الذى وجد فى سجلات هارون الرشيد : « . . . و . . . » قطعة ذهبية ، ثمناً لخلعة للوزير جعفر ، بن يحيى . . » وقد وجدت هذه السكاهة « خلعة » فى هذا التوقيع وكذلك عن « الخلعة » مما يدل على أنها هدية فاخرة . وكان إنتاج المسوجات الحريرية والأقمشة المطرزة بالذهب أو الفضة أو الحرير ، والوشى ، والقطيفة المنسوجة بالذهب قد خطا خطوة كبيرة فى الشرق . وبهت الصليبيون من ذلك ، ولم يغتروا عن توريد هذه المصنوعات إلى أوروبا بمقادير خطيرة جداً بالنسبة لاقتصاد بلدهم الخاص حتى إن أحد الملوك الفرنسيين اتخذ احتياطات لأحد منها .

وفد رأى أن استيراد طريقة هذه الصناعة أجدى ، وبدأت صقلية فكان أحد ملوكها النورماندين وهو روجار الثانى الذى كان يطلق عليه الملك نصف الوثنى — يرتدى ملابس مطرزة كانت قد نسجت فى منسج أقامه الملوك المسلمون فى القصر الملكى فى بالرمو . وكان هذا المنسج هو الذى صنع حامل احتفالات الملوك الأوروبيين وعظماء الناس فى أوروبا .

كانت الأنسجة الموسلمانية (الموصل) كما يدل عليها اسمها ، والدمشقية ، والأطلسية (اسم ألمانى من الساتان) وحرير حلب تأتى من الشرق الأدنى . وقد حافظت هذه الأنسجة على أسمائها حتى عندما نقلت صناعتها إلى فرنسا وأوروبا فى القرن الثالث عشر ، وفى الوقت نفسه نقلت صناعة السجاجيد تبعاً للطرق الفنية الشرقية .

الجلود :

ازدهرت صناعة الجلود بخاصة فى قرطبة التى انتقل منها فن طباعة الجلود ودينها

إلى بلاد مراكش . ومن هذين البلدين ، أدخل في فرنسا وفي إنجلترا بأسمائه الأصلية صناعة الأحذية أو تجارة الأحذية والجلود المراكشية .

وقام الصناع الشرقيون بعد ذلك بقليل بتعليم الصناعات الجلدية وزخرفتها . وظهرت الطرق الفنية الخاصة بالتجليد العربى على الكتب المسيحية فى القرن الخامس عشر ، ومن مظاهر هذه الصناعة الكموب الجلدية التى تقصر على حافة صحائف الكتاب .

المعادن :

عرف فن صناعة المعادن فى الشرق منذ أزمنة مفرقة فى القدم . وكان أصل هذه الصناعة صينياً . لكن صناعة المعادن الصلبة الدقيقة بلغت جودتها فى دمشق ، ثم انتقلت إلى مصانع الفاطميين فى مصر ، وإلى البندقية التى بوشر فيها تطعيم الأشياء بنحاس أصفر مع صفائح من الذهب ومن الفضة ومن النحاس . وكان توشية الحديد أو الفولاذ بأسلاك من اللجين أو المسجداتى مورست بخاصة فى دمشق والموصل ، وكذلك فى فارس فنا أصله من الهند . ثم انتقلت هذه الصناعة إلى مصر والقاهرة القديمة فى القرن التاسع ، وثبتت فى أسبانيا التى وصلت منها إلى أوروبا .

اشتهر صناع الأسلحة الأسبانيون بهذا الفن الذى أخذوه عن الصناع المسلمين فى طليطلة ، والذين اشتهروا بخاصة بصنع النصول وقطع الأسلحة الدفاعية كالخوذات والدروع ، وهؤلاء الأسبان هم الذين تمفؤوا فيما بعد الفرنسيين بمعارفهم العامة ، وفى الوقت نفسه استورد الصليبيون من الشرق الطريقة الفنية للبيطرة بالمسامير التى أقيمت على فن رفيع . ولم يستنكف الفرسان من تعلمه . وهذا يفسر لنا اتخاذ حدوة الحصان منذ ذلك الوقت فى عدد من شعارات الشرف .

الآلة الميكانيكية :

انتقلت جميع أنواع الآلات الميكانيكية التى تعمل بالماء وبمخترعات صينية إلى إيران وسوريا ، ثم بعد عدة قرون إلى أوروبا . ولما شاهد الصليبيون النواعير التى ترفع ماء نهر العاصى ، أدخلوها بدورهم فى ألمانيا . وفى الوقت نفسه تقريباً ، كان

النورمنديون يقيمون في أوروبا طواحين الهواء الخاصة بصقلية التي كان مصدرها مل طواحين أخرى كثيرة ، من أصل فارسي .

الصحة العامة :

شهد في أوروبا منذ القرن الثاني عشر إقامة مستشفيات عامة ، ومستشفيات للبرص ، ومستشفيات للجذام ، وبلغ ما يوجد منها زهاء ٢٠,٠٠٠ في القرن الثالث عشر . وكانت قد اتخذت طريقة المعالجة النظامية للمرضى في المستشفيات وبخاصة المرضى بأمراض معدية — تجربتها في الشرق الأدنى الذي كانت تنظم فيه هذه الخدمات على وجه أفضل بكثير مما كانت عليه في العالم المسيحي .

واختفت الحمامات والحمامات ذات المياه الساخنة التي كانت وفيرة جداً أثناء فترة حكم الغال الرومانيين وكادت أن تختفي تماماً مع الإمبراطورية ، لكنها عادت بفضل نتيجة الاتصالات مع الشرق الذي كان فيه استخدام الحمامات معمماً .

مفردات اللغة :

في نفس الوقت الذي كانت فيه أوروبا تستورد منتجات إسلامية اصطُنعت في الغالب الألفاظ الدالة عليها . وعلى ذلك ، ظهرت هذه الكلمات في مفردات اللغة الفرنسية : سكر (Sucre) ، شراب مسكر (Sirop) ، وشراب مشبع بالسكر (Sorbet) ، كحول (alcool) ، قلوي (alcali) ، مستحلب (julep) ، أكسير (élixir) ، برتقال (orange) ، جرة (jarre) ، مرتبة (matelas) ، أريكة (sole) ، جوت (jute) ، لازورد (azur) ، طراز عربي (arabesque) . ومفردات أخرى استعيرت أيضاً من اللغة العلية : جبر (algèbre) ، صفر (zéro) ، رقم (chiffre) ، سمت (azimuth) ، أمبيق (alambic) ، سمت الرأس (zéolith) ، المناخ (almanach) ، أو من الموسيقى : عود (luth) ، رباب (rebec) ، قيثارة (guitare) ، طبل (tambourin) ، قرع الطبول (fanfare) ، صنج (cymbale) ، واصطلاحات بحرية : أمير البحر (amiral) ، ترسانة (arsenal) ، حبل (bable) ، زورق (chaloupe) ، قارب (dargue) ،

سفينة (sloop) ، أو مفردات تعنى ملابس موسلين (mousseline) ، أطلس (satin) ، نسيج من قطن وكتان (futaine) ، واصطلاحات تجارية : بازار (bazar) ، تعريفه (tarif) ، مخزن (magasin) ، خطر (risque) شيك (chèque) ، جمرك (douvane) ، وأخيراً ، استحدثت كلمة سوف تشير كثيراً من الدهشة لأنها كلمة راسخة رسوخ اللغة الفرنسية ، إلا وهي كلمة السيد Le cide المأخوذة مباشرة عن (سيدى) (١) .

الزراعة :

كانت سوريا طيلة مائتي عام في أثناء الحرب الصليبية ميداناً لعلاقات وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، ومع ذلك فهي لاتأتى إلا بعد صقلية وبخاصة بعد أسبانيا من وجهة نظر انتقال التأثير العربى إلى الغرب . وهذا يرجع إلى أن الثقافة الإسلامية كانت في سبيل الأفلو في الشرق الأدنى . وإلى أن الصليبيين المعتصمين في حصونهم كانوا يعقدون اتصالات مع الفلاحين والصناع المسلمين أكثر مما يعقدون مع النخبة الممتازة من الناس . وكان هذا في الميادين العملية من الزراعة والتجارة التي كان يعز بها المرء بخاصة تأثير العالم الإسلامى في العالم المسيحى .

وقد بحث من وجهة أخرى ما كانت عليه أسبانيا الإسلامية في الميدان الزراعى الذى جىء به من آسيا ، ثم نقل إلى أوروبا ، : مثل زراعة الأرز والمشمش ، والخوخ ، والرمان ، والبرتقال ، وكذلك زراعة قصب السكر ، والزعفران ، والقمح ، والحنطة السوداء ، وشجرة الزيتون ، والباج ، والتين ، والليمون الهندى ، والسفرجل .

التجارة :

عاد الصليبيون من الشرق بكل ما كان يمكن أن يتلاءم مع المناخ المعتدل : مثل السمسم ، والذرة البيضاء ، والشمام ، والسكرات ، والخروب ، والفراولة ، والكريز ، لكن

(١) وبعض هذه الألفاظ مأخوذة عن الفارسية كذلك . (المترجم)

أحياناً — حتى على غير علم منهم — وجدوا أنفسهم قد ألفوا أذواقاً وعادات ، ومطالب جعلتهم مرتبطين ببلدان ، وآزروا في تقدم تجارة مزدهرة عبر جميع موانئ البحر المتوسط .

كانت هذه مثلاً حال البخور ، والمنتجات الأخرى الذكية الرائحة من الجزيرة العربية ، وعطر الورد من دمشق ، وزيت معطرة من بلاد فارس ، ونتيجة لذلك سبب إنتاج هذه المطور في الشرق انتشار زراعة الأزهار . وانتشرت على غرار ذلك زراعة التوابل ذات الأريج مثل الفلفل والقرنفل ، والزنجبيل ، لكن أهم جميع المنتجات المستوردة من الشرق هو السكر الذي يلعب منذ ذلك الوقت دوراً أساسياً في الاقتصاد المنزلي وفي تركيب الأدوية أيضاً .

لم تكن الحركة البحرية هي الحركة الوحيدة التي جاءت نتيجة لهذه التقدّمات . فقد نتج عن هذه الحركة تداول لنقد أكثر حجماً وأكثر سرعة ، وكنتيجة لذلك نشأ نظام تأميني . وظهرت المصارف في الموانئ الأوروبية الكبيرة ، وأسست لها فروع في لبنان .

متنوعات :

في التطبيقات العملية للخبرة البحرية التي رأت النور في ذلك العصر ، يجدر بنا أن نسجل تمهيداً فريداً في نوعه ، وهذا التجديد هو البوصلة المخترع الصيني ، لكن العرب كانوا يطبقونها منذ وقت طويل على الملاحة في الخليج الفارسي والمحيط الهندي . ويسرت بفضلهم هذه الآلة الأساسية الكشف الجغرافية في القرن الخامس عشر .

وكان البارود مخترعاً صينياً ، لكن الصينيين كانوا لا ينتفعون به إلا من أجل الصواريخ . وبارود المدفع مخترع عربي ، رسم نموذجاً أحد مخترعي العرب في القرن الثاني عشر . ذلك أنه في قاعدة مدينة الجسراس في سنة ١٣٤٢ رأى الإنجليز للمرة الأولى — مدفعاً إذ كانوا يخدمون في الجيش الأسباني .

ولكي نقيم حساباً كاملاً لإسهامات الشرق الفكرية تجاه العرب ، كان يجدر

بنا أيضاً أن ننسب إلى العرب ما للعرب من تطبيقات صناعية نجت عن المعرفة الإسلامية ، ولكن أخرى بنا أن نختم هذا الفصل الذي قد يجازف بمجاوزة ما حدد من تخطيط عام « لتاريخ الحضارة العربية » .

ويكفي أن يتصور المرء القارة الأوروبية في فجر العصور الحديثة من غير أن تملك تحت تصرفها هذه الهبات الثلاث : البارود ، والبوصلة ، والكتاب ، رمز المعاونة الإسلامية في بناء الإنسانية .

(١٧)

الطب

احتل العرب المكان الأول في الطب وظلوا على رأس المعروفة بالطب طيلة أكثر من خمسمائة عام .

وقد ورد في حديث منسوب إلى النبي ﷺ أن دراسة الطب ودراسة الدين هما الشقان الأساسيان للمعرفة .

طب النبي :

يبلغ عدد الأحاديث الطبية الموروثة عن النبي ﷺ حوالي ثلثمائة حديث . وقد جمعت على حدة في كتب تحت عنوان : « الطب النبوي » وتوصى هذه الأحكام بعامة بالقناعة ، وتفرض التطبيق العملي لعلم الصحة والنظافة . وعندما شرحت في صورة متقنة وشاعرية ، شغلت مكانا كبيرا في الطب الشعبي . فأطباء فترة الخلفاء الراشدين التي تمتد من سنة ٦٢٢ إلى ٦٦١ كانوا يعرفون من قبل فن تضميد الجروح ، والكي والفصد والحجامة .

وفي عهد الأمويين اشتهر بالطب ثلاثة أو أربعة أطباء أكثرهم شهرة « حاكم دمشق » الذي نشأ من أسرة يغلب عليها الشعر والطب : وابنه عيسى^(١) مؤلف « الكناش الكبير » وهو رسالة في فن الطب . يعرض في هذا البحث الحال والعلاج لنزيف شريان بالغ الخطورة نتج عن سوء خبرة حلاق .

ويتسم — من قبل — هذا العصر بتحديد مجدر بنا أن نذكره ، فقد أمر الخليفة الوليد بعزل المصابين بالبرص وأمرهم بحرايات وهكذا في الشرق ، منذ بداية القرن الثامن ، في عصر ملوك أوروبا المتوانين ، كان الملك العربي يوجه النظر إلى العناية بالصحة العامة .

(المترجم)

(١) انظر ابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٢٠

(م ١٣ = حضارة)

التقدم في المدن :

كان لظهور الترجمة سنة ٨٣٠ أثر في انتشار تعاليم العلماء والأطباء المشهورين في اليونان : مثل أبقراط ، وجالينوس ، ورفس الأفسوسي ، وبولس الإيجيني . وكما قيل — بفضل ترجمات حنين بن إسحاق — أمكن بعض المؤلفات اليونانية التي فقدت منذئذ أن تحفظ في ترجمة عربية ، وبخاصة الكتب السبع في علم التشريح المشهور لجالينوس وجدير بالذكر أن أول بحث في الطب كتب بالعربية هو ترجمة كتيب يوناني على يد يهودى ألفه مسيحي من الاسكندرية . وعلى الرغم من أن هذا التعاون العملي كان أهلا للاحترام التام فإن أطباء الإسلام لم يرغبوا في أن يقصروا دورهم على النقل . ومنذ وقت مبكر ، اهتموا بجمع العناصر المتفرقة للطب اليوناني وبتصنيفها بحسب ترتيب منهجي . ولما كانوا قد تخلوا في الحال عن علمائهم المعلمين لهم ، فقد سلكوا بدورهم طرقا غير معروفة للإغريق وشاركوا على نطاق واسع في التقدم الطبي .

« وقد جمعوا الحقائق دون كلل — وهم ناقدون مدققون غاية التدقيق ومتأنون وذوو رأي صلب . ومن الآن فصاعدا ، أصبح الطب طباً تجريبياً . ويعلم على بن العباس في كلام واضح أن ملاحظاته جمعت من البيمارستانات وليس من النقل المتعلق بعلم الكتب والمؤلفات » .

كان تعاليم الطب يعطى بخاصة في البيمارستانات ، ومنذ القرن التاسع ، كما يعترف بذلك س . كوستون — أخذ العرب في إنشاء الطب الإكلينيكي ، وأضافوا إلى علم الأمراض وطبائعها وعلاؤها ودلائلها أمراضا جديدة .

وفي القرنين العاشر والحادي عشر ، أخذ تقدم العواصم الكبرى ، دمشق والقاهرة وبغداد بخاصة ، يفرض جمع الموارد ، والأحوال المادية التي كان لزاما عليها أن تتيح للعلم وبخاصة للطب أن يقوم تنظيمه على الأسس القوية لأمبرطورية موسرة .

ومنذ ذلك العصر ، استطاعت الجامعات أن تلحق بها كلية العلوم وكلية الطب ومعاملها . وفي علم الصيدلة القديم أضاف المسلمون العنبر الداكن ، والكافور ،

وخيار الشنبر ، والقرنفل ، والزئبق والسنا ، والمر ، وأدخلوا تحضيرات جديدة عقاقيرية : مثل الشراب المسكر والمستعلب ، وماء الورد ، الخ .

انتشار الطب في القرى :

إذا كان تعليم الدراسات الطبية منتشرا بخاصة في بعض المدن أو المراكز الثقافية ، فإن ممارسة الطب الحقيقي من جهة أخرى في أعماق المقاطعات والقرى كان مهماً تقريباً إهمالاً تاماً . ذلك أن إرادة الله الوحيدة — وفقاً لما جاء به القرآن — هي التي تمنح المرض أو الصعوبة . الحياة أو الموت وفقاً لشريعة لا يجوز نقضها ، بيد أن الناس قد تعودوا العناية بأنفسهم ، ولكن ذلك لم يحدث إلا مؤخراً ، ويفصح مرسوم لأحد أفراد أسر المرابطين المشهورين في هذه العبارات : « حياة جميع الناس بين يدي الله ، فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون . وقد شاءت العناية الإلهية أن تقى كثيراً من الناس شر الطاعون . فعلى كل شخص أن يتناول كل صباح حبة أوجبتين — في أثناء وجود العدوى — من التركيب الآتي مع اعتقاد أن ذلك رهن العناية الإلهية : قطعتان من المر ، قطعة واحدة من الزعفران ، وقطعتان من الصبر ، وشراب من حبوب المر » .

ولقد وضع العرب — مدة طويلة — ثقهم في السحرة والراقين أكثر من الأدوية الصالحة النافعة . وظل الطب في القرى وقفاً على أسرة المرابطين . ومن ثم بقي مدة طويلة بدائياً ، وكانت الأدوية بالنسبة للجروح تتركب من مستحضرات من أعشاب مغلاة ومن لزقات ، ولأمراض الروماتيزم والتهابات الأغشية بالكي بمسامير رفيعة ملتصقة بالنار . وكانت الحمى تعالج بعشب يطلق عليه « بخور أرضي » أو بمستخرجات من أعشاب تسمى الجلوبولوريا (١) « وكان مرض الحصوة يعالج عن طريق حقن مستخرجة من جذور مجففة ومسحوق من نبات الرنس وكان الإسهال يعالج بمسحوق الـ Pokooha ، والجدرى يبلع ست إلى ثمانى حبات من القرمز Hilserves في شيء من العسل .

(١) الجلوبولوريا أزهار برية تظهر في شمال أفريقيا ، وتسمى سربانة [قاموس (الترجم) شرف .

ومع ذلك ، فمُنذ المصور الموهلة في القدم ، مارس العرب التلقيح ضد الجدري وكانت طريقتهم الفنية تختلف عن طريقة الصينيين ، وكان التلقيح يتم عن طريق فتح جرح في الجزء البض من اليدين الإبهام والسبابة . وكان الجرح يدلك مفتوحا بمساعدة جمرة أو جمرتين جدريتين (مشتراه من عند صديق أو جار — ملك منها أنواعا جيدة) .

ولنلاحظ أنه في جميع الأزمنة كان المسلمون المتعصبون يقفون موقف العداوة ضد التلقيح ، وقد ثاروا بعنف ضد هذا النوع من العلاج ، وكانوا يقولون « إنها تمارض العناية الإلهية » .

كانت الرضوض ، واضطرابات الجروح ، والالتهابات وكذلك الأوذيميا من كل نوع تعالج بعامة بأوراق الـ APunta وتحمل في أول الأمر على النار وتوضع ساخنة بحيث يكون من الممكن تحملها . وكان يستخدم نفس هذا العلاج لتيسير سيل القيح من الدمامل ، والحراريج ، والقروح . ويحضر للشفاء التام لزقات أساسها مسحوق الحناء وهو علاج له قيمته بخاصة في حالة الآلام العصبية والجروح المؤلمة سواء أ كانت ذات تكوين متقيح أم كانت بدونه . ومن بين جميع هذه الأدوية المجربة ما يستحق أن يذكر بخاصة ، ذلك أنه لا يفتقر إلى جدة إذا حكمنا عليه عن طريق التقدم الذي احتله في أيامنا هذه ، ونقصد بذلك انتفاع العرب بالتعفنات المستخرجة من البنسليوم (عفن الخبز) ، ومن العشب الفطري الذي كانوا يجمعونه على ظهور دوابهم وكانوا يستعملونه في شكل مرهم لعلاج الجروح المتعفنة . كما أنه كان لدى العرب معرفة — بطريقة تجريبية — بالمقاومة ضد الأمراض البكتيرية ، وضد الأمراض المعدية أو ضد الأمراض الميكروبية لبعض الكائنات المجهرية .

البيمارستانات :

كان جميع الرحالين في العصر الوسيط ، وهم كثيرون في ذلك العصر ، مجمعين على إعجابهم بالبيمارستانات التي كانت في الشرق . وأثبت نوبرجير Nevrdnrger وهو مؤرخ لعلم الطب « أن تنظيم المستشفيات هو أحد المستحدثات الجميلة للثقافة الإسلامية » .

لقد أسس هارون الرشيد في بداية القرن التاسع أول بیمارستان في العالم الإسلامي .
وقرابة سنة ٨٥٠ أقيم أربعة وثلاثون بیمارستاناً على نمط واحد في جميع أرجاء العالم
العربي . وقد خططت بدون شك بحسب نموذج المدرسة والبیمارستان الفارسيين في
جنديسابور . وكان معظم هذه البیمارستانات موقوفةً عليها أموال كثيرة ، وكان موقعها
حسناً ومعدة إعداداً كاملاً ، ومفتوحة للجميع ، للأغنياء وللفقراء على السواء .
وكما نجد في المنشآت الأكثر حداثة ، نجد في المنشآت القديمة خدمات خاصة وفقاً
للأمراض ، وصيدليات ومحال ، ومطابخ ، وغرفاً للقراءة أيضاً . وقد عين أول مدير
للبیمارستانات في القرن العاشر .

كان يلحق بكل بیمارستان أطباء وطلبة ، وجراحون ، وأطباء عيون وكذلك
« مجبرون » . وكان المرضى يرقدون في أسرة مزودة بأغطية . وكان الطبيب يزور
المرضى كل يوم ، والمرضون الذين كانوا يقودونهم عدة مرات كل يوم ، كانوا
يمنحونهم الأدوية ، ويقدمون لهم الوجبات ، ولم تكن معيشة المرضى تختلف كثيراً
عن معيشة مرضى اليوم . وأشهر بیمارستان في العالم الإسلامي هو البیمارستان الذي
أنشئ في دمشق سنة ٩٧٨ كان يعمل به أربعة وعشرون طبيباً . وكان العلاج
والأدوية يمنحان بالمجان طيلة أكثر من ثلاثة قرون . وفي بعض الأحيان كما في
بیمارستان القاهرة كان المرضى في دور النقاهاة يمنحون مقداراً معيناً من النقود وقت
مغادرتهم البیمارستان .

وفي الوقت الذي كانت تقام فيه بیمارستانات خاصة للنساء ، تهتم بمراعاة كمال هيئة
عاملة في البیمارستان ، أقيمت أول مدرسة للصيدلة في العصر الوسيط وكذلك المستوصفات
الأولى ، وحوانيت الصيدلة .

فروع أخرى :

أنشئ أول بیمارستان للأمراض العقلية في بغداد منذ القرن الثاني الهجري .
أى قبل بیمارستان بلنسية بسبعائة عام ، وهو أول بیمارستان في تاريخ الغرب ، وقد جاء
على مثال مستشفى الأمراض العقلية في القاهرة . وبينما كان ينظر إلى هؤلاء المرضى

على أنهم مجرمون أو مجسوسون بالشیطان ، وتطاردهم الكنيسة في حذر بالصلوات والتعاويد ، كان المرضى بالأمراض العقلية يعالجون في العالم الإسلامي بعجة ورفق على يد أطباء إخصائيين في الأمراض العقلية في جميع المدن الكبيرة من العالم الإسلامي . وأسست الأوقاف وهي مؤسسة خيرية ، وقتئذ لتقوم بعدد كبير من أعمال المساعدة للجنود المتقاعدين وذوي الماهات وللمعديين ، ولتشيء ملاجيء « للمعجزة » ، وملاجيء للأيتام . ولم تكن تعرف العصور القديمة مؤسسات مثل هذه ، لقد كانت تشكل تقدماً اجتماعياً لا يمكن إنكاره .

ومن السهل أن نرجع في سهولة ويسر كثيراً من الكشف إلى حظوتها من كرم الخلفاء .

وعلم الرمد علم مستحدث إسلامي ، ظلت شهرة أطباء رمد العيون العرب ، وتعمق معرفتهم بطرق أنواع العلاج الفف لا تجارى . وقد كان مقدراً لكتاب « تذكرة السكhalين » لعلی بن عيسى السكhal ألا تسمو إلا في القرن التاسع عشر . والحق أن المعارف الرحبة لعلماء الطبيعة والبصريات قد ساعدت بقوة أطباء الرمد وأطباء العيون العرب . وكانت أنواع علاج العين لاحصر لها ، لكن أول من مارس الأعمال الخاصة بالعلاج : استخراج ماء العين (السكتاراكتا) : كان خليفة بن أبي المحاسن الحلبي في سنة ١٢٥٦ واخترع الابرة المقمرة .

كانت الجراحة العامة ، والفن الخاص بالجراحة وصناعة الأسنان المربية في العصر الوسيط أكثر تطوراً . كان التخدير قد اتخذ سبيله إلى الظهور ، إذا ذكرنا أنه استخدم لأول مرة في أثناء جراحة قيصرية على يد طبيب مجوسى على عقيدة زرادشت لم يتردد في إثارة النوم للمخدر عن طريق الأبخرة الأئيلية الصاعدة من النبذ . ثم تبع ذلك استخدام الحشيش ، وعقاقير أخرى كانت تثير نوماً عميقاً .

وغنى عن البيان ، وعلى الرغم من أن العرب كانوا يشعرون دائماً بالكراهية لتشريح الجثة ، أنه كان مفروضاً على طب هذا العصر أن يلجأ إلى هذه الطريقة التجريبية المفيدة جداً في علم الاستيصاد للداء المقارن وكذلك إلى علم التشريح .

كما أن الجراح ماسواغى هو أول من باشر تشريح القروود العليا من النوع الذى يطلق عليه الإنسان القردى يقدمها إليه أمير من بلاد النوبة .

العشق المكشوف :

فى ألف ليلة وليلة ، أسطورة « تود » الجارية الجميلة التى اجتازت بنجاح أمام أكثر العلماء ذكاء فى بلاط هارون الرشيد ، امتحاناً هاماً فى مواد مختلفة طبية وتشريعية ، ورياضية وفلسفية لا تشير فقط إلى رحابة الثقافة العسامة لذلك العصر ، بل تشير كذلك إلى الفائدة التى التزموا بها للنهوض بعلم الطب . وكان معجم طبي غزير المفردات بقدر كاف يشكل جزءاً من التعليم العام . ومن ثم لم يكن الشعراء والكتاب والمرضى أنفسهم فى حاجة إلى شحذ قريحتهم على حساب أمراضهم ، وعلى حساب هؤلاء الذين كانوا يسمعون إلى تخفيفها .

ويروى أن أحد الخلفاء هام بحب جارية شابة واضطرب اضطراباً شديداً عند ما صارحته بحبوبيته فى عبارات تحلل فيها عناصر الهوى وتشرح الحب ، قائلة : بين الترقوة واللاهة تحترق رغبة لا شىء يروى أوارها أو يطفىء نارها .

ويؤلف المتنبي — لا عن دعاية — قصيدة شعرية عن الحمى التى تصيبه والتى تدعه فريسة لها فيقول :

« شديد السكر من غير المدام »

وإنما ذهب المتنبي فى قصيدته بتجاوز رائع ومليح فى الكلام حتى إلى تشبيه مرضه بامرأة شابة حيية :

« فليس تزور إلا فى الظلام »

وعند ما تزول عنه الحمى يقول :

إذا ما فارقتنى غسلتنى
كأننا عاكفان على جرام
كأن الصبح يطردها فتجربى
مدايحها بأربعة سجام

وكان يوضح الهذيان ، وعودة الحمى في الليل والرعشات وأيضاً العرق الذي ينتهي
بكل ذلك في دموع الوداع من محبوبته التي تهرب في الفجر .

وكما جرت العادة كان شاعر^(١) آخر يشحذ قريحته في رثاء طبيب فاضت
روحه تواء :

وأرى الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع مكروه أتى
ويتهادى الوقوع في الزلل فما بعد بقليل فيصرخ هاتفاً :

ما للطبيب يموت بالداء الذي
قد كان يرى منه فيما قد مضى
ذهب المداوى والمداوى والذي
جلب الدواء وباعه ومن اشترى

لقد كتب هذه الأبيات قبل ان يكتب مثلها مولير بـ ٨٠٠ عام .

أربعة وموز كبيرة :

إننا في حاجة إلى مجلدات كاملة للإبانة عن حصيلة معارف الإسلام في الطب
الحديث . ولا نستطيع أن نتذكر غير هؤلاء الذين أثروا التأثير العظيم بين جميع
العلماء المسلمين .

وفي الشرق حيث يتعين علينا أن نورد المدارس المشرقة التي انتشرت في الوقت

(١) هذا الشاعر هو أبو العتاهية . . . قال أبو عمر النخعي : لا أدري أهذه
الأبيات هي له أو لغيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب . قال المصحح : إننا قد رأيناها
في مجموعات كثيرة . وكل الروايات على اختلافها تفرد لها لأبي العتاهية . وقيل إن
هارون الرشيد تمثل بهذه الأبيات عند وفاته . [الأنوار الزاهية في ديوان
أبو العتاهية — طبعة بيروت سنة ١٨٨٨] . (المترجم)

ذاته في إفريقية وفي أسبانيا يجب أن نذكر أسماء أربعة تجاوز مسكانهم حد الشهرة الجامعة :

ربن ، الرازي ، علي بن العباس ، ابن سينا

ولندرس في اختصار عمل هؤلاء « الأربعة الكبار » في ربيع العباسيين الذهبي .

ربن :

عاش ربن^(١) وهو أقدمهم في القرن التاسع وقد كتب أربعة مؤلفات كان أكثرها بلوغاً في النجاح بعد مرات عدة من التوقف كتاب « فردوس الحكمة » وهو كتاب في الطب ، وفي الفلسفة الطبيعية وقد قدر سلفاً كل القدر من عصره فهذا هو المؤرخ الكبير الطبري جعل منه كتابه المفضل على غيره . وتحدد فائدته في أنه مستقل عن الترجمات القديمة ، وأنه يشكل باكورة التأليف باللغة العربية . وقد بقي منه مخطوطان ، الأول في المتحف البريطاني ، والآخر في برلين ، ويتناول نصفه تقريباً علم معرفة ألوان الأمراض العامة ، ويختص الباقي بعلم الأجنة ، ويعلم هيئة الأجسام الحية وتركيبها ، ويعلم السموم ، وعلوم متنوعة في علاقاتها مع الطب والصحة . وكان من العبث أن يسير ربن قدما وكان هو نفسه لا يستصوب ذلك ، إذ هو يخط بقلمه : « فمن ظهر بهذا الكتاب وتنحره^(٢) وتدبره وجد فيه جل ما يحتاج إليه المتخرج من علم الطب والفلسفة . فلا ينبغي للقارئ أن يستنكر ما فيه ويتبرم به » ودراسة ٥٥٠ صفحة باستقصاء لا تنفي بهذا الموضوع . ومن الملاحظ بالنسبة لكلمة حائز على درجة جامعية أن الدراسة الصالحة للإقناع التي يفترضها هذا الكتاب لم تكن موجودة في وقت ظهور الكتاب عام ٨٥٠ وقد أعيد تحريره فيما بعد بثمانين عاماً لظروف خطأ مهني علم به الخليفة المقتدر .

(١) أبو الحسن علي بن سهل بن ربن الطبري ، كان يهودياً وأسلم على يد المعتصم ، وأدخله المتوكل من جملة ندمائه ، وهو معلم الرازي صناعة الطب ، ولد بطبرستان ونشأ بها ، وله مؤلفات عدة : [عن ابن أبي أصيبعة ص ٣٠٩] . (المترجم)
(٢) تنحره : أصاب نجره والمعنى استوعبه (المترجم)

الرازي :

يبدو الرازي (٨٤٤ — ٩٢٦) تلميذ ربن أكثر أطباء الإسلام غزارة وأصاله . ويذكر ابن النديم في الفهرس ، وهو ثبت حجة بأسماء العلوم ، أن عدد مؤلفاته تبلغ مائة وثلاثة عشر مؤلفاً كبيراً وثمانى وعشرين رسالة فى العلوم والآداب ومعظم هذه المؤلفات ترجمت وأعيدت ترجمتها إلى اللاتينية .

درس الرازي الكيمياء والسيمياء والطب فى بغداد ، وكان كبير أطباء البهارستان فى هذه المدينة . وكتابه الأكثر ذبوعاً هو كتاب « مقالة فى الجدرى والحصبة » الذى حظى بوساطته بمرتبة بارزة فى تاريخ علم الأوبئة . وهو مؤلف رائع يقوم على الملاحظة المباشرة ، وعلى التحليل الإكلينيكى . ويمكن أن نحكم على تأثيره بالأربعين طبعة الإنجليزية التى طبعت ما بين عام ١٤٩٨ وعام ١٨٦٦ . وتعالج طبقات أخرى من مقالاته « الحصى فى الكلى والمثانة » ومرض النقرس وأمراض الروماتيزم . وألف الرازي أيضاً ستة من المؤلفات العامة فى الطب ومؤلفات أخرى ألفها للسخرية من أذعياء الطب والأطباء بالخبرة الذين كما يقول يحظون بشعبية لا يرقى إليها غالباً الأطباء المؤهلون . ومؤلفاه الأخيران « المنصورى » وهو موجز فى الطب فى عشر مقالات ، و « الحاوى » الذى يعالج جميع فروع الطب فى عشرين مجلداً هى دوائر معارف صادقة . لكن لم يعد يوجد اليوم إلا نصف مخطوط من « الحاوى » مبعثرة أوراقه بين المتحف البريطانى « والاسكوريال » ، وميونخ ، وليننجراد ، وبرلين وكانت ترجمته إلى اللاتينية تحت عنوان « Liber eoventinus » على يد الطبيب اليهودى فرج بن سالم كتيباً طبياً أكثر احتراماً وأكثر فائدة طيلة عدة قرون ، وكان هذا واحداً من تسعة كتب كانت تشكل كل مكتبة كلية الطب فى باريس فى عام ١٣٩٥ .

وقد اتفق أحسن الحكماء على الاعتراف بأن الرازي تفوق على جميع أطباء العرب كمجرب وكإكلينيكى وأنه يعد من بين أعظم أطباء جميع العصور بمهارته وموهبته ، وبملاحظته الإكلينيكية وتبكهناته ، وباستنباطه وبغزارة تعاليمه . وكان الرازي لا يعبه عن نزاهة أن يذكر الحالات التى كانت تعبط تنبؤاته ، وأن يحكى سقطاته ، وأن يحاول تفسيرها . ويحكى كل مؤرخ حياته أنه أصبح فاقد البصر نتيجة لإظلام

عينيه في آخر حياته ، وأنه رفض أن تجرى له جراحة لكيلا لا يرى زيادة على ذلك عالماً كان برماً به . وكان الرازي قد درس الفلسفة مثل سواد أطباء العرب الكبار ، ولعله أن يكون لنا في هذا درس نستخلصه من هذه الغاية التي أوضحت حقيقتها لهذا العملاق في الطب .

علي بن العباس :

عاش علي بن العباس في القرن التاسع ، وألف للملك عضد الدولة بن بويه كتاب « الملكي » الذي ترجم إلى اللاتينية منذ عام ١١٢٧ ، والذي يجمع كل الطب في مؤلف واحد . وهو مؤلف منظم وممتاز في شكله وفي حماسة صاحبه ، وهو ذو مفهوم نظري وعملي . وتتناول مقدمته نقداً للمؤلفين السابقين : فأبقراط في نظره شديد الإيجاز ، وجالينوس مسرف الإسهاب ، وينسب إلى الرازي الإسهاب في كتابه « الحاوي » والإيجاز في كتابه « المنصوري » ويجدر بنا أن نلاحظ أن علي بن العباس قد عني بعدم الوقوع في أخطاء السابقين ، تمسك بالتوسط بين الإيجاز والإطناب ، وصنف الأفكار والوقائع في ترتيب منسق .

وكان علي بن العباس يحظى بشعبية كبيرة بين معاصريه . وكان يطلب بإلحاح من تلاميذه التردد المنتظم على البيمارستانات فهو يقول : « وما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازماً للبيمارستانات ، ومواضع المرضى ، كثير المداولة لأموالهم وأحوالهم مع الأساتذة من حذاق الأطباء ، كثير التفقد لأحوالهم ، والأعراض الظاهرة فيهم تذكر لما كان قد قرأه من تلك الأحوال وما يدل عليه من الخير والشر الخ . . . »

ابن سينا :

في القرن التاسع ، تجمعت الثقافة العربية في شخص ابن علي الحسين بن سينا « الشيخ الرئيس »^(١) وفي سن السابعة عشرة كان ابن سينا قد درس الطب على نفسه

(١) احتفل في عام ١٩٥٢ بالعيد الألفي لابن سينا ، وأقيم له قبر في همدان ، واشتركت مصر في هذا الاحتفال بلشر بعض مؤلفاته . (المترجم)

بدون أستاذ ، فذاع صيته بقدر كاف بسبب أنه استدعى لعلاج سلطان بخارى الأمير نوح بن منصور فشفي على يديه . وفي سن الواحدة والعشرين ، ألف أول كتبه ، ثم استمر يؤلف حتى بلغ ما ألفه حوالي مائة كتاب غزيرة المادة يغلب عليها الفلسفة والطب والدين والهندسة والفلك ، والتشريع ، وعلم اللغة . وألف أشعاراً ممتازة منها خمس عشر قصيدة باقية ، وقصيدة من الخمس عشرة اختلطت برباعيات الخيام ، وأخرى « في النفس ^(١) » تشكل قطعة من القطع الكلاسيكية في الشعر العربي ، وشرح إقليدس ، وجمع ملاحظات فلكية وتأليف مبتكرة عن الحركة والقوة والحلاء والحرارة والضوء والأوزان النوعية . وكان بحشه عن المعادن المصدر الرئيسي لعلم طبقات الأرض حتى القرن الثالث عشر . وبرع في هذا الفرع ، وتشكل ملاحظاته على تكوين الجبال نموذجاً لهذا النوع من العلم :

ومن العسير أن نحكي هنا كل المغامرات التي أدت أحياناً بابن سينا إلى السجن والهن التي جعلته يعضى من ملك إلى آخر ، وكيف أصبح رئيس وزراء ، وشاعراً ، ورجل أعمال ، الخ . . . ويجدر بنا أن ننعم النظر فقط في مؤلفاته ، ومنها اثنان يستوفيان تعاليمه . أولهما « كتاب الشفاء » وهو دائرة معارف للرياضيات والطبيعة وما وراء الطبيعة ، والإلهيات والاقتصاد السياسي والموسيقى ، وهو محرر في ثمانية عشر مجلداً . ولا يتولى كتاب « القانون » مؤلفه الرئيسي على أقل من مليون من الكلمات . وهو يعالج الفسيولوجيا ، والصحة ، والعلاج ، والصيدلة ، وفي هذا الجزء الأخير ، لم يقيد أقل من ٧٦٠ عقاراً ، أوضح استعمالها في العلاج . ومع أن « القانون »

(١) مطلع القصيدة :

هبطت عليك من الملأ الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
ومنها :

محبوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سمرت ولم تبرقع
وصلت على كره إليك وإنما كرهت فرانك وهي ذات تفجع

(المترجم) ..

مؤلف تأليفاً محكماً ومع أنه يحتوي على أجزاء كتبت بأروع أسلوب لم يعدم محقرين متهمكين ذهبوا إلى أن تأثره بالنزعة المدرسية في التصنيف والايضاح كان بالنسبة له داء عضالا لم ينجح فيه علاج .

إن طابع ابن سينا الموسوعي والدمجاطيقي إلى جانب شهرته الضخمة جعلا من هذا الكتاب المرجع الأعلى لكل ما يتصل بفن العلاج ومنذ ظهوره باللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر ، احتل مكان كتب جالينوس . ولما كان قد ترجم إلى كثير من اللغات ، منها خمس عشرة طبعة باللاتينية ، وطبعة واحدة بالعبرية في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الخامس عشر ، فقد ظل أساساً للدراسات الأوروبية طيلة أكثر من ستمائة عام . وقد عد الكتاب المقدس في الطب ، وقد ترجمت بعض أجزاءه منذ عهد قريب إلى الإنجليزية . ويذكر عن ابن سينا نواذر من الذكاء والمعرفة فريدة في نوعهما وذلك بالنسبة لأحوال لم تكن تخطر على بال ، مثل علاج بعض الأمراض النفسية . كما أنه كان يبدأ الحديث بدون ترتيب وأصبعه على نبض مريض . وكان عدم انتظام ضربات النبض وضعفها أو سعة اهتزازاتها ، وتوقفها المفاجيء تبعاً للمناسبات الملزم بها تشكل كثيراً من الايضاحات بالنسبة لابن سينا . ومن دراسة النبض ، كان يصف الأعراض التي كانت تتيح له أن ينشئ مبدأ للعلاج . وقادته قطائنه حتى إلى تخصيص فصل عن الحب ، وإذا كان ميالاً للفكاهة بحسب هواه ، فقد صنف الحب بين الأمراض العقلية . بيد أنه عندما مات في سن الثمانية والخمسين ، وكان يعالج نفسه بنفسه دون أمل ، قال فيه بعض أهل زمانه :

رأيت ابن سينا يعادى الرجال وبالحبس مات أخس للمات
فلم يشف ما ناله بالشفاء ولم ينج من موته بالنجاة

لكن فيما بعد موته بمائة عام ، كان مؤلف « الأسفار الأربعة »^(١) يكشف بقدره خلاقة متفاوتة كل التفاوت في ابن سينا ، الدليل على وجود الله بالنسبة للبشر .

(١) هو ملا صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازي المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ ، وكتابه الأسفار الأربعة في الحكمة والفلسفة ويعرف بكتاب الحكمة المتعالية في مسائل الربوبية ، طبع في طهران ١٢٨٢ (معجم المطبوعات لسركيس ص ١١٧٣) . (الترجم)

وقد لانستطيع أن نترك ابن سينا دون أن نتحدث بوضع كلمات عن أحد شراحه
وهو ابن النفيس (١٢١٠ — ١٢٨٨) .

وهذا الطبيب الذي لم يكن قد مارس التشريح البتة لافي الإنسان ، ولا في الحيوان
كشف بقوة الاستدلال وباستخدام مؤلفات جالينوس نفسه أن الدم لا يستطيع أن يعضى
عبر حاجز القلب بسبب تكوينه مع الهواء « التامور » الذي اعترف بصحة وجوده
ونظريته . وبلاستنباط البسيط كان هذا التفسير يؤكد بلانزع وجود الدورة الدموية
الصغيرة .

الأطباء :

تظل مصائر هؤلاء الناس الخارجية عن المؤلف في تآلف يشير ذلك الإعجاب الذي
تتسم به الروح الشرقية ، التي اقتضت أن يكون الخلفاء أقوياء بغير حد ، والأميرات
جميلات جمالا لا يبارى ، والوزراء ذوى فطنة فائقة ، والأطباء ذوى بصيرة معصومة
من الخطأ .

كانت شهرة الأطباء مدعومة دعما قويا ، كذلك كانت ثروتهم تزداد عندما كانوا
يعرفون طريقهم بمهارة إلى البلاط ، لكن لم تكن هذه حالهم دائما ، فإذا كان جبريل
بن مختيشوع وهو طبيب هارون الرشيد والمأمون والبرامكة قد نجح في تكوين ثروة
تبلغ حوالى مائة مليون من الدراهم و ٣٦ مليونا من الفرنكات الذهبية في ٣٦ عاماً
فإن بعض الأطباء المغضوب عليهم ، على الرغم من معرفتهم المشهود لهم بها مثل ابن جاني ،
كانوا يمانون حال بؤس وكانوا يفتقرون إلى العواد من المرضى ، حتى في أثناء عام كان
الطاعون فيه في حالة المتوطنة يقضى على عدد كبير من السكان .

والرازي العظيم الذي كان قد حظى بشهرة ضخمة وبذل ثروته للصالح العام ، مات
ضحية منافسين حقودين . لكن أسرة مختيشوع وهى أسرة مسيحية وأصلها من
جنديسابور نجحت في دعم شهرتها طيلة عدة أجيال . وقد طلب واحد منهم ، وهو
جورجيس ذات يوم إلى الخليفة المنصور الذي كان قد عالجه حتى شفى من عسر في الهضم
الأذن له بالعودة إلى موطنه الأصلي فأجابه المنصور « اتق الله وأسلم وألأ أضمن لك
الجنة » لكن جورجيس رد عليه في بساطة قائلا : أنا على دين آبائي أموت ، وحيث

يكون آباءى أحب أن أكون إما فى الجنة أو فى جهنم » ، فضحك الخليفة وأمر أن يخرج إلى بلده وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار .

وهناك موقف آخر لطبيب عظيم هو حنين بن إسحاق ، ذو دلالة أكثر على التسامى فلقد أراد الخليفة المأمون أن يرغمه على تحضير سم لأحد خصومه ، وعندما رفض الطبيب تميز المأمون غيظا ، وقذف به فى السجن ، ثم أعاد طلبه مهدداً إياه هذه المرة بالموت العاجل . فأجابه حنين بشجاعة « إنى لم أتعلم إلا الأدوية النافعة » وتحكى القصة أن الخليفة أنبأه أنه كان لا يريد إلا امتحانه ووثق فيه منذ ذلك الوقت ثقة عمياء .

كانت مهنة الطب بعامة مكرمة كل التكريم ، وكان المدافعون عن هذه المهنة يتظرون إليها على أنها إلهام ربانى من المستحسن أن تمارسها دون التفكير فيما تجره من ربح ، وأخذ شغف الشبان بهذه المهنة الجميلة ينمو على مر الأيام . وفى سنة ١٩٣١ كان قد سمح لـ ٨٦٠ طبيباً بمزاولة المهنة فى بغداد . وكانت الوزير الطبيب ابن عيسى قد أنشأ جماعة من الأطباء راحت ترمى المرضى حتى فى البدن والضواحي الصغيرة وفى السجون .

فى أسبانيا :

فى القرن العاشر ، وفى مدينة قرطبة ، ظهر العالم مسلمة المجريطى الذى كان تلاميذه يتعلمون الرياضيات والفلك والكيمياء والطب والذى قوئل ظهوره بحماسة عظيمة صادقة . كما كان هناك أيضا الجراح العظيم أبو القاسم الزهراوى (٩٣٦ — ١٠١٣) الذى كان طبيباً لعبد الرحمن الثالث والذى شهر باسم Nulcassis وقد كان مقدرا أن ينشر هذا الفن طيلة قرون .

وكان الجراحون العرب يتفوقون كثيرا على جراحى العصر الوسيط فى أوربا ، وكانوا يهيئون صنعا ذوى مهارة يدوية عظيمة لصناعة آلاتهم . وكان أبو القاسم يطبق عمليا الرباط الصناعى لمنع سيل مجارى الدم ، وعلاج استخراج ماء العين (الكتاراكتا) قبل امبرواز باريه ^(١) بستة قرون ، وكا على معرفة عميقة بمرض بو الذى يطلق عليه

(١) جراح فرنسى ولد بالقرب من لافال ، مات فى باريس (١٥١٠ — ١٥٩٠) ، شهر بكشفه ربط الشرايين الذى أحله محل الكي ، طبعت مؤلفاته بجميع اللغات الأوروبية .
(المترجم)

« تدرن في العمود الفقري » ويقول العالم الجراح الفرنسي إميل فورج في هذا المعنى « كان له الفضل في تلخيص جميع المعارف الجراحية في عصره . وسبق بحثه » التصريف لمن عجز عن التأليف « المنشور فيه ٢٠٠ صورة التعبير الأول عن الجراحة . . » وقد نشرت أيضا مؤلفات أبي القاسم في عام ١٨٦١ » .

وينتمى إلى فترة تلي ذلك بأجيال ابن الجزار من القيروان ، وابن وافد من طليطلة ، والبكري من مرسية وهو خير جدا في خواص الأدوية ، وابن وافد الذي فاق كل معاصريه في دراسة المواد المتعلقة بعلم خواص العقاقير ، وعالم البصريات العظيم ابن الهيثم الذي كان قد قدر لبحثه في البصريات أن يلهم روجيه باكون وكيبلر ، ولما كان فقيرا فقد نسخ — لكي يعيش — مؤلفات رياضية ، مكتسبا بذلك ١٥٠ ديناراً سنوياً مغربياً . وكانت هذه بمثابة الدولارات في هذا العصر .

في القرن الثاني عشر ، أنجبت قرطبة ابن رشد ، وهو من أصل أسباني عربي وواحد من أعظم الشخصيات في الفلسفة ، وهو في الوقت نفسه طبيب وفيلسوف ذائع الصيت . وإذا كنا نقرر عدم الإصابة بالجدرى مرتين فإنه يمكن أن نقرر أيضاً أن ابن رشد هو أول من كانت لديه الفكرة الأساسية لعلم الحصانة ضد الأمراض .

أشبيلية أنجبت أسرة ابن زهر ستة أجيال من الأطباء المرموقين ، وكانوا جميعاً خبوزين بهذه المهنة . وبرهن الطبيب الثالث (١٠٩١ — ١١٦٢) وهو ابن زهر على أنه واحد من أعظم أطباء العرب ، فقد كشف عن حشرة الجرب . كما ندين له بالوصف الأول لالتهاب الغشاء التاموري وسرطان المعدة . وكتب كتابه « التيسير » استجابة لطلب صديقه ابن رشد ، وقد ترجم إلى اللاتينية وإلى العبرية . وكان له تأثير لاحدله في الطب الأوربي . وعندما تحرر ابن زهر من علوم الأوائل ، والعلوم الإغريقية — الرومانية أو الفارسية — نظر إليه على أنه رائد للطب التجريبي . وفي زمن ابن رشد ، ظهر في تاريخ العلوم العربية والطب العربي معاصر له ولد مثله في قرطبة في سنة ١١٣٥ وهو اليهودي اليموني (موسى بن ميمون) الذي نظر إليه على أنه أعظم مفكر من بين أطباء جميع المرحلة الإسلامية في أسبانيا وفلاسفتها . وكان أبوه عضواً بالمدرسة الثانوية

الحاخامية في قرطبة، وقاضيا ورياضيا، وفلكيا، وكان سليل أسرة علماء تنهج نهج اليهود . وهو الذي درس لابنه التوراة والتلمود والرياضيات، والفلك . ولقنه ابن رشد وابن طفيل التاريخ الطبيعي والفلسفة ، وكان ابن ميمون قد زاول الطب طيلة عشرين عاما قبل أن يكتسب شهرة خاصة . وقد قيد الفضل — وزير صلاح الدين — اسمه في قائمة أطباء السلطان عندما عرف فضله . وكان تأثيره في مادة الطب ضخما ليس بين العرب واليهود وحدهم في الشرق والغرب ، بل كذلك بين المسيحيين وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية ودرست في جامعات بادو ، ومونبلييه ويعجد الشاعر العربي القاضي السعد بن سناء الملك ابن ميمون بهذه العبارات :

أرى طب جالينوس للجسم وحده وطب أبي عمران للعقل والجسم
فلو أنه طب الزمان بعلمه لأبراه من داء الجهالة بالعلم

وفي الفلسفة ، تقدمه على أنه المدافع عن الفكرة العلمية ضد المذهب الأساسي للتوراة ومن ثم في المؤلفات التي كتبها كان لزاما عليه أن يسعى إلى التوفيق بين اليهودية وبين مذهب أرسطوطاليس عند المسلمين أو بطريقة أعم التوفيق بين الدين والعقل . وفي الطب ، عاون على دراسة قناة التنفس ، وألف مؤلفات ممتازة في علم السموم . كما كان على علم بتوضيح فائدة المبادئ الأولية لعلم الصحة وتدير التغذية .

ولندكر أيضا من بين علماء الأندلس في العصر الوسيط العالم النباتي العظيم والإخصائي في العقاقير وهو ابن البيطار من مالقة (١١٩٠ — ١٢٤٨) الذي طاف الشرق واليونان بحثا عن أعشاب طبية . ويذكر كتابه « الجامع » أربعمئة نوع من نبات ، وأغذية وعقاقير يصفها ويصنفها بحسب خصائصها العلاجية ، ونظر إلى ابن البيطار حتى القرن السادس عشر على أنه أعظم عالم نباتي إخصائي في العقاقير .

في منتصف القرن الخامس عشر وخلال انتشار طاعون أسود فتك بأروبا وفسره المسيحيون على أنه ظاهرة غضب إلهي ، في هذه الأثناء قدر لطبيب آخر عظيم أن يظهر ، إنه الوزير الخطيب وهو طبيب مسلم من غرناطة ألف من أجل هذا الوباء بحثا مستندا

إلى نظرية التلوث . ويستخدم هذا البحث الذى خطط بطريقة علمية وبالمعنى الذى يدرك به المرء هذه الكلمة اليوم ، يستخدم أساساً فى نظرية الوقاية .

مدرسة سالرنو :

كانت مدرسة سالرنو المشهورة فى إيطاليا الجنوبية مركزاً لدراسات طبية بنفس الفكرة التى تقوم عليها المدارس العربية الكبيرة فى ذلك العصر . وكان المغاربة فى صقلية قد أسسوا جامعة فى بالرمو . وكانت هذه المدينة تفاخر بأطبائها الكبار الذين كانت شهرتهم المقررة عالمية .

وفى القرن الحادى عشر ، ترك قسطنطين الإفريقى ، وباعث إفريقية ، وأصله من تونس ، ترك إفريقية بعد أربع سنوات من الدراسة يقف نفسه على ترجمة المؤلفات الطبية إلى اللاتينية أولاً فى سالرنو ، ثم فى دير البندكتين فى جبل كاسين حيث توفى سنة ١٠٨٧ « واستخلص قسطنطين الإفريقى من جميع المؤلفين المعروفين كل ما كان يمكن أن يكون مفيداً لطبيب ما لهذا يستحق أن يطلق عليه » مجدد التسايف الطبية فى الغرب » .

فى فرنسا :

وقد نفذ أيضا الطب العربى ، منذ العصر الوسيط ، إلى فرنسا ، وسرعان ما أشربت مدينة مونبلييه ، التى تحتل موقعا ممتازا ، على الطرق التى تتجه من أسبانيا إلى إيطاليا ووادى الرون — تأثير مسلمى أوروبا وأفريقية . ومنذ بداية القرن الحادى عشر عملت أوروبا على الاتصال بالعالم الإسلامى العربى ، عن طريق أسبانيا على يد الأطباء اليهود ، وعن طريق إيطاليا طريق مدرسة سالرنو التى كانت تتبادل معها التلاميذ والأساتذة .

وكان سولومون من سالرنو وناثان بن زخاريوس يدرسان فى كلية مونبلييه فى منتصف القرن الثانى عشر ، وفى القرن الثالث عشر ، أسس البابا أونوريوس الثالث فى حفل رهبى جامعة مونبلييه ومنحها تفوذا تجاه جميع بلاد العالم المسيحى . لكن

التأثير اليهودي العربي استمر مدة طويلة أيضاً ، وبعد أن تعلم أرمنجو اللغة العربية . وهو طبيب لفيليب لوبل ترجم « القانون » لابن سينا و « الشروح » لابن رشد . وفي العصر نفسه ، بعد أن تخرج أرنودي ^(١) فليليف وهو لغوي ممتاز في مدرسة سالرنو ، اشتغل بالتدريس في باريس ، ثم في مونبلييه التي ذاعت منها شهرته في أوروبا . وقد استدعاه على التوالي ملك ارجون ثم البابا ليملي عندهما ، ولقد كان تأثير الترجمات العربية لا يقل عن التأثير المباشر لمدرسة سالرنو ، وقد سبق أن عاون جرون البليزنسي وإبراهيم في مرسلها على ترجمة « كتاب النبات » المنسوب إلى جالينوس لكنه نقل إلى اللغة العربية ، وبعد قليل كان لزاماً على جين مستشار أسقف روان أن يترجم بحثاً في الأدوية المفردة . وأخيراً أسس هنري الثالث في عام ١٥٧٧ كرسى أستاذ للغة العربية في المدرسة الملكية . وكان هذا قبل كل شيء في سبيل معاونة تقدم الفن الطبي في فرنسا . وكانت أوروبا في عصر النهضة قد بدأت دراسة الأطباء العرب كما بدأت دراسة أبقراط وجالينوس .

(١) كيميائي وطبيب ، ولد في كاتالوني عام ١٢٣٥ ، ومات حوالي عام ١٣١٢ ، حكم عليه بقانون الحرمان بسبب هجومه على تعاليم الدين الحق ، فاضطر إلى أن يلجأ إلى صقلية ، وعندما استدعى لمعالجة البابا كلنت الخامس مات في أثناء عبوره البحر بالقرب من جنوا ، وبحوثه عن الكحول كانت لها نتائج هامة . (المترجم)

(١٨)

الفلسفة

يظل « القرآن » طيلة القرون الأولى للهجرة من جهة المبدأ مصدر الإلهام لكل العقلية الإسلامية . فهو يضم بين أطرافه الأفكار والأحاسيس الضرورية والكافية لتزويد أعظم الدراسات في الفكر . والمفسرون للقرآن — وهم العلماء — يمثلون المعرفة والنشاط الفكري لأهل السنة .

يبد أن رياحاً من التحرر بدأت تهب على الشرق أثناء القرن الثاني من الهجرة قبل غزو الفكر اليوناني للعالم الإسلامي بكثير . ذلك أن مناقشات المسيحيين حول صفات الله ، وطبيعة المسيح ، والقضاء والقدر ، وحرية الإرادة ، والوحي والعقل ، والمفاهيم الزرادشتية واليهودية عن مصير الإنسان والتفكير الهندي . . كل ذلك كان يساعد على تهيئة ظهور صور جديدة من التفكير الفلسفي أو الديني . ومع ترجمة الفكر اليوناني وانتشاره على نطاق واسع ومع شروح على هذه الترجمات ، ظهر عالم جديد مليء بالإغراء ، كان فيه رجال يبحثون في جميع الأمور بحرية وبدون قيود ، ودون الاستناد إلى كتب مقدسة ، وإلى معجزات . وكانوا يعضون سراعاً منطلقين تجاه الحركة الجديدة للمنطق . وكان للمسلم صاحب الفكر الناقد مثل الفتي الأثيني يفاخر « باللذة » النفيسة للفلسفة . ولم يكن يخطر بباله مع ذلك أن يقطع صلته بالقرآن لأن فقهاء الشرع كانوا يسهرون على حفظه ، ومضت دراسة الفلسفة على هامش عقيدة السلف المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالوحي المنزل في « الكتاب » . وحاول بعض المسلمين أن يتخلصوا من هذا الارتباط ، لكننا قد نبأنا إذا قلنا إنهم كانوا أحراراً في آرائهم . وعلى الجملة ، كانوا يسمعون جاهدين للتوفيق بين الفكر اليوناني والدين الإسلامي . وعلى امتداد ثلاثة قرون ، قدر لهؤلاء الفلاسفة الكبار أن يدافعوا عن العقل والفهم وروح النقد . وبعد كثير من الشكوك وضروب من اليقين ، وألوان من الحكمة وأنواع من الرعونة ، بقي مقررراً أن الإسلام عرف كيف يوفق بين التوحيد وهو نتاج هام من العالم القديم السامي وبين الفلسفة اليونانية التي هي نتاج هام من العالم القديم الهندي الأوروبي . وربما لا يكون هذا أقل عافية من مزايها .

المعتزلة :

كان أول تعبير عن الفلسفة هو نمو مدرسة من « المذشقين » أى من المعتزلة الذين كانوا يجاهرون بضرورة التفسير المجازى للقرآن والحديث إذا تناقضا مع العقل . . . وكان العقل البشرى يستطيع حقاً أن يتوافق مع الايمان بشرط أن يدرك أن هناك قوة روحية كأساس لكل حقيقة ، لكن كان من المستحيل عقلاً أن يتجاوز ذلك . . . فلما سلموا بهذا المبدأ العقلى ، أنكر المعتزلة قدم القرآن ، وأعلنوا أن الانسان لا يستطيع أن يقف على ذات الله وصفاته الحقيقية ، وأن القضاء والقدر يتنافيان مع الأخلاق والمباداة الانسانية .

انتشر مذهب المعتزلة فى نهاية القرن الثامن وفى بداية القرن التاسع فى عهد المصور وهارون الرشيد . واستمال هذا المذهب المأمون ، ابن هارون ، وصرح به رسمياً . . . وكان لزاماً على المسلمين من الآن فصاعداً أن يقرؤا القول بخلق القرآن فى الزمان وأن يعتقدوا حرية الارادة ، واستحالة إدراك الله كما يذهب المشبهة ، لكن أحمد ابن حنبل الذى كان قد أسس عن شجاعة بدرسة أهل السنة المحافظة ، ثار باسم المذهب السلفى ، وقد ضرب بالسوط حتى سالت منه السماء ، وقذف به فى السجن . ورأى الشعب فيه شهيداً ، وتهيأ رد فعل لهذا الحادث .

السكندى :

كانت فلسفة المعتزلة قد أنجبت من قبل رجلها الأول العظيم ، أبا يوسف يعقوب السكندى ، المولود فى الكوفة فى سنة ٨٠٣ والذى تحدثنا عنه بمناسبة الكلام عن العلم الطبيعى . واتخذ لنفسه حكمة أفلاطون الشهيرة المتعلقة بالفلسفة : « من لم يكن مهندساً فلا يدخل علينا » ، وكان قد درس جميع العلوم ، ولا ينسب له أقل من ٢٦٥ مؤلفاً . وكان يستمسك بالرياضيات الفيشاغورية الجديدة كأساس لكل معرفة حقيقية إلى حد أنه سعى إلى إخضاع الموسيقى ، والطب ، والصحة لعلاقات رياضية . وكان مقرباً عند الخليفين المأمون والمعتصم على أنه مترجم وعلى أنه عالم فى وقت واحد . ونحن ندين له بترجمة كتاب « الأثولوجيا » لأرسطو .

ولأنه تأثر بهذا المؤلف المنسوب إلى أرسطو فقد أجهد نفسه في التوفيق بين وجهات نظر أرسطو وأفلاطون، على طريقة الأفلاطونيين المحدثين، مثل آخرين كثيرين فيما بعد. وكانت فلسفة الكندي طبعة ثانية لمذهب الأفلاطونية المحدثة لأفلاطون الذي يقوم مذهبه على فيض ثلاثي من الله، يصدر عنه روح العالم أو العقل logos الخالق ثم يصدر عن العقل نفس الإنسان، وإذا باشر الإنسان المعرفة الصادقة استطاع أن يحصل على الحرية والخلود. لكن في هذه الجولة إلى الخلود، أوشك الكندي أن يفقد الحياة. وعند ما حدث رد الفعل ضد المعتزلة، قذف به في السجن. وعند ما صودرت مكتبته لم يبق شيء ذو أهمية من ٢٦٥ مؤلفاً كان قد كتبها.

عند ما يرتكز النظام الاجتماعي على عقيدة، فإن كل هجوم ضد هذه العقيدة ينظر إليه على أنه تهديد للمجتمع نفسه. وفي الواقع بعد هذه البداية من الاضطهاد كان هناك كثيرون ينتظرون الفرصة ليرفعوا رؤوسهم من جديد: وهؤلاء هم الوطنيون الفارسيون، والمنحرفون الذين يدينون بمذهب عبادة الإله مزدك. واليونانيون، والمسيحيون، وجميع هؤلاء الذين كان قد أقلقهم هذا الغزو في لحظة ما. وعلى ذلك لم يكن في استطاعة عقيدة أهل السنة إلا أن تقاوم بشدة فمن سنة ٨٤٧ إلى سنة ٨٥١ ألغى المتوكل الإجراءات للتحركة التي أوجدها الأمن وطرد الموحدين المعتزلين، وأبعد المذهب الشيعي، ودمر المزار الشهير للحسين الذي كان يجذب إلى كربلاء كل عام عشرات الآلاف من المسلمين.

أما من جهة اليهود والمسيحيين، فقد أعيد بقوة «شروط عمر». وصارت القاعدة العامة أنه عند ما كانت عقيدة أهل السنة تنتصر، كان التسامح الديني يتناقص ولهذا كان لزاماً على غير المسلمين أن يرتدوا بشكل ظاهر شرائط صفراء على ملابسهم، كما أنه ليس لهم الحق في امتطاء صهوة الجياد، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يمتطوا بغلة أو حماراً. كما كانوا لا يستطيعون أن يقيموا كنائس جديدة أو معابد يهودية، وكان لزاماً عليهم أن يقصروا أنفسهم على إصلاح القديم من هذه الكنائس ومن تلك المعابد. ولا يجدر بنا أن نبالغ في رد الفعل الطبيعي في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، وفي قلب الإسلام نفسه، كما في معظم الأديان، بلغت العداوة بين الفرق المختلفة مبلغاً أكثر مما كان بينها وبين الكفار من غير المسلمين. ولكن يفتقر المتوكل هذه السياسة

الحازمة ، كان عليه أن يعتمد على الشعب الذي ظل مخلصاً في مجموعته لعقائده القديمة ، وعلى الحرس التركي الذي اعتنق الدين الإسلامي أخيراً ، والذي كان متحمساً حماسة المنضوين تحت راية دين جديد . وكان الأتراك من جهة أخرى أعداء بالوراثة للفرس وكانوا يجهلون كل شيء في الفكر اليوناني . كما أن الخلافة سبقت إلى فقدان امتيازاتها السياسية شيئاً فشيئاً حتى انتقلت تدريجاً بين يدي رئيس الحرس التركي ، وأمير الأمراء .

الأشعري:

ارتضت فيما بعد القوى الرجعية المؤمنة بانتصارها أن يكون ميدان المعركة هو الأفكار ، وحاول علماء الكلام في هذه المعركة في بداية القرن العاشر التوفيق بين العقيدة والفلسفة اليونانية . وكان لابد لهذه المحاولات أن تستأنف في أسبانيا الإسلامية في القرن الثاني عشر على يد ابن ميمون ، لكن مجالها كان الديانة اليهودية ، ثم في القرن الثالث عشر على يد توماس الاكوييني بالنسبة للمسيحية . وقد وجد المنطقة حليماً على غير انتظار في الأشعري (٨٧٣ — ٩٣٥) وهو معتزلي قديم عاد إلى عقيدة أهل السنة فهاجم — بجميع أسلحته الخاصة — النظريات التي كان قد درسها قديماً ودافع بحماسة عن مذهب القضاء والقدر ، وأكد انتصار مذهب أهل السنة والجماعة .

ولم يستصوب المسلمون هذه المعركة التي أثارها المنطقة والتي انحرفت عن روح أهل السنة . وكانوا يتألمون كلما رأوا الدين خاضعاً لمناقشات فكرية ، فاضطر المتكلمون أن يقفوا هذه المعركة . وقد اكتفى المؤمن فيما بعد بالعبارة المريحة « بلا كيف » . « اعتقد في الله دون أن تسأل » لماذا التي نجد امتداداتها القديمة في أسبانيا أيضاً . ومنذ بضع سنوات، وفي زيارة لبعض ضواحي اشبيلية ، كان هناك زنديق عجوز ساجد أمام تمثال للعذراء الموقرة مشدوهاً ، وشفته تتهتم كأنه كان يتحدث وعينه تفيضان تأثراً . ولما حسب نفسه ملتزماً بتوضيح موقفه هذا فقد قال في بساطة « إني لا أومن ، لكني أصلي »

الفارابي :

اعتصمت الفلسفة في حلب التي كان يعاني فيها مشقة العيش محمد بن طرخان الفارابي المولود في تركستان . وكان الفارابي قد درس المنطق في بغداد ، وفي حران على أساتذة مسيحيين ، ولم يكن يبالى بأمور الدنيا ، قآثر مذهب الصوفية واتهم بالزندقة وهو على شاكلة الكندي ، خدعه كتاب « الأنولوجيا » لأرسطو ، وعلى مثال الأشعري أنهى حياته بعقيدة أهل السنة . وإذا كان قد أعلن في شبابه أن « الأزلي » لا يمكن إدراكه بالفكر البشري ، فإن هذا لم يمنعه — وقد وصل سن النضج — من أن يعطى وصفاً مفصلاً عن الألوهية ، وأن ينقح براهين أرسطو طاليس على وجود الله ، مثله في ذلك مثل القديس توماس الأكويني الذي كان لزاماً عليه أن يترسم ذلك فيما بعد بثلاثة قرون وأخيراً ، لم يكن رأيه في مشكلة الخلود مفهوماً مثله في ذلك مثل أرسطو . توفي الفارابي سنة ٩٥٠ في دمشق . ومن بين التسعة والثلاثين مؤلفاً التي خلفها لنا « إحصاء العلوم » وهو موجز لكل العلوم في عصره . وتشكل دائرة معارف أخرى من مؤلفاته وهي « المدينة الفاضلة » وصفاً لقانون الطبيعة الذي يتصوره على أنه المعركة الدائمة لكل تنظيم ضد كل التنظيمات الأخرى كما أن المجتمع خرج من قانون الغابة ، تبعاً لرأى بعض الناس ، عن طريق ميثاق بين الأفراد الذين يرتضون قيود العرف والقانون ، وتبعاً لبعضهم الآخر عن طريق هزيمة الضعفاء في هذه المعركة وهم الذين يتحولون إلى أرقاء وآلات بين أيدي الأقوياء وذوى السلطان . ويشير هذا القانون إلى أن الدول نفسها هي تنظيمات متنافسة وأن معركتها ليس لها حكم غير القوة . وانتهى الفارابي من هذا البحث على مبدأ الملكية القائمة على عقيدة دينية قوية ، ويقف موقف المعارضة من إتخاذ أسلوب القوة والكفاح ليعطى أخلاقية البذل والحب .

إخوان الصفا :

يبد أن الميل إلى مناقشة القضايا الفلسفية في بغداد لم يختلف . وبعد عشرين عاماً من وفاة الفارابي ، أسس أحد تلاميذه جماعة من العلماء . وتبدو هذه الجماعة غير مكترثة بالأصل الديني لأعضائها وبانضمامهم إليها ، وكانت مهمة هذه الجماعة خاصة بالمنطق وهذه العلوم .

وانتظمت جماعة مشابهة في البصرة سنة ٩٨٣ ، لكنها استمسكت بأن تبقى سرية لكيلا تنصرف عن مآربها ، وكان لها كثير من المكانة والأثر ، وحصلت على مزيد من النتائج ، وأطلق عليها « إخوان الصفا ^(١) » ، وكانت تشكل علماء ، وفلاسفة مهتمين كل الاهتمام بسمات الضعف التي كانت عليها الخلافة ، وبفساد الأخلاق . وفقر الشعب . وكان إخوان الصفا يبحثون للوصول إلى تجديد في السياسة وفي الأخلاق عن طريق إدماج التشريعات الإسلامية ، ومذهب الشيعة ، ومذهب الصوفية ، والأخلاق المسيحية ، والفلسفة اليونانية . وكانوا يزعمون أن الحقيقة تنشأ من ملاقة الأفكار أكبر من انعزالها . وكانوا يتعهدون بحرية عن جميع القضايا الجوهرية ، ولخصوا النظام الناتج عن تعاونهم في إحدى وخمسين رسالة تعكس رغبة محدودة بتجديداً جيداً لإذاعة أحكام بحسب منهاج معد إعداداً كاملاً .

في هذه الرسائل نجد شروحاً علمية متعلقة بمعظم الظواهر الطبيعية ، وعقيدتها الدينية غنوصية وأفلاطونية محدثة : فمن العلة الأولى ، أو بمباراة أخرى من الله يفيض العقل الفعال الذي عنه يفيض عالم الأجسام والأرواح ؛ ويتطلب اتحاد الروح بالعقل الفعال صفاء مطلقاً ، ويقدم العلم ، والفلسفة والدين الوسائل للوصول إلى هذا الصفاء . وأخيراً ينظر إلى العزل — بفضل المعرفة — على أنه حر في تفسير « العبارات المشككة من القرآن بالحجاز والتي كانت مسيطرة لفهم قوم غير مصقولين في الصحراء » . وكانت مؤلفات إخوان الصفا الواسعة الانتشار تمثل في الحقيقة الفكر الإسلامي في عصر العباسيين . وقد أحرقها أهل السنة في بغداد على أنها زندقة في سنة ١١٥٠ . لكنها كانت قد مارست من قبل تأثيراً حقيقياً في فلسفة ذلك العصر .

ابن سينا :

لقد ذكرنا اسم ابن سينا على أنه أشهر أطباء تاريخ العصر الوسيط . ولم يتم ابن سينا بأن يكون « رئيس الأطباء » ويمكن أن ينظر إليه على أنه ذروة الفلسفة

(١) في كتاب للأستاذ رينولد ا . ينكاسون ترجمة الدكتور أبوالمعاليفي فصل قيم في سبب هذه التسمية فيرجع إليه من يريد التوسع في هذا الموضوع . (المترجم)

العربية في الشرق . كان يتذوق المنطق ، ويشغف دأماً بالتعريفات الدقيقة وبالتصنيفات وبالإيضاحات التي كانت ملحوظة جداً في كتابه « القانون » وكان ابن سينا يجعل كتب أرسطوطاليس ، وقد حذا حذوه في « كتاب الشفاء » وعمل له موجزاً في كتاب « النجاة » .

في هذه القضية المشهورة : هل توجد الكليات خارجة عن الأشياء الفردية ؟ يقدم ابن سينا الإجابة الكلاسيكية ويعلم أنها كانت موجودة ، قبل الكثرة في العقل الإلهي ، وفي الكثرة التي تتجلى فيها ، (وبعد الكثرة) في حالة من التجريد في ذهن الإنسان لكن في العالم الطبيعي ، لا يمكن أن توجد الكليات خارج الأشياء الجزئية .

وقد أعطى ايبيلارد abelard وتوماس الأكويني نفس الإجابة بعد قرن من المناقشة وهو رائد عظيم ، وقد لا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان رائداً عظيماً بلغ الغاية . ولم يكن علم « ما وراء الطبيعة » لابن سينا شيئاً آخر غير أنه موجز لما قدمه اللاتينيون بقرنين من بعده على أنه الفلسفة المدرسية . وفي هذه المتياز بقا نجد خلاصة مذهب الفارابي وأرسطوطاليس : الممكن والواجب ، والكثير والواحد ، ولكي يفسر ابن سينا مشكلة الكثير الممكن والمتغير الذي يوجد في الواحد الواجب الوجود والثابت ، يفترض وجود عقل فعال متوسط بينه وبين النفس . وينعمر بهذا المنعنى ، لكي يحاول أن يثبت مبدأ قدم الذات الإلهية مع الانتقال من العدم إلى الوجود ، وهي المشكلة التي حلها أرسطو بقوله بقدم العالم الهولائي ، فيقترح العالم الفيلسوف حلاً توفيقياً لا يصطدم بمنطق علماء أهل السنة : الله سابق على العالم ، ليس فقط في الزمان ، بل بالذات ، فهو الوجود بذاته والعلّة الأولى . وبالنسبة إلى ابن سينا ، كل المخلوقات ما خلا الله ممكنة الوجود ، وتتطلب علّة لوجودها واجبة ولا غنى عنها ، وهكذا نعضى في سلسلة العلل إلى علّة واجبة بذاتها ، فالواجب بذاته من الضروري أن يوجد ، إذ لولا العلّة الأولى ما أمكن وجود الموجودات . ولأن كل مادة غير ممكنة الوجود ، فإن الله لا يمكن أن يكون مادياً . وفي الحقيقة ، هذا البرهان على وجود العلّة الأولى بذاتها التي يقترحها ابن سينا لم تكن شيئاً آخر غير تكرار البرهان الأونطولوجي المعروف على وجود الله الذي قال به القديس امبراوز (٣٤٠ — ٣٩٧) قبل ذلك بعدة قرون : « الموجود الذي ينشأ من ذاته

الوجود ، موجود إذا كان له ذات ، والله هو الموجود الذى ينبسج من ذاته الوجود ،
والله ذات ، إذن الله موجود .

ويرى العقل الأول كل شىء من ماض وحاضر ومستقبل ليس فى الزمان فحسب ،
بل فى الحال ، لأن تعقله أزلى . لكن الله ليس هو العلة المباشرة للأفعال ، فهى تملك
فى ذاتها أهدافها وغاياتها ، إذن فالله ليس مسئولاً عن الشر الذى هو بمن الحرية والذى
ربما يكون الخير لكل شىء .

بهذه الحجة الوحيدة وفق ابن سينا بين إيمان الجمهور والفلسفة . ووجود النبى ضرورى
ليعرض على الأمة قوانين الأخلاق فى عبارات مفهومة وذات أثر فعال . لهذا عندما يضع
دعائم التقدم الاجتماعى والأخلاقى على هذا النحو ، فإنه يسلك بحق مسلك الرسول المبعوث
من عند الله . وقد يرتاب الفيلسوف فى خلود الجسد ، لكنه يعترف أنه لو أن محمداً
صلى الله عليه وسلم قد أعلن مثلاً عن سماء روحية فقط ما كان أحد قد اتبعه قط ، وما كان
العرب قد تجمعوا فى أمة واحدة منظمة قوية ، وفى الحقيقة تفوق ابن سينا على منافسيه
بوضوح أسلوبه وإثرائه ، وفى القدرة على معاضدة الفكرة المجردة وتوضيحها بفضل
قصص فكاهية كثيرة الاستعارات مستندة إلى أسلوب شائق ، وكذلك برحابة معرفته
العلمية والفلسفية الفريدة فى نوعها ، وكان تأثيره كبيراً فى العالم الإسلامى والعالم المسيحى
وكان القديس توماس الأكوينى يتحدث عنه فى شىء من الاجلال كما يتحدث عن أفلاطون
واستطاع رينان أن يسجل بأن البرت الكبير^(١) كان مدينياً بكل شىء لابن سينا .
ومن ثم قد لا يستطيع أحد أن ينكر أن كتابى الشفاء والقانون لابن سينا يرسمان
ذروة الفكر فى العصر الوسيط ، ويشكلان محاولة من أعظم المحاولات الموسوعية فى
تاريخ الحضارات .

التصوف :

إن الإسلام الذى نشأ فى بيئة واقعية لم يكن تصوفياً بالذات ، لكنه كان لا يستطيع
على الرغم من صعوبات تفسير القرآن أن يتجنب ثورة روحية .

(١) لاهوتى وفيلسوف من الآباء الدومينيكان ، توفى ببولونيا بألمانيا . (المترجم)

كان بعض القوم الورعون لا يقرون التوفيق بين العقيدة والفلسفة ، وكانوا يحتجون ضد الترف وانحلال الأخلاق . كان هؤلاء المثاليون يحييون في التجرد من لذات الدنيا والسمو إلى قوة الإرادة والزهد حتى الاتصال مع الله ، وقد انتشرت — بلا مرء — هذه الحركة في ظل التأثير البعيد للفلسفة الهنود والترجمات الأفلاطونية المحدثه ، وكذلك بالاتصال بالرهبة المسيحية ، وقد أطلق على هذه الحركة مذهب الصوفية نسبة إلى الصوف الذي كان يرتديه النساك الأول .

حتى القرن العاشر ، كان كل ما يميز الصوفيين بساطتهم في الحياة وتقواهم ، وكانوا يجتمعون حول قدوة صالحة لأقامة الصلاة والتسامى بأنفسهم معاً ، وكان بعض الصوفية يعيشون في عزلة زهاداً . ورويداً رويداً انتشر الأولياء غير المعروفين في صدر الاسلام في أعداد لا حصر لها من بين الصوفية بحيث إن الخيال الشعبي نسب إليهم قدرات خارقة وروى عن أمرهم ظواهر من الجلاء البصرى والشعور عن بعد تثير الإعجاب . وأرسى الغزالي أسس التصوف مستمدة من عقيدة السلف . واستطاع المؤمنون أن يبحثوا عن النجاة بالجذب والاشراق ، كما سمعوا إلى ذلك بالأعمال الصالحة ، بيد أن أهل السنة رأوا تكفير بعض المذاهب على أنها زندقة ، تلك المذاهب التي نشرها بعض المسلمين لكي ينصرفوا عن الشريعة الاسلامية ، ولكي يخففوا اتجاهات ثورية . وفي مذهب الشيعة ، كانت فرقة الاماعيلية تجذب بخاصة الساخطين . وفي سهولة ويسر تشكلت هذه الفرقة من جماعة سرية ، وجمعت شخصيات من ذوى السلطان وبعض المثقفين ، وبعثت دعاة للنشر مذهبها وأصبح مع الزمن مذهب الشيعة قوة هامة ، وانتشر في أفريقية الشمالية ، وأنشأ أسرة الفاطميين .

في سنة ٨٧٤ ، اعتلى فلاح عراقى نشيط كل النشاط هو حمدان قرمط ، رئاسة الفرقة وأنشأ على شاطئ الجزيرة العربية في الجنوب الغربى من الخليج الفارسى في الأحساء ، جمهورية اشتراكية وعلمانية . وبعد أن دفع أتباعه خمس أموالهم ودخولهم إلى بيت المال ، طالبوا بالمساواة العامة ، وشيوعية الأموال والنساء ، وألغوا العبادات وأيام الصيام ، والحج إلى الأماكن المقدسة ، واعتقدوا كالفائلين ببحرية التدين أو عدمه تأويلاً مجازياً للقرآن . لكن لم يكن هذا كل شيء . فبعد أن أنشأ قرمط ومريدوه دولة مستقلة على الشاطئ الغربى من الخليج الفارسى ، جمعوا جيشاً قوياً

ونهبوا سوريا بعد أن هزموا جيش الخليفة في سنة ٩٠٠ هـ ، واستولوا على البصرة ، والكوفة ثم في سنة ٩٢٩ هـ تحت قيادة رئيسهم أبي طاهر الجنابي ، استولوا على مكة ، وعذب ثلاثون ألف مسلم ، ونهب بيت المال ، وكذلك كسوة الكعبة والحجر الأسود . وعندما غلبت الحكومة القرمطية على أمرها رويداً رويداً من جراء جرائمها واغتصابها للأموال ، لم تستطع أن تقاوم ثورة أتباعها أنفسهم الذين انتهوا إلى إقرار النظام وإعادة الملكية من جديد .

الغزالي :

كان أهل السنة يناضلون بكل جهدهم ضد الخارجين عليهم من شق الفرق ، فالملوكة يعتقدون بإله واحد وبالخلود وينكرون الخلق والبعث ، والمقرون بوجود الاله يعترفون بالألوهية وينكرون خلود النفس ، والماديون لم يعترفوا بوجود الاله .

يبد أنه في بغداد ، كان هناك عالم ديني شاب هو أبو حامد الغزالي ، يجذب أهل العلم إلى درسه في المدرسة النظامية السنية . وكانوا يأتون من كل بلاد العالم الإسلامي ليشيدوا بمجده وقوة بيبانه . ولد في طوس من أعمال خراسان في سنة ١٠٥٨ هـ ، وتوفي أبوه وهو صغير السن فتولى أمره أحد الصوفية ، وأرسله إلى نيسابور لكي يدرس الشريعة والدين والفلسفة . وهناك ، بعد عدة سنوات من النجاح المتزايد ، أصيب الغزالي بمرض غريب أدى إلى شلل أعضائه ، وجبسة كلامه ، فلما أحس بذنو أجله ، راح يستشير طبيباً وصف مرضه بأنه مرض عقلي دون أن يفسر السبب الحقيقي للمرض . وقد أعلن الغزالي فيما بعد بأن أزمة خطيرة روحية كانت قد دفعته إلى أن يضع موضع المناقشة جميع مبادئ المعرفة ، وعندما يثس من عدم استطاعته إسنادها إلى العقل ، وقع الفيلسوف فريسة يأس عميق كان هو السبب الحقيقي لمرضه . وقد تخلى الغزالي عن كل شيء ، عن منصبه في التدريس ومقرراته ، ولاذ بالعزلة . وكان لزاماً عليه أن يعيش أحد عشر عاماً في الزهد ، ممارساً المذهب الصوفي ، وباحثاً في العالم الداخلي عن مبدأ افتقده في المعرفة . ثم شرع في كتابة مذهبه . وبعد أن أخضع نظرية الحس لامتحان دقيق ، انتهى إلى أن الحقيقة التي يستند عليها المذهب المادي تشوبها الأخطاء .

وانتخذ على سبيل المثال خطأ الحس البصرى الذى يشير إلى أن النجوم صغيرة على حين أنها لى تكون واضحة على الرغم من بعدها المتناهى لابد أن تكون ذات حجم ضخم كبير . كما أنه بعد أن جمع عدداً معيناً من أمثلة أخرى لأخطاء الحس ، انتهى إلى أن الحس لا يمكن أن يكون بذاته برهاناً على الحق ، ولكن ينبغي أن نقرر أن العقل المستند إلى الحس يعد دليلاً أصبح . ويحقق الغزالي هذا الدليل بطريقة ميتافيزيقية فى التأمل الصوفى الذى يعد منبعاً للحقيقة أدنى إلى القلب من الفلسفة . وعلى ذلك فقد كتب « تهافت الفلاسفة » الذى يوضح أن العقل نفسه يتجه بالإنسان إلى الشك ، وبالجموع إلى الافلاس ، وبالخضارة إلى هلاك محقق . وعندما وصل الغزالي إلى هذه الدورة من وجوده الروحى ، هجر عزلته ، واستأنف تدريسه فى نيسابور . وبكل حزم شبابه قام يدافع وقتئذ عن عقيدته السنية المجددة ، والتى نشرها فى مؤلف من أعظم مؤلفاته شهرة ، المعنون بعنوان معبر جداً : « كتاب إحياء علوم الدين » . وفى هذا العرض التام للصوفية ، يتعاشى بعناية مغالاة المذهب الإشراقى ويوفق بين هذا المذهب والدين دون أن يقلل من شأنه ومن وجهة نظره أن المعرفة ليست بمهنة ، ولا بحرفة دنيوية إنما على العكس فيض إلهى من القلب ، وصلاة داخلية ، ووسيلة يمارسها الضمير الإنسانى للتقرب من الله .

نستطيع أن ننظر إلى الغزالي على أنه المصلح الأكبر للدين والفكر الأكثر أصالة ، والعالم الدينى الأكثر علواً فى العالم الإسلامى . ولم يسبق أبداً للشكاك والفلاسفة أن صادفوا خصماً متشدداً غاية فى الدقة مثله . ولكن ، فى المغرب عندما استنكر أهل السنة مؤلفه ، أحرقوا « الإحياء » فى احتفال أمام باب مسجد قرطبة الكبير . وهذه كانت حركة من التقوى الوضيعة بحثاً عن مناصب ومصالح دنيوية . وعلى الرغم من رد الفعل هذا ، وعلى الجملة ، فإن علماء جميع الأديان بل المسيحيين أنفسهم رجعوا إلى مؤلفه . ودام تأثيره بعض الوقت ، وبعد عدة سنوات من وفاته ، كانت الزندقة المكبوتة التى بعثت من جديد حق سنة ١١١١ ، تتعاشى الظهور مرة أخرى ، وكانت الفلسفة لاتجسر كثيراً على الظهور على الرغم من انتمائها إلى الاسم العظيم ابن رشد

ابن رشد :

كان ملوك أسبانيا المسلمون يتذوقون بقوة مع ذلك البحوث الفلسفية ، وكانوا ينكبون عليها عن إخلاص : ومن المقرر أنهم كانوا يعدونها ضرورة بعامة الناس ، وصار لزاما على الفلاسفة أن يظهروا الحرص والحذر في كتاباتهم . وكان يمثلهم الأعظم والأخير تاريخيا ابن رشد الذي دخل في رعاية بلاط الموحدين قرابة سنة ١١٥٣ نتيجة لتقابلتين تاريخيتين دبرهما بهارة ابن طفيل . وهو طبيب ، وكاتب ، ووزير عند الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ولم يكن للعهد الذي تخلقه الزمالة أثر في نفس ابن طفيل من ناحية ابن رشد ، وهو طبيب وفيلسوف مثله .

وابن طفيل المسمى Alupacer عند الغربيين هو في الحقيقة مؤلف القصة الفلسفية الأكثر جاذبية والأكثر ابتكارا في العصر الوسيط : « حي بن يقظان » فهو يوفق في القرن الثاني عشر في شمال أفريقية بين الفلسفة والتصوف . وعندما ترجم إلى اللاتينية في سنة ١٦٧١ ، وإلى معظم اللغات الأوروبية في سنة ١٦٧٢ وبخاصة إلى اللغة الانجليزية ، أوحى بقصة روبنسن كروزو لدانييل دي فو وترجم إلى اللغة الروسية في سنة ١٩٢٠ ، وإلى اللغة الأسبانية في سنة ١٩٣٤ .

وبطل قصة ابن طفيل طفل ترك وشأنه في جزيرة مهجورة ، وأرضعته غزالة فقادت صغيرها . فأطعمته لبنها ، وتعهده بخنان . وترعرع في الطبيعة ، ولعب مع حيوانات صغيرة ، وروضها ، لكن الغزالة أمه ماتت . وأنكر هذا الموت وشق صدرها وبحث عن روحها ، وهي أصل الحياة ، فلم يجدها . ومن ثم أخذ يلاحظ ويفكر ويجرب : شق بطن حيوان حي آخر بحثا عن هذه الروح التي لا يمكن إدراكها . وكان الجراح تروسو^(١) يقول فيما بعد بسبعة قرون « سأعتقد في وجود الروح عندما أجدها في نهاية مبضعى » لكن بطل ابن طفيل فسيولوجي وسيكولوجي في

(١) طبيب فرنسي ولد في تور ، ومات في باريس (١٨٠١ — ١٨٦٧) ، ألف كتابا عن « العيادات » وبحثا عن « الطب الوقائي » بمعاونة الطبيب بيدو ، ومات مصابا بالسرطان .
(المترجم)

وقت واحد ، ولحسن الحظ ميتافيزيقى كذلك ، فهو يرقى إلى فهم العالم العلوى ويجد تدريجاً ما كان يبحث عنه ، ألا وهو تكامل الروح فى الوجود العظيم للعالم .

وعندما نزل فى الجزيرة رجل متصوف يبحث عن العزلة ، علم حى بن يقظان القراءة وحته على نشر الحقائق السامية التى عرف كنهها وحده . وراح الاثنان يهديان العوام ويقران أن الحقيقة الخاصة ليست سهلة على الإدراك . وأنها لكى تنفذ إلى العقول الفجة لابد من تغليفها بالأساطير والمعجزات والاحتفالات ، وبالاختصار بجميع الرموز التى تشكل على وجه الدقة المذاهب الدينية المنزلة . وفى مواجهة الرجال الذين لا يستطيعون فهمها ، يعتذران عن تطفلها ويحثان مستمعيهما أن يحافظوا بأمانة على دين آبائهم ، وأن يصموا آذانهم عن ضلالة الأفكار الجديدة . ثم يعودان إلى جزيرتهما المهجورة للعيش فى الحياة العلوية التى يتميز بها قليل جداً من الرجال ، والتى هى مصير الأرواح الكبيرة .

ولد ابن رشد فى سنة ١١٢٦ فى قرطبة التى تولى فيها جده وأبوه منصب القضاء . وكان هو نفسه قاضياً فى اشبيلية وفى قرطبة ، ثم استدعاه أبو يعقوب يوسف إلى مدينة مراکش كطبيب أول فى بلاط الموحدين فى سنة ١١٨٢ . وكان هذا البلاط يرعى الفلاسفة على شرط أن تكون مؤلفاتهم بعيدة الغور فى آرائها . لكن يجب أن نعتقد أن للمرء كان يفهم منها بعض الشيء ، وعند مارحل أبو يوسف يعقوب فى إحدى غزواته ، تخلى عن الفلاسفة من أجل أن يكسب ثقة الفقهاء وذاق ابن رشد من هذا الحاكم نازلة عابرة ، ثم عاد إلى البلاط وأبعده فى عام ١١٩٤ لكى يرضى غضبه الرأى العام ضد إلحاده . وعند ما منحه الخليفة عفواً عاماً واستدعاه ، مات فى نفس العام فى العاشر من ديسمبر فى مراکش . ونحن نعرف أنه كان طبيباً عظيماً . وكان فيلسوفاً أعظم . وأبو يعقوب يوسف الذى كان قد أدهشه بعرفته منذ المواجهة الأولى ، طاب منه شرحاً على كتب أرسطو فظفر هذا الاقتراح من ابن رشد بكل قبول ، فقد كان ابن رشد يعتقد أن الفلسفة كلها اجتمعت فى أرسطو ، وأن من واجبه أن يشرحها . وكتب لكل مؤلف من مؤلفات الفيلسوف اليونانى تلخيصاً وشرحاً أوسط ، وشرحاً أطول . وكانت هذه بحوثاً حقيقية على طريقته وذات تحليل ثاقب الفكر ، بعيد الغور استحق بها ابن رشد أن يظل الشارح العظيم لأرسطو بالنسبة للغرب كله

وفوق مؤلفاته عن أرسطوطاليس ، نحن مدينون له كذلك برسائل في علم النفس ، وعلم ما بعد الطبيعة ، والدين ، والمنطق والفقه . وعلى النقيض من الغزالي يؤكد ابن رشد حرية الفيلسوف في البحث عن الحقيقة ، بإقراره مع ذلك بضرورة استخدام الكتب المنزلة ، بالنسبة لهؤلاء الذين لا يستطيعون أن يسلخوا إلا بآراء في متناول عقولهم تجاه العلل الأولية . ويقرر الفيلسوف بالنسبة لعقول أكثر تطوراً أن المذهب الديني المفسر تفسيراً رمزياً يمكن أن يتفق مع كشف العلم والفلسفة . فما الذي يمكن أن نأخذه على ابن رشد وهو يتحدثنا بهذه العبارات : « الحركة أبدية ، ومستمرة ، وكل حركة لها علتها في حركة سابقة . ولا حركة بلا زمان . ولا يمكن تصور الحركة بغير بداية وبلا نهاية ، والخلق خرافة أما العالم فهو خلق مستمر من الله الذي هو نظام العالم وقوته وروحه » .

ويتركب العقل البشري من عنصرين : العقل المنفعل الذي يشكل جزءاً من الجسد والذي ينفى معه ، والعقل الفعال وهو فيض إلهي ، لا يتكرر مع الأفراد وهو وحده الخالد . وانطلاقاً من هذا التعريف ، يوازن ابن رشد بين فعل العقل وفعل الشمس التي تجعل الأشياء مضيئة ، ولكن تبقى في كل مكان وعلى الدوام واحدة . وفي الحق إنه لا وجود للعالم اللهم إلا بالنسبة للعقل الذي يدركه ، وفكرته عن الجنة أنها الحكمة الهادئة والخيرة للحكيم . وكانت هذه كذلك ما انتهى إليه أرسطوطاليس .

وبلبل ابن رشد أكثر من أي مفكر آخر ، العلماء والمتقنين من المسيحيين في العصر الوسيط . وأثار هذا الفيلسوف من قبل رد فعل لدى المسلمين ثم لدى اليهودية وأخيراً لدى المسيحيين . ولم يكن مع ذلك ملحداً ، أو غير مؤمن كما قيل عنه ، لكنه كان مفكراً منطقياً يدعو إلى حق إخضاع كل شيء إلى الرأي وإلى العقل ما خلا العقائد المنزلة . ومع ذلك ، بينما كان الفلاسفة يلائمون بعامة بين مذهب أرسطو وبين الواجبات الدينية ، أخضع ابن رشد العقائد إلى الحد الأدنى في القابل للتوفيق مع أرسطوطاليس . ومهما يكن فإن المسلمين أسرعوا في تنفيذ أمر الخليفة المنصور الذي كان قد فرض بأن تلقى في النار كتبه الفلسفية ، وأن يقضى عليها بالسيان . واحتفظ اليهود بمؤلفاته المترجمة إلى اللغة العبرية . ولم تكن تعليقاته لدى المسيحيين أهون من أن تزلزل بطريقة جديّة إيمانهم العقائدي ، وألف القديس توماس الاكوييني كتاب « الخلاصة » لكي يناهض فكر ابن رشد ، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً آخر غير (م ١٥ — حضارة)

أن منهج نهج ابن رشد في شروحه المتنوعة . وفي النهاية قررت جامعة باريس دراسة الفلسفة الرشدية التي هذبتها السلطات الكنسية التهذيب المطلوب . وأصبح تأثيرها حاسماً في كل تطور الفكر الأوروبي حتى ظهور العلم التجريبي .

وبعد ابن رشد بقليل ، كان لزاماً على ابن ميمون وهو فلكي وعالم ديني أن يسمى أيضاً للتوفيق بين اليهودية والأرسطوطالية الإسلامية . وفي « دلالة الحائرين » وهو مؤلفه الفلسفي الرئيسي ، لم يتردد ابن ميمون في محاولة تفسير تلبؤات الأنبياء بتمثيلها بتجارب روحانية . ووصف علماء اللاهوت اليهود كتابه على أنه كتاب ضار ، ومع ذلك كانت الأفكار الفلسفية التي نشرها ذات منهج مبتكر ومتنوع عن أفكار ابن رشد التي كانت تتشابه أيضاً في كثير من جوانبها مع آراء هذا الأخير .

وصفوة القول، أنه استجابة لحاجة الفكر وللتطور العقلي استهدف فلاسفة الإسلام في المغرب التوفيق بين الإيمان ، والعقل ، والدين والعلم ، وبهذا الحق أنشأوا الحلقة الأخيرة للسلسلة التي نقلت الفلسفة اليونانية من الشرق الأدنى إلى الغرب اللاتيني .

نقطة طليطة :

إن الجهد العجيب الذي حققه نقلة المؤلفات اليونانية في الشرق في القرن التاسع تجدد في اسبانيا ، ولكنه كان هذه المرة في إطار اللغة اللاتينية ، وكانت المعرفة العربية تشكل جوهر هذا الجهد .

افتتح ريموند رئيس أساقفة طليطة بداية هذا الجهد بترجمة « كتاب النفس لابن سينا » إلى اللغة اللاتينية وأصبحت طليطة بفضل ريموند في القرن الثاني عشر ملتقى كبار المفكرين الغربيين فأوهمار من أهل بات^(١) وهرمان من أهل دلماسيا وروبرت من أهل رتين^(٢) كانوا جميعاً يرغبون رغبة ملحة في المعرفة ، وكانوا يأتون

(١) مدينة من مدن انجلترا .

(٢) مدينة من مدن بلجيكا .

إلى أسبانيا الإسلامية بحثاً عما لا يجدونه في بلادهم . وضرب الفونس العاشر — الملك العالم وحاكم قشتالة — المثل الأمثل وحوط نفسه بعلماء من جميع النحل مزديراً للتاج الامبراطورى .

لم تبلغ — بدون شك — مدرسة النقلة الشهيرة في طليطلة عظمة مدرسة بغداد . ومع ذلك وبغض النظر عن ترجمات الكيمائيين لانجد أقل من ثلثمائة مخطوط مترجم ، يخص الطب منها قرابة الثلث . وترجم جيرار الكريمنى وحده واحداً وسبعين مؤلفاً في العلوم كانت تشكل في ذلك العصر موسوعة حقيقية للمعارف الإنسانية التي انتفع بها مفكرون من العلماء مثل ميشيل سكوت وروجيه باكون والبير الأكبر ، والقديس توماس الاكوينى، وفلسنت البوفيسيان . وعن طريق اتساع نطاق الوثائق ذات الأصل العربى وتنوعها وهى التي استطاع جيرارد الكريمنى أن يذيعها في البيئات العلمية يمكن أن ينظر إليه على أنه المؤثر الأكثر غزارة في المعرفة الغربية في العصر الوسيط .

إن القرون الخمسة التي لحصناها تعد أكثر القرون سمواً في تاريخ الفكر الإنسانى . ويمكن أن تؤكد أنها جمعت باللغة العربية ثروات ثقافية أكثر من ثروات جميع اللغات الأخرى مجتمعة سواء ذلك في العلم ، أو الطب ، أو الفلسفة .

وهكذا فإن التيار الكبير للثقافة الذي نشأ في مصر ، وفي كلديا ، وفي آشور ، وفي فيليقية ، وفي فلسطين ، والذي كان يتجه نحو اليونان ، عاد من جديد تحت شكل موحد للحضارة اليونانية في الشرق الأدنى حيث كان العرب قد جمعوها فيه . ثم أضافوا إليها مصادر من الإلهام الهندى الذي نقلته فارس ، وضخموها بجهودهم المتكررة ، ثم وجهوها عبر أفريقية حتى أسبانيا التي كان لزاماً عليها أن تنمو أيضاً . ومن طليطلة « المدينة ذات العقيدة الثلاثية » انتشر التيار العظيم في مراكز الفكر العربى من جنوب فرنسا ، ووصل إلى ديركلونى وعن طريقه وصل إلى إقليم اللورين ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وكل أوروبا الغربية .

وكان العرب قد أضافوا إلى التقدم الإنسانى أهم إسهام في العصر الوسيط .

الباب الرابع

(١٩)

الأفول

في الأندلس

بلاط أشبيلية :

بقدر ما يتطور تاريخ الحضارة العربية ، يكون من المفيد أن نلاحظ الخصائص التي تتميز بها أفعالها . فالذي يبدو غريباً كل الغرابة هو بلا شك الوجه المزدوج لهذه الحضارة التي تتصف بالرفعة والبدانة ، وبالرقة والقسوة في وقت واحد .

ويدهش الرجل الغربي من وجود نماذج للملك وعظماء داخل قصورهم الشم يعرفون كيف يحوطون أنفسهم بفلاسفة وعلماء ، وكانوا في الوقت نفسه شعراء مرهفي الحس ونماذج للقسوة البغيضة .

ويعضى كل شيء كما لو كانت الروح الشرقية قد تعودت خير الأمور وأسوأها . كان العربي شجاعاً عظيماً ، وكان يتكشف كذلك أحياناً عن بدوى ثابت الجنان ، وعلى استعداد بقلب ثابت ونفور لمقابلة الموت الذي يصيبه مدفوعاً بغريزة تحته على الاستشهاد دون التفكير في الحصول على مجد .

استمرت هذه الغريزة الموروثة عبر القرون ، وثبتت في بغداد وفي أشبيلية في عهد هارون الرشيد كما ثبتت أيضاً في عهد المنصور ، وفي عصر الفتح كما في عصر الأفول . وهذه الظاهرة التي لا يمكن تفسيرها ، والتي لا تخص إلا رجل الصحراء لا توجد دون أن توجد له هماً مؤرقاً تجاه مستقبله .

ولا يغفر الرجل الغربي له هذا الخليط من الرقة ومن القسوة التي لا تخلو قط من إثارة فضول الكاتب والفيلسوف . وربما تكون قصة حياة المعتمد في اللحظة التي دقت فيها ساعة تقهقر العرب وإعادة الفتح الأسباني والمسيحي منعمة بالدروس .

وفي الوقت الذي أعلنت فيه أشبيلية أنها مستقلة عن قرطبة سنة ١٠٢٣ قسمت أسبانيا الإسلامية إلى ٢٣ دويلة . وكان الكثيرون يفضلون أشبيلية لسحرها ، ولشعرائها الملهمين ، ولحدائقها وورودها ، ولرحبها المشوق والذائب أبداً بالرقص والغناء . وفي هذا الموقع الساحر كان الشعراء يقبلون على المطارحات الشعرية . ويحكى ابن خلدون أنه في إحدى هذه المطارحات أنعمت ندوة لها مكاتبها الشعرية بوسام على الشاعر الأعمى الطليطلي في معرض إلقائه شعراً عن الحب وحبيبته :

صاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وجواه صدرى

وفي ذلك العصر ، تولى محمد بن عباد منصب القضاء الكبير في أشبيلية . وعندما عثر محمد بن عباد بطريق المصادفة على صانع حصر يشبه هشام الثالث ، الملك المختلوع ، قفزت إلى ذهنه فكرة : ماذا لو ولاء الخلافة . ثم استولى بنفسه على الحكم . وحكم ولده عباد المعتمد الذي خلفه إشبيلية باللين حيناً والقسوة حيناً ، وعندما رضى عن نفسه أخذ يزرع الأثر في جماجم خصومه . وتكشف هذه الفكرة الشاذة عن طبيعة الرجل ، وتشير إلى الوجه المتناقض لسلوكه . وفي سنة ١٠٤٢ عند موت هذا الملك المولع بسفك الدماء ، ورثه ولده المعتمد (١٠١٦ — ١٠٩١) في الملك وكان يبلغ من العمر ٢٦ عاماً ، وكان شاعراً بل أصبح أيضاً أعظم شاعر في أسبانيا الإسلامية . وكان المعتمد منذ شبابه يفضل سلفاً صحبة المتفنين ورجال الأدب على جماعة السياسيين ومن ثم كرس نفسه للأدب ، والفنون والعلوم . وقد عرف — وهو نصير كريم للأدب والفنون — كيف يكافئ عن طيبة خاطر أحسن منافسيه الذين كانوا ينافسونه الموهبة . وكان المعتمد حكماً في تصرفه إزاء احتفاظه بوزير أبيه ابن زيدون (١٠٣٣ — ١٠٧٣) . ويستحق منا أن نروي تاريخ هذا الوزير ، وتاريخ ميوله العاطفية كشاعر لأنهما يوضحان ما كتب في بداية هذا الفصل .

وسرعان ما أدى فشل وزراء القصر والعامريين إلى فشل الخلفاء الأمويين ، فإن
أوكار المؤامرات كانت قد تجمعت بغض الشيء في كل مكان حتى في متديات
(صالونات) الصفوة من الناس . وكانت الأميرة ولادة ، وهي من بيت أموى تملك
متدى (صالوناً) أدبياً يرتاده الشعراء . وقد اشتهرت بأنها أدبية ذات أصالة على
غرار كثيرات من جاريات بلاط هارون الرشيد ، فكانت تنظم شعراً على ملابسها
وعلى حللها ، وكان المرء يستطيع أن يقرأ على أحد عاتق ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشى مشيق وأتبه تها

وعلى الآخر :

وأمكن عاشق من صحن خدى وأعطى قلبى من يشتهها

وعلى الرغم من مبادئها كانت ولادة عفة ، وإرضاء لهؤلاء وأولئك كانت الأميرة
المدلة تدع نفسها لعشرين شاباً يولعون بها حباً . ولا يخفى التاريخ أن صراحتها بلغت
حد المكاشفة في سرد قصص غرامياتها دون تردد وبحرية لا تعرف الحدود .

وليس من المفيد أن نشترك في مناقشة يرجع موضوعها إلى الوراء ألف عام تقريباً
إذ لا يظهر أن الطبقة العليا من المسلمين قد تأثرت بهذه المناقشة ، وكل موقفها يتركز
في هذه الوقفة المبهوتة تجاه سلوك ولادة المتحرر . ومع ذلك ، فقد حدث أن ابن زيدون
أولع ذات يوم بها حباً . ولما كان يجيد اللون الغرامى ، والمديح بأسلوب بليغ ، فقد
نال الوزير موعداً وعد به للمطارحة في نظم الشعر ، ثم أعقبته مواعيد أخرى كانت
سبباً لمطارحات جديدة من القصائد الشعرية ، وكان كل شيء يجرى على ما يرام حتى
كان يوم أغرم فيه الوزير الفقى ابن عبدوس — بدوره — بولادة الجميلة . وكان
ابن زيدون الغيور يجيد كذلك الهجاء ، وقد سخر من الوزير الذى أجابه باستصدار
أمر ملكى بالسجن لخيانته في العمل ، على حين أن الحائنة الجميلة دخلت في
حريم فاتها الآخر . ويناجى الوزير الشاعر في سجنه السماء المرصعة بالنجوم التى لم يعد
يراه فيقول :

يا ليل خبر ألقى لقد عنه خبرك
بالله قل لى هل وفى فقال .. لا ، بل غدرك

ويا نسيم الصبا بلغ تحيتنا من لو على الهدى حي كان يحمينا
ويا حياة تعلينا بزهرتها منى ضروباً ولدات أفانينا
يا روضة طالما أجت لواحظنا ورداً جلاه الصبا غصناً ونسرينا
ويا نعما خطرنا من غضارته فى وشى نغمى سحبتنا ذيله حيناً

لكن هذه القصائد الشعرية لا يمكن أن توازن بتلك التى نظمها المعتمد نفسه ،
والتي تعد من أجمل المؤلفات الأدبية لشعراء العرب الكلاسيكيين .

حدث أن التقى بجارية جميلة متفتنة وشاعرة هى « رميكية » التى خصصت حياتها
الأدبية للمعتمد . وعندما سحر بالقائها وموهبتها ، أولع بها حباً ثم تزوجها وعاشت
إشبيلية منذئذ فى أعياذ وانهمكت المدينة — دون اهتمام — بما سيكون فى ضمير
الغيب فى ترف فكرى وفى شأن بغداد فى أجمل أيامها . واقد شغف المعتمد حباً
بابن عمار — الذى أصبح وزيره المفضل — لحلاوة شعره وتنبؤاته الرائعة :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منه العنبرا
والروض كالحسنا كساه زهره
وشيا وقلبه نداه جوهرا
أو كالغلام زها بورد رياضه
خجلا ، وتاه بآسهن معذرا

وهكذا كان ابن عمار يعبر عن نفسه خلال قصيدة من أجمل قصائد المرتجلة .
والتقدير الذى منحه المعتمد لابن عمار من أجل موهبته الغارقة فى لذة جسدية مغلقة ،
ذات حساسية حادة ، سرعان ما تحولت — كما قدر لها — إلى حب جارف وحاقد .
وعندما عين حاكماً على شلب ، لم يستطع الملك أن يتحمل غياب صديقه وقتاً طويلاً
فاستدعاه فى حضرته .

وكان الوقت عصيباً إذ كان الفونس السادس ملك قشتالة قد قرر الاستيلاء — مستغلاً تفتت أسبانيا الإسلامية — على قرطبة وعلى أشبيلية اللتين لم تكونا جد قادرتين على مقاومته . وقد نجح ابن عمار بمهارة كبيرة في سفارته لدى ملك قشتالة كما ينشيه عن مشروعاته الحربية ، وأنقذ المدينتين مقابل جزية متواضعة . وقد كان هذا النجاح سبباً في حمل المعتمد أن يعهد إليه مهمة أكثر صعوبة وهي مهمة تنصيبه حاكماً على مرسية . وبقدر من الحظ ، نجح الوزير عسكرياً ، واستجاب كل الاستجابة لرغبات خليفته ، لكنه ، عندما عمل من انتصاراته ، وأفرط في الزهو واطمأن إلى مستقبله ، قاطع المعتمد وأعلن نفسه بدوره ملكاً مستقلاً . وعندما غلب التأثير على أمره ، اقتيد مكبلاً بالقيود .

ومضت بضعة أيام كانت عزيزة المعتمد الغاضبة خلالها تتراخى ، وحاول الشاعر الأسير أن ينال عفوهم بأن وجه إليه التماساً مؤثراً وجليلاً ، فقد كان لا يعنى شيئاً من هذا الالتماس ، غير أن يقطع المعتمد عن العقاب الأعظم الذي كانت تستحقه خيائته . ولما كان لا يستطيع أن يفعل أكثر من ذلك لكي ينال عطف الملك ، فقد كان يذكره بحميل ما كان بينهما من حب . وفي بيت من الشعر ، صور بمهارة فائقة ، كان يتعلقه فيه جهرأ بأنه أكثر قوة من القدر . وأنه حاكم الموت نفسه .

وبين ضلوعى من هواه تميمية ستدفع لو أن الحمام يحلج

وقد أثار هذا البيت من الشعر النقاد من رجال الأدب ، ومن الشعراء ، لكن المعتمد وهو ذواق ماهر ، بسبب حبه للشعر وللشاعر أيضاً بلا ريب ، دافع عن ابن عمار بقوله : « إن الله منعه ذكاءً حاداً وأخذاً » فكان العفو قاب قوسين أو أدنى . ولسوء الحظ ، عجلت بموت ابن عمار كذوبة جديدة . فعندما استبد به غضب عنيف ، أهوى عليه بنفسه وقطعه إرباً إرباً بضربات من الطبرزين ، ثم بعد أن أعطى الأمر بغسل بقايا جسده ، صلى الصلوات الأخيرة على رفات الذي كان قد أحبه كثيراً ، وواراه التراب في القصر المبارك .

وفي كل عام كان بعث مسيحي يأتي إلى أشبيلية لاستيفاء فدية السلام التي كان قد تعهد بها المعتمد لألفونس السادس . وفي سنة ١٠٧٩ عندما وصل الوفد ، كان

المعتمد في حرب مع ملك غرناطة البربري عبدالله الزيري الذي كان بدوره تحت سلطان ملك قشتالة . ولما أمسى الأسبانيون في جو حربي ، بادر ، بمعاونة حرسه ، إلى الدفاع عن الحدود الأشبيلية مدعياً أن حاكمها كان تابعاً لملك قشتالة ، ما دام يدفع جزية . كما كان يوجد بين جنود المعتمد قشتاليون بنسبة كبيرة نتيجة لسياسة الفونس السادس الذي كان يوازن بين القوات الاسلامية المتنافسة ليحد من أطماع المعتمد ، وهكذا كان فرسان مسيحيون في نزاع وجهاً لوجه في كل من المعسكرين الاسلاميين خلال المعركة التي دارت رحاها في كابرأ ، وكانت فشلاً لغرناطة . وعندما انتهت المعركة عاد الوفد حاملاً الجزية من أشبيلية إلى قشتالة تحت قيادة رئيسها الذي لم يكن غير الملك نفسه .

ولم تحتفل أشبيلية بانتصارها . وكان علماء الدين يشكون من هجر المساجد ويؤاخذون رميكية على فتور زوجها تجاه الدين . وكان الحزب التقى الاسلامي يرقب أقل الأفعال والتصرفات من الملك وزوجته . وعلى ذلك كانا مضطرين إلى أن يركز كل منهما عمله في خلق جو أكثر ملاءمة ، وذلك بأن يؤدي المعتمد بعناية واجباته كمسلم ورع ، وبأن تقف زوجته جزءاً من أموالها على مؤسسات دينية .

الموحدون :

لكن في سنة ١٠٨٥ ، كان هناك خبر فجائي أذهل دويلات أسبانيا الاسلامية . فقد استولى الفونس السادس — توا — على طليطلة . وأدرك المعتمد أن دوره قد حان ، وأن المدن الاسلامية حتى في توحيد قواها لن تستطيع أن تقاوم مقاومة جدية لملك قشتالة ، وليون بطل الفتح الأسباني والمدافع عن النفوذ المسيحي . واستنجد ملوك العرب في أسبانيا بالملك الموحد يوسف ابن تاشفين الذي كان يحكم من الشاطئ الآخر للبحر المتوسط كل القطر الذي يمتد من بجاية إلى سوسا ، ومن تافيلت إلى السوهان .

وقد وعد يوسف — الذي ألف تقاليد الحرب المقدسة ضد المسيحيين — عبر المضيق مع جنوده الصحراويين المسلمين ، وهم جنود فدائيون صادقون ، وجمع الشبان الأندلسيين

المهيشين للخدمة العسكرية من مالقة وغرناطة وأشبيلية ، والتقى بالقوات المسلحة في الزلاقة أو ساجراياس بالقرب من بطليوس في الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٠٨٦ . وقد اقترح الفونس على يوسف بقوله : « غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاءنا يوم السبت » وارتضى ذلك يوسف لكن الفونس شن هجومه الجمعة . وحارب يوسف والمعتمد بكل شجاعة ، فكانت هذه كارثة للمسيحيين أفلت منها الفونس مع ٥٠٠ رجل ، لكن الفارس البربرى الكبير الذى لا تفارقه عزة النفس الإسلامية أدهش الجميع بعودته إلى أفريقيا دون غنيمة .

ولما خشى الفونس عودة المهجوم من قبل العرب ، اهتم بشكل جدى آتئذ بجمع جيش كثير العدد وحشد كل طبقة الأشراف القشتالية . وقد أقلق هذا الإجراء المعتمد ، فقرر أن يدعو يوسف مرة ثانية لكي ينزل الهزيمة بطريقة حاسمة بالتين المسيحي ، وعاد في الحال يوسف وأمام استحالة إخضاع المسيحيين ، ادعى لنفسه الحق في السيادة على أسبانيا الإسلامية ، واتخذ احتياطات جمعت إليه صاحب العقيدة السلفية والشعب ، لكنها أقلقته بالأمراء الذين تأمروا وقتئذ ضده مع الفونس ، وبذلك لم يحاصر يوسف غير قرطبة التى دافع عنها المأمون ، ولد المعتمد ، لكن عامة الشعب سلمت له المدينة وألحى ابن الملك الشاعر السلاح من يده وسقطت بدورها أشبيلية . وأسر المعتمد وأرسل إلى طنجة .

والحق أنه في نهاية سنة ١٠٩١ كان يوسف قد فتح كل جنوب اسبانيا ، وكان سلطانه يمتد حتى جزائر البليارد التى كان يحكمها رجاله .

وبالاتصال بالحضارة الأيرية سرعان ما أصبح سكان الصحراء المثلثون «اسبانيين» واستطاعوا تبعاً لذلك أن ينقلوا ويدخلوا الثقافة الأندلسية إلى بلاد مراكش . وكان البربرى العظيم قد أقام هاضمته في مدينة مراكش في مركز أممى لكى يراقب على وجه أفضل ثورات الجبال . وعندما مات ، كانت نصيحته الأخيرة المليئة بالحكمة العميقة توصية ولده أن يتجنب في هذه الجبال أدنى شغب . فهل كان لديه الإدراك أن بعض الشبان المستدعين للجندي المنحدرين من الجبال قد يستطيعون إزالة امبراطوريته ؟ ولم يتخذ خلفاء الحبيطة وهم واثقون من مؤخرات جيوشهم المباشرة في هذه الجبال . لقد عادوا مرة أخرى إلى اسبانيا ، والتصروا أيضاً على المسيحيين في أقليم (أو ذات

الإقطاعات السبع) التي لقي فيها دون سانكو الابن الثاني للملك قشتالة حتفه في عام ١١٠٨ .

نهاية المعتمد :

كان دون سانكو لا يبلغ من العمر غير خمسة عشر عاماً ، وكان الابن الوحيد لألفونس السادس من أميرة هي مورا زايدة ، وكثيراً ما كان يعتقد أن هذه الأميرة كانت ابنة المعتمد قدمها للملك المسيحيين رهينة لتعالفه ضد يوسف . لكن الحقيقة لم تكن كذلك ، إذ لم تكن الأميرة ابنة المعتمد ، بل كانت زوجة ولده . وعندما قتل زوجها المأمون في الدفاع عن قرطبة ضد الموحدين ، لجأت مورا زايدة إلى عبر منطقة سيرا مورينا في ممتلكات ألفونس السادس ، وأصبحت زوجته غير الشرعية . وهكذا رحلت الأميرة الأشبيلية إلى أرض كافرة مع أطفالها من المأمون . وأكدت هذه الحقيقة وثيقة مرا كشية ، وأسفت لها . « في هذا المكان تماماً حدث ما حدث من زوجة ابن المعتمد ابن عباد ومن أطفالها وقتل . عسى أن يحفظنا من الشر ومن معاملات الأعداء القاسية ؟ » .

يبدو أن المعتمد التعس ظل حبيس السجن في طنجة . وقد نقلت قصص حفظت بدقة تثبت أنه ظل نسيج وحده . فعندما وجه إليه شاعر من طنجة بعض أبيات من المديح ، وطلب منه منحة : كان الملك الخلع لا يملك غير ٣٥ ديكات (عملة ذهبية قديمة) هي كل ما يملك ، وقد منحه إياها معتذراً عن ضآلتها . وعندما نقل إلى أغات ، فرح بتسلمه كتاباً من ابنته التي لم يكن لديه أخبار عنها . وهذه هي ترجمة الكتاب المكتوب في أحد عشر بيتاً من الشعر ، وهي مهمة لأكثر من سبب :

اسمع كلامي واستمع لمقاتلي	فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأنى	بنت الملك من بنى عباد
ملك عظيم قد تولى عصره	وكذا الزمان يؤول للافساد
لما أراد الله فرقة شملنا	وأذاقنا طعم الأذى من زاد
قام النفاق على أبى فى ملكه	فدنا الفراق ولم يكن بمراه

خفرت هاربة فحازني امرؤ لم يات في أفعاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني من صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر حسن الخلاق من بني الأجداد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا ولأنت تنظر في طريق رشادي
فمساك يا أبقى تعرفني به إن كان بمن يرتجى لوداد
وعسى رمكية الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد

ولم تكتب بثينة أشعاراً أخرى غير تلك الأشعار ، إنها لخسارة . وكانت هذه
الابنة الرقيقة الكاملة التي تفيض احتراماً لأبيها ، تجيد كذلك وزن الشعر وتلحينه
كما كانت تجيد الفكرة الموجزة والكلمة المحسنة . بيد أن المعتمد عاش أيضاً بضع
سنوات في أغات حبيش السجون والفاقة ، وظل حتى نهايته التي وافت سنة ١٠٩٥ ،
لم يعمل نظم الشعر . ولما كان يستمد إلهامه من تقلبات مصيره الخاص فقد كتب :

أرى الدنيا الدنية لا تواتي فأجمل في التصرف والطلاب
ولا يفرك منها حسن برد له علمان من ذهب الذهب
فأولها رجاء من سراب وآخرها رداء من تراب

إن المعتمد لشخصية غريبة عرف بنفس الرقة كيف يرتدى لباساً من الحكمة ،
ولباساً موشى بالذهب ، وأن يفلسف آلامه بكياسة فقدت آمالها ، وأن يعزق بنفسه
بالطبرزين ودون خوف الصديق الذي كان قد خانته .

(٢٠)

تفكك الامبراطورية

الأسباب :

كان اتساع نطاق الامبراطورية نفسه هو السبب الأول لتفككها . ففي الأيام الطيبة من الفتح ، كان الخلفاء قد عرفوا كيف يفرضون سلطانهم على حكام المقاطعات العسكرية على حدود الامبراطورية البعيدة . لكن الحدود بلغت من تراحي أطرافها أن للمسافر كان يسلم ثمانية عشر شهراً للذهاب من طرف إلى آخر ، من ممركند إلى سرقسطة . وقد قضت الضرورة أن يترك لحكام الأقاليم البعيدة من العاصمة حكم ذاتي كان لا بد أن يؤدي حتماً إلى تجزئة الامبراطورية وتفككها . وكيف كان يمكن أن تكون الامبراطورية على وجه آخر غير ذلك ؟ لم تكن هناك سلطة مركزية لها من القوة ما تستطيع به المحافظة على ترابط جماعات في أقاليم وقبائل شديدة البعد والتشتت .

هذا إلى أن حياة الإفراط من كل نوع وبخاصة داخل حياة الحرب سرعان ما كانت توهن العقل والجسم معاً . . مما أدى إلى انحطاط الأسر التي لم تمتد تقدم إلا ملوكاً ضعافاً ، كانوا ميالين بدورهم إلى حياة الفسق والترف أكثر من ميلهم إلى القيام بأعباء الدولة . وكان التسرى إلى غير حد يرفع نسبة عدد الطامعين في الحكم الذين كان وضعهم القلق معترفاً به بسبب عدم وجود قانون محدد لاعتلاء العرش . وفي كل آن ، كانت ثورات لا حصر لها تحل ملكاً مكان آخر ، ولم يعد هناك أية متابعة للعمل ، أو للإدارة في الجهاز الامبراطوري العظيم . ولقد أصاب هذا الفساد في الآداب ، والأخلاق الشعب كله . إن تكاثر الثروة وما يصحب ذلك من سهولة عيش ، وفجور ، وكسل ، واتخاذ الحظيات ، ومخادنة العلمان ، والفساد الذي يلبس مع حياة الرقص والغناء والموسيقى والشراب ، كل هذا كانت له نتائج سيئة على الطبقة الموجهة . وكان دم الفاتحين قد ذاب في دم الغلوبين . ففترت حماسة العرب وفحولتهم .

هذا وقد أخذ الاتحاد القائم على وحدة اللغة والدين يميل إلى التفكك ، وكان

لزماً دون شك على الشعوب المختلفة حين تذكر استقلالها المفقود ، أن يؤدي نفورها وبغضها للسلطة المركزية إلى السخط وأن تتحول إلى ألوان من الصراع . ومن أجل هذا ، فإن الفرس المخلصين لذكرى مجدهم القديم ، لم تعد لهم رغبة في الارتباط بالهد الجديد . وكانت سوريا تتوقع دائماً القائد الوطني الذي يستطيع أن يحررها من العباسيين ، وكان البربر قد تمسكوا بعاطفة قبلية راسخة كل الرسوخ ، بل استبدت بالمرب أنفسهم قبلتهم القديمة أيام كانوا منقسمين شماليين وجنوبيين ، فعادت إليهم بطريقة قاطعة . والدين نفسه الذي كان قد ابتدع الوحدة قديماً ، كان يهتز تحت تأثير المهرطقات الضارة . ولم يقر للخلافة قرار بسبب ترجيحها بين مذهب السنة (اليمين) ومذهب الشيعة (اليسار) . وكان مذهب الشيعة يساند قضية « العلويين » ضحايا العباسيين . وكانت مكانته ودوره السياسي كبيرين على الدوام عبر العصور ، وكان مذهب الشيعة الاسماعيلي قد أقام الخلافة الشرعية ولكنها متحررة للفاطميين في مصر ، على حين كان أصل مذهب الشيعة الزيدى من إمارة بني بويه بشرق نهر الفرات كما يجب أن نضع في حسابنا أيضاً مذهب القرامطة ، والمعتزلة ، والصوفية ، و فرق أخرى فلسفية أو دينية . وفي الحق قد ترتب على كل هذه الحركات تقوية الانقسامات السياسية والجغرافية . وأصبح الإسلام غير قادر على جمع شمل المسلمين في مجموعة متجانسة .

ولا تقل العوامل الاقتصادية عن الاختلافات المذهبية تلك العوامل التي أفضت أيضاً إلى الانحلال الأخلاقي والاجتماعي . وأصبح الشرق قارة جنة وقارة صحراء وفقاً لما كان يروى أولاً يروى من أراضيه . لكن إعداد قنوات الري كان يتطلب تنظيمات وعناية دائبين ، تستطيع الدولة وحدها أن تعبثهما . ولما كانت هذه المشروعات رديئة التخطيط ، سيئة الإدارة رديئة التنفيذ ، فقد كانت النتيجة انتشار المجاعة والفيضانات والأمراض المعدية . وسطاً أربعون وباء خطيراً على العالم الإسلامي خلال الأربعة القرون الأولى ، وأفنى عدداً كبيراً من سكانه . ولم تخفف هذه اللصائب المختلفة مع ذلك من وطأة الجباية ، التي أخذت تزداد دون توقف في الولايات التي كان كل حاكم صغير فيها يلعب رعاياه دون حياء . وأصبحت هذه المظالم عرفاً مسلماً به حتى باتت رويداً رويداً قاعدة مقررة . ولما لم يعد هناك دافع يحث على الإنتاج ، فقد أخذت الزراعة والصناعة في الهبوط ، وفي ذلك خسارة كبيرة لبيت

المال الذى وجد نفسه تجاه مشكلة تزويد خزائن للدولة بما تحتاج إليه من أموال .

ولما لم يعد في استطاعة الاقتصاد دعم الحكومة ، فقد اضطرت أن تعيش على الاحتيال لتدير المال وتدخلت المضاربات وارتفعت الأثمان ، وانفجرت الثورات .

الأنحلال :

استدعى ضعف السلطة المركزية بلا شك تجزئة الامبراطورية . أما الأمراء الذين حكموا الأقاليم البعيدة فلم تكن لهم مع بغداد إلا روابط شكلية بحتة ، ويمكن القول إن وضعهم السياسى كان الاستقلال الذاتى ، ومن ثم لم تلبث الفرصة أن سنحت لهم ليظفروا بتهام الاستقلال ، بل لقد أصبح الاستقلال حكماً وراثياً . وقد أخذ العدد المذهل من الأسرات المالكة في الازدياد على أطراف الامبراطورية ثم في قلبها نفسه ، وكان لذلك أثره السيء في سياسة البلاد . فالسلوك العربى الذى حقق الفتح بطريقة ممتازة لم يمارس لتأمين استقرار البلاد المفتوحة . وهكذا ماتت الخلافة العباسية موتاً بطيئاً .

وخلف المأمون أباه هارون فكان خليفة عظيماً حقاً ، وحين خلفه المعتصم سنة ٨٣٣ ، رأى نفسه مضطراً لكي يدعم سلطته المهتزة أن يلبس حرساً خاصاً له مختاراً بعناية من بين العبيد الأتراك ، وهم جنود شجعان ، ذوو جلد ، ولكنهم غلاظ الطبع ، وهكذا سهر ٥٠٠٠ رعى من جنود الحرس على سلامة الامبراطورية .

وهذا شبيه بما فعله أباطرة الرومان حين اضطروا إلى الاعتماد على حرس قوى قيصرى . وكما حدث في روما أصبح الحرس في بغداد مع الزمن القوة الحقيقية للحكومة . ولم تعد الخلافة إلا رجلاً مريضاً . كما كانت الامبراطورية الرومانية قبلها . ومنذ ذلك الوقت ، نرى أطرافها تتناقص شيئاً فشيئاً خلال ولاية الخلفاء الشرعيين أو المعترف بهم ، والذين كانوا ملوكاً بلها خاملين . وفي ظل الامبراطورية المفتتة ، عاد إلى الظهور روح الحضارات القديمة ، وتشكلت من جديد الوحدات العنصرية القديمة في دول مستقلة داخل حدودها الطبيعية بحسب السلطة الشخصية للحكامها . وهكذا سيجد العالم الشرقى البلية الأولى التى كانت بليته في غضون التاريخ .

كانت اسبانيا أول من أعلنت استقلالها سنة ٧٥٦ ثم تبعها مراکش سنة ٧٨٨ ، وتونس سنة ٨٠١ ، وفي سنة ٨٦٨ استقل ابن طولون بالسلطة في مصر . ولم يعد لزاما عليها بعد ذلك أن تتبع بغداد إلا من وجهة أسمية بحثة . وعندما تحرر المصريون من نفوذ الخلافة ، وضعوا وقتئذ يدهم على جنوب سوريا التي قدر لهم أن يحتفظوا بها طيلة قرنين . وبعد ذلك بقليل ، استولى الامبراطور اليوناني باسيليوس الثاني على بقية سوريا ، وشوهد لأول مرة العرض الطويل من الأسرى العرب في ملعب القسطنطينية ، وأخيرا استولى امبرطور آخر على أرمينية ، لقد كان العرب يقبلون التحدي قديما ، أما الآن فإن الزمن قد تغير .

وقد أسهم المأمون كذلك في تفكك الامبراطورية وذلك بمنح حكومة خراسان لطاهر بن الحسين مكافأة له وجعلها وراثية . وكان الأخير قد انتصر على أخيه الأمين — ابن هارون من زبيدة — وجلبه . وتماقب بعد ذلك تسعة خلفاء فيما بين عام ٨٣٣ وعام ٨٩٢ ، وكانت الامبراطورية قد بلغ بها السيل الزبي ، ثم فقدت الأسرة المالكة هيبتها . ففي سنة ٩٠٢ خلع المقتدر من الخلافة على يد « أمير الأمراء » أحد وزراء القصر ، وبذلك أسرعت خطى الانحلال .

وفي سنة ٩٢٨ ، استولى الحمدانيون وهم مسلمون شيعيون على بلاد ما بين النهرين الشمالية ، وعلى جزء من بلاد سوريا ، وأسسوا في حلب والموصل مركزين ثقافيين ، غاية في الازدهار . واستولى بنو بويه وهم شيعيون أيضا على أصبهان وشيراز ، بل على بغداد سنة ٩٤٥ . ومنذ ذلك الوقت ، لم يعد الخليفة إلا رمزاً لعقيدة أهل السنة ، يأتمر بأمر الحاكم الشيعي وفي الوقت ذاته ، جعل الساسانيون في بلاد ما وراء النهر من بخارى ، ومن سمرقند مركزين كبيرين في المعرفة والفن كان قد درس فيهما ابن سينا والرازي ، وأخيرا استقرت أسرة الغزنوي في أفغانستان في سنة ٩٦٢ ؛ واستولت على كل بلاد فارس والبنجاب . واستدعى رئيسها محمود إلى غزنة — كما كان يفعل كبار الخلفاء قديما — الشعراء والعلماء وبخاصة البيروني والفردوسي .

الأتراك السلاجوقيون :

منذ ذلك الحين ، أخذت تنهأ هجرة كبيرة بل لعلها غزوة في شمال آسيا ، كان

الأتراك السلجوقيون يشعذون أسلحتهم . لكن كما حاربت بيزنطة لكي تصد العرب ، راح المسلمون يسعون ليدسدوا الطريق على الحملة التركية نحو الشرق . ثم كان الأتراك بدورهم هم الذين سموا ليقطعوا الطريق على المد المغولي .

مهما يكن من أمر ، فإن المنتصرين سيقتنون دين المغوليين الذين نهكهم ، وسوف يجعلون من أنفسهم مدافعين بحماسة عن هذا الدين . وتثير هذه الظاهرة العجب ، لكنها ليست من النادرة في تاريخ العالم الإسلامي المتقلب ، لقد كان هذا بالنسبة للأتراك السلجوقيين ، ثم بالنسبة لأبناء عمومته المغول بعد ذلك في القرن الثالث عشر ، وأخيراً بالنسبة للأتراك العثمانيين في القرن الرابع عشر ، وسيظهر الدين الإسلامي بألم انتصاراته طيلة الأزمنة الممعة في ظلام الفشل والغزو ، وقبل أن يعصى الأتراك في المسير نحو الغرب ، وعند انطلاقهم من بحيرة بايكال ، كانوا قد قاموا من قبل بعدة اتصالات مع العالم الإسلامي ، واحتلوا بخارى في سنة ٩٩٠ ، وبعد تسع سنوات ، خلعوا أسرة الساسانيين .

وكان تقدمهم سريعاً . وفي العام الألف بعد الميلاد ، انتصروا على بلاد ما وراء النهر ، وتركستان . وفي سنة ١٠٢٩ ، في عهد طغرل بك فتحت كل بلاد فارس . ولما أعدوا تقدمهم المقبل ، أرسلوا وفداً إلى الخليفة القائم ، معلنين له اعتناقهم للدين الإسلامي وفي الحال ، ألح عليهم الخليفة في الحضور أملاً في أن يتخلص من بني بويه . بفضل هذه المساعدات الحازمة . وفي عام ١٠٥٥ هرع طغرل بك إلى الخليفة فهرب البويهيون ، وتزوج الخليفة ابنة أخت طغرل بك الذي جعله « ملك الشرق والغرب » في سنة ١٠٥٨ . ورأى الخليفة القائم بالنسبة لهؤلاء الأنصار المغالين في طلباتهم أن يقطعهم البلاد التي في استطاعتهم أن يفتحوها في جواره .

وهكذا أخذت تخضع الإمارات الإسلامية واحدة بعد أخرى لحكم السلاجقة الذين اتخذوا لقب « سلطان » . فلما أصبح السلاجقة أقوى من الخليفة نفسه ، قصره الأتراك على أن يشغل دوراً ديدياً بحتاً ، وحلت الامبراطورية التركية محل الامبراطورية العربية .

خلف طغرل بك ابن أخيه ألب أرسلان « الشجاع الأسد » في سنة ١٠٦٣ ، وغزا بلا مقاومة أرمينية وجورجيا وسوريا ، وأمن العرش لابنه ملك شاه (١٠٧٢ —

(١٠٩٢) الذى أصبح أعظم سلاطين السلجوقيين . وكان ملك شاه حكماً حين احتفظ بوزير أبيلاه الأول نظام الملك الذى وفر من جديد عظمة عصر البرامكة ورخاءه للإمبراطورية طيلة ثلاثين عاماً ، وفى كتابه « فن الحكم » يرسم الخطوط الكبيرة لسياسته ، ويوضح واجبات الملك ، والقادة ، ويوصى الجميع بقوة — بالعقيدة السلفية . ولسوء الحظ ، توفى هذا السياسى المستنير الحكيم مقتولاً فى سنة ١٠٩٢ على يد اسماعيلى يذمى إلى فرقة كان يهتمها بالباطنية . ولم يكن هذا المذهب فى الحقيقة إلامجموعة دينية سرية معتصمة فى قلعة الموت (عش النسر) على بعد ٣,٠٠٠ متر عرضاً من شمال فارس . ورئيسها العظيم الحسن بن صباح الذى كان يطلق عليه الصليبيون « عجوز » الجبل ، صنع من هذه الجمعية طيلة ٣٥ عاماً مركزاً للاغتيال ، ومركزاً للفن والتعليم . وماركو بولو الذى زار الموت فى سنة ١٢٧١ ، يصفها بأنها روضة مليئة « بالسيدات والآنسات اللاتى كن يداعبن الرجال ، ويستجبن لرغباتهم » ، وطراز من جنة ينطلق فيها المطلعون على الأسرار الدينية الجدد بعد تخديرهم بالحشيش ، هذه كانت صورة المقر المخصص على الدوام لمن يظهرون الطاعة حتى الموت ، وكان يطلق على هؤلاء الذين كانوا يتناولون الحشيش الحشاشون التى تشتق منها كلمة « قاتل assassin » . وكانوا يهاجمون بخاصة مضطهدى المذهب الاسماعيلى ، وفى سنة ١٢٥٦ طاردهم المغول على أنهم كفار ، بيد أن جمعيتهم سبقت كفرقة دينية متجددة ومرتزة تحت اسم النزارية لاسيما فى الهند ، وكذلك فى فارس ، وفى سوريا وفى أفريقيا . ورئيسها الدينى والسياسى هو أغا خان (١) ، وهو الإمام السابع والأربعون من نسل على .

وكان لزاماً على المملكة السلجوقية ، منذ القرن الثانى عشر أن تتفتت بدورها إلى إمارات مستقلة .

(١) توفى أغاخان منذ سنوات ، ودفن بأسوان ، وتولى ابنه من بعده .

(المترجم)

(٢١)

الحملة الصليبية

قد لا نستطيع أن نتحدث عن الحضارة العربية دون أن نتناول بعض الحملات الصليبية وتأثيرها في زمانها .

أسبابها :

ظلت المسيحية أكثر من أربعمائة عام تتراجع أمام الإسلام الذي كان يتقدم بمنف في آسيا ، وأفريقية ، وصقلية ، وأسبانيا . وغنى عن البيان أن المحاولة الضخمة للحملات الصليبية كانت قبل كل شيء رد فعل في أوروبا المسيحية ضد آسيا الإسلامية التي كان يوجد فيها قبر المسيح .

وكان الحج إلى الأماكن المقدسة يمثل منذ عدة قرون بالنسبة لمسيحيي العصر الوسيط قيمة لا نظير لها . ويلخصها ميشليه^(١) Micholet على هذا النحو « سعيد هذا الذي كان يعود أو أكثر مسعادة منه ذاك الذي كان يستطيع أن يقول ، تبمآ لتعبير جرىء ماقاله معاصر : « أيها السيد المسيح أنت مت في سبيلي وأنا مت في سبيلك » ومن ثم كان الحجيج يذهبون إلى قبر المسيح بأعداد كبيرة .

ويبدو أن تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح في سنة ١٠٠٩ على يد خليفة فاطمي هو السبب الحاسم للحروب الصليبية^(٢) . ويجدر بنا في الحقيقة أن نذكر أنه حتى في الوقت

(١) مؤرخ فرنسي ، ولد في باريس (١٧٩٨ — ١٨٧٤) ، من مؤلفاته « تاريخ فرنسا » و « تاريخ الثورة » ، وله كذلك مؤلفات في الأدب منها « الجبل » و « المصفور » .
(المترجم)

(٢) يرى القارئ أن المؤلف يحاول أكثر من مرة أن يوهم أن السبب الحاسم للحروب الصليبية هو تدمير كنيسة قبر يسوع المسيح ، إن السبب الحقيقي هو ما ذكرناه في تعليقنا ص ٣٢٢ من هذا الكتاب .
(المترجم)

الذى كان العرب فيه يستقبلون الحجاج استقبالا حسنا ، وهذه كانت قاعدتهم بعامة ، كان المسيحيون يفضون سلفاً من الحقيقة البسيطة ، وهى أن الأراضى المقدسة مازالت باقية فى أيدي الكفرة (١) . بيد أن فكرة الحملات الصليبية لم يكن من الممكن أن تفرض بالإكراه إذا لم تكن هناك أسباب أكثر عمقا ، أسباب دينية وسياسية معاً ، بل أسباب دنيوية . ومهما يكن من أمر ، فإن العالم الإسلامى الذى كان قد كف عن كونه عامل تهديد منذ تفتته ، أصبح من جديد جفاة وجهاً لوجه أمام العالم المسمى منذ القرن الحادى عشر ، نتيجة لإعادة تجمعه على يد الأتراك ، وكان يبدو أن الحرب المقدسة ستستأنف تقريباً فى كل مكان . وفى الشرق استولى السلاجقة على بيته المقدس فى سنة ١٠٧٨ وأنطاكية فى سنة ١٠٥٥ وفى سنة ١٠٨٦ فى أسبانيا انتصر الموحدون على الجيش المسمى فى الزلافة ، وعندما لمح الامبراطور اليونانى الكيسيس Alxis فى عام ١٠٩٣ من القسطنطينية خيام جنود سليمان المسكرة على الشاطئ المواجه للبسفور ، أسرع بإرسال سفراء أمام مجمع مدينة بليزانس Plaisance لى يعلنوا مساندة مسيحي الغرب ضد الأتراك . لقد رأى العالم المسمى أنه قد حان الوقت لالتهاء من هذه الحملات .

ولعل البابا رأى فى هذا الأمر فرصة مواتية لجمع الكنيستين اليونانية والرومانية اللتين كانتا منفصلتين منذ أربعمائة عام . ولعله رأى كذلك فى الحملات الصليبية وسيلة لوقف حرب العصابات المستمرة التى كانت تقوم بالفتنة بين أصحاب الإقطاعيات بتحويل حماسهم الحربية تجاه عمل خير . وكان البابا أوربان الثانى (٢) يقول : « إن الأرض التى تقيمون عليها تقدم — بشق النفس — الغذاء لهؤلاء الذين يزرعونها ، من أجل ذلك يقاتل بعضكم بعضاً . شقوا الطريق إلى قبر يسوع المسيح . . وستكون ممالك آسيا من نصيبكم » .

(١) كان المسيحيون فى أوروبا ينظرون إلى المسلمين على أنهم كفار ، فتأمل ؟ أما المسلمون فإنهم يعتبرون اليهود والنصارى أهل كتاب . (المترجم)

(٢) بابا من عام ١٠٨٨ حتى عام ١٠٩٩ ، ولد فى لاجارى من مقاطعة شامبيني بفرنسا ، يعتبر المهرض الأول على القيسام بالحملة الصليبية الأولى فى مجمع « مونت » الكنى . (المترجم)

لم يكن فرسان العصر الوسيط الأتداء مسيرين — كما هو واضح — بدوافع روحية فحسب إذ كانت الانتصارات التي ظفر بها النورمانديون في إنجلترا وفي صقلية (١٠٩١) ضد مسلمى أسبانيا وأفريقية قد بعثت المسيحيين إلى الحرب . وكانت هناك دوافع أخرى لا تقل عن ذلك إلزاماً . وإذا كان بعض أصحاب الإقطاعيات ينحشون أيضاً عن الحرب التي تسعدهم سعادة أبدية فقد كان هناك فقراء يرون في هذه الحرب تخفيفاً من يؤسهم قبل أن تكون تضحية . وقد لا يستطيع أى إنسان أن ينكر مع ذلك أن الوثبة الكبيرة للحملة الصليبية على الجلمة كانت ذات باعث ديني صادق ، وكان « إنقاذ قبر المسيح » هو الباعث الأساسى (١) .

وقد توالى تسع حملات صليبية على التعاقب فيما بين عامى ١٠٩٦ ، ١١٩١ ، وليس هناك مجال لنروى كيف تجمع هذا العدد الكبير من الصليبيين الذين كان عددهم يقدر بـ ٧٠٠,٠٠٠ تقريباً ، وما يدل عليه العدد المرتفع قليلاً من الجند الذى شارك في هذه الحملات ، أو بيان المراحل التي مرت بها هذه الجموع المختلطة وفساد أخلاقهم ومصائبهم على طول الطريق ، وعلى الجلمة هذه التقلبات والحوادث العجيبة لهذا المشروع الحربى الذى ارتبط بالتاريخ الأوروبى . وتنطوى المعركة فى خطوطها الكبيرة على مرحلة من فتوح الصليبيين استمرت خمسين عاماً ، ومرحلة من رد الفعل الإسلامى استغرق

(١) لم تلبث أن قوبلت دعوة البابا للعرب الصليبية بالاستجابة فى غرب أوروبا ، فرحب بها جمهور العامة بسبب الفاقة والضييق الاقتصادى الذى كانوا يمانون منه عندئذ فى غرب أوروبا ... ورحب بها فريق كبير من الفرمان وأمرأاء الإقطاع لأنهم وجدوا فيها فرصة طيبة لتأسيس إمارات لهم فى الشرق ، ورحبت بها المدن التجارية مثل بيزا والبندقية وجنوا لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة هى الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها فى شرق البحر المتوسط وجمع الأموال والثروات من وراء ذلك كله ... وهكذا اتفقت مختلف الأطراف فى المجتمع الأوروبى الغربى على إرسال حملة إلى الشرق لتحقيق أغراض دنيوية بحتة تحت ستار زائف من الدين وجعلها تنسب إلى الصليب وتعرف باسم الحروب الصليبية [عن أعلام العرب — الناصر وصلاح الدين — تأليف الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ١٨ و ١٩] . (الترجم)

المدة نفسها والمرحلة الثالثة استغرقت القرن الثالث عشر ، وتداولها النجاح والفشل لسكتا الفئتين ، و انتهت أخيراً بطرد الصليبيين الذين اضطروا إلى الجلاء بطريقة حاسمة عن الأراضي المقدسة .

فتوح الصليبيين :

ابتداء من القسطنطينية وهي مركز تجمعهم ، كان طريق الصليبيين يعبر آسيا الصغرى وحاول الأتراك أن يقطعوا عليهم الطريق إلى دوريل^(١) في يونيه ١٠٩٧ ، وارتدوا إلى الوراء . وقد فتك بالتجمعات الصليبية الأولى مسيرهم عبر الهضبة القاحلة لآسيا الصغرى وجبال طوروس الوعرة . لكنه حرر آسيا الصغرى وأخر دخول الأتراك إلى أوروبا بما يقرب من ٣٥٠ عاماً .

وكان وصول بعض الشبان المستدعين للخدمة المنظمين تنظيماً جيداً من منطقة كليشيا قد زادهم رباطة جأش . وفتح الصليبيون سنة ١٠٩٨ طرسوس ، والرها ، وأنطاكية وحلب . لكن جيشاً تركياً مكوناً من ٢٠,٠٠٠ رجل بقيادة أمير الموصل أقبل ليعدهم بهم في أنطاكية . وفي الوقت الذي كان فيه المسيحيون فريسة للمجاعة ينتظرون سلامتهم بمجزأة ، أعاد لهم كشف القديسة لانس المدفونة في كنيسة من كنائس أنطاكية الحماسة والحمة الجريئة معاً . وقهر الجيش التركي وولى الأدبار . وبعد عام في ٧ يونيو سنة ١٠٩٩ وصل ٤٠,٠٠٠ جندي صليبي أمام بيت المقدس . وفي ١٥ يوليو ، بعد هجوم استمر يوماً ونصف يوم كان جيشهم يدخل المدينة . وكان قد دخلها جودفري ديه بويون^(٢) عن طريق جسر ضيق ، والنورمانديون عن طريق ثغرة في الحائط . وفي ذلك يكتب ميشيليه : « كان الصليبيون الذين لا يعملون حساباً للزمن — في غضبتهم العمياء — يعتقدون في كل كافر كانوا يقابلونه أنهم يمتتون أحد جلادى المسيح . تلك كانت روح التعصب للصليبيين الأول . »

(١) مدينة من مدن آسيا الصغرى وتعرف اليوم باسم اسكي شهير . (المترجم)
(٢) دوق إقليم اللورين المنخفض ، ولد في بيزى (١٠٦١ — ١١٠٠) ، كان رئيساً للحملة الصليبية الأولى ، نودي به ملكاً على اورشليم ، واتخذ لقب « وكيل قبة الصخرة » .
(المترجم)

ولم يرتض جود فرى ده بويون الذى انتخب ملكاً إلا بلقب المدافع عن قبر المسيح
ولما كان محارباً مقدماً فقد دعم انتصاراته بأن أرغم فى عسقلان جيشاً من ٢٠,٠٠٠
رجل كان قادماً من مصر على أن يولى الأدبار . ومنذ ذلك الوقت تحققت آمال
الصليبيين ، وبعد ثلاث سنوات من التضحيات التى لم يسمع عن مثلها حررت الأماكن
المقدسة . وقسمت سوريا وفلسطين ثلاث دول لا تينية هى بيت المقدس وأنطاكية ،
وطرابلس . وعندما أسست هذه الممالك الثلاث لم تكف عن أن تتشاجر فيما بينها ،
بل شرعت تشن هجوماً ضد أمراء حلب والموصل وأتابك دمشق وخليفة القاهرة
الذين لم يكونوا أقل انقساماً من أولئك أنفسهم ؛ وفى غضون المارك أقام الصليبيون
حصوناً ما زالت أطلالها ماثلة . بيد أن الخصومات توقفت . وبدأت علاقات حسن
الجوار تنشأ . وأدرك المسيحيون أن المسلمين لم يكونوا كفاراً وثنيين كما كانوا
يعتقدون ، وأدت الاتصالات المتزايدة إلى مبادلات أكثر وداً وإلى علاقات أكثر حياءً .
وانتهى الصليبيون — بدافع الظروف — إلى اصطناع أساليب حياة الشرقيين ، وكانوا
أكثر تموداً للجو . ولما فتنوا بالذات الشرقية ، تذوقوا ألد حلاوة الحياة ولم
يكن من النذرة أن ترى مسلمين يتحالفون مع مسيحيين ضد إخوانهم فى الدين ، ومن
جهة أخرى التمس بعض اللاتينيين الذين كانوا يتشاجرون فيما بينهم معاونة من يسمونهم
بالكفار . ويروى أيضاً رحالة عربى هو ابن جبير أن مبنى دينياً فى إقليم عكا كان
مقسماً بالتناوب بين العبادتين المسيحية والإسلامية . ولم تسكن المارك نفسها بذات تأثير
على المحاربين ، فتولدت الروح الانسانية التى خلفها صلاح الدين تجاه العدو المغلوب ،
والذى أعطى أجمل الأمثلة عن طيبة النفس^(١) . وكانت هذه بالامراء مشار دهشة للمسيحيين
إذ كشفوا وقتئذ سمو نخبة من رجالات الشرق المذهبيين والمثقفين ، وذوى الأخلاق
الرفيعة ، والذين عرفوا زيادة على ذلك كيف يشركونهم فى خطواتهم الفنية ، وأن يسدوا
فراغ طب غربى بدائى وتجريبي . وقد أدى اتصالهم بنظام اجتماعى متطور كل التطور

(١) غير أن المسلمين كانوا رجالاً أكمل من المسيحيين ؛ فقد كانوا أحفظ منهم
للعهد ، وأكثر منهم رحمة بالمغلوبين ، وقلما ارتكبوا فى تاريخهم من الوحشية
ما ارتكبه المسيحيون عندما استولوا على بيت المقدس [عن قصة الحضارة — عصر
الايمان — تأليف ول ديورانت — ترجمة محمد بدران ص ١٩٠] . (المترجم)

أن يولد عند الصليبيين التطلع إلى حرية فردية أكثر انطلاقة ، والاتجاه نحو تحرير الأفكار مما نشأ عنه تحول في المجتمع الغربي ، ولكن هذه المهادنة الخيرة لم تستمر ، ولم تلبث العلاقات الودية أن قطعت .

رد الفعل الإسلامى :

أضمر رينو ده شاتيون Renaud de Chatillon الذى كان قد نهب قافلة إسلامية ، خطة للانطلاق للتحرش بحجاج مكة . ولما شرع هذا المسيحي ينفذ خطته أسرع صلاح الدين سلطان مصر والمتحمس لمقيدته السلفية والذى كان يتحين مثل هذه الفرصة بغزو مملكة بيت المقدس واستولى على طبرية في الأول من يوليو من سنة ١١٨٧ . وفي حطين ، سحق جيشاً مسيحياً من ٢٠,٠٠٠ رجل أيدوا من الحرارة والعطش ، وأكرم وفادة جى ده لوزينيان^(١) ملك أورشليم أسيره ، وهو خصم مخلص وشجاع ، لكنه قتل القاسى رينو ده شاتيون . وفي ٢ من أكتوبر ، سقطت أورشليم بين يديه وقد أنقذ صلاح الدين الذى كان أكثر إنسانية مما كان عليه الصليبيون أسرى المسيحيين من الموت مقابل فدية . وبسبب علو همتهم كما يقال فقد حرر أيضاً — فيما بعد — هؤلاء الذين كانوا لا يستطيعون أن يفقدوا حريتهم .

وفي نهاية ١١٨٧ ، كانت فلسطين وسوريا تحت سلطان صلاح الدين ما عدا أنطاكية وصور وطرابلس ، وبعض الأماكن المحصنة أو القلاع المنعزلة . وكان لهذه البلايا العظيمة دوى عميق في الغرب يتطوع أقوى ملوك العالم المسيحي ، فقد تطوع امبراطور ألمانيا وملك إنجلترا وفرنسا في حرب صليبية وفد هلك فردريك باربيروس^(٢) على رأس ١٠٠,٠٠٠ ألماني في طرسوس ، وتفرق جيشه . واستولى ريتشارد قلب الأسد

(١) كان ملكاً لأورشليم ثم حاكماً لجزيرة قبرص (١١٩٢ — ١١٩٤) ، وهو الابن الأصغر لهيج السابع الذى أسره صلاح الدين في موقعة حطين عام ١١٨٧ .

(٢) امبراطور الغرب (١١٢٥ — ١١٩٠) ، انتخب ملكاً لألمانيا عام ١١٥٢ ، وتوج ملكاً على إيطاليا عام ١١٥٥ ، ومات غريقاً في كليسيا في أثناء الحرب الصليبية الثالثة .

الذى كان أكثر حظاً على قبرص . ونجح فيليب أوجست^(١) من جانبه أمام عكا في إقامة اتصال بين جيشه وجيش الصليبيين اللاتين الذين كانوا قد بقوا في الأرض المقدسة .

وبدأ حصار المدينة في ٢٧ من أغسطس سنة ١١٨٩ وسارع صلاح الدين إلى معاونتها في اليوم الثانى من الحصار . كما وصل كذلك — من جانبها — ريتشارد مع جنوده الانجليز ، ودوق النمسا مع فلول الألمانين . وكانت خيام جيش الصليبيين تغطى السهل ، وسفنهم تسد الميناء . وكان جيش صلاح الدين يمسكر على المنحدرات المجاورة ، وتقاتل الجيشان طيلة سنتين ، وأتى كل من جانبه بأعمال خارقة « فقد اشترك ٦٠,٠٠٠ رجل في هذه المعركة الضخمة التى ذهب ضحيتها ١٢٠,٠٠٠ مسيحي و ١٩٠,٠٠٠ مسلم . ونشبت تسع معارك كبيرة ، وأكثر من ١٠٠ معركة صغيرة » . وكانت هذه أكبر عملية حربية فى العصر الوسيط . وكان الصليبيون يتفوقون على المسلمين بأسطول وبمعدات وفيرة للحصار ، وكان المسلمون يفوقونهم فى القيادة الفريدة التى لا يستهان بها . وسلمت الحامية المنهوكه فى ١٢ يوليو سنة ١١٩١ . وكان يشترط فى التسليم أن الحامية قد تنقذ نفسها مقابل دفع ٢٠٠,٠٠٠ عملة ذهبية بيزنطية وإعادة الصليب الحقيقى إلى حالته الأولى حينما استولى عليه صلاح الدين فى حطين . ولما لم يكن فى طاقتهم دفع الفدية فى المهلة المتفق عليها ، أعدم ريتشارد الحامية الإسلامية البطلة .

وتمخضت مفاوضات للسلم مع ذلك فى ٢ من نوفمبر سنة ١١٩٢ . عن تقسيم البلاد . فأعطى الشاطيء إلى اللاتين وداخل البلاد للمسلمين . ومنحت جزيرة قبرص صفة مملكة مستقلة لحساب الصليبيين ، وأنشئ فى شمال أنطاكية مملكة أرمنية الصغرى على رأسها ملك أرمنى وطبقة أرستقراطية فرنسية . واتفق على تأمين سلامة الحجاج المتجهين إلى بيت المقدس ولدعم هذا السلام ، اعترف ريتشارد أن يزوج أخته جان ملكة صقلية من شقيق صلاح الدين . وكان مقدراً أن يحكم الزوجان بيت المقدس

(١) ابن لويس السابع (١١٦٥ — ١٢٢٣) اعتلى عرش فرنسا عام ١١٨١ ، واشترك مع ريتشارد قلب الأسد فى الحرب الصليبية . (الترجم)

المدينة المحايمة ، لكن هذا المشروع العاطفي لم يكتب له التوفيق . وعاد ريتشارد إلى إنجلترا دون أن يدخل المدينة المقدسة .

نهاية الحملات الصليبية :

في بداية القرن الثالث عشر ، استولت حملة جديدة على دمياط في مصر ، ثم أخذتها . وفي سنة ١٢٢٩ استولى فريدريك الثاني على بيت المقدس من سلطان مصر ، لكن المدينة سقطت مرة ثانية في قبضة المسلمين في سنة ١٢٤٤ نتيجة لخلافات بين المسيحيين . واستولت من جديد حملة صليبية بقيادة القديس لويس على دمياط مرة أخرى في سنة ١٢٤٩ ، وسارت في اتجاه القاهرة ، لكن مجازفة الفرسان الفرنسيين ، وفيضان النيل ، والطاعون والأسقربوط كل ذلك أرغمها على التقهقر ، وأسر ملك فرنسا وهو في مؤخرة الجيش . وعندما أطلق سراحه مقابل إعادة تسليم دمياط ، وفدية ضخمة ، وصل الحرب وأصلح الأماكن القوية التي كان المسيحيون لا يزالون يحتلون في سوريا ثم عاد إلى فرنسا في سنة ١٢٥٤ ، لعدم وصول الإمدادات التي كان ينتظرها منذ ثلاث سنوات ثم توفي بالطاعون في سنة ١٢٧٠ في أثناء الحملة الأخيرة الصليبية الطائشة الموجهة هذه المرة ضد تونس .

كان بيبرس على رأس سلسلة من السلاطين المماليك الذين ألقى عليهم عبء القيام بالضربات الأخيرة ضد الصليبيين . فاحتل غزة في سنة ١٢٦٣ وقىصرية في سنة ١٢٦٥ ، ويافا وأنطاكية في سنة ١٢٦٨ ، وأمر بدمج حامية هذه المدينة الأخيرة ، وقاد ١٠٠٠٠٠ شخص في الأسر وهاجم خلفاؤه عكا بوسائل قوية واستولوا عليها في سنة ١٢٩١ وذبحوا فرسان المعبد الذين كانوا يدافعون عنها . واحتل بيبرس بعد ذلك صورا وصيدا وبيروت وطرطوس ، وقذف بآخري الصليبيين في البحر .

لم تحقق الحملات الصليبية هدفها ، بل تبين للعالمين أنها عديمة الجدوى . فقد شرح آنفاً تأثيرها الحضاري على المجتمع الأوروبي ، أما في الشرق فلم تترك هذه الحملات غير أطلال بالية وإحساس بالمرارة لم يتبدد بعد .

صلاح الدين :

فاضت الحملات الصليبية بسبات من البطولة ومن البذل من كل نوع بل — وبالأأسف — بسبات من البربرية أيضاً لأن القسوة كالشجاعة لم تعد بالأمر الحاسم لأى من الخصمين . وهناك رجال من بين الذين خاضوا هذه المعركة الضخمة يستحقون أن تسلط عليهم الأضواء لا بسبب شجاعتهم فقد كانت هذه عملة متداولة في نشوة المارك — بل بسبب ما يبقى في النفس بعد ما يسكن الضجيج من الصفات التي تصنع ثروة الإنسان وسموه الأخلاقى الصادق والفضائل التي عاونت على وجه الدقة في تقدم الحضارة والتي مستظل من صفاته الرئيسية .

تألفت شخصية صلاح الدين في المعسكر الإسلامى والقديس لويس في معسكر المسيحيين في رونق قوى على أنهما العلمان للمثلان الحزم والثبات والبطلان الناصران للعدالة والقانون . وقد ظهر الاثنان في طراز أخلاقى عال في المناسبات الفاجعة أحياناً ، وكان نبيل روحهما يلامس أيضاً خصومهما . ونمض القديس لويس بتاريخ فرنسا ، أما صلاح الدين الذى عد أحد كبار القديسين في العالم الإسلامى فيلتحق إلى الحضارة الإسلامية .

لقد استحق فعلاً كل هذه الألقاب ، الملك ، والناصر ، وصلاح الدين . ولد في سنة ١١٣٨ من أصل كردى وتلقن منذ شبابه في القيادة على والده ، الذى كان حاكماً لمعبلبك ثم دمشق ، وفي الانتصار في ميادين القتال . وكان وزيراً في الثلاثين من عمره ثم حاكماً لمصر ، واستولى صلاح الدين على سوريا بحفنة من الرجال . وعند موت الخليفة الفاطمى الذى ترك ١٢٠٠٠ جارية وثروات لا يحسب لها حساب ، قسم كل شئ دون أن يحتفظ لنفسه بأى شئ . وعند ما أصبح سلطاناً في سنة ١١٧٥ أقام صلاح الدين العدالة فأنشأ المساجد والمدارس والمستشفيات ، والكتاتيب ، وعضد فن البعاز وحفر القنوات ، وشيد القناطر ، وأنشأ نطاقاً كبيراً للرى ، ونجح مع ذلك في تخفيض الضرائب .

وعند ما استؤنفت الحرب مع الفرنجة ، راح ينصب من نفسه حامياً للإسلام ، واستولى على سائر الممالك اللاتينية تقريباً ، وهو محارب كريم النفس . وقد رأيناه يسرح الأسرى

في بيت المقدس دون قدية على حين جرت المعادة بذبحهم . وعلى هذا المنوال عفا عن الملك جى ده لوزينيان الذى لم يف بوعده في الكف عن استئناف الحرب والذى لم يذكر له أى أثر يدل على طيبة نفسه ، ومع ذلك وبعد أربع سنوات من سلوك صلاح الدين الكريم في بيت المقدس ، أعدم ريتشارد قلب الأسد الألفين والسبعمئة أسير في عكا الذين عجزوا عن دفع الفدية . ويقول جوتفيل : عند ما كان أطفال العرب يصيحون « كانت أمهاتهم تهمس إليهم : كفوا عن الصباح ، هاهو الملك ريتشارد جاء يبحث عنكم ، فكان الأطفال يكفون عن الصباح في الحال بسبب خوفهم الشديد الذي كان يتماكبهم عند ذكر اسم ريتشارد . وكذلك عند ما كانت الجياد تجفل من بعض الأشباح كان العرب والأزك يقولون لها : « وهل تظنين أن هذا الشبح هو الملك ريتشارد . ؟ أما صلاح الدين فلم يعرف عنه إلا خصال العظمة .

كانت المعاهدة التي عقدت بعد الاستيلاء على عكا على يد الصليبيين تحدد أن المسيحيين كان لهم الحرية في الذهاب إلى الأراضي المقدسة ، وكانوا معفيين من كل جزية ومكوس بهذه المناسبة . واحتفظ صلاح الدين بكلمته ، وكانت معاملته غاية في الرقة إلى درجة أن الحجاج تابعوا على قبر المسيح وداخلت الرية من ذلك ريتشارد ، وطلب من السلطان استقبال هؤلاء الذين يوصى هو بهم فقط . وأجاب السلطان بأنه لا يستطيع في الحقيقة طرد كثير من الحجيج الذين كانوا قد تركوا آباءهم وأصدقاءهم في بلاد بعيدة من أجل مجيئهم لقضاء فريضة العبادة .

كان صلاح الدين يمت بدرجة كبيرة أهل الجدل وعلماء ما وراء الطبيعة وعلماء الكلام المدوسى . وكان يحقر الفلاسفة والشعراء ورجال الأدب لكنه كان يشعر بمتعة عظيمة كلما أصغى إلى أحاديث الرسول وملكته . وكان يقرأى غالباً أصول الفقه للرازي (١) . وكان يصفه المؤرخون المسلمون بالذعة والتواضع ، والتقوى ، والتحرر والصبر ، وعدم الحقد . وكانت قناعته وزهده مضرب الأمثال . إذ كان لا يملك أرضاً ولا منزلاً ولا كان صاحب إقطاع .

وبعد وفاته ، لم يوجد في خزانته غير دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً . مع

(١) هو أبو بكر الرازي الجصاص صاحب كتاب أصول الفقه . (المترجم)

ما كان تحت يده من أموال ضخمة في مصر ، وسوريا واليمن ، والأقاليم الشرقية . لكن كل شيء كان قد استخدم في التخفيف من آلام شعبه « الذي أهلكته ويلات الحروب والزلازل » وكانت وفاته الذي حدثت فجأة في سنة ١١٩٣ حداداً عاماً . ولقد رثاه أحد الكتاب في هذه العبارات « .. أفلت الشمس عند الصباح ، وذهبت روح الدنيا التي ذهب بذهابها كثير من الأرواح ، في تلك الساعة ظلت الأبواب حائرة ، وتمثلت فيها السماء ماثرة ، والجبال سائرة ، وأغمد سيف الله الذي كان على أعدائه دائم التجريد ، وخفت الأرض من جبلها الذي كان يمنحها أن تميد ، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره ثاكلاً لوحيده ، فهو أعظم فاقد لأعظم قعيد ، وليس أحد من الناس إلا وقد صم عن الخبر ، وأصيب في سواد القلب والبصر » .

ونظر العالم المسيحي إلى صلاح الدين على أنه مثل خليف بآن يحتذى . ومجده الإيطاليون بسبب ما ذكره عنه دانتي من أنه ملك ليس أقل تحرراً من الاسكندر الذي ظل في العموض وسط أبطال القرون القديمة إذ يقول :

« رأيت صلاح الدين في جانب واحد منه فقط »

ويصفه الألماني فيدا دي بازوش بقوله : « هذا الملك لم يكن مشهوراً إلا بين جنوده الأوفياء » . وفي نظر الأسبانيين يتناول علو شخصيته جوهر السمو الأخلاقي وفقاً لمفهوم عن « جوهر الإنسان بالذات » كما كان يقال عادة في القرن الخامس عشر . ولكي نستخدم تعبير دون جوان مانويل . بتعارضه مع تعريف الشيء في حد ذاته ، فإن « الرجل على حد تعبير أوناموتو^(١) » لا شيء غير أنه إنسان كامل » . وفي نظر الإنجليز الرومانتيكيين في هذا الشأن أصبح صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد مادة لا تنفد من القصص الخيالي لشعرائهم المتجولين الذين فاخروا بالقائدين على أنهما يمثلان وحدهما الفروسية وكان الفرنسيون متأثرين بإحساس رسالة دينية ، وعلى حد تعبير جيلبير^(٢) دي نوجان ،

(١) كاتب أسباني ولد في بيلباو (١٨٦٤ — ١٩٣٦) . مؤلف كتاب « عنوان

الشعور التراجيدي بالحياة » ، وكتب رسائل هجائية مقذعة . (المترجم)

(٢) راهب بندكتياني وراعي كنيسة نوتردام ده نوجان في عام ١٠٥٣ مات نحو عام

١١٢١ ، ألف كتاباً عن الحروب الصليبية ، ويعمد من أحسن الوثائق التاريخية عن هذه الحروب .

كانت الحملات الصليبية مآثر من الله ا كتملت على يد الفرنسيين . لكنهم لم يخفوا اعترافهم بأن صلاح الدين « زهرة رقيقة من البشاشة » وبوصفه بأجمل صفات الشجعان . وقبل أن يصرخ بطل مسرحية^(١) كورنى (Corneille) بخمسة قرون « إن لها من مالا يحصى بالنسبة إلى أنها ليست مسيحية » كان الفرسان الافرنج يتأسفون على أن صلاح الدين لم يكن مسيحياً . وراحت هذه الفكرة المتفق عليها تنتفى — من الآن فصاعداً — من أذهانهم حتى لأقل شعور بالنسبة لهذا الرجل النبيل الذى يتلخص كل بغضهم له فى إخلاصه لدينه .

(١) مسرحية (Palyeuete) الفصل الرابع — المنظر الثانى . (المترجم)

(٢٢)

انعكاسات باهرة

كان الإسلام لا يزال يحافظ حتى خلال هذه العصور المظلمة على مكائده الأولى في العالم . ويمكن أن يعد السلاطين الأول السلجوقيون ووزراؤهم من بين أحسن رجال الحكم في التاريخ . ولم تكن المعرفة السياسية والعسكرية لصالح الدين تقل قيمة في أى شيء عن المعرفة السياسية والعسكرية بالنسبة لريتشارد قلب الأسد ، ولفردريك ده هوهنشتاوفن والقديس لويس ومعاصريه . ومهد هؤلاء السلاطين — دون شك — سبيل النجاح للعقيدة السلفية إلى درجة اضطهاد المهرطقات الإسلامية ، لكنهم أبدوا تسامحاً تجاه الأديان الأخرى في الامبراطورية ، حتى إن المرء كان يرى طوائف مسيحية منعذرة من بزنطة تدعوهم لنجدتها ضد الحكام الذين كانوا يضطهدونهم ، ومن جهة أخرى أدت حكمتهم في أمور الدين إلى تخفيف انحرافات الفلاسفة وإلى التقليل من شأن الفلسفة فترة من الزمن . وعلى النقيض ، في الميدان الفني لم يكن عصرهم بأقل من العصور التي سبقته في ظل تأثيرات متنوعة وبخاصة تأثيرات مسيحية ، تحرر فن المعمار بطريقة أكثر إشراقاً أيضاً ، ففي الشرق ، كما في مصر ، طبع السلجوقيون والأيوبيون والمماليك هذا الفن بوثة تصوفية كان يفخر إليها . أنه لمصر غريب ، عصر صاعد وهابط معاً ، وحشى وناعم في آن واحد .

امتاز الطراز السلجوقي بقوة عوضاً لحسن الحظ ما كان فيه الطراز الممارى الفارسي من رشاقة مصطنعة . وكان من نتيجة اندماج هاتين الطريقتين الفئيتين ظهور قصور ومساجد ذات طراز جديد تغلب عليه رشاقة الخطوط وقوتها . ويجدر بنا أن نلاحظ أنه في الوقت نفسه كان الفن القوطي يزدهر في فرنسا . وهنا وهناك ، كانت تقوم الدلائل الفنية الكثيرة والباقية من عصر يشع فيه من الإيمان ، إيمان ديني سام حقاً ، لكنه إيمان خادع كذلك ، طالما قاد هذه الشعوب نفسها ليجابه بعضها بعضاً متصارعين في ميادين القتال . وهكذا كان شأن هذا المثل الأعلى الذي كان يصنع تارة محاربين لا يقهرون ، وتارة أخرى مؤسسى دول يفيضون جراءة وبأساً .

ولا تخلو أية نظرة خاطفة على تطور فن المعمار من فائدة ، وبمساعدة تطور الزمن

والانصراف جملة إلى أوفى إيمان راسخ كل الرسوخ لم تعد المساجد تتخفى في داخل قناء
فهي تملك الآن واجهات براقة وتتطاول نحو السماء وتتوج بقبو . وتتكاثر أنصاف
القطع السكافي والقباب والسطوح الداخلية للقباب ، وتتحد معاً في مجموعة متناسقة رشيقة
التناسب . وقد جمعت الأمثلة الأولى لظاهرة الفن المماهى في جامع آنى عاصمة أرمينية
وشيد هذا الجامع منذ بداية الاحتلال السلجوقي ، وكذلك الآثار الباقية أطلالها اليوم في
قونية ، ويمكن أيضاً أن نعجب في هـ - هذه المدينة الأولى بالجامع الضخم المسعى جامع
علاء الدين وبالواجهة المزخرفة لمآدراده سيرة تيجليه .

ولا يزال باقياً كذلك عن عصر السلجوقيين الجامع الكبير في الموصل وجامع
المستنصر في بغداد ، ومقبرتان و برج طغرل بك في الري ومقبرة منجاري مرو ، وثلاثة
محاريب همدان ، وفي قزوين ، لكن تحفة هذا الفن الجديد تظل ولا شك ممثلة في مسجد
الجمعة بأصبهان . وعندما بدأ في سنة ١٠٨٨ ، تتابع تشييده طيلة عدة قرون في إتقان
رائع ، حتى إن بعض جزئيات زخرفته الداخلية نظر إليها على أنها أجمل الجزئيات
الزخرفية في العالم الإسلامي . ومن العصر الأيوبي ، تظل أيضاً في سوريا القلعة الضخمة
في حلب والجامع الكبير في هذه المدينة ، وضريح صلاح الدين في دمشق ، قريب من
المسجد الأموي . وهنا تحولات المساجد وتلاءمت مع المطالب الجديدة لطلاب العلم من
الشباب ، فقد أضيف إليها في ذلك الوقت أروقة في كل مكان منها ردهة (صالة)
للمحاضرات لتدريس الفقه وأصول الدين . وكل رواق تعلوه مئذنة ، وفي الوسط ترتفع
الكتلة المهيبة للقبلة الكبيرة . وفي عصر صلاح الدين أيضاً كانت قلعة القاهرة حادثاً
خطيراً ، وقامت أسوار المدينة (١١٨٣) التي أتمها خلفاؤه فيما بعد بالاستفادة من
أحجار الأهرام الصغيرة ، لأن الأحجار نادرة في بلد أرضها من الطمي .

وإذا كان الإنتاج الفني وبخاصة المماهى بلغ من الوفرة ما لم تعرفه مصر منذ ألف
عام تقريباً ، فإن أصالته ونوعه لا يزالان من السمات الملحوظة بل من السمات التي
لا يمكن تصورهما في ظل نظام من الدم والحديد وعبر عصر من الممارك المستمرة .
وإنما بقيت خفايا من هبة فنية راسخة كل الرسوخ في هذا البلد المنظوى على نفسه
ولحسن الحظ ظل في مأمن من الهجرات التي لا تبقى ولا تذر ، وتذهب بكل شيء .
وكان الغزو المغولي نفسه على الرغم من تخريبه الشديد للشرق مفيداً لمصر ، لأنه أكره

المفنيين والصناع على الهرب من بغداد ، والموصل ، وحلب ودمشق لكي يلجأوا إلى مناطق أكثر ملاءمة لممارسة موهبتهم وفنهم ، ومنذ ذلك الوقت انتشر لدرجة الكمال طراز المسجد — المدرسة الذي جرى به من سوريا وأصبح المثل الأعلى للقباب في مصر التي ظلت أجمل القباب بسبب حسن تليقيها ، وثروة زخرفتها . ويمكن أن نعجب في هذه المساجد الطلاية بأسوارها المشيدة على قواعد من الأحجار ذات الألوان المتنوعة وكذلك الرسوم الزخرفية المكونة على شكل عقود من الرواسب الكاسية ، والنقوش المكونة من ملاط — مذهب . وفي كل مكان ، يتألق اللون والضوء . ولا توجد مساجد أو مقابر مملوكة دون أن تكون مزدانة بالسيفساء اللامع ، وبالقرميد ذي اللون الوضاء والأبواب الضخمة من البرنز الموشى بأسلاك من اللجين أو العسجد ، والنوافذ الفنية بزجاج ملون بألوان الطيف تختلف عليه الأضواء والظلال . وفي الوقت الذي يتعب فيه النظر من التأمل فيهرب منطلقاً نحو أفق بعيد إذا بالطراز العربي الهندسي وخطوط الكتابة الكوفية تأسر له من جديد لسبب ما فيها من رشاقة الرسم ، ورقة الخط المنحني الأنيق .

ويستخلص من هذه الحضارة العجيبة حقيقة متناقضة ، مذهلة في تناقضها . فلقد جمعت هذه الحضارة بين رقة شعب المتفنيين والأدباء والفلاسفة ، وبين بربرية السلاطين المماليك وقسوتهم ممن عاصروهم فعلى الرغم من روحهم المجذبة الفجة — ظل المتفنون الملهمين والمحررين لعصر من ألمع العصور في الحضارة العربية .

وهكذا نجد أن يبرس أقام على التوالي المسجد والمدرسة اللذين يحملان اسمه ، وأن المنصور وابنه الناصر الذي عزل مرتين ، لكنه قاوم بعد مبايعته في المرة الثالثة (١٢٩٣ — ١٣٤٠) — أعطيا الأمر ببناء مستشفى ، وثلاثين مسجداً ومدارس وأديرة ، ومجار للمياه وحمامات عامة . والناصر هذا هو الذي شرع في حفر القناة الضخمة التي تربط النيل بالاسكندرية . وخصص أكثر من ١٠٠,٠٠٠ رجل لتحقيق هذا العمل العظيم الذي يؤكد في أبداع صورة — مهما يكن التقدم — فكرة العظمة والخلود التي كانت تسيطر على روح الملوك المسلمين . وفي ذلك العصر اشتهرت القاهرة بأنها مدينة فائقة ، وأكثر حيوية ورخاء من مدن العالم الإسلامي في الشرق من بدء

القرن الثالث عشر . فهذا نهر النيل الوديع وقنواته يعبره عدد وفير من سفن تجارية أو من سفن النزهة . وكانت الحدائق العامة المزدهجة بالأشجار الكثيفة ، مضافاً إليها الآلاف من أشجار النخيل ذات العناقيد الحمراء أو الصفراء الذهبية وفيها مبان رشيقة ومآذن مديية ومتطاولة ، وكانت الشوارع الدافقة بالحياة وبالحركة تعج بجمهور يجذب الأنظار تتجلى بين يديه سلال من الخضر والفواكه ، وحوانيت صغيرة في الهواء الطلق وبين حين وآخر ينحني المار لكي يفسح الطريق لقوافل الجمال التي لا تنقطع عن السير محملة بالمنتجات الثمينة أو ببضائع قليلة القيمة . وعلى جانبي الشارع تظل المساكن موصدة تحجب ضوء الشمس ، والضوضاء ، والفضولين . ولم يكن يرى من هذه المساكن وحياتها الداخلية الفاخرة غير حدائق مقفلة أو أفنية مظلمة ونافورات مياه ذات ألوان متعددة وسطوح بيضاء ، وتسود الزخرفة التي لا مثيل لها مساكن المدينة وسقوفها ، ويبرز منظر قلعة صلاح الدين الذي لا يمكن أن ينسى على أنه منظر خيالي وكأنه رؤيا حالة في السماء الصافية المزينة بالنجوم وفي الليل على ضوء القمر .

العصر الوسيط الكلاسيكي

(من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر)

لقد ساعد انحلال الامبراطورية أيضاً على نهضة الآداب ، بزيادة تعدد قصور الملوك وعدد حماة الآداب والفنون ونصرأتهما وكانت جميع الأسر المالكة كبيرها وصغيرها تتابع عن إخلاص إنتاج العباسيين في الميدان الأدبى .

هذه هى المرحلة الكلاسيكية التى تشمل العصر الوسيط من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر والتى ظل الحب فى أثنائها أيضاً بجميع صورته المختلفة الموضوع الرئيسى للشعر العربى . ويعبر ابن خفاجة المعجب بنفسه بهذا الوصف المعجز للشيء المحبوب :

نخالطت أطراف الأسنة أنجما ودست بهالات البدور ديارا

وام تك لإرشفة واعتناق ويسجبنى أنى أعف إزارا

ومع ابن شرف ، كان القلق والخوف من الحب هما اللذان يوحيان بالشعر الحزين .

وكان ابن حزم المتوفى عام ١٠٦٤ الحبيب العاطفى الذى كان يلذ له انتظار اللقاء والقلب خافق ، وكان يلذ له توسل الحبيب وتأمله واستعطافه وبكاؤه :

برغبة لو إلى ربى دعوت بها لسان ذنبى عند الله مغفوراً

وإذا اتفق لنا أن نذكر من هذه الأشعار ، أشعاراً أخرى كثيرة ، فإننا سوف نجد أنفسنا أمام نفس الموضوعات ونفس هذه الثروة الملهمة . وهناك مكانة خاصة بالنسبة للحب الصادق المفعم بالمرارة من الصوفى الجنيد^(١) ، وبالنسبة للعاشقين الميالين إلى الحزن والذين يتعطشون إلى الحب :

إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى

تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

وإن قلت هذا القلب أحرقه الهوى

تقولى بنيران الهوى شرف القلب

وإن قلت ما أذنبت قلت مجيبة

حياتك ذنب لا يقاس به ذنب

حقاً كان الأدب موضوعات أخرى فى ذلك العصر غير الحب . وتظرة إلى ما قبل هذا العصر نجد أن الحاجة اضطرت المؤرخ أن يؤكد وجوده بدوره بسبب ضرورة جمع الأحداث الماضية وأعمال المشهورين من الرجال .

(١) أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريرى المتوفى سنة ٢٩٧ أو ٢٩٨ . قال الشيخ الجنيد : ما انتفعت بشيء انتفاعى بأبيات سمعتها ، قيل له : وما هى ؟ قال : مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغنى من دار فأنصت لها فسمعتها تقول : (إذا قلت أهدى الهجر لى حلل البلى ... الخ المنشور فوق هذا الكلام) فصعقت وصمت فبينما أنا كذلك إذ بصاحب الدار قد خرج ، فقال ما هذا يا سيدى ؟ فقلت له ما سمعت ، فقال : أشهدك أنها هبة منى لك ، فقلت قد قبلتها وهى حرة لوجه الله تعالى ، ثم زوجها لأحد أصحابنا بالرباط فولدت له ولداً نبيلاً ، ونشأ أحسن نشوء وحج على قدميه ثلاثين حجة [عن وفيات الأعيان وأبناء الزمان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢٤] . (المترجم)

وكان أهم مؤلف كتب في هذا النوع هو وفيات الأعيان لمحمد ابن خلسكان (١٢١١ — ١٢٨٢) ويحتوى هذا المؤلف على ترجمة تاريخية من ثمانمائة إلى تسعمائة من خيرة الرجال في الإسلام^(١). وعلى الرغم من أن ابن خلسكان يلاحظ عليه الدقة فإنه حذر قارئيه بأن الله لم يرد أن يوجد كتاب بدون عيوب ، خلا القرآن . وألف معاصره البوصيرى (١٢٢١ — ١٢٩٤) تسكريماً للنبي (ﷺ) القصيدة المشهورة (البردة) التي كان المراء ينشدها أيضاً في أثناء تشييع الجنائزات : وكتب أبو الفدا الأيوبي (١٢٧٣ — ١٣٣١) حياة النبي (ﷺ) . ويروى مؤلفون آخرون حياة الفلاسفة وحياة العلماء ورجالاً آخرين ذاتى الصيت . مثل محمد الصوفى^(٢) الذى أهمل مثلاً — أو كما يحدث أحياناً بين زملاء — أن يذكر عمر الخيام الذى كان قد عاش مع ذلك بقرن قبله .

عمر الخيام :

يظل اسم عمر الخيام أول شاعر يتوارد على الذهن عند ما يذكر الشعر الفارسى . والحق ، أننا ننظر إليه فى بلده على أنه أحد كبار الرياضيين فى العصر الوسيط وقد اتخذت أشعاره فى بلده على أنها لهو عالم .

وكثيراً ما كان القفطى ، وهو معاصر لمحمد الصوفى ومترجم لحياة ١٤٤٠ فيلسوفاً وعالمًا — يحكم لعمر « بأنه لا مثيل له فى الفلك وفى الفلسفة » على الرغم من أنه يلتزم

(١) يقول ابن خلسكان : « فمن وقف على هذا الكتاب من أهل العلم ورأى فيه شيئاً من الخلل فلا يعمل بالمؤاخذه فيه ، فإنى توخيت فيه الصحة بحسب ما ظهر لى ، مع أنه كما يقال ، أبى الله أن يصح إلا كتابه . لكن هذا جهد المقل وبذل الاستطاعة ، وما يكلف الإنسان إلا ما تصل قدرته إليه وفوق كل ذى علم عليم . . والله يستر عيوبنا بكرمه الضافى ، ولا يكدر علينا ما منعنا من مشرع عظاته الخير الصافى إن شاء الله تعالى عنه وكرمه . (المترجم)

(٢) ألف موسوعة تشمل ترجمة ثلاثمائة من شعراء الفرس لم يذكر فيها اسم عمر الخيام . (المترجم)

صمتاً متزنأً تجاه الموضوعات الحية ، ويتجنب تناولها دون إياقة . وقد لمع عمر الخيام في الميدان العلمي وهو جرم بعنف من أجل ميتافيزيقيته . وكشف الصوفيون عن رمز تصوفي في شعره ، ثم أعلنوا أخيراً أنه أكبر مفكر في عصره وقد نظر إليه في القرن الثالث عشر على أنه فيلسوف زنديق . وقد بعثت الأيام ، وولفاته الفلسفية ولم تستطع أن تعيد تكوينها إلا جزئياً ، وعلمه فن الجبر أن يكون مبرزاً ، وكذلك تفوق علمه في التقويم وهو أكثر صحة من علمنا في التقويم ، لكن أثره الدائع والمحبوب هو رباعياته ، فقد ترجمت إلى كل اللغات . والرباعية (مكونة من أربع) ، هي كما يدل عليها اسمها ، شعر من أربعة أبيات ، ولم يسجل الفرس الرباعيات بترتيب الفكرة أو الموضوعات ، لكن بترتيب الحروف الأبجدية ، ويوجد من هذه الرباعيات آلاف في الشعر الفارسي ، وتحتفظ مكتبة بودليان في أكسفورد بالمخطوط الفارسي لرباعيات عمر الخيام ، ويرجع تاريخ كتابه إلى سنة ١٤٦٠ . ونسبت بعض الرباعيات إلى أبي سعد ، وبعضها الآخر إلى ابن سينا ، ولا يمكن المراء أن يحزم أن كل هذه الرباعيات المنسوبة إلى الخيام هي من نظمه حقاً . وتفصح هذه الرباعيات المشهورة المطبوعة بطابع التفاؤل أو التشاؤم رباعية بعد رباعية زيف هذا العالم ، وتستعجن الرياء والحقد ، وتشيد بالنبيذ (ذي اللون الوردى) . هل كان عمر في رباعياته متصوفاً ، أو متحرراً ، أو اشتراكياً ؟ يمكن أن يكون كل أولئك على التوالي لكنه كان كذلك أيقورياً عذباً مولماً بأفكار مبتكرة وأحلام منسقة ، إنه شاعر حق مافي ذلك شك .

قد كان يدري الله كل فعالنا
من يوم صور طيننا وبرانا
لم نرتكب ذنباً بدون قضائه
فلماذا ندخل النيرانا

هلم حبيبي تترك الهم في غمد
ونعتم قصير العمر قبل فوات
إذا كان من يهوى ويسكر في لظى

ستى الجنان كراحة اليد تصغر (١)

وكانت قوة إرادة الصوفيين الشديدة الحماسة لا تستطيع أن تخدع نفسها بهذه الأشعار ، ولا يمكن أن يقصد هنا شراب مطلق أو نشوة يتمخض عنها الحب الإلهى ، بل تقصد النشوة الخمرية التى يهبثها الشارب بوفرة عصير الكرم .

ولد الخيام فى نيسابور وهى مدينة ملكية على باب الصحراء الكبيرة الملحة ، ويعنى اسم خيام « صانع خيام » ومات فى سنة ١٢١٤ وهذا ما يرويه نظامى المروضى :

« هبط عمر الخيام (سنة ٥٠٦ هجرية) مدينة بلخ ونزل فى قصر الأمير أبى سعد . وكنت فى خدمة الأمير فسمعت حجة الحق عمر يقول : سيكون قبرى فى موضع تنتثر الأزهار عليه فى كل ربيع وظننته يقول مستحيلاً . ولكنى كنت أعلم أنه لا يلقى القول جزافاً . ثم هبطت نيسابور سنة ٥٣٠ هجرية فقبل لى بأن ذاك الرجل العظيم قد مات . وكان له على حق الأستاذ ، فرأيت من واجب أن أزور قبره وصحبت من يدانى عليه فأخرجنى إلى مقبرة الحيرة وهناك رأيت على يسار الزائر فى سفح سور حديقة موضع دفنه ورأيت أشجار الكثرى والبرقوق وقد تدلت أغصانها من داخل الحديقة ونثرت على قبره النوار حتى كادت تخفيه عن الأبصار فعدت بالذاكرة إلى تلك القصة التى سمعتها منه فى بلخ وغشيتى الحزن وغلبنى البكاء لأننى لم أكن أعرف له ندأ بين الرجال وفهمت أن الله تعالى أسكنه فسيح جناته فضلاً منه وكرماً » .

وعاش عمر خمسة وعشرين عاماً ، وإذا اجترأنا على القول بأن هذه الألف والمائتين من الرباعيات ذات المقام الواحد لم تلعب إلا دوراً صغيراً فى حياته الطويلة ، وبخاصة هذه الحياة التى شغلت نفسها بحل المعادلات من الدرجة الثالثة وينقد مصادر إقليدس وهما أقل نشوة — لو لم تكونا للرياضى — من عطر أشعاره .

(١) هنا ذكر المؤلف ثلاثة أبيات أخرى لم نعتز عليها فيما ترجم عن الخيام إلى اللغة العربية ، وقد رأينا فى ترجمتها نثراً قد يفسد المعنى . . . لذا لزم التنويه (المترجم) هذا إلى أن البيت الرابع لا يتفق فى رويته مع البيت الثانى نظيره المنتهى بكلمة : فوات : والأجدر أن يكون البيت الرابع هكذا :

إذا كان من يهوى ويسكر فى لظى تبليت خواء ساحرة الجنات

كما يلاحظ أن وزن الشطر الأخير من السكامل وسائر الأبيات من الطويل

الاضمحلال الأدبي :

شجع تعدد الدول في الوقت نفسه تقدم الاتجاهات القومية في مختلف البلاد التي كانت تشكل العالم الإسلامي . وكانت كل مملكة تريد أن تسمو ببلادها ، ومن هذا التاريخ بدأ اتجاه ملحوظ نحو دراسة الناس وأمورهم في كل بلد . وعلى هذا المنوال كانت توجد منافسات سياسية ، ومنافسات أدبية بين أتراك وإيرانيين ، وبين عراقيين وسوريين ، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب . وعلى عكس المألوف ، لم تكن هذه المنافسات مثمرة ، ولم تنجح في إحداث جو من تنافس المصور الخلاقة . وكان قد مضى العصر الذهبي لضروب التقدم المشرق في الآداب والعلوم ؛ وكان هذا بداية الاضمحلال الذي تلاحق على مر القرون التالية .

وألف الإيرانيون قصصاً لا حصر لها في الحب على نسق شعري ذي شكل أدبي جميل . وقد نالت هذه القصص كثيراً من النجاح . وكانت القصة الشعرية الفارسية الأكثر شعبية قد طبعت في عام ١١٨٨ ، وهي ليلي والمجنون لنظامي . وعلى عكس عمره ، كان نظامي مشهوراً بتقواه ، وباعتداله ، وبتمفانيه في الشعر ، ويعيد بطل القصة ليلي التي يزوجها أبوها لآخر ، وتلحق به يوماً ، لكن ذلك لكي يموتا معاً .

هذا هو الموضوع الأبدى في الشعر المشرق الذي لا تستطيع أن تبدع فيه أساطير الحب بدون دموع وبدون أحزان . وفي ذلك العصر ، كان الأدب الصوفي يتغنى بالحب الإلهي . ونشأ فريد الدين العطار — أحد منشئي هذا النوع من الأدب الصوفي — في نيسابور في عام ١١١٩ ، وقد تضمن مؤلفه أكثر من مائتي ألف من الأبيات الشعرية . وكتابه « منطق الطير » الذي خلد ذكره في الأجيال التالية ، شعر رمزي من ثناياه تبحث الطير عن ملك . والطير رمز للصوفية التي تبحث عن الحقيقة .

وكان ابن الفارض صوفياً كبيراً ولد بالقاهرة في عام ١١٨١ وعبر عن جميع الموضوعات الصوفية في قصائد رائعة . وإن حرارة العاطفة التي تعبر عنها لتجعل المرء يظن أنه يقرأ أشعاراً في الحب الحسي والرغبات الشهوانية ، لولا ورود كلمة أو بيت من الشعر من هنا وهناك تبحث « الروحانية » العلية للالهام . وهذه الأشعار التي

أصبحت كلاسيكية ، ترتل أيضاً جماعية في أثناء الجلسات الروحية للدراويش .

في عصر سعدى الشيرازي :

لكن سعدى كان الانعكاس الأكثر وضوحاً لهذا العصر المنحل . فقد ولد في شيراز في سنة ١١٨٤ وتلقى دراسته في المدرسة النظامية السنية في بغداد ورحل كثيراً في العالم الإسلامي ، وفي الأقطار المتاخمة . ولما حارب ضد الصليبيين أسر ، وسرح مقابل فدية ، واعتقد أن الواجب عليه اعترافاً بالجميل أن يتزوج من ابنة الذي أطلق سراحه . وكانت هذه المرأة شرسة ، فطلقها . وفي سن الخمسين ، آب إلى شيراز ، التي كان لازماً عليه أن يقضى فيها خمسين سنة أخرى ، وتؤرخ كل مؤلفاته الفترة الثانية من حياته .

وكتب سعدى « بند نامه » أو كتاب الأحكام ، و « الديوان » وهو ديوان من الأشعار الوردية أو البديئة و « الجلستان » أو روضة الورد ، وهي مجموعة من الملع والأشعار المختلطة ، و « البستان » الذي يعرض فلسفته المشحونة باللذة الجسدية ، وتتفوق هذه المؤلفات المتنوعة بسبب خيال إلهامها ، وبثورة استعاراتها . وكان سعدى قد اجتاز كثيراً من المحن التي عرف بهدوئه أن يتغلب عليها على الدوام . وكان شديد التأثر بالجمال في شق صورته وتوفر له فن التعبير عن أفكاره بصيغة محكمة ، وعبارات أخاذة وموازنات موقفة .

وليس من الممكن أن نتتبع ههنا هذه النصوص الرائعة التي تفوح فيها لذاته الجسدية الرقيقة ، كما لا يمكن مقاومة لذة الاستفادة ببعض ثمار تجربته الفنية :

يستطيع فقيران أن يناما على بساط ، ولكن ملكين لا تتسع لهما مملكة بأكلها .

لو محيت العقول من وجه الأرض لما وجد من يقول : أنا جاهل .

لا تتعجل وتعلم الأناة فإن الجواد العربي يعدو أشواطاً قليلة بأقصى سرعته ، أما الجمل فيمشي على مهل ولكنه يسافر بالليل والنهار حتى يصل إلى آخر سفره .

إن خفة البندقية لدليل على أنها فارغة .

الخلاصة ، كان سعدى شاعراً وفيلسوفاً في وقت واحد لكنه فيلسوف سهل العبارة وشاعر زاخر بالحكمة ، وقد مات حوالى عام ١٢٨٠ .

أما القرن التالى فقد انتشر فيه اسم حافظ الشيرازى .

حافظ الشيرازى :

كان أعظم شاعر غنائى فى إيران وربما كان كذلك فى الشرق كله ، وادعته كل من تركيا وأفغانستان والهند على أنه رمز مجدها الوطنى . وكان لا يموزه أن ينقد — عند ما كان يقتضيه النقد — الادعاء بالعلم والمعرفة ، والنفاق فى معاصريه ؛ كما كان ينقد بعض رجال الدين — وإنه لأهل لنقد كل أولئك لما كان يفيض به من الحكمة والصفاء .

اشرب مطمئناً فإن الشيخ والحافظ والمفتى والمحتسب كلهم منافقون إذا رأيتهم عن كذب . .

لكنه من جهة أخرى يفيض بمجازية ساحرة رقيقة عند ما يعود الربيع .

ستنثر أنفاس الصبا عير المسك والطيب فيصبح العالم المعجوز غص الإرهاب نضير الشباب . . وستهدى زهرات الأروغان أكوّس العقيق إلى الزنابق البيض . . وتتطلع أعين النرجس إلى خدود الشقائق الحمر . . وسيمضى البلبل فى ألمه الذى احتمله بسبب البعد والمجران فتجاوب أصداؤه فى مخيم الورد والريحان . . فلا تحقر أمرى إذا مضيت من المسجد إلى بيت ألحان ، فمجلس الوعظ طويل وسيمضى بنا الزمان .



ويا قلبى إذا أجلت لمو اليوم إلى غد .

فمنذا الذى يضمن لك البقاء إلى الغداة .

(٢٣)

الأسرات الأخيرة

غارة المغول :

بعد أن بعث الأتراك الساجوقيون قوة في العالم الإسلامي أتاحت له أن يقاوم المعركة الطويلة للصليبيين ، انهمكوا بدورهم في الترف ، وتركوا الأمبرطورية تنفتت إلى ممالك صغيرة مشرقة حقا ، لكن كلاً منها كانت تقف تجاه الأخرى بالمرصاد بيد أن قبائل السهوب الحرة في الشرق حينما كان يستبد بها الجوع أو تجف لديها منابع الرزق نتيجة جذب الأرض — كانت تلك القبائل في هذه الأحوال ترحل مهاجرة تجاه الحدود حيث توجد مناطق أكثر ثروة . وسيظل هذا دائماً التفسير الكاشف لهذه التيارات الكبيرة من الغزوات التي كانت تفوق جميع الأحداث الأخرى في التاريخ .

ثم جاء جنكيز خان الفارس المغولي الخالد والمثير للرعب أيضاً كأسلافه الأقدمين الهون — وإن كان أحسن إعداد وتنظيماً ، وشرع يضع يده على آسيا الوسطى . ففي سنة ١٢١٦ انتصر ٦٠,٠٠٠ مغربي مسلحين بأقواس غريبة ، قاذفين بالأسهم وهم على ظهور الخيل في زحف سريع على محمد شاه الخوارزمي . واكتسح جيش آخر بخاري بقيادة جنكيزخان وعسكرت خيول آسيا في المساجد ، وهي أمكنة لتأدية فرائض الصلاة والتبحر في العلوم . وكان عبثاً أن تستسلم سمرقند وبلخ ، إذ ذهبت المدينتان ضحية مذبحه نفذت بشدة لم تستطعا معها أن تنهضا من كبوتهما التي لازمتها حوالى مائة عام . ودمر ابن جنكيزخان وهو يتابع اكتساحاته ، خراسان ، كما خربت مرو . وناضلت نيسابور ببسالة . لكنها سقطت في سنة ١٢٢١ ، ونهبت الري . وكان عبثاً كذلك أن يحاول جلال الدين ابن محمد شاه التوجه ناحية نهر السند ليبدأ الهجوم . فقد غلب على أمره . وسقطت هراة وأصبحت أنقاضاً . وصار كل شيء خراباً ياباً ، وظلاماً ، ودماراً ، وهناك حيث قامت قديماً المدن المزدهرة ، أزيلت جميع المراكز الثقافية في العالم الإسلامي الشرقي ، وهدمت آلاف المساجد من وجه الأرض ، وأُتلفت دور الكتب ، وقتل السكان الذين لم يتمكنوا من الهرب ، بمجد السيف أو ذبحوا

فرادى ، وكدست رؤوس الضحايا على شكل أهرام بغيضة . لقد كانت هذه الوحشية المنسقة عن عمد تهدف إلى تحطيم كل محاولة للمقاومة .

يبد أن جلال الدين كان قد أعاد تنظيم جيش في ديار بكر ، لكن فرقة من ٣٠٠,٠٠٠ رجل كانت في الطريق من قبل من منغوليا تحت رئاسة أوغلاى ، وهو ابن جنكيز وخليفته والشعب بالجنون التدميرى ، ونهب هذا الغازى أذربيجان ، وشمالي ما بين النهرين وجورجيا وأرمينية . ومات أوغلاى عام ١٢٤١ وبموته أنقذ القليل الذى بقى من العالم الإسلامى . وبعد فترة قصيرة ، انتشرت موجة أخرى من الغزو سنة ١٢٥٣ . وقد رأس هذه الغزوة هولاكو حفيد جنكيز ، وتقدم من ناحية سمرقند وبلخ . وقضى على الممالك الصغيرة التى كانت قد أقيمت على أنقاض الخلافة ، واتجه نحو بغداد . وفى يناير من سنة ١٢٥٨ هجم بالآلات الحصاد على العاصمة وفتح فيها ثغرة . وتقدم الوزير الكبير ليناكش أى شروط للتسليم ، ولكن هولاكو رفض أن يستقبله .

كان المستعصم آخر خلفاء العباسيين عالما ورعا ، وواهباً نفسه للدين والعلم . بيد أنه كان قد تنبأ لهولاكو . « إذا قتل الخليفة ، فإن العالم كله سينقلب رأساً على عقب وستكون الشمس فى حال كسوف ، وسيتوقف سقوط المطر ، وسيتوقف النبات عن النمو » . لكن هذا المغولى الذى طمأنه علماء التنجيم ، لم يدع نفسه يتأثر بهذه النبوءة . وفى العاشر من فبراير كانت جيوشه تتوغل داخل المدينة ، حيث قدم الخليفة فى حراسة ولديه و ٣٠٠ من الموظفين الكبار ، ليعرض عليه تسليماً بدون قيد ولا شرط . ويقال إن ٨٠٠,٠٠٠ من السكان ذبحوا ، و ٢٤,٠٠٠ عالم دينى نفذ فيهم حكم الإعدام ، ومات آلاف من العلماء ، والشعراء والمشتغلين بدراسة العلوم الأبرياء الذين هم دائماً الضحايا — فى هذه المجزرة البشعة . ونهبت أو أتلقت كنوز مكدوسة منذ قرون . وقذف بكومات من الكتب فى نهر دجلة ، كادت لكثرتها تقف مجرى مياه النهر « وكانت المخطوطات المكدوسة تشكل جسراً من شاطئ إلى الشاطئ الآخر وحرق الغزاة بقية ما شاهدوه طافيا خوفاً من عدم فيضان النهر بالماء » . وطيلة عدة أيام ، أصبحت مياه دجلة سوداء من حبر ملايين الكتب والمخطوطات التى كانت قد ألقيت فيه . وبعد أن أكره الخليفة وأسرته على الكشف عن ثرواتهم ، قتلوا بعد ذلك .

ولأول مرة — منذ ٦٠٠ عام — يعيش العالم الإسلامى بلا رئيس دينى أو إمام .

وفى سنة ١٢٦٠ ، استولى هولاكو على حماة ، وحمص ، وحلب التى قتل فيها — كما يقال — ٥٠,٠٠٠ شخص بحد السيف . ثم عاد إلى منغوليا التى مات فيها من قبل أخوه خان الأكبر . وتابع الجيش الذى كان قد تركه فتوحه وأخضع سوريا ، ولكن فى عين جالوت . بالقرب من الناصرة ، وجد نفسه بغتة أمام جيش مصرى . وقد قدر لهذا الجيش أن ينقذ مصر بل أوروبا من التهديد المغولى بعد انتصار كان ثمنه غالبا بقيادة قطز وبيرس . وعندما انحسر المد المغولى ، ترك وراءه بلاداً أصيبت إصابة قاتلة فى بنائها واقتصادها ، وشعباً مقطوع الأوصال ، لانظام ولا قوة ولا نشاط .

وقد ألقى اللوم على هذا الانهيار الذى تحصر أسبابه المباشرة فى هذه السلسلة الطويلة من الهزائم التى كانت قد ابتليت بها الجيوش الإسلامية قبل انتصار عين جالوت وفى أزمنة أخرى ، كانت هذه الجيوش تواجه جيشاً أكثر بأساً ، وكانت تنتهى بدون شك بصدام مدمرة . فكان على المغوليين أن يعودوا من حيث أتوا مثل الهون فى معارك قطلونيا ، ومثل العرب أنفسهم فى بواتيه .

«نحن الحضارات الأخرى ، نعرف أننا إلى قناء» هذه الملاحظة التى يعاد تكرارها كثيراً جداً ، والتى تحققت عن طريق التجربة ، نسيت تماماً . بيد أن التاريخ يقف دائماً بذكرياته المخيفة ، والجسيران الذين يتضورون جوعاً يقفون دائماً على الأبواب ، وعلى اتم استعداد للانقاض على هذه الحضارات ، عندما تحين الفرصة الملائمة .

لم يكن السبب الرئيسى للسقوط الشنيع للحضارة الإسلامية فى الهجوم المقبل من الخارج ، ولكنه يكمن فى الانحلال البطيء للقوى الداخلية وتماسكها ، وفى الفوضى السياسية والأخلاقية التى أحدثها الفساد والعجز ، والخور والخوف ، وربما أحدثها كذلك افتقار معين للتحول الطبيعى مع التطور المادى للحضارة . حقا قد اعترف خان الأكبر بالإسلام كدين للدولة بعد خمسين عاماً من انهيار الأمبرطورية وكان هذا نصراً أدبياً كبيراً ، لكن الأمبرطورية الإسلامية بقيت بعد ذلك مصابة فى وحدتها إلى الأعماق .

المماليك :

إن أسرة المماليك وهي آخر أسرة في العالم العربي تشكل النتيجة المنطقية للانحلال الذي كان يفت في عضد الامبرطورية الإسلامية منذ أكثر من أربعة قرون ، فكانت أسر مصر على مثال خلفاء بغداد تتخذ لأنفسها حرسا من المماليك الأجانب ، وبذلك انتهى الأمر إلى النتيجة نفسها فقد حكم الحرس المرتزقة الدولة أولا ، ثم عين رئيسهم السلطان ولم تعد توجد قاعدة لوراثة الملك ، فقد كان الأقوى هو الذي يحكم . لكن هؤلاء السلاطين ، وهم مماليك من أجناس وقوميات مختلفة ، وأجانب عن عصر ، لم ينعوها في أثناء توليهم الملك غير قليل من إنجاز بعض المهام .

كان أعظمهم جميعا بيبرس الذي نشأ مملوكا تركيا ، اهتمت فيه إلى أقصى حد خصائص الرئاسة ، وكان بيبرس قد أحرز انتصاراته الأولى ضد المغول ، ولكنه كان بخاصة بطل المعركة الظافرة ضد الصليبيين . وكان قائدا عسكريا وسياسيا ، فأعاد تنظيم الجيش ، وعضد الأعمال العامة ، وأقام المنشآت الدينية والتعليمية ، والمستشفيات ، والمساجد . وكان سلطانا نافذ البصيرة لذا عقد معاهدات تحالف مع خان الأكبر صاحب مملكة المغول ، ومع شارل الأنجوى ملك صقلية وملك أرمينيا . وبائع عن حكمة في موكب حافل بأحد العباسيين خليفة ، كان على قيد الحياة بعد مذبحة بغداد . ولم يكن منصب هذا الخليفة إلا منصبا شرفيا له السلطان الروحي دون السلطة الزمنية . غير أن هذا المبدأ استمر طيلة عدة قرون وكان خلفاء بيبرس أقل إشراقا منه فلم تلبث الضرائب الفادحة والأوبئة والمجاعات المتكررة ، والفوضى المستمرة ، أن خربت شيئا فشيئا مصر . ومن بداية القرن الرابع عشر أصبحت أسماء هؤلاء السلاطين غير جديرة بالذكر . وكل ما تميزوا به الجهل والوحشية . وقد حكم أحد هؤلاء السلاطين على أطبائه أن يقطع رؤوسهم لعجزهم عن شفائه من أمراضه ، كما كان هناك سلطان آخر كل ما شهر به هو الغباوة والجهل وعدم توقيع القرارات الرسمية ، وأكثر غرابة من ذلك هذا الذي أمر بقطع لسان كيميائي لم يستطع أن يحول أو أكسيد الرصاص ذهباً .

ويجب أن نضيف أن هؤلاء الحكام المماليك كانوا بعامة رجال أعمال ، بل

تجارا غاية في الجشع . يحكى أن أحدهم احتكر الفلفل وباعه بعد ذلك للرعية بعوائد ضخمة ولما لم ترو هذه المحاولة غلته ، أجرى هذه المحاولة نفسها مع السكر .

وكان من الطبيعي نتيجة سوء الأحوال العامة أن يشرف الاقتصاد على الخطر وتنقص المواد الغذائية ، ويصبح القحط مرضا مزمنيا في مصر التمهنة ، وفي سوريا التي كانت تعتمد عليها . ويقال : إن هذين الإقليمين فقدتا تحت ظل الممالك أكثر من ثلثي سكانهما . وأخيرا خربت غزوة تيمورلنك في بداية القرن الخامس عشر سوريا التي هدم فيها كل ما بقي من مساجد ومن وآثار ، ومن مدارس ، لكيلا يقام أبدا مرة أخرى .

وهناك ... بآخر حدد شيئا فشيئا خسوف السلطان العربي ففي حوالي نهاية القرن الخامس عشر عندما عبر فاسكو ده جاما رأس الرجاء الصالح تحولت تجارة الهند والجزيرة العربية عن الموانئ السورية والمصرية . فقدت نهائيا مصدرا هاما للدخل . وكان كشف أمريكا كذلك يشير إلى انطلاق عصر جديد . واتجهت أنواع النشاط نحو الغرب ، وراح مركز الجاذبية للحضارة ينتقل في هذا الاتجاه ، هذا إلى أن الامبراطورية العربية الشرقية تلقت ضربة قاضية بيد الأتراك . ففي سنة ١٥١٦ ، بالقرب من حلب انتصر العثمانيون — أولاد عم السلاجقة — الذين كانوا قد استولوا على القسطنطينية — على جيش الممالك ، حتى إذا احتلوا سوريا ، انتزعوا السلطنة من القاهرة ، واستولوا على المدن المقدسة . ولم يتردد السلطان التركي في القسطنطينية أن ينسب إلى نفسه امتيازات الخليفة ، ويغتصب بعدها لقب الخلافة . وهكذا شاخت الامبراطورية العربية في الشرق .

مملكة غرناطة :

يجدر بنا أن نعود الآن إلى الامبراطورية في الغرب . لقد ضعف بسرعة المحاربون المترهبون أتباع يوسف بن تاشفين بعد اتصالهم بالعادات الأندلسية . ففي الجبال الواقعة جنوبي مدينة مراکش التي نسي خلفاؤه مراقبتها ، أخذت القبائل تتوالى — جماعات — وراء مهدي كان يدعو إلى العودة إلى بساطة الحياة والإيمان . وهكذا خلفت أسرة بربرية هي أسرة الموحدين ، أسرة المرابطين في بلاد مراکش أولا ، ثم في أسبانيا .

ويعيد التاريخ نفسه ، إنه دائماً هو نفس التاريخ في خطوطه الكبيرة . فقد جدد هؤلاء المحاربون القضاة النظام ، وعاد الرخاء ، وانتشرت العلوم والفنون . وكان أن ساد من جديد الترف بنتائج الختمية ، وفقدت الخصائص الحربية ، وفسدت السلطة ، وضعفت ، وتفتتت ، وأقبلت قبائل أخرى لتعمل محل هؤلاء . وهكذا يحدث في الغرب من الانحلال والاضمحلال مثل ما حدث في الشرق .

ولم تنجح تقلبات الأمور في أسرة الموحدين ، والدول الصغيرة التي نشأت عن تفتتها ، النهوض بتاريخ الحضارة العربية . وعرضت للخطر ما يخص الغرب من النتائج الباهرة التي أتت نتيجة الاتصالات التي امتدت بين المسلمين والمسيحيين . وظلت هذه العلاقات يحدوها التوفيق حتى طيلة المراحل الحربية المستمرة ، لكن حدث ذات يوم أن للمسيحيين الذين كانوا منقسمين حتى ذلك الوقت اتحدوا معاً وهاجموا الجيش الإسلامي الذي كان يقوده محمد الناصر (١١٩٩ — ١٢١٤) . وكان أبو يوسف يعقوب نابهاً حقاً إذ أقدم بجرأة على التخلي عن ابن رشد في سبيل أن يشرك رجال الدين في سياسته الحربية . ولما كان الناصر مكرساً نفسه للملذات فلم يكن يهتم لا بالفلسفة ولا بالدين . وقد غلب على أمره في واقعة العقاب في سنة ١٢٣٦ ، وبلنسية في سنة ١٢٣٨ ، وأشبيلية في سنة ١٢٤٨ ولما أضنى الكفاح العرب في كل ناحية ، تقهقروا في مأمن من سيرانيفادا في مملكة غرناطة التي ظلت تحت حكمهم قرنين ، واختفت آخر صورة مصفرة من السيادة الإسلامية الآفة في الغرب .

كان الموحدون من المشيدين الكبار للحصون أولاً ، وللقصور ثانياً ، وبمثل قصر أشبيلية ازدواج هاتين الطريقتين المماريتين الفئيتين ، نعى بهما طريقة الحصن وطريقة الصرح ، وأنشأ الملوك المسيحيون مساكنهم على أساس هذا الازدواج في سنة ١٢٤٨ ، وكبروه . والقصر (الكازار بالاسبانية) أثر ذو طراز عربي أسباني ، أي مسيحي مغربي على شاكلة قصر سانتا ماريا لابلانكا في طليطلة ، وقصر كوربوس كريستي في بطليوس و برج لاجيرالدا المربع العظيم الذي يبلغ طوله ٩٤ متراً ، والشبيه ببرج الحسن في الرياط وقصر الكنيسة في مراكش هو كذلك من طراز أسباني عربي ، في ثلثه الأعلى الذي يتوافق على وجه تام مع قاعدته المغربية . وتمثل شرفاته المطلة على الأروقة ونوافذه خرمزاة حلية ثمينة من العمارة ، وأخذ برج لاجيرالدا اسمه عن تمثال برنزي يمثل

الدين المسيحي ويفوقه علواً ، وعلى الرغم من ثقله فإنه يدور لأقل هبة رياح . ومن البديهي أن برج لاجيرالدا لم يكن يستطيع أن يمثل العقيدة الاسبانية التي كانت محرمة في هذا البلد الكريم .

ويبقى قصر الحمراء في غرناطة أجمل مبنى في أسبانيا الإسلامية ، وهو في الوقت نفسه أحد مبتكرات عبقرية الإنسان العجيبة ، واسمه مشتق من الصفة العربية « الأحمر ^(١) » وبدأ في تشييده سنة ١٢٤٨ وفقاً لتخطيط نفخ ، واستغرق بناؤه زمناً طويلاً جداً . وكان صحنه في أول الأمر يتسع لجيش مؤلف من ٤٠,٠٠٠ جندي ، ولكن في القرون التالية تحولت هذه القلعة الشامخة إلى عدد كبير من القصور ، ومن المنازل لاقطاعيين وتمثل كذلك تحفاً رائعة من الفن . وكل ما تستطيع عبقرية الإنسان أن تتخيله من روائع الفن قد اجتمع هناك على هذه الصخرة الوعرة الانحدار ، المحفوفة بشعب عميقة في موقع ممتاز وفريد . ويشرف قصر الحمراء المعلق بين الأرض والسماء على المساحات الشاسعة المنحدرة للريف التي تخلق فيها الشمس الدافئة في أسبانيا والمياه الوفيرة لجبال سيرا المغطاة بالتلج ، أغنى المزروعات . وفي مشارفه ، يمتد منظر مدينة موشاة ، سابحة في ضوء البحر المتوسط . ويدخل في هذا القصر عن طريق واد ضيق مخصص له غارق في ظلال وارفة لاتغرب عنه يمثل نوعاً من التمهيد لدخول هذا القصر ، ثم المشهد الساحر للقصر وللحدائق التي تزخر بها فيها من جواسق وأروقة وأعمدة . وفي كل مكان منها ، تماثيل من المرمر ، وأشجار ، وأزهار وتبدو فيها شجرة النار الوردية ، وأشجار الياهمين ، أكثر تفتيحاً ، وأكثر زدهاراً من أي مكان آخر ، وأغصان أشجار الرمان ، وأشجار الليمون التي يصعب كسرها . ولا يستنشق في أي مكان آخر عطوراً أكثر فتنة من عطورها . وهما هي ذى مياه سيرا البعيدة التي تجذب إلى حدائق القصر نساءً عليلاً يثير الدهشة ، بينما تتوهج شمس لا تخمد في كل مكان يحيط بها . ونرى هذه المياه تتفجر من كل جهة . فتندفق على الفسيفساء ، وعلى التماثيل المرمرية ، وتندفع على شكل أعمدة صغيرة تكاد تكون

(١) قيل إنه نسبة إلى بني الأحمر الذين حكموا غرناطة من ١٢٣٢ إلى ١٤٩٣ ، أو من التربة الحمراء التي بني عليها القصر . (المترجم)

شفيفة أو تتناثر في شكل قطرات لا حصر لها تتشكل بألوان متنوعة على ضوء الشمس ويشبه نص من الشعر العربي المنقوش على فاسقية بهو السباع المسادة التي تلون حوض الفاسقية^(١) بألوان مختلفة يشبهها بعقد اللؤلؤ في المياه الصافية المتلألئة .

وقد لعب علماءهم بفن التأليف الساحر بين الحجر والماء وبين قوانين الثقل ومستوى النظر والضوء . فهذا حائط من الفسيفساء يتعرج مع انكسار الضوء الذي يتكسر على الموجة مع ظلال تنساب في اهتزاز . وفي حوض الريحان (في قصر الحمراء) يتراقص رواقه مع أوراق الشجر التي يعكسها دون توقف . وبهو السباع الذي يربض فيه اثنا عشر سبعا من الرخام تحرس الفاسقية بعد إحدى روائع الفن بسبب توافق أبعادها ، وتناسق أعمدتها ، ورشاقة عقودها . ويظهر المار بسبب ثروة قبابه الكلسية ، ونقوش سقوفه ، ورسومه ، وشبابيكه وزخارفه التي تتشابه بعضها في بعض . وتعتبر هذه المجموعة من القصور الفاخرة ، والشرفات ، والحدائق ، والفاسقيات عن ذروة الفن الإسلامي وأقوله في آن واحد ، وعن نشاط مظفر يتبدد في سر وقوة تتطور تجاه الرشاقة ، وعظمة تتحول إلى طرافة . وهكذا ، فإن الخصائص البطولية التي كانت قد شكلت عالماً فاتحاً ، أخذت تضعف شيئاً فشيئاً تحت شطط وفرة الترف والثروة . فقد ينتهي كل ذلك إلى دعة من الحياة الرخيصة ، ودعوة دائمة إلى الراحة ، وإلى النبل . وكان السكان المترفون في هذه الجنة ذات النعم لا يستطيعون أن يصونوا فيها خصائصهم الحربية . كما أنهم جعلوا من الحكمة المتواضعة التي كان قد نقشها مؤسس هذه المملكة قدوة لمعلمهم في كل مكان « لا غالب إلا الله » ونجحت كياسة ملوك الأندلس ودبلوماسيتهم وقتاً طويلاً في إنقاذ مملكة غرناطة ، لكن هذه الكياسة لم تستطع أن تؤجل احتلال المسيحيين المقترسين لهذه المملكة . ولم يعرف أبو^(٢) عبد الله آخر ملوك غرناطة — العاجز عن

(١) الفاسقية = ضرب من المعية ولعل ذلك تشبيه لها بالعمامة في استدارتها .

(الترجم)

(٢) سلم مفاتيح غرناطة أجمل آثار المسلمين وأروعها في ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ ولما بكى أبو عبد الله لهول الكارثة ، وبجته أمه قائلة له : « إنك مثل النساء ملسكامضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال » ، ثم هاجر إلى المغرب ونزل بفاس حتى مات بها ، وبقى نسله إلى سنة ١٠٣٧ يعيشون من أوقاف المسلمين المرصدة على الفقراء والمنقطمين =

المقاومة — غير التفاوض ، وسلم غرناطة في ٢ يناير سنة ١٤٩٢ . ويقال إن هذا الملك البائس كان قد طلب من الملك المسيحي أن يسد الباب الذي غادر منه قصره السحري لكيلا يتمكن أى إنسان أن يمر به فيما بعد ، ويقال إنه عندما عبر الممر الأخير ، الذى منه تحيط النظرة بالمنظر العجيب للقصر ، انهمرت الدموع من عينيه ، وسواء أ كانت هذه القصة صدقاً أم كذباً ، فإنها قد أبتقت على هذه الأسطورة الحزينة الحسرة الأخيرة لهذا المغربي .

وقد أطلق على حى من مدينة فاس « حى الأندلس » وفيه يعيش الخلفاء المنفيون من غرناطة ؛ ويحتفظ السكثير منهم كأثر باق بفتح منزل أبيهم . وتثير بمرارة أغنية من أسمى أغانيهم (يا أسفى) ذكرى المدينة التى لم يحج ذكرها بعد : « كم أتأسف على الماضى .. وعلى أيام الفرح والسرور ، وعلى الأمسيات اللذيذة ، يا مساكن الأندلس التى غادرناك ، لن أنساك أبداً ، وتمود ذكرى هذه الصورة نفسها على الدوام ، فيقال إنه لى نعب عن حزن غريق فى الأوهام دون أن نفهم دائماً مدلول هذه الكلمات :

« إنه يفكر فى غرناطة » . . (١)

[عن تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والاجتماعى . تأليف الدكتور على محمد حمودة ص ٢٩٩] . (المترجم)

(١) وبذلك تجمعت الأسباب وتسكافت الظروف على العرب لتشير فى نفوسهم نحو هذه المدينة حباً فريداً بما قد اتصفت به من صفات ، وبما قد رمزت إليه من معان . فذخر كلامهم عنها بإشارات جميلة تنطق بهذا الحب . وجعل الشعر الذى قاله شعراؤها بل الذى قاله شعراء سمعوا أخبارها ، يفيض بالحب الحار الملهب [عن سلسلة اقرأ — ثم غربت الشمس — تأليف الدكتورة سهير القلماوى ص ٢٨] . (المترجم)

(٢٤)

غفوة العالم الاسلامي

التوسع الأوروبي :

بعد سقوط غرناطة ، اجتروا الأسبانيون حق وصات جراتهم إلى درجة ملاحقة المسلمين في أفريقية . ففي بداية القرن السادس عشر ، استولوا — على التوالي — على مليلة ، والمرسى الكبير ، ووهران ، وبجاية ، ومدينة الجزائر . لكنهم مارسوا سياسة المكاييد الدنيئة ، وكان لزاماً على الحاميات الأسبانية أن تحتشد في هذه المدن كأنها جيوش محاصرة . واستنجد العرب والبربر الذين لم يسندوا العرب كما ينبغي بالأتراك . ووضع الأتراك قدمهم في أفريقية الشمالية في سنة ١٥١٧ . وبذا تبدأ مرحلة جديدة ، وتستمر حتى سنة ١٨٣٠ ، واستقرت حكومة عسكرية في مدينة الجزائر ، وأصبحت إقطاعية للقسطنطينية ، وقهروا شارل كانت القادم لخصصار المدينة مع ٥٠٠ سفينة و ٣٥٠٠٠ رجل سنة ١٥٤٨ . ومنذ ذلك الحين أشرف الأتراك على حوض البحر المتوسط . وانتظم مشروع جبار من القرصنة وقتل . وبعد ماوجه هذا المشروع ضد السفن الأسبانية ، امتد حتى أصبحت جميع أساطيل أوروبا ضحايا لهذا المشروع . وقد ظل القراصنة سادة البحر المتوسط طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، بل ظلوا كذلك إلى أن تم الاستيلاء على مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠ .

يبد أنه من بدء سنة ١٥٣٣ ، لم تنهك فرنسا عن مراقبة إفريقية تحت صورة موانئ القتال ، وتحت صورة منشآت تجارية مسموح بها . ومنذ سنة ١٥٧٧ ، عيانت قنصلا في مدينة الجزائر ، وتبعتهما في ذلك الحكومات الأخرى الأوروبية التي كانت ترغب كذلك في حماية تجارتها . لكن ، الباي طالبهم بحجزة ضخمة ، وفي سنة ١٥٧١ قهر الاسطول التركي في لبنان ، لكن السفن الأوروبية لم تستمر كثيراً في خضوعها لابتزاز هؤلاء القراصنة ، فعلى الرغم من الجزية المدفوعة ، صودرت شحنات السفن ، واستولى على المنشآت ، وبيع ملاحو السفن كأنهم أرقاء . وإزاء كثير من الاستفزات وجهت إنجلترا حملات تأديبية في سنوات ١٦٢٢ ، ١٦٥٥ ، ١٦٧٢ . وفي سنة ١٦٨٢ ضربت

فرنسا مدينة الجزائر بالقنابل بقيادة دوكن . وفي سنة ١٦٨٨ بقيادة استريه . وطيلة القرن الثامن عشر كله دفعت جميع الدول الأوروبية ، والولايات المتحدة نفسها عند ظهورها على المسرح ، جزية إلى داي مدينة الجزائر ، لكن القرصنة لم يحمده أوارها ، وكان البحر المتوسط يرغى ويزبد بهذه القرصنة . وقرر وقتئذ مؤتمر فينا أن ينهى هذه القرصنة ، ولم يحصل بعد حملة انجليزية هولندية في عام ١٨١٦ سبقتها حملة أمريكية بعام إلا على وعود لم تغير من الموقف شيئا .

وفي سنة ١٨٣٠ ووفق على حملة فرنسية برضاء جميع القنصليات الأوروبية باستثناء إنجلترا . فتوجهت لتحقيق أهداف مؤتمر فينا وهي تحطيم نهائي للقرصنة ، ووقف تام للرق ، وإلغاء الجزية التي تدفعها عبثاً الدول للقائمقامية التركية . وفي ظل العمل الحاسم لفرنسا ، أدى التفويض بسرعة ، لكن المفاوضات نسوا بسرعة كذلك هذا التفويض . أما بربر إفريقية الذين تحرروا من الوصاية العربية التي كانت تطغى عليهم ، فلم يظهروا أي رضاء لفرنسا عن وصيتها .

تقدم الأتراك وتقهقرهم :

بعد الاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، شملت الامبراطورية التركية جميع البلاد العربية ما عدا بلاد مراکش وجزءاً من شبه جزيرة البلقان . ولم يكن السلطان رئيساً سياسياً فقط لهذه الامبراطورية الشاسعة بل كان كذلك الرئيس الديني والخليفة لجماعة المسلمين منذ سنة ١٥١٧ . وقد انطلق إلى غزو العالم المسيحي ، واستولى على الصرب ، والبوسنة ، ومقدونيا ، والهرسك والمورة ، وأقبل على حصار فينا في سنة ١٥٢٩ . وواجه العالم المسيحي هذه الحملات بحزم ، وفي معاهدة السلام في كارلوفتس سنة ١٦٩٩ تنازلت تركيا عن المجر ، والمورة ، وبودولي ، ومضيق آزوف . وفي سنة ١٧١٨ تخلصت ألبانيا ، ودلماسيا ، والهرسك ، من حكم الأتراك . وفي سنة ١٧٧٥ كان دور شبه جزيرة القرم ، ويوكافين ، وفي سنة ١٨١٢ الصرب . وأخيراً في سنة ١٨٢٧ بعد موقعة نافارين ، كان الأتراك قد فقدوا — للأبد — اليونان ، والصرب ، وملداقيا وفالاشيا .

منذ ذلك الحين لم تعد تركيا إلا « الرجل المريض » الذي كانت الدول الأوروبية

تتقرب استخلافه وكانت جميع هذه الدول مهتمة به : روسيا عن طريق المضائق —
انجلترا عن طريق الهند ، النمسا والمجر عن طريق بلاد البلقان — ألمانيا بسبب « حملها
في الشرق » فرنسا عن طريق دورها كحامية الأقليات المسيحية في الشرق .

ونتيجة لغزو مدينة الجزائر في سنة ١٨٣٠ واحتلال بلاد تونس في سنة ١٨٨١
أقصيت تركيا نهائياً من البحر المتوسط الغربي . وبعد احتلال إنجلترا لقبرص أولاً ، ثم
مصر في عام ١٨٨٢ واحتلال إيطاليا لأقليم طرابلس وبرقة وجزر الدوديكانيز في
عام ١٩١١ ، عزلت تركيا أيضاً عن البحر المتوسط الشرقي . وعندما انتهت الحرب
البلقانية في سنة ١٩٢٢ لم تعد تنسب إلى أوروبا . وظلت الشعوب الإسلامية بما عدا
القليل ، تحت سلطان القانون ، أو الحق للشعوب الأوروبية . وبدأ المستقبل
السياسي للعالم الإسلامي منهاراً

وقد أتاح لنا هذا المختصر الموجز أن نرى كيف تفككت الامبراطورية الإسلامية
سياسياً واجتماعياً قبل العام الألف وخرجت منهوكة من طول معركة الحرب الصليبية ،
ثم سقطت في بؤس مادي وأخلاقي لاقرار له بعد أضرار المغول .

من أجل هذا استمكن العالم الإسلامي إلى معارضة عامة منظمة لكل تجديد ،
استمرت ٧٠٠ عام تقريباً . ونجده غير قابل للتغير في القرن التاسع عشر لأنه دائماً شبيه
نفسه ، ومشابه بشكل غريب لما كان عليه في القرن الثالث عشر .

لقد انتهى دوره حقاً ، فبعد أن جمع أفضل ما في جميع الحضارات ، وبعد أن نثرها
عبر العالم ، كانت حضارته الخاصة قد انطفأت ، وحياة شعوبه قد هبطت (١) . وهذا إلى

(١) .. إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها من الظواهر السكبرية في التاريخ ..
لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعم العالم كله في القوة
والنظام ، وبسط الملك ، وجميل الطباع والأخلاق ، وفي ارتفاع مستوي الحياة ، وفي
التشريع الإنساني الرحيم ، والتسامح الديني ، والآداب ، والبحث العلمي ، والعلوم ،
والطب ، والفلسفة [عن قصة الحضارة — عصر الإيمان — قأليف ول ديورانت .
ترجمة محمد بدران . ص ٣٨٢] (المترجم)

أن الطبيعة ، والنباتات ، والأنعام ، والبشر ، لم يتغير شيء منها تحت سماء صحراء الجزيرة العربية التي لا يقر لها قرار .

ثم اختفى الصفوة القادة الذين كان لزاماً عليهم أن يقودوا هذه النهضة في هذا الخضم أو كانوا قد استسكانوا إلى التيهل . وكانت الامبراطورية قد وجدت نفسها فوق ذلك مضطرة إلى امتصاص شعبين حديثين لكنهما بدائيان وأميان : الأتراك في الشرق والبربر في الغرب . لهذا بينما كان الغرب يتابع بدوره تطوره المجدي ، كان يبدو أن العالم الإسلامي قد فقد كل ابتداء وأخذ يغوص في أساليب الماضي ويرسف في قيوده^(١) ويتعاضد عن وثبات الحاضر والقابل فيظل عنهما في عزلة وسكون .

وإذا أردنا أن نبعث عن الأسباب العميقة لهذه الحال ، ولهذا الانصراف الجماعي يجدر بنا أن نلاحظ أن الإسلام لم يكن مسئولاً عن ذلك ، وأنه ينبغي أن ننسب لأجور واتجاهات الشرقيين المسيولوجية النصيب الذي يعود إليهم في أمر الامتناع عن الكفاح ويجب أن نعترف كذلك أن بذل الجهود بالنسبة لشعوب قديمة متحضرة لم يعد له جاذبية الشيء المجهول ، وأن أساليب الحياة التي ظلت تقظة فترة طويلة جداً من الزمان في حاجة إلى راحة تجدد نشاطها . إن العرب عندما استنموا إلى مجدهم القديم ، والتفوا برداء منزلاتهم السابقة ، واقتنعوا بأن لهم الصدارة الروحية لم يلقوا بالا إلى أن امبراطورية العالم قد خرجت من قبضة أيديهم . وأن هذا التفسير ومثله هو التفسير الذي يقتضي أن تقدمه^(٢) .

يبد أن الزمان قد ولى . .

وفي القرن الماضي لم يبق شيء من هذا المجد الذي كانت عليه بغداد ، مدينة هارون الرشيد الساحرة القاسية . فتحوّل القصور تراباً ، وأصبحت خليطاً من الماء . وفي تلك المدينة التي كانت ذات يوم بابل العظيمة ، تقوم مخيمات من البدو . وليس شاطئ سوريا

(١) كل ذلك بسبب الاستعمار . (المترجم)

(٢) نكرر القول بأن ذلك كله يرجع إلى الاستعمار الذي كانت مهمته الأولى القضاء على كل طاقات الإنتاج في هذه البلاد ليبقى له الصدارة والابتكار في كل شيء . (المترجم)

غير مقبرة طويلة لمدن قديمة مدفونة^(١) والقلاع وحدها التي أقيمت من أكلينجيا إلى البحر الميت هي التي لا تزال باقية من غير تدمير على الرغم من كل شيء كأنها علامات لسلسلة أعمال بطولية . كانت هذه القلاع تؤوى « سكاناً بأثسين وفي السور الحجري للمدن التي دمرها البشر أو الزمن ، تتلاصق مساكن من الملاط المخلوط بالقش . وهي مساكن قدرة تعلوها ثياب رثة يتصاعد منها بخار ، ورائحة إنسانية وحيوانية ترتفع تحت الشمس المحرقة ، وعندئذ تفكر على الرغم منا في أشعار عمر الحيام .

... آه آه .. !

أين الدفوف الرنانة ونداءات الطبول^(٢) .

إن المدن القليلة التي بقيت من آثار الامبراطورية الإسلامية تعيش غارقة في حياة من الخمول لم تعد تجرب شيئاً وتجرى بلا مبالاة ومن غير إصغاء إلى ضجيج الماضي . وطيلة ٧٠٠ عام ، ظل السكان العام والافتصاد من غير تغيير ، وبقيت أساليب العامل تتكرر ثابتة بلا تغيير على مر العصور ، في دمشق كما في تونس ، كما في فاس ، وتستمر الحرف القديمة وفقاً للسوق عريق في القدم . ولم تعد الطبيعة نفسها تتذكر رخاؤها الذي لم يكن له مثيل . ولم تعد هذه السهول التي كان يرويها نهر دجلة والفرات ، والتي كانت مخازن العالم القديم ، وهذه المساحات الشاسعة من الأرض الخصبة التي عاش عليها ملايين من البشر في رخاء ، إلا صحراء مجذبة تثير الحزن والألم . ولم يعد ممكناً أن تنبض بالحياة مرة أخرى هذه الفناطر المدمرة ولا هذه القنوات التي جفت والتي أهملت لولا وجود السبب التي اجتاحت على الدوام . وفي الشرق الأدنى كله ، لم يعد الريف إلا مساحات من الأعشاب الكثيفة التي تبعث على الحزن ، ومن الحشائش مع بعض حداثق من الفاكهة يعلوها الغبار . وعلى مسافات متباعدة ، تجد قرى صغيرة تدعم

(١) كانت هذه المدن القديمة المدفونة تحتوي على آثار الحضارة في الفنون هي حضارة الشرق الأدنى ، تلك الحضارة التي اعترف بها الغربيون على أنها أعظم حضارة والتي أخذ عنها اليونانيون حضارتهم ثم نقلها الغربيون عنهم ، (المترجم)

(٢) لم نجد هذين البيتين فيما هو مترجم إلى العربية من رباعيات الحيام . (المترجم)

أسوارها الخارجية بعضها بعضاً لتشكيل متاريس ضد غزوات البدو الرحل . ويفوح من هذه القرى روائح الخراف وتضطرب الليالي فيها بسبب نباح الكلاب الضالة الخزين وهنا وهناك ، تمتص بعض الضباع في حذر خلف أسوار من الصبار .

كان ذلك هو منظر هذه الأمكنة الكثيرة في بداية هذا القرن (١) .

وتزرع على الدوام — كما كانت تزرع في العصور الموعلة في القدم — في مصر وفي سوريا وفي المغرب حقول بالمحراث أو بالفأس ، وتنتج الأرض بشق الأنفس ما يتبلغ به البشر . ويفتت نظام التوريث الملكيات إلى ما لا نهاية له ، فيملك الواحد شجرة زيتون هنا ، وشجرتين من النخيل هناك ، ولا يبقى أى إصلاح زراعى ممكناً (٢) . ويشكل عدم انتظام الجو والجفاف أمام الفلاح الذى يتخلى عنه جميع الناس والطبيعة ارتباكاً مستمراً وهكذا تبرز مشكلة حفظ الحياة قائمة ملحة وفي غاية القسوة .

ومع ذلك ، فإن شعوب العالم الإسلامى ما عدا الجزيرة العربية قد وهبت لها تربة غنية وخصبة . لكن الزراعة تتطلب حب الأرض ، ويوجد في هذه الربوع الإسلامية خصم لا يهدأ ، خصم يحافظ على استقلاله ألا وهو البدوى (٣) .

(١) لقد بدأ العالم الإسلامى في بداية هذا القرن . بفضل الحركات التحررية التى عمت شعوبه ضد الاستعمار — بدأ ينفذ عن كاهله ما يعانى من الفقر والمرض والركود فأخذ يعمل بجد وعزيمة وإيمان لاستعادة مجده القديم . ونجد في هذا العالم الإسلامى الآن نهضة مباركة قوية في جميع المرافق الحيوية تنبئ بأن هذه البلاد من المحيط إلى الخليج ستستعيد عما قريب ما كان لها من حضارة أشرقت على العالم كله . وحسبنا أن نقول إنها بالفعل حققت الشيء الكثير من أسباب الرقى وأنها رفعت عن كاهلها ما كان يطوقها الاستعمار به من قيود . (المترجم)

(٢) لا شك في أن في هذا التعميم كثيراً من المبالغة . (المترجم)

(٣) سيتناول المؤلف في كتاب آخر مقبل من هذه المجموعة : صحوة العالم الإسلامى وتاريخه في العالم الحديث . (الناشر)

فهرس

مقدمة : الصفحة

الباب الأول

الأسس

١	١ — في عصور ما قبل الإسلام
١	إطار الشرق الجغرافي
٥	مهد الديانات وأصلها ومبدؤها
٩	٢ — شعوب الشرق
٩	العرب البدو
١١	الكلدانيون ، والآشوريون
١٣	الفرس
١٥	المصريون
١٦	الفيلقيون
١٧	الإغريق والرومان
٢٠	٣ — المصادر المادية والأدبية
٢٥	٤ — محمد والقرآن
٣٢	٥ — الدين والفكر الإسلامي
٣٢	العقيدة
٣٣	العبادة
٣٥	الصيام
٣٥	الحرب المقدسة
٣٦	الدعائم الدينية
٣٨	٦ — انتشار الإسلام

الصفحة

٣٨	الخلافة
٣٩	فتوح عسكرية وسياسية
٤٤	فتوح لغوية
٥٠	٧. أخلاق وعادات
٥٠	السيكولوجية الإسلامية
٥١	الأسرة الإسلامية : الزواج ، الأطفال
٥٥	الجنائزات
٥٧	الرقيق
٥٨	تجارة الرقيق
٥٩	فصل الجنسين
٥٩	الحصيان
٦٠	الحريم
٦٠	البغاء
٦١	الصحة
٦١	الحجاب وذوق العصر : الموضة :
٦٢	الملاهي والألعاب الرياضية
٦٣	المنزل
٦٥	التغذية
٦٧	٨ — تطور الدولة والأمة

الباب الثاني

٧٢	٩ — ذروة الإسلام
٧٢	الحياة الاجتماعية
٧٣	الإدارة
٧٤	الشريعة
٧٦	الممول والضريبة
٧٧	أهل الذمة

الصفحة	الصفحة	الصفحة	الصفحة	الصفحة	الصفحة
٨٠	الجيش
٨١	١٠ — الحياة الثقافية والفنية
٨١	التعليم
٨٢	التبحر في العلوم
٨٣	الفكر المستقل
٨٤	النشر
٨٦	الشعر
					صدر الإسلام والأمويون
٨٩	...				(من القرن السادس إلى القرن الثامن)
٩٠	...				عهد العباسيين (من القرن الثامن إلى القرن العاشر)
٩٦	الكتاب والكتب
٩٧	التاريخ
٩٨			دور الكتب ومحال الوراقة
١٠٠	مكتبة الإسكندرية
١٠١	العمارة
١٠٤	النحت
١٠٤	التصوير
١٠٥	الزخرفة
١٠٦	الموسيقى
١٠٩			١١ — الزراعة — الصناعة — التجارة
١٠٩	الزراعة
١١٠	البدانة
١١١	الري
١١٢	السنة الزراعية
١١٣	زراعة الحضر في البرك
١١٤	الجنوب

الصفحة

١١٥	الزراعة وتربية دودة القز
١١٥	النباتات المتعلقة بالصناعة
١١٦	العطور والأزهار
١١٧	الصناعة
١١٧	المعادن
١١٩	الخشب
١٢٠	الورق
١٢١	الزجاج
١٢٢	صناعة الفخار
١٢٣	الصناعة الكيميائية
١٢٥	صناعة المنسوجات
١٢٦	الصناعة الميكانيكية
١٢٨	التجارة
١٢٩	القوافل
١٢٩	الموانئ
١٣٢	الملاحة البحرية
١٣٣	الملاحة النهرية
١٣٤	الخدمة البريدية
١٣٥	تجارة المال
١٣٧	١٢ - بغداد وبلاط الخلفاء
١٣٧	المدينة المستديرة
١٣٨	القصور
١٣٩	الثروات
١٣٩	هارون الرشيد
١٤١	المجتمع
١٤٥	الشعب

الصفحة

١٤٧	١٣ — الاسلام في الغرب
١٤٧	الأمير عبد الرحمن
١٤٩	خلافة قرطبه
١٥٢	الادارة
١٥٢	الاقتصاد
١٥٤	الدين
١٥٥	الامار
١٥٧	المالوم
١٥٩	إفريقية الاسلامية
١٦٠	الحضارة الافريقية
١٦٢	الاسلام في حوض البحر المتوسط

الباب الثالث

تأثير الحضارة العربية في الحضارة الغربية

١٦٤	١٤ — الآداب والفنون
١٦٤	الحياة الثقافية في أسبانيا الاسلامية
١٦٧	الفن الاسلامي
١٧١	١٥ — العلوم الرياضية
١٧١	الترجمات
١٧٢	الكيمياء
١٧٤	الرياضيات
١٧٥	الفلك
١٧٨	الجغرافيا
١٨٠	علم النبات
١٨٠	علم الطبيعة
١٨٥	١٦ — التطبيقات العلمية
١٨٥	الورق

الصفحة						
١٨٦	صناعة الزجاج
١٨٧	الملسوجات
١٨٧	الجلود
١٨٨	المعادن
١٨٨	الآلة الميكانيكية
١٨٩	الصحة العامة
١٨٩	مفردات اللغة
١٩٠	الزراعة
١٩٠	التجارة
١٩١	متنوعات
١٩٣	<u>الطب</u> (١٧)
١٩٣	طب النبي
١٩٤	التقدم في المدن
١٩٥	انتشار الطب في القرى
١٩٦	البيمارستانات
١٩٧	فروع أخرى
١٩٩	العشق المكشوف
٢٠٠	أربعة رموز كبيرة
٢٠١	ربن
٢٠٢	الرازي
٢٠٣	علي بن العباس
٢٠٣	ابن سينا
٢٠٦	الأطباء
٢٠٧	في أسيانبا
٢١٠	مدرسة سالرنو

الصلحة

٢١٠	في فرنسا	
٢١٢	الفلسفة :	(١٨)
٢١٣	المعتزلة	
٢١٣	الكندي	
٢١٥	الأشعري	
٢١٦	الفارابي	
٢١٦	إخوان الصفا	
٢١٧	ابن سينا	
٢١٩	التصوف	
٢٢١	الغزالي	
٢٢٣	ابن رشد	
٢٢٦	نقطة طليطلة	

الباب الرابع

الأفول

٢٢٨	في الأندلس :	(١٩)
٢٢٨	بلاط أشبيلية	
٢٣٣	الموحدون	
٢٣٥	نهاية المعتمد	
٢٣٧	تفكك الامبراطورية :	(٢٠)
٢٣٧	الأسباب	
٢٣٩	الانحلال	
٢٤٠	الأثر الك السلجوقيون	
٢٤٣	الحملات الصليبية :	(٢١)
٢٤٣	أسبابها	
٢٤٦	فتوح الصليبيين	

الصفحة				
٢٤٨	رد الفعل الاسلامى
٢٥٠	نهاية الحملات الصليبية
٢٥١	صلاح الدين
٢٥٥	انعكاسات باهرة
٢٥٨				المصر الوسيط الكلاسيكى (من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر)
٢٦٠	عمر الحيام
٢٦٣	الاضمحلال الأدبى
٢٦٤	فى عصر سمى الشيرازى
٢٦٥	حافظ الشيرازى
٢٦٦	الأسرات الأخيرة
٢٦٦	غارة المغول
٢٦٩	الممالك
٢٧٠	مملكة غرناطة
٢٧٥	غفوة العالم الاسلامى
٢٧٥	التوسع الأوروبى
٢٧٦	تقدم الأتراك وتقهقرهم

دار الطباعة الحديثة
مكتبة الأديب - أول شارع البشير
٩٠٨٢١٨٥ - ص ٤٩٦٦٦

التمن ٤٥ قرش

